



سعود السنعوسي

فئران أمي حصّة

رواية

الطبعة الخامسة



ما بال سدودك اليوم واهية تقرضها
الفئران. تكشفُ عن قوم يقتاتون على
كل شيء فيك، حتى إذا فرغوا منك
صار واحد هم يقتات على الآخر.
حالك اليوم تُشبه ما قالت له لي أمي
حصّة صغيراً؛ يخرج من بطنك دودٌ
يأكلك. هي قيامتك اليوم أزف أوانها،
وها أنا اليوم أكتبك خوفاً منك عليك،
لا أجيدُ شيئاً بكتابتي إلا فراراً منك
إليك، لأن لا مكان لي سواك. ولأنتي
رغم كلّ الخيبات فيك، لا أنوي إلا أن
أموت.. فيك.

كتكوت



فئران أمي حصّة

فئران أمي حصّة

رواية

سعود السنعوسي



منشورات ديفاف
DIFAF PUBLISHING

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: شباط (فبراير) 1436 هـ - 2015 م
الطبعة الثانية: آذار (مارس) 1436 هـ - 2015 م
الطبعة الثالثة: 1 نيسان (أبريل) 1436 هـ - 2015 م
الطبعة الرابعة: 7 نيسان (أبريل) 1436 هـ - 2015 م
الطبعة الخامسة: 14 نيسان (أبريل) 1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-01-1544-6

جميع الحقوق محفوظة

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

هاتف الرياض: +966509337722
هاتف بيروت: +9613223227
البريد الإلكتروني: editions.difaf@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

لوحة الغلاف للفنانة مشاعل الفيصل

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

كلمة

أنا التاريخ كله، وأحذركم من الآن؛ الفئران آتية، احموا
الناس من الطاعون!

فؤادة

زُور..

إِبن الزُّرْزور..

إِلّٰي عُمَرَه مَا كَذَب وَلَا حَلَفَ زُور:

(1-)

إذا ما ألحقت والدتي كلماتها بـ: "والله"، صار الأمرُ إلهيًّا!

كنت في السابعة من عمري عندما اشترى لي والدي درّاجتي الهوائية الأولى، هدية تفوّقي في المدرسة. منعتني والدتي من قيادتها في حوش بيتنا ظهرا، خوفا عليّ من درجة حرارة تتعدّى، أحيانا، الخمسين مئوية. هذا ما كانت تقوله. ربما هو سبب حقيقي، ولكنه ليس السبب الوحيد.

كانت والدتي قد تغيّرت. لم تعد كما يصفها والدي مناكفاً "ناظرة في المدرسة وفي البيت". صارت قلقة، تنتفضُ كلما ارتطم بابُ الحوش الحديديّ بفعل الرّيح، وتردّد دويّه في الشارع. تصرخُ إذا ما أطلق صبيبة الحيّ ألعابهم النارية، احتفالاً بفوز فريق كرة قدم، أو لسببٍ آخر، أو لغير سبب. تتسمّر أمام التلفزيون لساعاتٍ، تترقّب نشرة الأخبار. تتصل بوالدي عشرات المرّات في اليوم الواحد. تقضم أظفارها، تغمغم، تمسح دموعها خلسة. هذا هو ما صارت عليه والدتي، منذ تفجيرات المقاهي الشعبية عام 1985، قبل شهرٍ واحدٍ من حصولي على تلك الدراجة.

كان من بين ضحايا التفجيرات جارنا المسنّ. خرج من بيته ولم يعد، تقول والدتي التي بكته كثيرا طيلة أسبوع: مات المسكين.. ترملت حصّة، مرضت ابنتها.

كنتُ أتحَيِّنُ لحظة استيقاظ والديَّ من قيلولتهما، لأحصل منهما على مفتاح البيت، حتى يتسنى لي الخروج واللعب بدرّاجتي. طرقتُ، ذات ظهيرة، باب غرفتهما الموصد. "ها؟!"، ردّت والدتي بعد طرقات متكررة. سألتها: "متى أسوق القاري؟". جاعني صوتها مثقلاً بالنعاس: "إذا غابت الشمس". قرّبتُ شفّتيّ إلى ثقب الباب. وعدّها بألا أتجاوز سور الحوش بالدراجة. لم ترد. عدتُ إلى غرفتي، أطلُّ من النافذة على سبب إقامتي الجبرية داخل البيت، تلك المشرقة أبداً وقت لَهْفَتِي للخروج. نظرتُ إليها بعينين نصف مغمضتين. لا تتحرك! كنت أعرف بأن الشمس محض حجة، وأن والدتي تخشى أن أخرج من البيت أثناء نومها، وأتعرض لحادث مثل جارنا، ولا أعود، رغم أن المقهى الشعبي بعيدٌ ناحية البحر، ولا يمكنني الوصول إليه حتى مع الدراجة. كان خروجي إلى الحوش مرهوناً بأوقات صحوها، حتى تتسنى لها مراقبتي من نافذة غرفتها، ما دمتُ أدورُ حول البيت بدرّاجتي.

أدرتُ للنافذة ظهري. اقتعدتُ الأرض، أعبتُ بأغلفة أشرطة الفيديو. لا شيء يستثير اهتمامي بين أفلام كارتون ومسرحيات أطفال أحفظها كاسمي. أهملتُ ميكي ماوس على شاشة التلفزيون الصغيرة. بنيتُ بيوتا ودهاليز من أغلفة الأشرطة. أمسكتُ بدُمّية هولك هوغان المصارع، أدستّها في قلب مدينة الأغلفة قبل أن أهدها فوق رأسه خراباً. دأبي كلما سئمتُ أو غضبتُ، أن أبني مُدناً لأجل تدميرها على رؤوس دمي المصارعين والحيوانات البلاستيكية. دقائق مرّت كالساعات. عاودتُ النظر عبر النافذة. كل شيء يتحرّك في السماء، التي تُقسِمُ والدتي بمن رفعها؛ تنف غيوم وزراير وحمام، وطائرة ورقية

زرقاء علقَ خيطها في أغصان سِدرة الجيران. وحدها الشمس ثابتة في مكانها. لمحتُ، في حوش الجيران، فهذا يحمل كرة بحجم كرة تنس، ينحني يجمعُ حجارة. لعلّه يتجهّز للعبة "عنبر" مع صبية الشارع. في مكان آخر من الحوش يكسر صادق بيضة على غطاء البالوعة الحديدي، يراقب نضوجها ببطء على سطح الحديد الملتهب بحرارة الشمس.

تركتُ غرفتي سالكا الممر نحو غرفة والديّ. عاودتُ طرق الباب مجدداً: "يُمّه! متى أسوق القاري؟". تنأهى إلى صوتها: "أفففف!". ألصقتُ أذني على الباب. تسلل صوتها، عبر الخشب، متموجاً مع هدير "الكنديشة"، مكيف الهواء الـ جنرال، كأنها محشورة داخل قوقعة. هدّدت: "يا ويلك إذا سألت عن القاري وأنا نائمة". ليتها اكتفت عند تهديدها الأول دونما استطراد: "والله، إلهي رفع السماء، إذا سألتني عن القاري وأنا نائمة ما تسوقه طول عمرك! إصبر لما تغيب الشمس!". مرّت دقائق أخرى أقف فيها أمام الباب. احتفظتُ بسؤالِي داخل فمي خائفاً. أدريها إذا ما أقسمت بالله، صار الأمرُ يخصّه، ولا رجعة لوالدي فيه.

نفاد صبري، إزاء تلك الثابتة في السماء، دفعني لطرق الباب مرة ثالثة. انطلق صوتها عالياً: "وبعدين!". ازدردتُ ريقِي. عاودتُ المحاولة: "يُمّه!". تلكأتُ قبل أن أسأل: "متى تغيب الشمس؟!". ارتفعت ضحكات والدي من وراء الباب. سمعتُ صرير سريرهما. "ما في نوم!", سمعتها تغغم. فتحتُ الباب بعنف، نظرتُ إلى بعينين متورمتين، وابتسامة زمّت عليها شفيتها غصبا؛ أنتَ تجيد طرح الأسئلة، قالت، ثم مدّت كفّها إلى المفتاح: "خذ".

* * *

لا تقدح شرراً
لا تكشف سرّاً
فتثير زواجع ليس لها حدُّ
والراحة تحت يديك
ولديك المجدُّ
والحكمة في ظل الصمتِ
والأمل المنشود.. لدى الموتِ!

أحمد مشاري العدوانى

الفأر الأول

شَرَرُ

يحدث الآن 12:00 PM

أستعيد وعيي. أشعة الشمس، المتعامدة فوقى، تستحيل فضاء أحمر داخل جفنيّ المطبقين. خيوط سائلة تنزُّ من مفارق شعري الأشعث، تصنع بقعة أسفل مؤخرة رأسي. أفتح عينيّ ببطء قبل أن أطبقهما بشدّة بفعل أشعة الشمس. وخزُّ الحصى تحت ظهري.. جفاف ريقى وشفتيّ ومذاق التراب في فمي. شيءٌ يعيدني إلى مشهد أخير يراوح بين حلم ويقظة. ألمٌ ينبض فوق حاجبي الأيسر. أتحسّ السائل أسفل رأسي بأطراف أصابعي: "دم؟!". أقرّبُ كفيّ إلى وجهي. ظلّها المرسوم على وجهي يُبدّد الفضاء الأحمر. أفتح عينيّ بحرص أعين لون السائل على أناملتي، آملا ألا يكون أحمر هو الآخر. أطلقُ زفرة ارتياح؛ "عرق". أطبقُ جفنيّ.

خدر كتفيّ وتنميل ظهري يشيان بطول مدّة بقائي على حالي هذه. أمدُّ كفيّ أتحسّ جيب دِشداشتي الأيمن. هاتفى المحمول وعلبة سجائر فارغة. أتحسّ الجيب الأيسر. شعور بالطمأنينة ينتابني لوجود مفتاح السيارة. "الصندوق ما له مفتاح"، الأغنية إياها، بأصواتنا.. أطفالا. ما الذي يستدعيها من أين؟ أهضُ بصعوبة. أعتدل جالسا. لريقي مذاق غير مألوف. أكاد أبتلع شيئا ظننته حجرا. أبصقُ دما بُنيّا مثل بانٍ خلفه الهنود بصاقا على الأرض يوم كانوا في بلادنا. أسعل. ألفظُ سنيّ العالقة في حنجرتي. أصوات

الأطفال في رأسي تخبو وترتفع: "المفتاح عند الحدّاد". ساقاي ممدودتان على حالهما كأنهما لغيري. الدّشداشة مرتفعة إلى ما فوق ركبتيّ. أنظرُ إلى قدميّ، إحداهما بنعل، والأخرى بلا. صورة نعلي المفقودة، مقلوبة في مشهدها الأخير، لا تبارح مخيلتي. أسْتَلُّ نَفْسًا عميقا. أُعَبِّئُ رِئِّي هَوَاءً نَتَنَ الرائحة. أُطْلِقُ آهَةً طَوِيلَةً. أَهْزُ رَأْسِي. أَلْتَفْتُ حَوْلِي فِي السَّاحَةِ التَّرَابِيَةِ أَتَأَكَّدُ مِنْ سَلَامَةِ ذَاكَرَتِي. أَجِدُنِي مُقَابِلَ حَدِيقَةِ جَمَالِ عَبْدِالنَّاصِرِ. أَطْلَالُ مَطْعَمِ مَكدونالدز أَمَامِي. حَسَنًا.. أَنَا فِي مَنْطَقَتِي، فِي الرُّوضَةِ. أَهْزُ رَأْسِي مَطْمَئِنًا. تَعَاوَدُ الْأَصْوَاتُ الْغَنَاءُ: "وَالْحَدَّادُ يَبِي فُلُوس".

سيارتي هناك، كومة خردة على عجالات، بالكاد أتعرف هيئتها الجديدة، في مكان ليس ببعيد عن سيارة فهد، في حين لا أجد سيارة صادق. الناس هنا كل يمضي في وجهته دونما اكتراث لي، رغم ساعات أمضيتها خارج وعيي ممدّدا على الأرض. تتشكل في مخيلتي صور لعادة كانت.. ما عادت. اجتماع الناس حول ضحايا الشجارات أو الحوادث بدافع الفضول أو المساعدة أو التصوير بواسطة كاميرات هواتفهم المحمولة، أما والحالة هذه.. فلا رغبة لأحد بتوريط نفسه بأي شيء. والدتي كانت دائما تقول: "من خاف سلم!". أما أمي حِصَّة فتكره الخوَّافين. سَلِمَتِ الأولى. ماتت الأخيرة.

أنظرُ إلى حالي؛ الخوف، الناس برؤوسٍ لا تلتفت. ومع ذلك فإن أحدا في هذه البلاد، رغم الخوف، لم يسلم. أُلْصِقُ بَاطِنَ كَفْيِي عَلَى الْأَرْضِ الْمَتْرَبَةِ أَدْفَعُ جَسَدِي لِلنَّهْوِضِ. أَضْرِبُ كَفْيِي بِيَعْضِهِمَا مَا إِنْ أَنْتَصَبْتُ وَاقِفًا قَبْلَ أَنْ أَضْرِبَ مُؤَخَّرَتِي بِحَرَكَةٍ تَلْقَائِيَةِ أَزِيلُ الْغُبَارَ

الرمادي عن ثيابي. أضغطُ ركبتي أُسْكُنُ الماء. أعرجُ نحو سيارتي. أَلَمْ سَاقِي لَا يُحْتَمَل. جَوْقةُ الأَطْفَالِ فِي رَأْسِي تَغْنِي: "وَالْفُلُوسُ عِنْدَ الْعُرُوسِ". عُرُوسُ الْخَلِيجِ. أَتَلَفْتُ حَوْلِي. لَا شَيْءَ يُشْبِهُهَا. أَهْرَبُ مِنْ تَسْمِيَةِ قَدِيمَةٍ. أَهْرَبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. أَعَاوِدُ النَّظَرَ بِاتِّجَاهِ سَيَارَتِي: "وَالْعُرُوسُ تَبِي عِيَالٍ". عِيَالُ فَوَادَةٍ رُبَّمَا! أَقُولُ لِنَفْسِي. أَتَوَقَّفُ. أَحْرَرُ قَدَمِي مِنْ نَعْلِهَا. أَوَاصِلُ مَشِيَّتِي الْعَرَجَاءِ. أَفْتَحُ بَابَ السَّيَّارَةِ. شَطَايَا زَجَاجِ النُّوَافِدِ تَكْسُو الْمَقْعَدَ تَتَلَأَلُ أَنْعَكَاسًا لِأَشْعَةِ الشَّمْسِ. أَجْرُ خَطَوَاتِي إِلَى صَنْدُوقِ السَّيَّارَةِ الْخَلْفِيِّ أَفْتَحُهُ. أَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ. أَيُّ شَيْءٍ. الصَنْدُوقُ فَارِغٌ إِلَّا مِنْ عَجَلَةٍ احْتِيَاطِيَّةٍ. أَنْزَعُ عَنْهَا غَطَاءَهَا الْجُلْدِي السَّمِيكَ قَبْلَ أَنْ أَعُودَ حَيْثُ كُنْتُ. أَزِيلُ قَطْعَ الزَّجَاجِ الْكَبِيرَةِ مِنْ فَوْقِ الْمَقْعَدِ بِحَذَرٍ. أَفْرَشُ الْغَطَاءَ الْجُلْدِيَّ عَلَى مَا تَبَقِيَ مِنْ شَطَايَا قَبْلَ جُلُوسِي. الزَّجَاجُ الْأَمَامِي لِلْسَّيَّارَةِ مَتَمَاسِكٌ رَغْمَ قَشْمِهِ. خَطُوطٌ شَبَكِيَّةٌ لَا تَسْمَحُ بِرُؤْيَا مَا وَرَاءَهَا. أَتَرَجُلُ. أَبْحَثُ عَنْ حَجَرٍ أَزِيلُ بِوِاسِطَتِهِ الزَّجَاجَ. فِي هَذَا الْوَطَنِ، فِي هَذَا الْوَقْتِ، الْحَجَارَةُ هِيَ أَسْهَلُ مَا يُمْكِنُ الْعَثُورُ عَلَيْهِ. لَا يُخَلَّفُ الْهَدْمُ إِلَّا حَجَارَةٌ لَا تَصْلُحُ لِلْبِنَاءِ! حَجَارَةٌ كَبِيرَةٌ، أَوْ صَغِيرَةٌ كَتَلِكَ الَّتِي جَمَعْنَاهَا صَغَارًا لِلْعَبَةِ الشَّعْبِيَّةِ؛ عَنَبَرٌ، أَوْ الَّتِي نَنْتَقِيهَا بِعَنَاقَةٍ، تَلِيقُ بِرَأْسِ يَهُودِيٍّ عِنْدَ تَقْمُصْنَا دُورَ أَطْفَالِ الْحَجَارَةِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ، عِنْدَمَا كَانَ الْيَهُودِيُّ، بِتَلْقِينِ مَنْ أُمِّي حِصَّةً، يَعْنِي إِسْرَائِيلِيًّا. عِنْدَمَا كَانَتْ إِسْرَائِيلُ، بِتَلْقِينِ جَمْعِي، عَامِلٌ كَرِهٌ مُشْتَرَكًا.

"وَالْعِيَالُ يَبْنُونَ حَلِيبًا.. وَالْحَلِيبُ عِنْدَ الْبَقَرِ". تَتَشَكَّلُ فِي مَخِيلَتِي صُورَةُ بَقْرَةٍ فِي طَرَحَةِ زَفَافٍ، جَافٌ ضَرَعُهَا. يَبْدُو أَنَّ لِلْكَدْمَةِ فِي

رأسي دوراً في هذه الصور والأصوات. أنحني. أمسكُ بحجر مناسب بين التراب الرمادي. أرفعه بيديّ. أهوي به على الزجاج.. مرة تلو أخرى.. هذا جيد، أقول بعدما أفرغ من عملي. أعود إلى مقعدي ثانية. أجدُ شظايا الزجاج الأمامي متناثرة فوق الغطاء الجلدي. أفلتُ ضحكة في فورة غضبي، هذا سيئ! أسحبُ الغطاء برفق. أنفضّه خارج السيارة. أعيده إلى مكانه قبل جلوسي خلف المقود. أنظر إلى واجهة السيارة الخالية من الزجاج أمامي. لا مفرّ من الرائحة! أتحمّس هاتفي المحمول في جيبي. عشرات اتصالات ورسائل هاتفية من أصدقاء. من والديّ في لندن. أخرى من مجهولين يسألون عن خللٍ في إذاعتنا وتكرار أغنية وطنية واحدة عوضاً عن بثِّ برامجنا اليومية المعتادة. رسالة بريد إلكتروني من الناشر في بيروت: "فرغنا من تصميم غلاف روايتك "إرث النار". أنصح بحذف أربعة فصول. هذا من أجل سلامتك، ومن أجل مصلحة الدار. أنتظر موافقتك لأرسل الرواية إلى المطبعة". بعضنا، خشية منع الرقيب، يصيرُ رقيباً عن طيب خاطر. أهملُ الرسالة والاتصالات. أهملني. أهملُ كل شيء. أمسكُ هاتفي المحمول أتصل بصادق: "الجهاز مغلق"، أتصل بفهد. يجيبني الرّد الآلي: "أنا حالياً غير موجود.. الرجاء ترك رسالة". يلحقُ جملته المسجلة بأغنية لعبدالكريم عبدالقادر: "بيني وبينك غربة كُنْها الليل، ما عاد يذكرنا مكان التلاقي.. إرحل مع النسيان وبرّحل مع سهيل، ما عاد في قلبي لك اليوم باقي". في كل مرة يترك أغنية لعبدالكريم عبدالقادر أعرف مزاجه، مع زوجته، من خلالها. هذه المرة تحيلني الأغنية إلى زمن جدّته، في شارعنا القديم، وحكاياتها

الشعبية حول نجم سهيل وأساطيره. زمنٌ شَخَصَ فيه بصري نحو السماء البعيدة الصامته حاضنة الأسرار، مكنم الإجابات عن أسئلتِي المستعصية. أنتبه إلى صوت الصفارة يقطع الأغنية. أترك رسالتي بصوت لولا خروجه من حنجرتي لما تعرَّفتُ إليه: "ألو فهد.. أرجوك اتصل". أجري اتصالاً ثالثاً: "ألو أيوب! أي أخبار عن صادق وفهد؟". يجيب سؤالي سؤالاً عما جرى. أجيبه: "ولا شي.. أكلمك بعدين". أُمَنِّي نفسي بإجابة في اتصال رابع: "ألو ضاوي!". يسبقني يسأل: "إنت وبنك؟ عمِّي اتصلت من لندن تسأل عنك! وين فهد وصادق مختفين من الصبح؟!". أجيبه بفم يابس ولسان مُر: "ما أدري وينهم". يطلق زفرة طويلة. يُطمئن بلازمته: "يجيب الله مطر". تنشط الأغنية: "والبقر ييُون حشيش.. والحشيش ييِي مطر". أرفع رأسي إلى السماء الخالية إلا من الشمس، وتَبَاع الجَيْف، نذير الشؤم الأسود يحوم مثل موتٍ مؤجل. يفرّد جناحيه الكبيرين، يُحلّقُ عاليًا، يتحرّى أسباب نزوله، قبل أن يُحطَّ على الأرض بجسد العقاب ورأس البومة ولون الغراب، يستمد حياته من موت الآخرين. ألتفتُ حولي. الناس كجياذ العربات كأبقار السواقي. شيء يحجب رؤيتهم عما حولهم. لا ينظرون إلى شيء سوى.. الأمام. أديرُ محرك السيارة. ينطلق صوت الإذاعة فجأة: "الله أكبر.. الله أكبر.. أنتم تستمعون إلى إذاعة أسود الحق..". صوت غليظ يضغط على مخارج الحروف أثناء الحديث. ينقبض صدري. أنظر إلى الشاشة الإلكترونية الصغيرة في مذياع السيارة. رقم المحطة الإذاعية يذكرني بما كانت تُبثّه من أغاني وبرامج متنوعة قبل استحالة الحال إلى غيرها. أديرُ مؤشر المذياع أنتقل

بين المحطات. وشوشة البحث تفضي إلى أصوات جماهير غفيرة تردّد:
"هيهات منا الذلة.. هيهات منا الذلة.. هيهات منا الذلة..". أضربُ
بقبضتي مكبس المذياع أُخرسه. "آآخ!". أرخي أصابعي، أحرّكها
في الهواء كأني أنفض الألم عن يدي. أضغط موضع الألم بكفّي
الأخرى أسكنه. أستلّ نفساً عميقاً. أعاود تشغيل المذياع مرة أخرى،
أبحث عن محطة رديئة الصوت تبثها مجموعتنا من مقرّ أولاد فؤادة في
الجابرية. كفّي ترتجف ككفّ مدمن يبحث عما يسد حاجته لشيء
يتعاطاه. تشوشات المذياع تزيدني عصبية. ها هو المؤشر يتوقف عند
رقم المحطة. رغم التشويش تلتقط أذناي موسيقى مألوفة. أحبسُ
أنفاسي قبل أن أطبق جفنيّ. يصبح الصوت أكثر وضوحاً. تنطلق
أغنية قديمة: "هذي بلادٌ تطلب المعالي..". أهرّ رأسي حسرةً. أطلقُ
زفرة طويلة أحاكي الصوت في المذياع: "تُسبقُ الأيامَ والليالي".

أسندُ جيني إلى مقود السيارة..

.. أنخرطُ أبكي بمرارة.

وصوت الأطفال يتردّد داخل رأسي خائماً:

"والمطر عند الله!"

يحدث الآن 12:17 PM

أقود سيارتي بوجه ثابت إلى الأمام شأن الناس من حولي، إن لم يكن خوفاً، فلأن شيئاً في الجوار لا يحفز على الالتفات. تربة رمادية أحالت البلاد إلى منفضة سحائر عملاقة. دخان حرائق. حجارة بحجوم متفاوتة. كلاب سائبة. ريش أسود. طوابير طويلة أمام فرع مفوضية الاتحاد الأوروبي في الروضة تطلب اللجوء. المتاريس المعدّة من أكياس الرمل على جانبيّ شارع دمشق، والأوساخ المتكدسة منذ فرّ عمال التنظيف خارج البلاد. كأن يدا ضخمة هوت على البلاد أحالتها خراباً مثل مدينة الأغلفة التي عبثت بها صغيراً. أصدّ كل تلك المشاهد بعدم الالتفات إليها. ولكن الرائحة! تردّني رسالة نصّية من والدي: "شغلت بالنّا أنا وابوك.. أرجوك اتصل". أترك هاتفي المحمول فوق المقعد إلى جانبي. أسلك طريق الدائري الرابع. الروضة عن يساري. أشجار الكونوكاربوس يابسة، خالية الأوراق فوق الرصيف بين الشارعين. أنعطف يمينا نحو مدخل منطقة السّرة. ينقبض قلبي. أسترجع قول والدي: "والله، إللي رفع السما، ما تدخل السّرة وأنا موجودة!". هي لم تعد موجودة.

مضت سنواتٌ طويلةٌ يا سّرة! صرتِ مدينة أشباح. مطعم ماكدونالدز المهجور يشبه شقيقه في الروضة، بزجاج نوافذه المهشّم، عن يميني إلى الأمام. وإلى يساري بيت حياة الفهد وسعاد عبدالله،

عندما كانتا محظوظة ومبروكة، في مسلسلهما التلفزيوني "على الدنيا السلام". من أين لهذه المنطقة قدرتها على الاحتفاظ بذاكرتها رغم أن كل شيء فيها لا يشبهه في الأمس؟! يستوقفني النصب الرخامي القلم، جهة اليمين، بالقرب من مطعم البيئزا المحلي، الذي آل فرعاً من سلسلة فروع بيتزا هت، مهجور هو الآخر. زالت الحروف السوداء عن رخام النصب. أزالها الشمس. ربما اعتراضاً. ربما شفقة. ربما خوفاً من أن تبقى الحروف في مكان قدر. تبرقُّ الذكرى في ظلمة النسيان. أستعيد الكلمات على سطح الرخام الصقيل بخط رقعة، أو ربما نسخ، لست أدري: "اللهم ارحم الشهيدين: جاسم محمد المطوّع وعبد اللطيف عبدالله المنير". لو أنهما، قبل ثلاثين عاماً، علما بما سوف تؤول إليه الأمور، أتراهما يموتان من أجلنا؟ أطرده تفاصيل زمنٍ ما جاء في ذاكرتي إلا وأخذني إليه، يعزلي عن كل شيء عداه، يفتح لي نافذة على أمسي، يُريني طفلاً كنته، مسكيناً أشفق على حاله أمس، وحاله اليوم. أُنْبِه إلى صبي صغير، بـ دِشْدَاشَةٍ رَثَّةٍ وغترة يلفها بإهمال على رأسه، يقتعد كرسيًا قرب النصب الرخامي. يبسطُ على الأرض قماشاً يحمل بضاعة، مثل الباعة اليمينين قبل سنوات طوال. أفتح زجاج نافذتي اليمنى. ألوحُ له بعلبة سجائري الفارغة. يهرعُ إليّ يحمل أنواعاً. أختارُ واحدة. "ثمان دولارات"، يقول. أسلمه أربعمئة ديناراً. يسألني ممتعضاً: "ما عندك دولار؟!". أهزُّ رأسي نافياً أنظر إلى دنائري المسكينة. "الدينار طايح حظ!", يقول وهو يتسلم النقود يعدّها صامتاً. أمضي في قيادي أجتاوز الشارع الدوّار عند مفترق الطرق. ناحية اليسار مدرستي

الثانوية القديمة، ثانوية صباح السالم. كنت فخورا بانتسابي لها. أول ثانوية مقررات في الكويت. كنا كمن يجمع نقاط التميز لصالح منطقتنا. في السُّرَّة.. أول مدرسة ثانوية بنظام المقررات تشبه الجامعة. في السُّرَّة أول سوق مركزي في دور علوي تصعد إليه السيارات في مواقف مفتوحة. في السُّرَّة أول شارع مخصص لرياضة المشي، وأول منطقة ينتهي أحد شوارعها بجسر يربطها بمنطقة أخرى. أنظر إلى مدرستي الثانوية الآن تهزأ بذكريات لا تعترف بها. لا أعرفك يا أنت. أنا ثانوية جابر المبارك. لا أسأها كيف صرت، لماذا ومتى؟!

أتجاوز الثانوية ولا تتجاوزني ذكريات استفاقت للتو من غيبوبتها. عند أحد المنعطفات، في قطعة 3، حيث كنت أسكن، مدرسة متوسطة كان اسمها "النجاح"، ومثل كل شيء في هذه المنطقة، تغير اسم مدرستي إلى مدرسة حمود برغش السعدون، كما تقول اللافتة أعلى سورها. التحقتُ بصفوفها الدراسية عام 1987، قبل حوالي ثلاث وثلاثين سنة. أوقفُ السيارة أمام المدرسة لسبب أجهله. المكان مسرح لحدث سابق. واجهة السيارة أمامي، الخالية من زجاجها، شاشة تعرض صوراً لزمان بعيد. هناك، بالقرب من مبنى محوّل الكهرباء سقطت لي سنٌّ وبضعة أزرار من قميصي المدرسي الأبيض في مشاجرتي الأولى. أمُرُّ سبّابتي على أسنان فكي العلوي أحصيتها. فراغ جديد اكتسبته بعد حادثة اليوم. أمعن النظر في مبنى محوّل الكهرباء. حرفا F — والـ H، والكلمات البذيئة، والرسومات الفاضحة التي ألفتها تلميذا استحالت اليوم حروفا وبقايا كلمات، اختفى بعضها تحت أصباغ رش محايدة. أُمِيزُ من بينها حرباً

كلماتية؛ أم المؤمنين رغم أنوف الحاقدين؛ اللعنة على النواصب، الموت للروافض، وهائية، مجوس، وكلمات أخرى لم أتبينها. وباللون المحايد، في أماكن متفرقة على جدار مبنى محوّل الكهرباء، صورٌ لفئران مشطوبةٌ بعلامة X، وتحذيرات بدأت تنتشر مع انطلاق مجموعتنا: "احموا الناس من الطاعون" .. "الفئران آتية!" .. مهوره بتوقيع "أولاد فؤادة".

من أين للأماكن القديمة أن تحيي ذكرياتها المخبوءة في ثناياها بمجرد المرور بها؟ زمني الآن خليط! في ذلك اليوم، أثناء طابور الصباح، كنا في ساحة المدرسة، نرتجف من البرد في معاطفنا الكحلية. تتكثف أنفاسنا نَهْتَفُ للعلم: "تحيا الكويت.. عاش الأمير..". مثل كل يوم. حدث شيءٌ مختلفٌ ذلك الصباح. سخر صبيٌ ضخّم من صادق أثناء هتافنا: "تحيا الأمة العربية". يسأله وهل أنت عربي؟! لم أفهم ما الذي كان يعنيه رغم إصراره: أنتم عَجَم! كنا نردّد الهتاف سوية، أنا وفهد وصادق، مع زملاء الفصل، عَوْض اليمني وعبدالفضيل السوداني وحاتم المصري والفلسطينيين سامر وحازم وبقية التلاميذ. لا أتذكر من صادق سوى صمته واحمرار أذنيه. بعد رنين جرس انتهاء الحصّة الأخيرة، بالقرب من المكان الذي أراه الآن، أسفل سور المدرسة، كانت مشاجرتي الأولى. كان ذلك شتاء 1988، وكان يوم ثلاثاء كما لن أنسى. سمعتُ أحدهم يصرخ بآخر: "حديقة الحيوان في العُمريّة.. يا حيوان!". كنت قد تجاوزت البوابة، أسفل اللافتة "النجاح المتوسطة للبنين". التفتُ إلى مصدر الصوت. الولد الضخم يصرخ بصادق، وصادق، كدأبه، لا يستكلم

إذا ما انفعِل. احرار أذنيه يشي بما يعتمَل في داخله. صبيّان يمَسكان
بفهدٍ يعيقانه عن مساعدة صادق بعدما ألقاه الولد الضنخم على
الأرض. لم أتمالك نفسي إزاء رؤية صادق تركله الأقدام. تردّدتُ في
البدء، ولكن، منظر الدماء على قميصه دفعني لفعل شيء، أي شيء.
أزحتُ تردّدي جانبًا. ركضتُ نحوهم. رفعت قبضتي عاليًا. أجفّلت.
أخفضتها. ألقيتُ بجسدي أرضًا فوق صديقي. أحطته بذراعيّ. حلتُ
دونه ودون الركلات. تلقيتُ، بدلا منه، الركلة تلو الأخرى.
سقطتُ سنيّ. فقدتُ وعيي.

صبيحة يوم الأربعاء. في غرفة الأخصائي الاجتماعي المصري،
في زمن كان لغير الكويتي وجود في هذا البلد الذي ما عاد فيه وافد
عدا قوات حفظ السلام العالمية، تنتشر بقبعاتها الزرقاء، حول
المنشآت النفطية وبعض المناطق المضطربة، وقوات درع الجزيرة،
التابعة لما تبقى من دولٍ لم تنشق عن مجلس التعاون الخليجي، تفض
اشتباكات الفريقين المتخاصمين، وجماعات متطرفة وفدت إلينا من
الخارج بعدما أشرعنا لها أبواب الداخل. أجاب الصبيّ الضنخم مبرّرا
بأن صادقا قام بشتيمه أولا، قال له: مكانك ليس في المدرسة، مكانك
في العُميريّة في حديقة الحيوان! عاجله الأخصائي بالسؤال، لهذا
كسرت ذراعه وأسقطت سنّ صديقه؟! لازم الصبي صمته. ارتفع
صوت الأخصائي مستنكرا: "علشان حديقة الحيوان؟!". أجاب
الصبي مطأطئا: "لا". نظر إليه الأخصائي يستفهمه. أوضح
الصبي: "أستاذ دسوقي.. الحديقة في منطقة العُميريّة". نوّه إلى أن
اسمها ليس كما يلفظونها هم استهزاءً؛ العُميرية. سأله الأخصائي من

يقصد بِـ هُم؟ لم يُجب الصبي. ارتفع صوت الأخصائي في وجهه يسأله إن كان من سكان العُمريّة أو العُميرية أو آيا كان اسمها. هزّ الصبي رأسه نافيا. مَطَّ الأستاذ دسوقي شفّتيه الغليظتين مستغربا. سأله بنفاد صير: إذن! بمن كان زميلك يستهزئ؟

خلف مقود سيارتي، اليوم، أمام سور مدرستي قديمة البناء جديدة الاسم، لا أزال أتذكّر، أرّدد، من دون وعي، كالصدي، إجابة الصبي الضخم: "عُمَر.. عُمَر". لم أكن، في تلك السّن، أدرك أن المعني هو ثاني خلفاء النبي. أهزّ رأسي، الآن، أطرّد ذكريات أمقت استرجاعها. أديرُ مقود السيارة تاركا جزءا من ذكرياتي، في مكانها، بالقرب من سور المدرسة الذي نسيْتُ داخله كل دروسي القديمة، حيث بقي الدرس الوحيد عصيّا على النسيان. درس تلقيته في الباحة الخارجية لمدرستي فاق تأثيره كل المناهج التي تعلمتها في فصول الدراسة داخلها. أستعين بالنظر إلى اللافتة أعلى باب المدرسة. أوافقها. مدرسة حمود برغش السعدون. هذه ليست مدرستي القديمة. ليست النجاح. إن شيئا مما كنت أسترجعه للتوّ لم يكن. أنا واهم. أريد أن أكون واهما. ألثفتُ حولي. تتكاثر البيوت على جانبيّ الطريق. ما عادت المنطقة تشبهها وقت كنت أسكنها. قبل سنوات كنا، صادق وفهد وأنا، نقطع السكك الضيّقة والساحات الترايبية ذهابا وإيابا إلى المدرسة مشيا على الأقدام. لم تكن هذه الرائحة الكريهة موجودة. اختفت السكك بين بيوت يسابق واحداهما الآخر أيهما يبلغ السماء قبلا، والمساحات الفضاء والملاعب الترايبية لكرة القدم التي أحفظ تفاصيلها، مثل وجهي،

استحالت إلى مبانٍ تجثم على صدر المنطقة. البيوت ذات الطابق أو الطابقين أصبحت ذات ثلاثة وأربعة وخمسة. بيوت ضيقة بلا أحواش. على هذا الرصيف كنا نحري، نلتفت إلى الوراء، بعدما استعدتُ وعيي، هرباً من الصبية، أو خوفاً من أن يلحقوا بنا، مخلفين وراءنا، على أرض الشجار، فوق الرصيف البارد، أجزاء منا.. سيناً ودماء.. وكرامة.

لو أنني لم أترك منطقتنا القديمة، لربما صنعتُ فيها ذكريات أجمل. لي سنوات لم أزر خلالها حيناً القدم. منذ تركنا بيتنا وأنا أتحاشى المرور هنا؛ خوفاً من أن ألوث صورة جميلة أحملها في داخلي لمصنع طفولتي، صورة جميلة لماضي بغض. تمنيت لو أنني أبقيت على قطيعتي مع السُرّة، خروجاً بلا عودة، كمن انقطع به حبل السُرّة. كنت قد عاهدت نفسي، منذ انتقالي وأسرتي إلى الروضة، ألا أدخل منطقتي القديمة أبداً، وألا أזור شارعنا حزناً على مكان أحبيته، لم يعد لي فيه بيت، وغيرة على بيتنا من أناس اشتروه من والدي، والتزاماً بقسم والدتي ألا أدخل المنطقة. في هذه الزاوية، عند المنعطف المؤدي إلى حيناً القدم، كان محل الجزار السوري عدنان، ركناً مطلقاً على الشارع مستأجراً في بيت العويدل. وهناك، على مبعدة شارع، في مجمع الأنبي، يوم كان اسمه.. مجمع الأنبي، في هذا المبنى الكبير المتهاالك دكاكين عدّة تطل على الشارع، المطعم الهندي وصاحبه شاكر البهري، مطعم الشاورما، حيث يدير جابر المصري سيخه أمام النار كما عودنا، يوم لحم ويوم دجاج، أو يوم "لحمة" ويوم "فراخ"، يحضّر أشهى سندويشات معكرونة

بالكاتب. يلومنا إن تجاوزنا مطعمه مُضَيًّا إلى مطعم شاعر: "كده
برضه تشتروا من الواد الهندي الوسخ وتسيو العربي؟!"، قاطعنا
شاكرا منذ ذلك العتب، ليس إيماننا بقذارة المطعم الهندي، بل تضامنا
مع جابر العربي. بين المطعمين، شاعر وجابر، الهندي والعربي،
كان البقال الإيراني حيدر، والخياط والحلاق الباكستانيان سليم
ومشتاق، ومكتبة البدور وصاحبها الكويتي العجوز العم بو فواز،
وجهة صغار الحي لشراء مجلتي "الرياضي" و"العربي"، وقصص
المغامرين الخمسة، وروايات إحسان عبدالقدوس المحرمة، رغم لوم
البعض لصاحب المكتبة: "ما يجوز تباع الخرايط لبناتنا!". يكتفي بالرد
دائما: "الحكومة ما تمنع!". وهنا، في هذا البيت، على ما أظن، كان
محل غسيل وكّي الملابس، دُكان مستأجر في بيت قديم. استحال المحل
اليوم إلى مرآب سيارات في بيت ضخم جديد يعلوه القمرميد. لا أثر
للمحل ولا عتباته الثلاث ذات البقع البنية التي يصبغها علامين
البنجابي كأنها ماء صدي. اسمه علامين، رغم اكتشافنا، بعد
سنوات، أنه علي أمين! ولكنه بلهجته ينطقها على النحو الذي
ألّفناه. لا أزال أتذكره بلون بشرته الأبنوسي وشعره الأشيب وجسده
النحيل وإزاره المهترئ، وباسم قديم يشبهه، اختاره بنفسه، ولا يجينا
إن نادينا به غيره. علامين الذي كانت حروفه تعتلي باب المحل في
لافتة كبيرة. "علامين لغسل وكّي الملابس". محظوظ فرض اسم
يشاءه. رحل. تركنا في بلاد تمسخ كل شيء باستبدال اسمه فور
اكتسابه ذاكرة وهوية. مؤسف كل أولئك غادروا. بالشارعنا القديم
المسكين! ما بالك لا تُشبهك؟! هنا، في رأس الشارع كان بيت

"الزَّلَمَات" كما كنا نُسميه صغاراً. ليس غريباً ألا يكون موجوداً، فقد شهدنا اختفاء أهله زمن الخيبة. بيتٌ بائس يسكنه، في ما مضى، الشقيقان أبو طه وأبو نائل، مع زوجتيهما وعدد كبير جداً من الأبناء، وحده البيت القادر على تشكيل فريق كرة قدم من دون الحاجة إلى آخرين. كانوا يشاركوننا اللعب في ساحات السُّرَّة الترابية. تغلبهم تارة، يغلبوننا أخرى. منذ وُجِدنا وبيتهم في رأس الشارع، عائلة فلسطينية هاجرت من جنين. شهدنا هجرتهم، أو تهجيرهم من الكويت لاحقاً.. ولكن! عدا ذلك البيت، أين بقية الخليط الذي لوَّ نَ شارعنا القديم؟ وكيف لفهد وعائلته أن يحتملوا البقاء في هذا الشارع من دون روحه؟! أتوقف عند بيت فهد، لم يعد على هيئته التي أعرف، لم أكن لأتوقف أمامه لولا أمسكَت نخلاته الثلاث عيني، إخلاصة وسعمرانة وبرحية، أو بنات كيفان كما تسميها صاحبة البيت العجوز، نسبة إلى منطقة كيفان التي أحضروا منها النخلات، حيث كانوا يسكنون بيتاً قديماً، قبل انتقالهم إلى بيتهم هذا. تحاذي بنات كيفان السور في مساحة صغيرة، خارج البيت، كانت مزروعة يوماً ما ثيلاً يغطي كامل المساحة. ماتت نخلتان، سعمرانة في المنتصف وبرحية عن يسارها تجاه بيت صادق. طالهما الجفاف مثل أشياء كثيرة، يَبِسَ سعفهما وقوَّسَ الإهمال جذعيهما. وفيما تبدو إخلاصة ميتة هي الأخرى، ألحُ الأخضر يلوَّن سعفا نابتا في رأسها. يبدو الأخضر في رأس إخلاصة نشازاً ودوداً بين صُفرة لحقت ببقية السعف المائل على الجذع. وراء سعمرانة، عند الباب الأسود الحديدي، أرى اللوح المعدني العتيق، مثبتاً إلى سور تقشَّر

دهانه، بقيت حروفه مرئية رغم الصدا والغبار: "منزل صالح آل بن يعقوب". وحده فهد وأسرتَه لم يتركوا بيتهم، الذي بقي والبيت اللصيق له، عن يساره، لم يتغيّر، بالطابوق الجيري ترابي اللون العتيق، والسُدرة العجوز المائلة، مَسْكَن الجن، تخرق سور البيت الجانبي المشترك. تضرب جذورها في عمق الأرض، تنحني، تلقي بجزء من ظلالها في بيت فهد، وجزء آخر في بيت صادق المهجور. البيتان قطعة من الأمس لم تُمسّ، بانوراما خرساء تجمع أزمانا في زمن مسخ. لم يتغيّر شيء، لولا نوافذ بيت فهد التي استسلمت لقضبان الألمنيوم، وسوره الذي ازداد ارتفاعا، وما حلّ بنخلاته الثلاث. هنا، في بيت قريب من البيتين، يلاصق بيت آل بن يعقوب، عن يمينه، بالقرب من إخلاصة، لم يعد موجودا الآن، أعني، لم يعد باقيا على شكله القديم وناسيه الأولين، ركلتُ الباب قبل سنوات طويلة. أطبقته وأسندتُ ظهري إليه لئلا يدفعه صبيةٌ خشيتُ أن يلحقوا بنا. حرّرتُ كفتي من ثقل حقيبي المدرسية. أخذتُ أنادي بأعلى صوتي: "يُمّه.. يُمّه!". كانت قد عادت من عملها للتو. شهقت إزاء ما رأت؛ هيئتي المتربة وقميصي المفتوح وفمي الدامي. مسحتُ فمي بظهر كفي لاهثا: "يُمّه.. إحنا شيعة والا سنّة؟".

* * *

يحدث الآن 12:31 PM

أترك سيارتي محاذاة بيت فهد. أترجّل حافي القدمين نحو بابـه
الصدئ. باب متآكل في مثل عمري فهل أكون؟ ها أنا أمام البيت،
يختل بي الزمن. أمر غريب. كيف نمرُّ، في زمن حاضر، مكانا
تركناه في زمن بعيد، تتوارى السنوات بين الزمنين، نعود صغارا كيوم
تركناه. أنتبه إلى ما يستفزُّ حاسة الشمّ لديّ. للماضي رائحة! ووحدها
الروائح قادرة على الوفاء للمكان زمن التخلي. أتراها الخالة عائشة قد
غسلت حوش منزلها صباح اليوم كما كانت والدّة زوجها تفعل؟ هي
لم تفعل، مثل أمي حصّة، قط. أتراها مازالت تحارب النسيان بكاميرتها
الـ Polaroid الفورية تُخلدُ صور الفنانين؟ أو توثّق كلّ مناسبة
بكاميرا الفيديو الـ HITACHI القديمة. تنتقم من موتٍ سَلَبَ
والدها، بحادث سير في البصرة، قبل ولادتها، من دون أن يترك لها
صورة عدا واحدة في أوراقه الثبوتية، شابا لا يشبهه كبيرا؟ أتراها لا
تزال تردّد أغنية شعبية قديمة: "وين راح أبوي.. وين راح أبوي؟ راح
البصرة.. راح البصرة!". أمي ساخطة على كل شيء كما كانت، أم
أنها تخلّت عن مزاجها القلم بعد نيلها ما كانت تصبو إليه طيلة
سنوات؛ في أن يكون لها بيتها الخاص؟ ها هو البيت وقد آل إليها بعد
رحيل أمي حصّة. لا رائحة لقفص الدجاجات القلم. أتذكر قولها:
"أستحي أستقبل ضيوفي في بيت يربي الدجاج!". ما عادت تخجل

الآن بعد اختفاء الدجاجات وصاحبتهما. حسنٌ أنهما لم تقتلع السُّدرة العجوز، ربما صدقت أُمِّي حصّة: "الجن يحرس مسكنه". ربما استجاب الله إلى دعائها كلما مرّت قرب شجرتها: "سَكْنَهُم مساكنهم". الجنُّ أوفى للمكان منا لا شك! الرائحة هنا ماءٌ مشبّعٌ بغبار، وتربة مبتلة، وثمار نبق طازجة، رغم مضي خمسة شهور على موسمها! كيف للرائحة أن؟ أودُّ لو أتجاوز هذا السور الذي ما عدت أرى ما يخفي وراءه. أستلُّ نفساً عميقاً. روائح قديمة محببة تقاوم النتن الساكن مثل غيمة كثيفة أبت أن تبحر مكانها. لا أميز روائح حقيقية وأخرى تنثها الذاكرة. الأكيد أن سَمَكاً يُطهى في مطبخ آل بن يعقوب. هذا الزفر، والقطط الكثيرة حول البيت، يذكراني باتصال فهد بأمه قبيل فجر اليوم: "يُمّه.. مِشتهي مطبّق سمك".

وراء هذا السور كانت لنا حياة تضج بالحياة. ياه! وحدها ذاكرة الطفولة موشومة في الوجدان وكل ذكرى عداها عابرة. أُحِسُّ بي، أمام سور البيت، طفلاً في عاشرته. كان السور أوطأ من هذا الذي أراه الآن بكثير. نصفه أو أقل. لون جديد يشي بجِدَّة الجزء العلوي منه، يشهد على تحوّل زمنٍ بين الـ ما قبل والـ ما بعد. صباحات أيام الجمعة، الشتوية منها بالذات، كانت أقصى ما نتمناه نحن الثلاثة، صادق وفهد وأنا. كان حوش بيت العم صالح، والد فهد، جنتنا الصغيرة. بودّي أن أدفع الباب، ولكن، الخوف.. تَبّاً لسطوته. في سنوات بعيدة كنت أُقعي، في دور مكروور، أمد كَفِّي الصغيرتين داخل الشقّ الأفقي أسفل الباب، أعالج المزلاج الحديدي المثبت في ثقبٍ أرضي. أنتصبُ واقفاً. أدفعُ الباب على مصراعيه بكل سهولة. اليوم،

ترى كم مزلاج وقفل وسلسلة وراء هذا الباب؟ بسبابة مرتعشة أضغط مكبس الجرس. يتناهى إلى صوت صرير الباب الداخلي، يتبعه صوت خطوات أشبه بصوت احتكاك مكنسة سعف على الأرض. لولا وفاة أمي حصّة، جدة فهد لأبيه، لقلت إنها من يجرّ خطواته خلف هذا السور، لكنها رحلت مخلفة وراءها بيتها العتيق وسيدرتها الأثيرة و.. نحن. يتوقف صوت الخطوات. في الشقّ الأفقي أسفل الباب جزء من ظلّ مضطرب يشي بوجود أحد ما. أطرق الباب الحديدي بيدي. "منهو؟"، يبادرني صوت خالتي عائشة، من وراء الباب، واهنا مرتبكا خلال طرقاتي. أسألها بصوت لا يشبه صوت طفل العاشرة الذي خلّطني لا أزاله: "خالتي أم فهد؟ هذا أنا..". وكأنني أفتح أبواب الجحيم بلفظ اسمي: "خالتيك؟! تخلخلت عظامك يا ولد السو.. ما جانا منكم إلا الشقا وحرقة القلب..". لعنات وسباب تختمها بسؤال كالسؤال الذي ساقني إلى بيتها: "وين فهد.. وين راح ولدي.. وين راح ولدي؟". أبتلع سؤالي أبحث عن جواب كنت أنتظره منها. تقول إنه كان في طريقه إلى البيت في الرابعة فجرا ولكنه لم يعد. أسألها متجاوزا: "وين عمّي صالح؟". أنصتُ إلى خطواتها الثقيلة تكس بلاط الحوش مبتعدة: "عمك صالح؟ الله لا يصلح لك حال.. ولا يزيدك مال..". تستأنف وصلة اللعنات قافية: ".. ولا يبارك لك عيال.. يا زرع الشر يا أسود الفال". كان صوتها مرتفعاً. ليس هناك من يردعها بعد رحيل أمي حصّة: صوتك يا عائشة! أنت في البيت، وفري صراخك للبنات في المدرسة! يختفي صوتها مع ارتطام الباب الداخلي. يعود السكون، وتبقى الروائح والأصوات القديمة تزيل عن

أذنيّ ما علق بهما من لعنات. أدير ظهري للبيت أنوي الذهاب إلى مكان لست أدريه. الباب الداخلي يعاود صريه. أرهفُ السمع. ما أعود أميّز بين صرير الباب ونحيب خالتي عائشة في الداخل. يرتفع صوتها: "قلبي قارصني يا صالح!". يقلقني أن أستشعر حزنًا في صوت هذه المرأة، وها أنا الآن أستمع إلى نحيبها! ماذا ينبغي الوقت لفهد، وما الذي يدفع أمه إلى البكاء على هذا النحو؟ أتذكرها إذا ما أقلقها شيء تخبرنا بأن قلبها يقرصها، وما قرصها قلبها ساعة إلا وكشفت الساعة التي تليها عن مصيبة. لطالما استغربتُ أمي صدق حلس زوجة ابنها صالح. خلعت عليها لقبًا: "الساحرة!".

يُفتح الباب الحديدي كاشفا عن عمّي صالح هزيلًا بالكاد أتعرفه. لغده الممتلئ صار كيسًا جلدًا مهترئًا. أنفه المعقوف يبدو أكبر مع ضمور وجهه. شاخ كثيرًا. يبدو أكبر من سنواته السبعين. بات صورة عن أمه حصّة رحمها الله، ما تركت له الأيام شعرة سوداء في جانبي رأسه الأصلع أو لحيته القصيرة لتذكره بشبابه. يقف أمامي ذابلًا بدشداشته المنزلية المقلّمة الواسعة. لا ينظر إلى عينيّ. يسدّد نظرتَه إلى قدميّ العاريتين. أندفع نحوه لأقبل جبينه. يمدُّ كفه مبسوطة أمام صدري يقول: "مكانك!". يتفرّس ملاحي. لعل آثار الكدمات صوّرت له مصير ابنه. يُسدّد سبّابه نحو وجهي يهزُّ رأسه: "هذا ثمركم يا زرع السبخة.. هذا زرعكم يا عيال فؤادة!". ألوذ بصمتي. يردف قبل أن يطبق بابه: "لو راح فهد.. دمه وضياع عياله في رقبتك".

* * *

الفصل الثالث

الجهل بالشيء نعمة في بعض الأحيان. والطفل في لهجتنا "جاهل" ونحن، الجهال، كنا نعيش هذه النعمة؛ نعمة السلا أدري. كبرت قليلاً وانشغلت بأسئلة ممنوعة. ربما لم أكن في حاجة إلى إجابات لها بقدر ما كنت في حاجة إلى لفظ السؤال والتحرر منه، أو الشعور بتفاهته من خلال ردّ المسؤول. كنت في الابتدائية. أسأل عن كل شيء. أزعجتُ والدتي بقبيلة أسئلة؛ كيف ولماذا وهل وأين ومتى. أتذكر الأستاذ مُرهف السوري بعينه الجاحظتين، لاحقاً في مدرسة النجاح، ينصحنني بالأكثر الأسئلة، الدينية على وجه الخصوص. يقول امتعاضاً من أسئلتني إنني كمن يعبثُ بصناديق لا يأمن أحدٌ محتواها. "السؤال، يا بُني، صندوق، وبعض الصناديق تبتلع أخرى. ما حاجتك لأسئلة كهذه؟"، يقطع أسئلتني العيب والـ حرام على حدّ وصفه. وإذا ما ألححتُ أو اصل، مستمداً جرأتني من كلمة بُني في حديثه، يقطع: "يفتح الصندوق في أوانه!". لا أتوقف عند قوله. أسأل. يصرخ: "لَكَ ما يبصير!". أرفع يدي متعهداً بأن يكون سؤالي الأخير. يقذفني بقطعة طباشور: "لَكَ خلاص.. بدنا

نشوف شغلنا!". أمسح جبيني أزيل أثر رصاصته البيضاء. يلين.
يسمح لي بنفاد صبر: "آخر سؤال". أسأله هل الإنسان في أصله قرد،
أم القرد في أصله إنسان؟ تجحظ عيناه أكثر. أتبرأ من سؤالي: جارتنا
أمي حصّة تقول إن القرد كان في الأصل إنساناً! يتزعج فهد لأنني
ذكرت اسم جدّته على الملأ. يعضُّ الأستاذ مُرهف لسانه. يصرخ
بي: "اصطقل منك لمعلم التربية الإسلامية.. العمى شو نَقّاق!".
ينتهي بي الأمر واقفاً ووجهي إلى الحائط الخلفي، مادّاً ذراعيّ إلى
الأعلى. ألتفتُ إلى صادق، المشغول بالرسم على طاولته في صفّ
المقاعد الأخير. أهمسُ له: "اضغط الزّر!". يضغط الزّر، ولا يختفي
الأستاذ مُرهف!

في الابتدائية كنتُ، أتوقف عند أمرٍ غامضٍ وآخر مبهم. ألجأ
إلى والدتي. أشاهد إعلانات الفوط الصحية في التلفزيون أو المجلات.
لا أحصل على إجابة شافية منها حين أسأل في حيرة: "ليش الحريم
يلبسون بامبرز؟!". لا يشغلني الأمر كثيراً بعد تحرري من السؤال
بلفظه، وبعد تورط والدتي وتلكؤها في الرد واحمرار وجهها. لا
تُعَنِّفني، كما سيفعل الأستاذ مُرهف بعد سنوات، لتزيد فضولي حول
فداحة السؤال وخطورة جوابه، بما يدفعني إلى الإصرار على معرفته،
أو إلحاح رغبتني في إدراك سبب خطورته على الأقل. كل الأسئلة التي
تخص الأنثى، الجسدية والجنسية منها بالذات، ماتت فور لفظها
بسبب افتعال والدتي لا مبالاها. كيف تحبل المرأة؟ لماذا بعد الزواج
وليس قبله؟ ماذا يعني الرّحم الذي سمعتُ عنه أول مرّة في بيت
جيراننا؟ ولماذا لا تحبل خالتي عائشة بعد عملية إزالته؟ رأيت ديك

أمي حصّة يفعل! من أين تخرج بيضة الدجاجة؟ وحده السؤال، غير الجنسي، الوليد بعد مشاجرة المدرسة تعذّر عليه مغادرة رأسي بسبب انتفاضها حين أقسمت، بالله الذي رفع السماء: لولا الدماء في فمك، لصفعتك على شفتيك! أطلقت قسّمها وهي تمدّ لي كأس الماء بالملح لأتمضمض وأوقف نزيف سني الساقطة. كنت معها في غرفة الجلوس. في زني المدرسي، أسند ظهري إلى الباب لا أزال بقلب ينتفض بعد مشاجرة المدرسة. أردفت تهمز سبّبتها: "انت مسلم وبس.. ما يكفيك؟!". كانت قد شكّنتي لوالدي. وبّخني وهذّدي بقطع المصروف من دون أن يفهمني سببا لخطورة سؤال. والدي لا يملك ما يعزّز سلطته سوى تهديده هذا، قطع المصروف وعدم اصطحابي إلى "ألعاب الوليد" و"مركز نحن والأطفال" نهاية كل شهر. دفعني فضولي لاستراق السمع بعدما أغلقا باب غرفتهما. ألصقت أذني على الباب الخشبي كعادتي. دار حديث جدّي بينهما زاد حيرتي حيرة، ما كان يجب عليك الانفعال.. جهّال.. الكويت كانت.. ما عادت.. قبل بعد.. منذ الثورة الإيرانية.. ثم الحرب العراقية. أقفلت عائدا إلى غرفتي لا أجد تفسيراً لتشنجتهما على هذا النحو، ولا أدرك معنى لكلماتهما التي تشبه نشرات الأخبار. لا أفهم ماذا تعني ثورة. خمنت: "يمكن.. زوجة الثور؟". منذ ذلك اليوم والأمر يلفّه غموض. لا ألفظ اسم أي طائفة من الطائفتين خشية صفة تورّم شفّي. في تلك السنّ حسبت أن كلتا الطائفتين لا تنتمي إلى الإسلام. كبرت وفهمت عكس ذلك. كبرت أكثر، ومع ظهور المتطرفين، هنا وهناك، أصبحت أشك في ذلك.

صباح الخميس، بعد يومين من حادثة فقدان السن، ذهبتُ باكراً إلى بيت عمِّي صالح. رأيت الصبي الإيراني، ابن حيدر البقال، بسرّوالة المُقَلَّم، منصرفاً للتوّ يعد نقوداً أمام باب البيت. حيّته وأنا أفكر في الممنوعات التي يحصي ثمنها. أزحتُ مزلاج الباب الحديدي من الخارج، انطلقتُ جرياً إلى غرفة الجلوس. صوت التلفزيون مرتفعاً يستفز الهدوء في حوش البيت، وهو ما يعني أن العم صالح غير موجودٍ في بيته، وأن فوزية، عمّة فهد، وحدها في غرفة الجلوس. توقفتُ عند عتبة الباب. أحذية وأنعل بعضها مقلوب على ظهره، وهذا دليل على أن أمي حصّة ليست في البيت. رغم صعوبة حركتها لا تكفُّ تنحني، تسندُ كفيها إلى ركبتيها تنهد، إذا ما رأت نعلاً مقلوبة في الحوش أو عند عتبة الباب. تعيدها إلى وضعها الطبيعي. "يَمّه حصّة! ليش؟"، كنت أسألها. تشير بإصبعها إلى السماء من دون أن تنظر إليها رهبةً. تجيب: "أستغفر الله". أتخيل الله، في حدود وعيي، فوق عرشه في السماء من دون أن أرفع رأسي. أطأطئ هامساً: "أستغفر الله". تمسّدُ على رأسي: "عَفَيْه على وليدي".

رحت أعيد الأحذية والأنعل المقلوبة إلى وضعها الطبيعي. أوجه باطنها إلى موطن الشيطان، ذلك الذي كنت أخافه، أهينه مستمداً جرأتِي من الله عبر تصرفات أمي حصّة. لعينٌ لا عمل له سوى مطاردتي. خبيثٌ فاسدٌ لئيم، كانت تقول. إن أنا أهملتُ قصرَ أظفاري سَكَنَ تحتها. يأكل من طبقي إن نسيتُ ذكر الله على المائدة. يدخلُ معي أي مكان أدخله بقدمي اليسرى. يستقبلني في

الحمام إن دخلتُ بقدمي اليمنى. ينسلُّ مع الهواء إلى باطني إن ثاءبتُ دون أن أحجب فمي بكفّي. يبول في أُذني إن نمتُ عن صلاة الفجر. كنتُ أحتاطه في كلِّ شيء عدا فعله الأخير. أظنه فعلها كثيراً. كنتُ، إذا ما أيقظتني الشمسُ، أفهضُ إلى الحمام مسرعاً أدسُ إصبعي في أُذني، مُتقزّزاً، أدعكهما بالماء والصابون. أقضي صباحي مستغفراً.

تجاوزت عتبة الباب. في الممر المؤدي إلى الداخل كان في استقبالي، كالعادة، الرئيس العراقي، بطل القادسية، أبو عُدي، أو الرئيس كما يحلو للعم صالح، آنذاك، تسميته، يرتدي بذلة سوداء في صورة بإطار مُذهَّب معلقة إلى الجدار بين مزهريتين كبيرتين لريش طاووس، تحيط إطارها نباتات متسلقة. قصاصات جرائد لتصريحات وزير الدفاع والخارجية، حفظتها عن ظهر قلب، ألصقها صاحب البيت المهووس بالشعارات أسفل الصورة. جريدة الوطن: "وزير الخارجية: الكويت تدعم العراق علناً". جريدة الرأي العام: "الكويت ترفض القواعد الأجنبية".. "وزير الدفاع للأميركيين في واشنطن: حلّوا عن سمانا وبحرنا".. "مؤكداً دعم جميع الدول العربية للكويت، وزير الدفاع: لن نوقع أي اتفاق لمنح قواعد أجنبية وتسهيلات عسكرية". تجاوزت الممر نحو غرفة الجلوس. تاركاً وراء ظهري جدارية عمّي صالح. وجدت فوزية تتكى إلى مسند، منسجمة، تتابع نفسها صغيرة على شاشة التلفزيون، في أغنية وطنية شاركت بها في احتفالات وزارة التربية في فبراير 1981. تردّد الأغنية، "أحلى السوالف"، مع الفتيات الراقصات على الشاشة بصوت خفيض:

"بنقول لكم سالفه، وللسامعين كافة، أحلى السوالف..". حلوة فوزية، في شاشة التلفزيون كما هي في غرفة الجلوس. لم أمنحها اعترافاً قط، هي ليست في حاجة إليه، بأنها تتخذ في مخيلتي صورة فراشة وردية تحلق في حدائق الأغنيات والبهجة. انتبهت إلى وجودي من دون أن تلتفت نحوي. دسّت قطعاً من الشوكولاتة، كانت في حجرها، أخفتها أسفل المسند. كنت أستغرب إدمانها الشوكولاتة وهي فتاة تقتلها الحلويات. لو أن أُمي حصّة تعلم بتواطؤ ابن حيدر البقال! تقدّمتُ إلى خزانة التلفزيون الخشبية. خزانة خشبية متينة مزخرفة. في كل مرة أزور فيها بيت عمّي صالح أجد صورة فوزية جديدة لفهد، إلى جانب صورهِ القديمة، ملصقة على باب الخزانة. ألقيت نظرة على الصورة الجديدة قبل أن أجلس إلى جانب فوزية. ولأنها تكبرنا بسنة أعوام فقط، كنت أناديها باسمها: "السلام عليكم فوزية". لم تحفل بتحيّتي وكأنني غير موجود. واصلت غناءها وهي توجه سبابتيها إلى أذنيها: "تعالوا سمعوها.. وأمانة حفظوها..". هكذا كانت، تتجاهلني إن لم أسبق اسمها بـ عمّي، وإن كان فهد مكرها على ذلك، فلأنها عمتها، أما أن تكون لي عمّة في السادسة عشرة! مددتُ كفي أمام وجهها أحولُ بين نظرها والتلفزيون. لم تكثرث. أخذتُ أمشي أمامها جيئةً وذهاباً أتعمدُ مناكفتها. عيناها ثابتتان نحو الشاشة وكأنني كائن شفاف. دنوتُ بوجهي إلى وجهها بعينين حولين وابتسامة واسعة تنقصها سنّ. زمّت شفتيها على ابتسامة ملحّة. رفعتُ دُشداشتي إلى ما دون ركبتيّ، أميل برأسي يمينا ويسارا، أقلدُ رقصات الفتيات في التلفزيون. أردّدُ بصوت عالٍ ما تقوله

الأغنية عن الكويت: "هي عندنا إسديرة.. اسمها أم الخير.. والمولى من خيرة.. عطاها كل الخير..". أسندت ظهرها إلى الأريكة تقهقه. تدريني أقوم بتقليد رقصاتها بين الفتيات في حفل العيد الوطني. ربّبت على الأريكة تطلب مني الجلوس لتحديثني عن الأوبريت. جلستُ إلى جانبها، أشير بسبّابتي نحو شاشة التلفزيون، متهمكها: "خليني أسولف لك عنك في الأوبريت هالمرة!". كانت، متهللة الوجه، تشاهد نفسها بين عشرين فتاة بفساتين وردية منفوشة. تعلو رأس كل واحدة منهن وردتان وشرائط بلون فساتينهن. "كان عمرك تسع سنوات يا فوزية..". لم تمهلي أكمل. ارتفع صوتها تزجرجي بتسمية تخصّصني بها: "كتكوت!". قالت من دون أن تبعد عينيها عن الشاشة. أتمّت: "آنا مو أصغر عيالك!". تداركت: "يا عمي فوزية". هزّت رأسها كمن حقق انتصارا. واصلتُ استعراض ما لقنتني إياه: "في عيد الاستقلال العشرين، كان عمرك تسعة، اختاروك من بين..". قاطعتني: "بس كافي! حفظت الدرس تمام يا ولد!". مددتُ لساني. أعاد رقصاتي الغبية. استطردتُ وهي تنظر إلى عينيّ حانقة: "كل الكويتيين يعرفون البنت الحلوة في التلفزيون.. مسكين انت من يدري عنك يا كتكوت؟!". أجبتها مواصلا رقصي الأبله بأنها حلوة لأن دماءها مليئة بالسُّكَّر. لم ترد. رأيت سخافة مُزحيتي على ملامحها. جلستُ إلى جانبها أحدّق في وجهها يعتصرني ندم. ذلك الوجه يُشبهه يوم كان طفلا على التلفزيون. لم تتغيّر فوزية كثيرا غير أنها غدت امرأة بحسّ طفولي لم يغادرها. أتذكر عينيها الواسعتين وبشرتها السمراء وشعرها شديد السواد يغطي ظهرها كاملا يجاوز مؤخرتها،

كما تصفه أمي حصّة. فوزية تغضب إزاء الوصف: "قولي تحت ظهرها.. يُمّه!". أتذكر أنفها الدقيق، تصفه أمها بـ "سلّة سيف". ما جعلني لا أفوّتُ فرصةً أناكفها، أحمل سيفاً بلاستيكيّاً أقربّه إلى أنفها: "تبارزين؟!".

لم يكن لدى فوزية شيء تحكيه سوى مشاركتها في الأوبريت الوطني إياه، وظهورها في التلفزيون مع أخريات تم اختيارهن من مدرسة إشبيلية الابتدائية، وقت سكّن آل بن يعقوب بيتاً قديماً يقابل مسجداً درجَ الناس على تسميته بمسجد بن عبيدان نسبة إلى إمامه، في شارع إشبيلية، قبل انتقالهم من كيفان إلى السّرة. شارعٌ تخاله يقطع مروجاً خضراء مزهرة وأشجاراً مثمرة وبحيرات تطفو على بساط أخضر إذا ما تحدّثت عنه الفراشة الوردية. تصرُّ فوزية دائماً: "كيفان أحلى من السّرة!". تغيب في حديثها تستعيد ذكريات منطقتها القديمة؛ حديقة الأندلس، مدرسة إشبيلية، مسرح المسعود، وصوت الإمام بن عبيدان يتلو القرآن في المسجد مقابل المسرح. لم آبه يوماً بحديثها وأنا أرى مناطقنا تتشابه في كل شيء عدا أسمائها. أمي حصّة دائماً تجيب ابنتها مثلاً شعبياً إذا ما راحت تبالغ في وصف كيفان: كلُّ بلدٍ في عين أهله مصر!

رغم حظوظ فوزية الوفيرة بالظهور في برامج تلفزيونية مشهورة مثل "ماما أنيسة والأطفال"، و"الفنان الصغير"، و"مع الطلبة"، فإن ظهورها في الأوبريت الوطني، ممثلةً مدرستها القديمة، كان مغايراً. تعتزُّ به كحدث فريد، لأن أمير البلاد كان حاضراً في صفّ المقاعد الأمامي. سوف تتعلق بذكرياتها القديمة أكثر حينما يقف أخوها

صالح، بعد سنوات، ضد إكمال دراستها عقب المرحلة الثانوية. يجنبها مخالطة الذكور في الجامعة. نعرفه شديد الغيرة على نساء بيته. كان حلم شقيقته أن تتخرج في الجامعة بمُعدّل عالٍ، كي تحظى بمصافحة أمير البلاد الذي يرعى حفل التخرّج كل سنة، إلا أن شيئاً من أحلامها لم يتحقق بسبب عناد شقيقها صالح، وبسبب ما حلّ بها لاحقاً. أمي حصّة ذاتها لم تستطع أن تُثني ابنها عن قراره حين اتّخذته قاطعاً: "مكأنها البيت!"، في حين لم يمنع زوجته، خالتي عائشة، عن العمل في التدريس، مبرّراً بأن عملها في مدرسة بنات غير مختلطة. دائماً ما تردّد فوزية، في غياب شقيقها الأكبر: "أسد علي.. دجاجة مع زوجته!". أمي حصّة توليها اهتماماً غير عادي: قليلة حظ.. يتيمة أب.. هدّها المرض. سألت فوزية فور انتهاء الأغنية في التلفزيون عن فهد. أجابت: "بعده الحارس الأمين نايم". كان عمّي صالح وزوجته وأمه في مزرعتهم في منطقة الوفرة. وكانت فوزية لا تحب الذهاب إلى مزرعة لا شيء فيها عدا الخيار والبصل والخس والطماطم: "لا حمّام سباحة ولا حيوانات أليفة.. هذي جبرة مو مزرعة!". تواصل تدميرها على وقتٍ يهدره أصحاب البيت في جلب بعض الخضراوات والفواكه من المزرعة بدلاً من جلبها من جبرة الخضار في الشويخ!

ولكي لا تبقى فوزية في البيت وحدها، كان لابد أن يبقى ابن شقيقها، بأمر من أبيه، رقيقاً عليها في البيت أثناء غياب البقية. عادت إلى شرودها مع التلفزيون. سؤالي المؤجل، قسراً، عاد يلحّ داخل رأسي. نبهتها: "فوزية!". حدجتي نظرة مستنكرة. ضربت جبيني بكفّي أصحّح: "أقصد.. عمّي فوزية". أجابت: "نعم". تحسّستُ

شفتي أستعيد تهديد والدتي. ماذا لو سألتُ فوزية إلى أي طائفة ينتمون؟ أتراها تصفني على شفتي؟! ألستُ سؤالي ثوبا يجنبني الوقوع في مأزق.

- "حديقة الحيوان.. في أي منطقة؟".

أجابت على الفور:

- "العُمريّة.. ليش تسأل؟".

ظننتُ أنني اكتشفتُ، بحيلتي، إلى أي مذهبٍ ينتمي بيت العم صالح. سألتها:

- "العُمريّة أم العُميرية؟".

قالت من دون اكتراث:

- "عُمريّة عُميرية.. وين الفرق؟!".

- "آنا أسألك عن الفرق".

أطرقتُ تفكر بصوت مسموع؛ ربما في لافتات الشوارع تُكتب بالفصحى "العُمريّة"، وفي اللهجة الدارجة "العُميرية". تقول إنها ليست متأكدة، ولكنها، على أي حال، تلفظها بالطريقتين.

وجدتني بلا إجابة شافية بعد أن حسبتني قد توصلتُ إليها. انتظرتُ فهذا مدّة طويلة في غرفة الجلوس، ولكنه لم يظهر في ذلك اليوم. تمللت فوزية في جلستها بعد انتهاء الأغنيات الوطنية في

التلفزيون. شرعتُ تغني: "شَلُوح مَلُوح.. إِللي يدَل بيتُه يروح".
كانت تطردني بلطف. تجاوزتُ سخافة لطفها. سألتني إن كنت
سأطيل البقاء. كانت مرتبكة. أحببتها بأني لن أبرح مكاني قبل أن
يصحو فهد. أطلقتُ زفرة تخفي تدمرها. أزاحت، من تحت مرفقها،
مسند الممنوعات التي أحضرها ابن حيدر البقال. نظرت إلي بابتسامة
ودودة. التقطتُ كتابا كانت قد أخفته أسفل المسند مع قطعتي
شوكولاتة "آرو" و"ككاو أبو أسد". بادرتُ وهي تمدُّ يدها إليّ
بقطعة: أنت لن تخبر أُمي بهذا. لوَّحت بقطعة الشوكولاتة. تسدَّدُ
نظرة رجاء إلى وجهي. هزرتُ رأسي موافقا. تقاسمتُ معي حلواها
في حين كنت أنظر إلى الكتاب بين يديها. لستُ في حاجة إلى أن
أخمن: "إحسان دَقُوس.. صح؟"، سألتها ساخرا. أجابت مرتبكة
تصحَّح: "عبدالقدُّوس.. لا تذكر اسمه عند صالح". هزرتُ رأسي
متفهما جدِّيتها إزاء حساسية شقيقها تجاه قصص حبٍّ ممنوعة تُفسد
العقل والأخلاق والسلوك. تركتني فوزية ترتقي السُّلم إلى غرفتها
وهي تغني كالغائبة عن وعيها:

"ونحن أبناء الكويت الرائدة.. طريقنا نحو المعالي صاعدا".

* * *

يحدث الآن 12:36 PM

"لو راح فهد.. دمه وضيا عياله في رقبته".

ما زالت كلمات عمي صالح تتردد في رأسي. أطبق باب السيارة. لا أدير محركها. أسند رأسي إلى رأس المقعد. أعاود الاتصال بهما، صادق وفهد، أولهما جهاز مغلق لا يزال، والثاني جهاز ردّي آلي عنيد يُعلي عليّ أوامره بترك رسالة. أي رسالة وقد فات أوان الرسائل؟! أطوف ببصري أمسح شارعنا القلم. بيت صادق يكاد يكون أثريا. مهجور منذ ستة عشر عاماً، منذ تركه أصحابه لصالح بيت جديد في الرميثة. طبقات غبار نزل عليها المطر أحالها طينا جفّ على الأرض وأعلى السور والعتبات الثلاث أمام الباب. سلاسل قديمة صدئة أسفل مظلات السيارات، وعبارة "مواقف خاصة" لا أزال ألمح أثرها على السور، قيل إن عمي عبّاس كتبها على سور بيته ثاني أيام عزاء آل بن يعقوب عند وفاة صاحب البيت العجوز في تفجيرات المقاهي الشعبية. ضاق ذرعا بزحمة المعزين لدى جاره. أحاط المساحة أمام بيته بالسلاسل. كتّب صراحة: مواقف خاصة!

أمكث في سيّارتي وسط شارعنا القلم. أدير مؤشر المذيع لعل شيئا يُذكر عن حادثة اليوم. إذاعة الكويت تُبثُّ أغنية "الله يا الأيام" لعبدالكريم عبدالقادر. أتذكر فهدا المعجب به طفلا والمجنون به

مراهقاً. لماذا هو من بين كل المطربين؟ كنت أسأله. يجب بأن
عبدالكريم يغني له وحده. كان يصفُ كل أغنية بأسلوب لا أفهمه.
يرى في كل واحدة لونا وموسماً ورائحة ومذاقاً. يسألني عما أراه أثناء
استماعنا. لم أرَ شيئاً قط. لون هذه أزرق سماوي، تلك بيضاء قطنية،
أخرى ترابية بلون سماء مغبرة، أو حمراء بلون أذنيّ صادق. هذه
شتوية، وتلك ربيعية ملوّنة، وأخرى قاتطة مثل يوليو.. مالحة، حلوة،
مرّة، حاذقة مثل أچار جدّته، أو عطرية مثل قهوة عربية. أناكفه، إذا
ما انتهى من وصفه، أسخر من مطربه الأثير. لا يحتمل. يُنهي حوارنا
موجّهاً سبّابه إليّ: "حيوان!".

اليوم، أسترجع جملة فهد أمام بيته القديم. أجدها تناسبني أكثر،
رغم عجزني عن توصيف لونٍ للأغنية في خلفية رمادية، وموسمٍ
مسحٍ غير واضح، ومذاق كريح ورائحة لا تحتمل.. عبدالكريم يغني
لي، الآن، وحدي: "البيت، ذاك البيت.. وسِكَّتْهُ سهلة.. أموت لو
مرّيت.. من شوقي لأهله". كدأبه إعلامنا لا يُشبهنا، كأنه في بلد
آخر. ولكن، صدقاً، بثّه هذه المرة يجيء، وإن بغير قصد، في أوانه.
يأخذني بعيداً عني. يأخذني إلى بقعة في مكان سحيق من الذاكرة.
حنين تملكني فجأة. لسنا في وقت يسمح لنا بترف الحنين إلى زمن
طفولة في ماضٍ كان، ولكنه حنين إلى زمن، رغم الخيبات فيه،
عشناه بأفضل ما يكون. ألُفْتُ إلى المكان حولي. أتذكر أغنيات
الأطفال، الأهازيج، الزغاريد، الفرح والأعلام والزينة.

أنظر إلى بيت العم صالح بشكله الجديد المنفر. تستنزف إذاعة
الكويت ما تبقى من تماسكي، تجلّدي بصوت عبدالكريم، وتُقلِّب

ذكرياتٍ ليس هذا أوان استرجاعها. أجدني غائبا كغياب فوزية في
حضرة أغنياتها الوطنية قبل سنوات. يقسو عليّ عبدالكريم بحب:
"هالبيت وش زينّه.. وش زينها سنيّه.. كنا تحت سَقْفَه.. نسهر ولا
نعفى.. وجوّنّا صافي.. وقلوبنا أصفى". ماذا لو يُبعثُ الأطفال الذين
كُفّنوا في داخلنا من جديد، وإن كان ماضيهم محضَ خدعة أزيح
الستار عن حقيقتها اليوم! هل كان جوّنّا صافيا بحق؟ وهل كانت
قلوبنا؟ وهل لي أن أوقف أسئلة ما نفعتني يوما؟!

يرنُّ هاتفِي المحمول: "ألو!".

- "وين صادق؟".

- "عمي عبّاس؟!".

يصرخُ:

- "عَمّا بعينك.. وين صادق؟".

كانت خالتي عائشة أكثر لطفا في انتقاء سبابها ولعناتها. يُختم
مكالمته:

- "يلعن أبوكم لآبو فؤادة لآبو من أسّسكم يا عيال
الكلب!".

تجنّبي مكالمته خطورة طريق كنت أنوي عبوره إلى منطقة
الرميشية. إذن صادق ليس في بيته. أفتح دُرج السيارة تحت مِرْفَقِي.
أتناول زجاجة عطر. أصبُّ منها في راحة كَفِّي. أستنشق العطر في

نَفْسٍ طَوِيلٍ أَغْسَلَ رِئْيَى مِنْ هَوَاءِ الْعَفْنِ. أَدِيرَ مَوْشَرَ الْمَذْيَاعِ إِلَى مَحْطَةِ
أُخْرَى: "فِي إِجْرَاءٍ غَيْرِ مَعْلَنٍ سَحَبَتْ قَوَاتٍ مَا يُسَمَّى بِدَرْعِ الْجَزِيرَةِ
الْكَافِرَةِ آخِرَ كِتَابِهَا مِنَ الْكُوَيْتِ صَبِيحَةَ هَذَا الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ، وَذَلِكَ
فِي رَدِّ فِعْلٍ فَوْرِيٍّ إِزَاءَ قِيَامِ ثَوْرَةٍ جَدِيدَةٍ فِي الْجَوَارِ يَنْفِذُهَا إِخْوَتُنَا
إِحْيَاءً وَاسْتِكْمَالًا لَا تَنْفَاضَةُ مُحَرَّمٌ 1979.. هِيَهَاتَ مِنَّا الذُّلَّةُ". أَهْرَبَ
إِلَى مَحْطَةٍ غَيْرِهَا: "هَذَا وَأَكْدَ مَصْدَرُ مَسْئُولِ اسْتِتَابِ الْأَمْنِ الدَّاخِلِيِّ
بِعَكْسِ مَا يَشِيعُهُ أَذْنَابُ الْفُرْسِ فِي الْخَارِجِ..". أَتَنْقِلُ بَيْنَ الْإِذَاعَاتِ لَا
أَدْرِي مَنْ أَصْدُقُ. الَّذِي أَدْرِيه أَنِّي أَشْتَاقُ إِلَى صَوْتِ أُمِّي حِصَّةً
تَخَاطَبَ مَذْيَاعُهَا التَّرَانِزَ سَتُورَ: يَفُوتُكَ مِنَ الْكَذَّابِ صَدَقٌ كَثِيرٌ!

* * *

الفصل الرابع

مثل كل يوم جمعة، انطلقتُ إلى حوش بيت عمِّي صالح باكراً، ليسعني الوقت لأذهب إلى المسجد تالياً، أحتلُّ مساحةً أسفل عمودٍ ألفتُ إسناد ظهري إليه، أستمع إلى الخطبة أو أقرأ القرآن قبل بدئها. سياره عمِّي صالح أسفل المظلة، محمَّلة بأصناف الخضار، ما يعني أنهم قد عادوا من الوفرة للتو. انتظرتُ، صباح الأمس، طويلاً كي يصحو فهد بعد ذهاب فوزية إلى غرفتها، ولكنني عدتُ إلى بيتنا من دون أن ألتقيه. أقعيتُ عند الباب. كان خرطوم الماء يمتدُّ من الصنبور داخل الحوش، يمرُّ أسفل الباب مثل أفعى، يصبُّ ماءه في مجرى بنات كيفان الثلاث. دفعتُ الباب الحديدي بعد إزاحة مزلاجه الأرضي. كعادتها أُمي حصّة تقتعدُ كرسيّاً خشبياً أسفل سقيفة من جريد النخل، يخرقها جذع السُّدرة، في الحديقة الصغيرة. زرعُ في حوض ترابي مستطيل، بحجم بركة سباحة متوسطة الحجم، تنتشر فيه عشوائياً بعض الحشائش، عن يمين الداخل إلى الحوش المفروش بلاطاً أبيض مطَّعم بكتل صخرية سوداء وبنية ورمادية متفاوتة الحجم والأشكال. يقوم، في جانب الحوش الأيسر، مبنى الملحق حيث الديوانية وحمامها

الخارجي والمطبخ. عادة ما يكون مبنى الملحق، فهارات الجمعة، محجوبا وراء الشراشف وغطاءات الوسائد البيضاء على حبل الغسيل. تنث روائح محببة تُلطَّفُ أثقل أيام الأسبوع، قبل استئناف الدراسة كل سبت. رأيت أُمِّي حصّة، بثوبها الأسود وجواريها الصوفيين الثقيلين، تجلس أسفل السُدرة على مقعدها الخشبي قصير القوائم، تلقي ملفعها الأسود على كتفها كاشفة شبيها الأحمر بفعل الحناء، تُسندُ طبقها النحاسي الدائري إلى ركبتيها، تضيق عينيها، تُنقي الرُز وتزيل عنه الدُوِيّة. تغني بصوتها العجوز مع زقزقة الزراير: "يا سِدرة العشاق، يا حلوة الأوراق..". لا يُخرجها إلى الحوش، أسفل السقيفة، إلا الشتاء والربيع اللذان يمران بسرعة قبل الصيف الطويل. في الصيف لا تخرج إلا نادرا لري سِدرتها الأثيرة بين يوم وآخر. لا تطيل الجلوس أسفل سقيفة جريد النخل، تكتفي بدقائق حانية، كما تقول، مقارنة بكونك ريت باردٍ ثقيل دمٍ لا حياة فيه.

التفتُ إلى قفص الدجاجات خوفاً من فأر عابر يعكر عليّ صفو الصباح، رغم تأكيد أُمِّي حصّة أن الفئران لا تجرؤ على الاقتراب من قفص الدجاجات ما لم تكن إحدى بيضاتها مكسورة، ولا تتخلى الدجاجة عن بيضتها، للفأر، إلا إذا رأت زلاها مهدورا! جلستُ على الأرض بقربها بعدما قطعتُ أغنيتها أقبل جبينها: "صَبَّحَكَ اللهُ بالخير يُمه حصّة". دسّت كفها مفرقة أصابعها الحنّاة بين حبات الرُز: "صَبَّحَكَ اللهُ بالنور.. شلون السّت الناظرة؟". لم تنتظر ردّي تواصل غناءها: "ملزوم عليه أشتاق، يا سِدرة العشاق". لست أدري، وقتها، إن كانت تشير إلى والدي بمسمّاها الوظيفي تقديرا أم تمكّما. الذي

أدريه أنني دائم الإجابة: "أمي زينة". كانت غاضبة من والدتي، منذ سنة، لأنها وبَّختُ كَتَّتها المعلمة في المدرسة نفسها. تقول إن السَّت الناظرة لما رأت عائشة تضحك مع إحدى المعلّّات، في أحد ممَرّات المدرسة، صرختُ بها: "إنّتي! على شنو تضحكين؟!". أشارت بسبّابتها إلى غرفة المعلّّات آمرة: "على شغلّك!".

أمي حصّة ترى، في موقف والدتي مع كَتَّتها، خيانةٌ للجيرة. باب الحديث عن والدتي، إذا ما فُتح، لا توصله محاولاتي. كانت والدتي قد قاطعت زيارة بيت آل بن يعقوب منذ هاتفتها العجوز تلومها على صرامتها مع عائشة في المدرسة. "زعلتُ السَّت الناظرة، شالت في قلبها، مع إني سافرت ورجعت من بيت الله، ولا كَلّفت نفسها تزورني وتسلم عليّ مثل باقي الجارات!".

فتحت فمي إزاء قولها. شطّ خيالي بعيداً يُصوّر طائرة تمضي في السماء نحو بيت الله:

- "رحتي بيت الله؟".

أخرجت كفّها من بين حبّات الرُّز. تحرّك ثلاثة أصابع أمام وجهي:

- "ثلاث مرّات".

ارتفع صوتي أسألها:

- "وشفتي الله؟!".

- تركت طبق الرُّزّ النحاسي على حجرها. أسندت ذراعيها إلى رأسها تزعجني:

- "الله ياخذك! راح تطيح علينا السما!".

التصقتُ بقائمة مقعدها الخشبي. أحتمي بذراعيَّ خشية سقوط السماء. تيرأتُ من سؤالي سريعاً:

- "إنّي تقولين رحتي بيت الله!".

شدّت أذني حتى كادت تنتزعها:

- "بيت الله يعني الكعبة يا خبل! استغفر ربّك!".

صرتُ أستغفر وأضغط بكفّي على أذني كأنني أعيد تثبيتها.

ارتفع فجأة، من حوش الجيران، صوت المذياع بأغنية عراقية لناظم الغزالي. تركت أُمّي حصّة الطبق النحاسي في حجرها. ضمّت كفّيها إلى بعضهما، تطقُ إصبعيها كما يفعل العراقيون. رفعت صوتها:

- "أغاني في يوم الجمعة يا عجوز الشُّط؟!".

جاء صوت جارتنا العراقية، أُمّي زينب، ضاحكاً:

- "عند الله السُّعّه يا عجوز النار! من الصُّبح وآنه جاي اسمعك تغنين يا سِدرة العشاق.. حلال عليك حرام عليّه؟!".

ضحكت العجوزتان. كان السؤال الذي لم أجد له إجابة عند والدتي وفوزية، يدور في خلدي. "يُمّه حِصّة!". التقطت دويبة بين إصبعيها. أطلقتها في الهواء. أجابتي: "خير؟". ترددت قبل أن ألقى بسؤالي في أي منطقة تقع حديقة الحيوان؟ نظرت إلى وجهي. اتسعت المسافة بين عينيها وحاجبيها. برطمت تضرب الهواء بكفها. حطت حمامة رمادية على سور البيت. انصرفت إليها أُمي حِصّة. نثرت حبات الرُز بين الحشائش تحثها على الاقتراب: "تَع تَع". استجابت الحمامة حطت على الأرض. نُبّهتني: لا تفرعها. همست لها بسؤالي مرّة أخرى: "ما جاوبتيني! حديقة الحيوان وين؟". انصرفت تنظر إلى دجاجاتها حول حوض الماء البلاستيكي، تكرر من مائه قبل أن تشرّب رؤوسها توجّه مناقيرها إلى السماء تغرغر مغمضة العين. هزّ أُمي حِصّة رأسها مضيقّة عينيها تبتسم: "سبحان الله". تمدّ سبّابتها باتجاه القفص: "شوف شوف!", تحثني أنظر إلى الدجاجات تناجي ربّها في السماء، تحمده على سقياها. يكفهر وجهها فجأة: "حتى الدجاج يعرف الله.. ليت ربي يهدي زوجة ابو سامي!". تجاوزت قولها أكرّر سؤالي: "حديقة الحيوان، يُمّه حِصّة، في أي منطقة؟". شذرتني: "ليش تسأل؟". ارتبكت. انطلق صوت مألوف لا تكتمل من دونه صباحات الجمعة القديمة مقاطعا حديثنا: "خااام.. خااام". فرّت الحمامة مخلقة حبّات رُز فوق التراب. بائع الصُرة اليميني كعادته، ينطلق صوته بعيدا من أول الشارع، يرتفع كلما اقترب من بيوتنا. ثلاثة أصوات تبث الرعب في نفسي عندما كنت صغيرا؛ صيحات بائع الصُرة، وزعيق صافرات الإنذار التجريبية التي ألفناها

زمن حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران، ونباح الكلب السلوقي الطليق في حوش بيت جارنا أبي سامي، البيت المطل على بيت صادق، بيت زوج الأميركية كما تسميه نسوة الحيّ. وفي المقابل، كان صوت واحد ينسني أصوات الشارع المخيفة، الصوت المحبب لدى أطفال الحيّ كافة، بائع الثلجات الفلسطيني الكهل، أبو سامح، وقتَ مروره بعربته ذات الشمسية الحمراء، عصر كل يوم، في شارعنا ينادي: "بَرْد... بَرْد..."، أو إذا ما استقرّ بعربته في آخر الشارع. يسند ذقنه إلى كفه. يردّد أغنيته الأثيرة بصوته المتعب: "عَبِّي لي الجِرَّة". أو إذا ما راح يتغزل بعربة مكنته من إلحاق أبنائه الثلاثة بالجامعة. أرهفت أُمي حِصّة سمعها تتحقّق من نداءات بائع الصُّرّة. قالت بابتسامة واسعة إن تينا تنتظره منذ أسبوع. أزاحت طبق الرُّز عن ركبتيها تمُدّه إليّ: "امسك". تأمرني بأن أجرب أن أكون ربّة بيت ولو لمرة واحدة في حياتي. وقفت، بقامتها القصيرة، تنفض ثوبها من بقايا رُزٍّ غير صالحة. اقتربت نداءات بائع الصُّرّة أكثر: "خااام.. خاااام". جلستُ على الكرسي الخشبي القصير أسند الطبق النحاسي إلى ركبتيّ. حثّت أُمي حِصّة خطواتها الثقيلة إلى داخل البيت تنادي: "تينا.. يا تينا". اختفت وراء شراشف جبل الغسيل. خرجت بعد ثوان تتبعها "هندية" بيت عمّي صالح السيريلانكية ترتدي الدُّرّاعة المنزلية. معظم خدام المنازل من الهند، وكلمة هندية أو هندي، في حدود وعينا، لم تكن تعني سوى خادمة أو خادم: "هندية بيت أبي سامي الفلبينية، أو هندي بيت العويدل البنغالي". خادمة بيت آل بن يعقوب، كما تسميها خالتي عائشة: "بنت أُمي حِصّة"،

غيرةً وتهكُّما على مبالغة حماتهما في معاملة الخادمة معاملة طيبة، اسمها تينا، فتاةٌ أُمِّيَّةٌ سيريلانكية جاءت من بلدها هرباً من الحرب الأهلية بين السنهال والتاميل. ما كنت لأدري بأنها لا تقرأ ولا تكتب لولا مكوئها في غرفتها نهاية كل شهر تسجل رسائل صوتية لأهلها على شريط كاسيت. قضت سنوات طويلة في بيت عمِّي صالح كأنها من أفراد العائلة، تشاركهم الطعام على الأرض كل يوم، وتأخذ من الوقت ما تشاء لمتابعة الأفلام الهندية عصر كل جمعة عندما يرتفع صوت أُمِّي حِصَّةً منادياً: "تينا! تعالي بسرعة! فيلم لـ أُميتاب باتشان!". نجلس مع تينا نتابع بشغف رغم مبالغات أفلام أُميتاب الخارقة. لا يجرؤ أحد على تكليفها بأي عمل تزامنا مع عرض الفيلم. كان ذلك أمراً ملفتاً ما كنت لأراه لولا أن صاحبة البيت.. أُمِّي حِصَّةً.

أحكمت أُمِّي حِصَّةً لفَّ المِلفَع حول رأسها قبل أن تفتح تينا الباب الحديدي لبائع الصُّرَّة تدعوه للداخل. جلس الرجل أرضاً، بالقرب من الباب الحديدي، يَفِّك رباط صُرَّتِه الزرقاء، المُرَقَّعة بقطع قماش من كل الألوان، يفرشها فوق البلاط. تقدَّمت تينا نحوي أسفل السُّدرة. مدهون شعرها بزيت جوز الهند. نهرتني آمرة بأن أترك لها كرسي "ماما كبير!". تركته لها أهزُّ رأسي مدعناً: "حاضر عمَّتي!", لا ضير في أن تكون، ما دامت في سِنِّ تؤهلها لذلك. حملتُ الكرسي مسرعة نحو البائع. جلستُ على الأرض المتربة. كدتُ أسندُ ظهري إلى جذع السُّدرة. تردَّدتُ. رفعتُ رأسي أنظر إلى أغصانها من خلال الهوَّة أعلى السقيفة. انتبهت أُمِّي حِصَّةً: "لا تخاف! الجئن يسكنها

فوق، في الغصون". أرحتُ ظهري على الجذع أقوم بدور ربة البيت مرة أولى في حياتي. بين ترقُّبٍ لأي حركة تصدر عن جنَّياتٍ وفتياتٍ لسدرتهن، وخوف من رجل عجوز حادّ الصوت مكفهر الوجه، وقلق إزاء ظهور محتمل لفأر جائع، كنت دائم الالتفات إلى قفص الدجاج. أتنفس بحذر. شيء من شهيق أطرده قبل أن يملأ رئتيّ، خوفا من طاعونٍ، حدثتني عنه والدتي، تنقله الفئران إلى البشر. أمي حصّة أيضا أخبرتني، ذات يوم، أنها شهدت زمنا في الكويت، قبل حوالي عشر سنوات من يومنا ذاك، انتشرت فيه حملات التلفزيون التوعوية لمكافحة الفئران والتحذير من خطرها: رأيت بعينيّ فئراننا تهاجم القطط! قالت لي.

جلست أمي حصّة على كرسيّها تمسك بطرفي إصبعيها جزءا من ملفّعها، يحول دون وجهها وعينيّ البائع الذي لا يرفع وجهه عن صُرّته احتراماً. تسند كفّها الأخرى إلى وركها كلما انحنت تعالين الأقمشة قبل أن تختار تينا ما تريد. كنت أحاول تجنب النظر إلى وجه البائع ولا أستطيع. أختلس النظر إلى الرجل المسنّ في حين كنت أقلب حبّات الرُّز بكفّي الصغيرة. رجل قصير القامة لولا نفوري منه لشبهته بواحد من الأقزام السبعة المحبين. يعتمر عمامة يمنية. وجهه العابس أسمر مليء بالخطوط الغائرة. له لحية مدبية بيضاء المنبت تتحول إلى اللون الأحمر نزولا. يرتدي معطفا ثقيلا وإزارا بألوان متداخلة. كنت قد جمعت بعض الدويبة بعدما أزهقت أرواحها سحقا بين حبّات الرُّز التالفة في كفّي الصغيرة. أنتظر عودة أمي حصّة لأذكرها بسؤال. كانت تتحدث مع الرجل فيما تتفحص

بضاعته. أمسكت بقطعة. سأله عن ثمنها. قبل أن يجيبها يحدّد ثمنًا، أجابته: "غالي!". ضحك الرجل. سأله أن يخفض لها الثمن. اعتذر. راحت تُثني عليه وعلى بلاده: "اليمن أصل العرب"، وعلى ذلك يجب أن يكون كريمًا معها. رضح لطلبها ضاحكا. أعاد لفّ صرته بعد أن نقدته أمي حصّة ثمن "الخامات" التي اشتريتها تينا من أجل أن تخطط أثواب الـ "ساري" لدى سليم الخياط في مُجمّع الأنبي. التفت إليّ البائع يتسم ابتسامة سَمِحة لم أتخيلها تعلو وجهه. انصرف مستأنفا نداءاته قبل اختفائها آخر الشارع: "خااام.. خااااام". أفسحتُ مجالا لـ تينا تعيد الكرسي الخشبي إلى مكانه. جلست أمي حصّة تمدّ يديها نحوي لأناولها طبق الرُّز بعد أن أسقطت ملفّعها على كتفيها. تنظر إلى أغصان الشجرة من خلال هوّة السقيفة فوقها: "السلام عليكم". لم يرد الجن تحيتها. أردفت: "سكّنهـم مساكنهم". ابتلعتُ ريقِي أناولها طبق الرُّز. بسطتُ كفيّ أريها حصيلة الدور الذي مارسته. نظرت إلى مجزرة الدوية في كفيّ. هزّت رأسها مؤنبة: "ما تخاف الله!".

الذي لا تدريه أمي حصّة هو أنني كنت أخاف الشيطان وفقا لصورته الشريرة، بقرنيّه وذيله المدبّب ورمحه ذي الرؤوس الثلاثة، في الوقت الذي يمثل لي الله الخير بكل صوره، أحمل له مشاعر جمّة ليس الخوف من بينها. دسّت أصابعها تفرّق حبات الرُّز. استطردت: "هذه روح". التقطت بين إصبعيها دوية. أفلتها على الأرض التراية متعمدة. قلت لها واثقا: سوف تموت بعيدا عن الرُّز على أي حال. أجابت: "ربّك ما ينسى عبيده". نظرتُ إلى مصائد الفئران، تحمل

شعار وزارة الصحة، تنصبها حول قفص دجاجاتها. سألتها ماذا عن الفئران.. لا رَبَّ لها؟! أَلقت ملفعها على رأسها بغير إحكام قبل أن تستقيم واقفة تحمل طبقها النحاسي. جرَّت خطاها نحو المطبخ المطل على الحوش دونما اهتمام لسؤالي. انسلت من بين شراشف جبل الغسيل. سمعتها حانقة: "عيال اليوم.. لسان يلوط الآذان!". تبعتها إلى المطبخ وقد ألقى قطُّ بُني هزيل عند بابه، يهزُّ ما تبقى له من ذيل مقطوع. نظرت إليه: هذا فهد ينتظر الغداء! ضحككت، على قط يشبه حفيدها، قبل أن تطرده: "تت تت!". سبقتها عند باب المطبخ: "أمي حصّة.. أمي حصّة!". أجابت متزعجة: "خير؟"، من دون أن تلتفت. عدتُ أسأل: لم تجيبي! حديقة الحيوان. قاطعتني ضاحكة: "الخبل ما ينسى سالفته!". أزعجني وصفها لي خبلا في وقت كنت فيه، لدى والدي، أشد الأولاد ذكاء وفطنة. كنت على عتبة المطبخ أقف. تينا تزيل القشور عن ثلاث سمكات مثلجة تتزاحم فوقها أسراب الذباب: "كش كش"، تطردها أمي حصّة. ناولتُ تينا طبق الرُّز وكأني غير موجود. قالت إنني أريد أن أسولف، وهي لا وقت لديها للسوالف. هي تعرف أنني أنتظر الإجابة. أرادت أن تتسلّى بفضولي كعادتها. أجابني سؤالا:

- "جاوبني انت بالأول.. ليش تسأل؟".

أردتُ أن أثير فضولها أستعجل ردّها:

- "أجاوبك بشرط تجاوبيني بالأول!".

سألني حازمة:

- "نلعب؟!".

أجبتها بنفاد صبر:

- "عشان أروح حديقة الحيوان".

هزّت رأسها تفتعل اهتماما. سألت بعدما ركزت نظرتها في عيني مباشرة:

- "وليش تروح حديقة الحيوان؟".

شعرت أن الأمر سوف يطول أكثر مما ينبغي، وقد تملكني الفضول لسماع إجابتها. أتوق لمعرفة اسم المنطقة، بإحدى الطريقتين، على لسانها. ليموت سؤالي فور ولادة جوابه. أجبتها كاظما غيظي:

- "عشان أشوف القروء!".

تهلل وجهها المجمعّد:

- "أصيل يا ولد.. صلة الرحم واجبة!".

* * *

يحدث الآن 12:43 PM

أديرُ محرّك سيارتي، أغادر حينًا القلم. بيت العم صالح ورائي. أتجه إلى مقرّ تجمعنا في الجابرية لربما وجدتهما هناك. أتجاوز شارع علي بن أبي طالب نحو جسر الجابرية. كان في ما مضى الشارع الوحيد في الكويت الذي يحمل اسمه، قبل أن تتكاثر الشوارع حاملة الاسم ذاته، شارع علي بن أبي طالب، إياه، في السُّرّة، تلحق اسمه في اللافطة عبارة "رضي الله عنه".. غيره في مناطق أخرى، الرميثية والدسمة والقرين، يُلحق الاسم في اللافتات بـ: "عليه السلام". مناطق كثيرة ما عدنا نعرف أسماءها بعد تسميتها من قبل السكّان بأسماء جديدة، وكأنّ الأسماء حكرٌ على طرف دون الآخر. لم يتوقف الأمر عند، عليّ، الاسم، راح البعض يطلق أسماءً على شوارعه، يتداوله نكاية بآخرين.. شارع يزيد بن معاوية وشارع ابن تيمية وشارع أبي لؤلؤة.

أدركُ الجسر بين منطقتي السُّرّة والجابرية. فوق نهر البين، كما يُسمي الأهالي امتداد الطريق أسفل الجسر، بين المنطقتين، بعدما طفح الشارع بمياه المجاري منذ سنوات. تجمعت فيه الأوساخ، تطفو على سطحه، مخلقة رائحة نفاذة تتركز الأنوف. تحطُّ تبّاعة الجيّف على ضفتيه تشرب من مائه. يقال، إن كل أولئك الذين اختفوا أو تمت تصفيتهم، منذ اندلاع مصيبتنا، يستقرون في قاع نهر البين. أهدئ

سرعة السيارة. ألح زحاما في مقدمة الجسر يُنبئ بوجود حادث سير أو نقطة أمن، يسمونها هكذا، رغم أنها تمنح الخوف وحده. لم يكن حادثا، هذا ما أتبيّنه عند اقترابي من الجسر. أرتبك. أتراهم عاودوا حظر العبور؟ ماذا عن الهدنة في يومها الثاني؟! مع اقترابي أكثر ألح العلم الأسود، يؤكد حدسي، يرتفع بين ملثمين يحملون بنادق. يتكثرون إلى أكياس رمل يقيمون حاجزا حديديا يعترض الشارع بين إطارين يشتعلان ينفثان دخانا أسود. الرائحة النتنة تزداد كلما اقتربت من الجسر. غريب أنني كلما شكوت من رائحة المياه العفنة يجيبني الأصدقاء: "أنت واهم!". وحده أيوب، من بين أولاد فؤادة، يضيق بالرائحة مثلي. أكمّم فمي وأنفي بكفي أواصل قيادة السيارة متمهلا. أخرج من تحت المقعد قطعة ورقية مربوطة بشريطة أحفظ بها لوقت الحاجة. صورة قلب أحمر يتوسطه اسم زوجة النبي، كُتب أسفلها: "أم المؤمنين رغم أنوف الحاقدين". أرفع يدي ممسكا بالشريطة أنوي عقدها حول مرآة الزجاج الأمامي. نسيت أنني أزحت الزجاج بحجر ظهيرة اليوم! أخفي الورقة مجددا أسفل المقعد وأستخرج بدلا منها رزمة منشورات دعوية كُتب عليها: "أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة، و..". أدير مؤشر المذيع على إذاعة أسود الحق. هي الطريقة الوحيدة التي تجنّبني الوقوع في مشاكل مع حياد اسمي الذي يصعب معه تحديد طائفة يفترض أن أنتمي إليها. أفتح زجاج النافذة أناول رجلا بلا لثام، يمسك بندقية، بطاقتي الشخصية: "الله بالخير". يتفحص بياناتي في البطاقة قبل أن يجيب: "وعليكم السلام ورحمة الله

وبركاته". يتفرّس ملاحى يُمسّدُ لحيته الكثّة. عابس الوجه. يشير
بسلاحه إلى كفى، يسألني لماذا أكّم مداخل الهواء في وجهي. أبرّر
بأن الرائحة تؤذيني. يلتفت كمن يبحث عن شيء. ينظر إلى
الإطارات المشتعلة. يشير إلى الواجهة الخالية من زجاجها يسألني عن
السبب. أهزّ رأسي أفعل أسفا: "أولاد الحرام.. كسّروها". يبدى
اهتماما لما أقول. يتفحص سيارتي من الداخل. تقع عيناه على رزمة
الأوراق. يسأل لصالح من أعمل؟ بوّدي لو أجيبه نحن أولاد فؤادة،
ولكن.. أنظر ناحية نافذة السقف. أشير بسبابتي إلى السماء. يهزّ
رأسه مستلظفا إجابتي. يستدير حول سيارتي يتفحصها. أنتهز فرصة
ابتعاده. أرفع صوت الإذاعة أكثر. يعود يناولني الرخصة مبتسما
ابتسامة لم تغير شيئا في وجهه. يحذرنى: لا أنصحك بدخول الجابرية
في هذا الوقت. أنظر إليه مستفهما. يوضّح: الرفضة يتربصون بنا.
هي واحدة من كلمات يستخدمونها وصفا لأعدائهم، رفضة؛ أولئك
الذين يرفضون الترضي على صحب النبي وزوجته عائشة، في حين
ترى الجماعة الأخرى أنها رفضة للباطل منحازة للحق. أومئ للرجل
برأسي أشير بسبابتي إلى السماء: ربك لا ينسى عبيده. أكمل إجابتي
في سرّي ناظرا في وجه الرجل: لو كنت أُمي حصّة، وأكون أنا
دوية! يسأل: معك سلاح؟ أهزّ رأسي: "الحافظ الله". يمتطّ شفّته
قبل أن يستدير يصرخ بأحدهم: "افتح.. افتح..". أقطع الجسر حتى
منتصفه. أحبُّ هذا المكان الوسط رغم زنخ المياه في الأسفل وعفونة
رائحتها. برزخ بين جحيمين. مكان وحيد أجدني فيه بعد إعلان
السُرة والجابرية منطقتين تعادي إحداهما الأخرى. أخفّف سرعة

سيارتي. ألتفتُ إلى اليسار، نحو حارة المشاة في جانب الجسر، أتذكرني هنا صغيراً تحت أشعة الشمس، أمضي بصحبة فهد عبوراً إلى الجابرية في رحلة مضية من أجل مؤسسة الحشّاش للفيديو. في هذا المكان كانت ترتفع ألواح كبيرة تحمل شعار "كي لا ننسى"، انتشرت في 1991، قبل تسع وعشرين سنة، واستمرت لسنوات. يبدو أنّها كثيرة تلك الأشياء التي لم تُنسَ، وكثيرة تلك الذكريات التي نصنعها اليوم، نصدّرها للغد، إن كان هناك غد، ولا أظننا ننساها.. ذاكرتي التافهة ترهقني! ألتفتُ، هرباً من داخل رأسي إلى خارجه. أنظر ناحية اليمين. أوقف سيارتي تجاوباً مع صراخ صبيّة، أسفل الجسر، تثني ساقها تجلس على ضفة نهر البين تحلق فيه. تضمّ كفيها إلى بعضهما. تصرخ: "ييه! ييه الله يخليك رد عليّ.. ييه تسمعني؟". تنطلق أعيرة نارية في الهواء. تهرب الصبيّة، بشعرها المنكوش وحقيبة تحملها على كتفيها، متعثرة بثوبها الأسود.

أرى، من منتصف الجسر، نقطة أمنية قبل آخره، ترتفع منها الأعلام الخضراء هذه المرة. أوارى رزمة الأوراق أسفل المقعد. أدرسُ إصبعي بخاتم عقيق أحمله دائماً في درج السيارة. أديرُ مؤشر المذياع على محطة أخرى، تنطلق منها أصوات جماعية تُنشد، على إيقاع منتظم للطم الصدور، أنشودة للإمام الحسين. أضغط بقدمي مداس الوقود حتى آخره قبل أن أكبس الفرامل بقوة، متعمداً أن تصدر العجلات صوتاً عالياً على الإسفلت. يتحلّق حولي ثلاثة فتيان ملثّمون يشهرون أسلحتهم نحوي: "إنزل.. إنزل!". أترجل بسرعة أتلفت إلى الوراء في هلع مفتعل: كاد أولاد الحرام أن يمسكوا بي

في الطرف الآخر من الجسر! يخفضون أسلحتهم. يبادر قائدهم: الله
يلعنهم نواصب أنجاس.. لا بأس، هدي من روعك. يلتفت إلى آخر:
أحضر له ماء. يطلب مني أن أستريح في مقعدي. أسرح في كلمته،
نواصب، أستعيد كلماتٍ تكررهما إذاعتهم عمّن يناصب العداء لآل
البيت. يناولني قنينة الماء. أرفع رأسي أعبُّ منها على عجالة بلا
افتعال للظما. أشعر بنزول الماء في جوفي باردًا. أخفضُ رأسي. ينتابني
دوار. يسألني الفتى إن كنت على ما يرام. أعزو سوء حالي لرائحة
المكان. يزيح لثامه يتشمّم الهواء. يسألني مستغربا: رائحة ماذا؟ أتجاوز
سؤاله. أختلق عذرًا. أرجوه أن يسمح لي بالمرور: أنا ذاهب لزيارة
مريض في مستشفى مبارك بالجابية. يفسح لي طريقا جانبية. يلوّح
مودعا: "الله ومحمد وعلي ويّاك".

أمضي أقطع الطريق وحيدا.

الفصل الخامس

تبعَت أُمِّي حِصَّةً إِلَى دَاخِلِ الْبَيْتِ فِي حِينِ كَانَتْ تَوَاصِلُ ضَحْكَهَا إِزَاءَ رَغْبَتِي الْكَاذِبَةِ فِي زِيَارَةِ الْقُرُودِ. كَانَ يَنْبَغِي أَنْ أُخْتَارَ حَيَوَانَاتٌ أُخْرَى. أُمِّي حِصَّةٌ لَا تُحِبُّ الْقُرُودَ. لَا تَرَى فِيهَا إِلَّا مَسُوخَ بَشَرٍ طَالَهُمْ سَخَطٌ مِنَ اللَّهِ. أَتَذْكُرُنِي مَرَعُوبًا. أَتَذْكُرُهَا خَاشِعَةً. وَقْتُ حَكَّتْ لِي عَنْ امْرَأَةٍ مَسَحَتْ مَوْخِرَةَ ابْنِهَا، بَعْدَ قَضَاءِ حَاجَتِهِ، بِرَغِيفٍ خَبِزَ. عَاقِبَهَا اللَّهُ بِأَنْ مَسَخَهَا فِي صُورَةِ قُرْدٍ. كُلُّ الْقُرُودِ فِي أَصْلِهَا إِنْسَانٌ رَفَسَ النِّعْمَةَ، كَانَتْ تَقُولُ.

تَجَاوَزْتُ الْمَرَّ الصَّغِيرَ مُقَابِلَ بَابِ الْمَدْخَلِ مَرُورًا بِالصُّورَةِ الْمَثْبُتَةِ إِلَى الْجِدَارِ. هُمْتُ فَوْزِيَّةً تَقْبُلُ جَبِينِ وَالِدَتِهَا. أَعْمَضْتُ عَيْنَيْهَا تَسْتَلُّ نَفْسًا طَوِيلًا تَشْمُ دَهْنَ الْعُودِ فِي أَمْهَا. ذَكَرْتُهَا: "يَا نَظْرَ عَيْنِي، أَخَذْتَ الدَّوَاءَ؟". ابْتَسَمَتْ أُمِّي حِصَّةٌ تَهَزُّ رَأْسَهَا إِيحَابًا. تَسْأَلُهَا: "وَأَنْتِي؟". أَجَابَتْهَا فَوْزِيَّةٌ تُطْمِئِنُّ: "وَأَنَا". بَدَأَ أَنْ أَلَامَ غَيْرَ مَرْتَابَةٍ لِإِجَابَةِ ابْنَتِهَا. قَالَتْ: "الْجَاكِلِيَّتِ وَالْكَاوِ يَا فَوْزِيَّةَ.. لَا تَشْقِينِ قَلْبِي أُمِّمَتِكَ!". عَاوَدَتْ فَوْزِيَّةَ مُعَانِقَةً أَمْهَا فِي صَمْتٍ.

وَقَفْتُ أَمَامَ خَزَانَةِ التِّلْفِزِيُونِ أُبْحَثُ عَنْ صُورَةٍ جَدِيدَةٍ تُقَطِّطُهَا

خالتي عائشة لفهد. لم يخطئ حدسي إذ وجدته في صورة جديدة يغتصب ابتسامة لكاميرا أمه. كان التلفزيون يُظهر عبدالكريم عبدالقادر، بعقاله المائل وإيماءات يديه الشهيرة، في أنشودة "عصفورة ووردة"، شأن كل يوم جمعة. العم صالح كما هو دائما في صباحات العُطل، بدشداشته المنزلية المُقلّمة والطاقيّة البيضاء. رغم وجود الأرائك حوله في غرفة الجلوس، يقرفص أرضا فوق سجّاد فارسيّ سماوي الزرقة، أسفل ثُريرة كريستالية ضخمة. يشرب الشاي بالحليب. لطالما برّر جلوسه على الأرض الصلبة بأنه أفضل من الأرائك اللينة التي تسبب آلام ظهره. وكانت شكواه من آلام الظهر تزعج أمي حصّة: "الله يخلف عليك! هذا وانت عمرك ثمانية وثلاثين!". تناكفه، تعزو سبب آلامه إلى استحمامه بعد منتصف الليل. لم أكن أعرف سببا لضحكه وعتبه: "يمّه!"، ولم أفهم الداعي لاحمرار وجه خالتي عائشة لا تبدي تجاوبا مع قول العجوز. أشياء كثيرة لم أكن أفهمها، مثل الصُحف الثلاثة المهمة على الأرض إلى جانب عمّي صالح، لا يهتم بقراءتها، فلا شيء في الصُحف يستحق كما يقول، ولا تصلح لشيء عدا أن تكون مفرشا تحت أطباق الطعام منذ فُرِضت عليها رقابة حكومية مسبقة. أنا أحفظ فقط ما يقول، لست مثل فهد وصادق يفهمان كل شيء عن الرقابة وعن البرلمان المُعطّل. أعرف أن عمّي صالح يتحرّى يوم الإثنين من كل أسبوع، مثل أمي حصّة، هي تصوم يوم الإثنين، وهو يخرج مع رجال كثيرين يحملون لافتات، ولكنني لم أكن أدري ماذا يريدون.

يجلس فهد وراء أبيه على أريكة في الزاوية، بدشداشة بيضاء، ممسكا بمقصّ، غائبا في متعته في مثل قطّ يعبثُ بيكرة صوف.

منهمكا بتصفح مجلة "الرياضي". لا داعي لسؤاله عما يشغله وأنا أدريه يبحث عن صورة لاعبه الأثير، مؤيد الحدّاد، ليضمها إلى مجموعة صورهِ على جدار غرفته. وكأنني أرى وجهه الآن، بسُمرته وعينيه السوداوين الواسعتين وخدّيه الغائرين وشعره الناعم الفاحم. ربما كانت تلك أسعد اللحظات بالنسبة إليه ينظر إلى صور الحدّاد في المجلة بين يديه، منصتا إلى صوت عبدالكريم في التلفزيون يغني: "الحمد لك، والشكر لك يا الله". يرفعُ رأسه عن المجلة. يضعها على فخذه. ينظر إلى الشاشة. يضيقُ عينيه. يومئ بيديه يعزفُ على أوتار عودٍ غير مرئية، متماهيا مع نموذجهِ الأعلى في الغناء. انتهت الأغنية. سكّت غرفة الجلوس إلا من دويّ الكنديشة وموسيقى برنامج الشيخ متولي الشعراوي تعلن بدء حلقة الأسبوعية. يحرص أبو فهد على متابعتها قبل ذهابه إلى المسجد لصلاة الجمعة.

صورة الدين، زمني ذاك، بعيدا عن فصول الدراسة، هو ما أتلّقاها من التلفزيون في البرامج الدينية، وما ألتقطه من صور وأصوات ترك أثرها في نفوسنا قبل الكلام، ثمّه للكلمة الطريق قبل لفظها.. بساطة الشيخ الشعراوي مقرفصا على مقعده الخشبي المزخرف.. هلدوء الشيخ خالد المذكور في برنامجه "مع الإسلام".. حنجرة الشيخ علي الجسّار المتعبة على الدوام في برنامج "حديث الأسبوع"، وصوت المقرئ أحمد الطرابلسي يتلو القرآن إذا ما افتتح تلفزيون الكويت بثّه صباح كل يوم. سوف يأتي زمن أجترُ فيه هذه الصورة، ولا أتعرفها.

تقدّمتُ نحو عمّي صالح أقبلُ رأسه. أنفه الطويل المعقوف يوشك أن يسبق شفّتيهِ إلى كوب الشاي بالحليب. رائحة الهيل وخبز

التنور والبيض والنّخي تستدر ريقِي. التفتَ إليّ بلُغْدِه الممتلئ يسأل شامتا: كسر الأولاد سِنِّكَ؟ زعمتُ شفِيّ أَلْتَفْتُ إلى فهد أستفهمه. غاصت رقبته بين كتفيه من دون أن يفوه بكلمة أو ينظر صوبِي. استطرد أبو فهد: "لو كنت مكانهم كنت كسّرت راسك!". همّت أُمِّي حِصّة بالجلوس قرب ابنها وصينية الشاي. نظرتُ إليه تعاتبه بحدّة. تذكره بحديث دار بينهما في المزرعة: "إش قلنا أمس؟!". لم يبال. استطردت: "خاف الله يا صالح!.. جهّال صغار لا تشبّها بينهم!". أجابها مُبرّرا: "خليهم يعرفون إللي لهم وإللي عليهم يُمّه". لا أنسى ملاحها الجادة وهي تتفرّس وجهه تقول: "النار.. ما تورّث إلا الرماد". فهمتُ سبب قهرها من سؤالي عن موقع حديقة الحيوان. أخبرهم فهد عن مشاجرة المدرسة قبل يومين. عمّي صالح أصبح كائنا آخر بعد فجيعة بفقدان والده في تفجيرات المقاهي الشعبية قبل ثلاث سنوات. بعد سنوات سوف أعرف أقوالا تضاربت حول تنفيذها. قيل إنها من تدبير جماعات موالية لإيران انتقاما من موقف الكويت المساند للعراق في حرب الخليج الأولى. إيران تمثل طائفة. العراق تمثل طائفة ضد. أجابها عمّي صالح ساهما: "هُم إللي شبّوها.. يُمّه". أشار لهم، كما فعل الصبي في غرفة الأخصائي الاجتماعي قبل يومين، بِـ هُم! زاد فضولي حول هُم! سكبتُ أمّه قليلا من الشاي في صحن الاستكانة، قبل أن تشربه، تُبرّده على طريقته. قالت: "خبول! هُم يتذابحون هناك.. وانتو تقلدوهم هني". شرعت تتحدث عن الحرب العراقية الإيرانية. أتذكرها تصمت. تُحدّق في استكانة الشاي في يدها. تُفكّر. تتحدث عن سريلانكا وعن لبنان:

"باكر يخفشنا الله مثل الخبول!". تنظر إلى عمي صالح: "وباكر تشتغل زوجتك خدامة في البيوت!". ضحك ابنها لقولها، في حين اكتفت هي بالصمت. بقيت كلماتها سنوات طويلة تتردد في أذني عن حروب أهلية أشعلها الخبول، على حدّ تعبيرها، من التاميل والسنهال في سريلانكا، ومن المسلمين والمسيحيين في لبنان! يناكفها عمي صالح بقوله إنها إذا بقيت تنصت إلى حكايات تينا سوف تحدث السريلانكية بطلاقة: "تينا غسلت راسك يُمّه!". تجاهلت تعليقه. فرغ فهد من قصّ صور الحدّاد من صفحات المجلة. راح يعبث بالمقصّ يفتح فكّه في الهواء ويطبّقهما. صرخت به جدّته تأمره أن يكفّ عن جلب الشؤم والمشاكل إلى بيتها. قطّب حاجبيه لا يفهم ما تقول. راحت تحدّثه عن خيوط خفية تربط أفراد البيت ببعضهم. من شأن عبثه بالمقصّ أن يقطع أحدها من دون قصد. ضحك حفيدها. زجرته. نهضت تشير إلى ما بين فخذيها بإصبعيها منفرجين: "أقصّ خصاصيك!". أطبق فخذه. ضمّ ركبتيه إلى صدره يتوسل إليها: "توبة توبة!". أخفضت صوتها تشتمه على طريقتهما: "يهودي!". نظرت إلى ساعة الحائط ذات البندول. التفتت إلى فهد في زاويته تحته على الخروج بصحبيتي: "لعبو في الحوش"، ما دام لدينا متسع وقت قبل صلاة الجمعة. مطّ فهد شفّتيه في خيبة يناكفها: "لازم نروح الصلاة؟". هزّت سبابتها تحذره: "لا تروح.. عشان تطيح السما فوق روسنا!". سألتها كيف، إن لم يفعل هو، تسقط السماء على رؤوسنا نحن؟ أطرقت تفكّر: "نموت كلنا.. نروح للجنة وهو للنار.. يا الله برّه". قالت لعمي صالح: "يا كثر ما يسأل هالوكّد!". صاحت، قبل

خروجنا، تُذكر فهدًا: "لا تتأخر.. الغدا مطبق سمك يا قَطُور المطابخ".
تَهَلل وجهه. باعد بين أصابع كفيه يخرش الهواء يجيبها: "مياااو!"،
وهو الذي ما أَحَبَّ أكلة في حياته كتلك التي سَمَّتها جدَّته يومنا
ذاك، والتي جعلته قِطَّ مطابخ بامتياز، لا يبارح البيت إذا ما تحسَّس
أنفه زفر السمك في مطبخ تينا. نظرت أُمِّي حِصَّة إلى وجهي تفتعل
شعورا بالخرج: "سامحنا يا وليدي.. ما عندنا موز!". دفعها تعبيرٌ على
وجهي، ربما، لأن تفتح ذراعيها: "تعال". ضمتني إلى صدرها.
همست في أذني: "لا ترعل وتقاطعنا مثل أمك.. أنا أضحك معاك
يا وليدي".

في الحوش، قريبًا من سِدرة أُمِّي حِصَّة، أخبرني فهد بأن جميع
من في البيت قد عِلِم بمشاجرة المدرسة قبل ثلاثة أيام. كان مثلي،
يضجُّ رأسه بالأسئلة. "هذي سواف ما تنفعك"، أجابته جدَّته تحثه
على الانصراف عن أمور لا تجلب إلا عَوار الرأس وضغينة القلب.
"باكر كلنا نموت ونخليك يا وليدي.. ربَّعك عزوتك!". أشار فهد
إلى برحِية وسعمرانة وإخلاصة وراء سور الحوش: "أُمِّي حِصَّة تقول
كونوا مثل بنات كيفان..". نظرتُ إلى حيث يشير. أنصتُ إلى
حديث أُمِّي حِصَّة، بلسانه، حول نخلات ثلاث انتقلتُ سوية من
بيت كيفان القلم إلى بيت السُرَّة الجديد، ولم تُمت بموت صاحبها.
"توعدي؟"، سألته جدَّته. أجابها: "والله". حذَّرتُه: "إن قلت والله
وكذبت.. تطيح علينا السما!". لا شيء مما تقوله أُمِّي حِصَّة يقوله
عمِّي صالح. علاقة الجارين لا تشبه علاقة أُمَّيهما ببعض. هو يحترم
أُمِّي زينب، والدته جاره اللدود. يُبرِّرُ السبب وراء احترامها، كما

أخبرني فهد، إلى والدة أُمي زينب التي لا نعرف عنها شيئاً عدا اسمها،
حَسْبِيَّة، والتي ليست مثلكَ هُم!

لَا مَ أَبُو فهد ولده على توريط نفسه بمصاحبة صادق. نصحه أن
يتحاشاه. حدّثه عن رأي علماء دين تجاه صادق وعائلته.
"كَفَرُوا هُم!". تخيلت العمّ عبّاس والخالة فضيلة بثياب سوداء ووجوه
عابسة يرميان الأشواك في طريق النبي، وفق صورٍ منفرة يظهر فيها
الكفار في الأفلام والمسلسلات. حذرته بالألا يخبر صادقاً بما قاله أبوه!
أجابني على الفور: "عادي.. قال صادق، إن عمّي عبّاس يقول، إن
أهل البيت يلعنوننا". سألته مندهشاً: "أهل بيت عمّي عبّاس؟!". رد
ضاحكاً: "لا يا حمار! أهل البيت إلّٰي يعبدهم عمّي عبّاس وخالتي
فضيلة وأُمي زينب وصديق وحوراء!".

أطرقتُ أفكراً بما يقول. ذكّرني: "نسيت اسم جدّ صادق؟".
أجبتُه من دون تفكير: "عبدالنبي!". هزّ رأسه مؤكداً: "فهمت؟!".

يحدث الآن 1:08 PM

أترك سيارتي أسفل البناية في الجابرية. هدوء لم تصوره لي حواجز الجسر حين عبرته قبل قليل. أترجل أجزّ رجلي العرجاء نحو المصعد. أكبس أرقام الطوابق 4 و 6 و 8، تمويهاً، قبل أن أكبس على رقم الطابق الأخير 10، حيث مقرّ أولاد فؤادة. اعتدتُ حيلتي هذه رغم تأكيد بعض ما يردنا من تهديدات عن انكشاف موقع مقرّنا. الحكومة نفسها أرسلت لنا ما معناه: لا نتحمّل مسؤولية ما قد يصيبكم. لطالما رجوت أولاد فؤادة أن ننقل المقر إلى منطقة محايدة بعيداً عن السُرّة والجابرية، ولكن! أستندُ بثقلي على ساقٍ واحدة أريحُ رُكبتي. أنظرُ إليّ في مرآة المصعد؛ أنا جثة تمشي على قدمين. أعرجُ بشعرٍ مُغيرٍ وسِنٍّ ساقطةٍ ودمٍ متحجّرٍ أسفل شفتي. أتمنى لو أن المصعد تابوت، يتجاوز طابق البناية الأخير صعداً إلى السماء.. يأخذني هناك عند.. أستغفر الله. هل صحيح أن السماء، كما أخبرتنا أمي حصّة صغاراً، كانت أكثر قرباً؟ يتوقف المصعد عند الطابق الأخير. خطواتي ثقيلة، وكأن أرض الممر المفضي إلى الشقة مدهونة بالصمغ. الباب مشرع. ورقة مُلصقة على الجدار بقربه: "الدين غفلة!". أنظرُ إلى الورقة أتفحصها، ممهورة بشعار شبكة الملاحدة، كما صاروا يُسمون أنفسهم مؤخراً، متخلين عن تسمية قديمة مهدّت لظهورهم. لم يعد نشاطهم حصراً على الإنترنت. صاروا يطوفون

المساكن والأماكن العامة يوزعون منشوراتهم. لم يصدق أن شاهدنا أحدهم يقوم بالدور. كنا كلما أزلنا منشورا ظهر الآخر كأنه ينضح من الجدار. أنتزع الورقة. أمزقها. أتقدم إلى الداخل أحمل فارق توقيت بين نبضات قلبي وخطواتي. "يا شباب!". أمضي في الشقة أفتح بابا تلو آخر: أي أحد هنا؟ لا أحد إلّاي وأجهزة الكمبيوتر، وطابعات التصوير، وجهاز الإرسال، موصولا بالإنترنت، لا يزال يكرر أغنية أهديناها المستمعين مع ختام بثنا الإذاعي بعد منتصف ليل أمس: "هذي بلادٌ تطلب المعالي..". إلّا الإصرار على ما لن يُغيّر؟ ينضح واحدنا كحبة التمر، ظاهرها لينة ونواتها أقسى من أن تلين. نواصل إخفاء ما بداخلنا، بعد عجزنا عن إصلاحه، بأغنيات لفظت أنفاسها الأخيرة منذ سنوات. وكأننا اجتمعنا في هذه الشقة انتقاما من ماضٍ كاذب بخداع حاضر أحق، نعيد بث أغنيات منتهية الصلاحية. نسعى لخداع جيل مقبل كي لا نشعر بأننا، وحدثنا، من انطلت عليه الخدعة.

يفزعني رنين هاتفٍ المحمول، فجأة، يومض باسم أيوب: "ألو! ها؟ أي أخبار؟". أندفع بسؤال. يتردد قبل أن يجيب: أخبارٌ لا تُسرّك. أسأله بعد أن ألقى بثقلي على كرسي قريب: صادق أم فهد؟ يطمئني ليعاود طعني: لا هذا ولا ذاك.. انسَ أمر الهدنة. اشتباكات في المنصورية، اضطرت قوات الداخلية لفضّها مُسـ...! شعور بالطمأنينة يتأبني لتدخل القوات التي ما عاد عددها يكفي للسيطرة على الوضع في البلاد. شعوري لا يستمر طويلا إذ يختم أيوب جملته: مستخدمة السلاح. لا أفوه بكلمة. يستطرد: أخبار عن مقتل رجال

أمن وأفراد من كلا الطرفين. الأغنية في جهاز الإرسال لا تزال:
"الحمد لله جزيل الفضل.. لما حمانا من ظلام الجهل". يردف: معتقل
التحرير يغص برجال يُشتبه بتورطهم. يستطرد: رصدت وزارة
الداخلية مبلغ عشرة آلاف دولار أميركي لمن يُبلغ عن القتلة. يواصل
مازحا: خمسمئة ألف دينار كويتي.. مبلغ محترم! يتجاوز صمتي
يسألني عن صادق وفهد. أخيره بسهرة البارحة حتى فجر اليوم. ألزم
صمتي عما انتهت إليه الأمور في الساحة التراية في منطقة الروضة.
يكتسي صوته جدية يدفعني أواصل. أعده بأن أخيره تالياً. أنا نفسي
غير قادر على البوح واستعادة حادثة الفجر. يُخمن بأنهما تشاجرا
كعادتهما. أجيبه: "تقريباً". يشرع يطمئنني رغم قلقه وانفعاله إزاء
صمتي: لا تقلق. أنت تعرف صادقاً، كلما غضب أغلق هاتفه يختفي.
سألته: "وفهد؟". قلقه يعتصره أدري، ولكنه كعادته باردٌ يهوّن
الأمور. يفتعل ضحكة تنفحني برودتها: قِطٌ بسبع أرواح، ما الذي
سوف يصيبه؟ تجده الآن في أحد المقاهي يلعن حاله وحال زوجته.
أتذكر قِطَّ المطابخ فهد، وفق تسمية جدته، بوجهه القلدم. أنفجرُ
أشتم الجميع. أشتمي. أشتم صادقاً وفهداً، وأحوالنا التعيسة وهذه
البلاد. يطلق زفرة طويلة يقول: هوّن عليك! أهمسُ: يا صبر أيوب.
يجيب مازحا: دعك من صبري وانشغل بصبرك! يختم مكالمته آمراً:
استأنف بثّ البرامج. وأعلن؛ اليوم بعد المغرب، مقابل النادي
العربي في المنصورية، اعتصام "آتية 40" للتنديد بأحداث اليوم.
يجب أن نحشد له! لا يزال ينادي "آتية" وكأنها لم تأت منذ سنوات!
برنامجي في التاسعة مساءً، ولا يمكنني المكوث هنا حتى ذلك الوقت.

سأقدم وصلة فهد، بدلا عنه، لأن هذا أوانها. بتُ أكره عملي هذا.
كره المستمعون صوتي. صرتُ مثل تَبَاع الجَيْف أنعب فوق الخرائب.
أدنو بمقعدي إلى جهاز الإرسال. أقوم بثبيت السماعات إلى
أذني مقربا وجهي أمام المايكروفون بعد أن أتأكد من توصيل البث
بموقعنا على الإنترنت. أخفضُ صوت الأغنية الوطنية جاعلا منها
خلفية لصوتي. أغمضُ عيني على وجه فهد القلسم: "السيدات
والسادة المستمعين.. نعتذر عن هذا الخلط الطارئ، ونستأنف بث
برامجنا بدءاً بفقرة حديث اليوم، قبل نشرة الثالثة عصرا بعد نصف
ساعة من الآن". أنتقلُ إلى موسيقى البرنامج في فاصل لا يتجاوز
الدقيقة. أجهز خلالها واحدة من قصائد سجلها فهد بصوته، يرافقه
عزفه على العود لأشهر أغنيات عبدالكريم عبدالقادر. أستأنفُ
التقديم: "يعتذر زميلنا عن تقديم برنامج هذا اليوم، ونبدأ البرنامج،
نيابة عنه، بقصيدة يلقيها بصوته.. قصيدة للشاعر خليفة الوقيان".
أنتقلُ ثانية إلى الفاصل الموسيقي. تردني خلاله، عبر هاتفي، رسالة
نصية من أيوب: "صوتك يرتعش. تحكّم بأعصابك يا أخي!". ينطلق
صوت فهد منفعا يلقي القصيدة:

المجد للظلام

للصوص السارقين من فم الرضيع

لثغة الكلام

الغاصبين من جفون أمّه

شهية المنام

أنتبهُ إلى وميض هاتفي المحمول ينبهني لاتصال أيوب مرة أخرى. أتجاهله. ينكسر صوت فهد بأداء تعبيري فائق:

الفخرُ للسهامِ
للحرابِ الظامئاتِ للدماءِ
تلوبُّ في الدروبِ
يقتفي حنينها
حمام السلام

هاتفي لا يزال يلحُّ باتصالات أيوب بشكل يقلقني. يلحق اتصالاته برسالة: أوقف بثَّ القصيدة فوراً! يرتفع صوت فهد:

النصرُ للرممِ
للخارجين من حفائرِ العصورِ
سطورهم شواهد القبورِ
وجوههم ملامح الحجرِ

يكفُّ أيوب اتصالاته. لا تستمر شاشة الهاتف بظلامها طويلاً. تضاءُ برسالة: "الحمد لله. أنا وأبوك، ألحين نسمع صوتك في الإنترنت". تُلحق كلماتها رجاءً بأن أكفَّ عن عنادي. أواصل نشاطي في لندن، ثم أعود لاحقاً إلى الكويت. على من تكذّبين يا والدتي، عليك أم عليّ؟ وأنتِ تدريني إن تركتُ مكاناً أحبيته لا أعود! تردني رسالة أخرى من أيوب: سأعاود الاتصال.. اخرج بفاصل موسيقي وأجيني على الفور!

النصرُ للعدمِ

للسائرين في جنازة الربيع

النائمین حین تنہضُ الجموعُ

كَأَنَّهُمْ سَوَاءٌ إِلَيْهِمْ

بعد رسالة أيوب الأخيرة، يدنو ختام فهد للقصيدة. أقرّر الردّ على اتصالاته. يجيء صوته مرتفعاً، يصاحبه صوت فهد ينطلق من مذياع بالقرب منه: أنت مجنون؟ المجدّد للظلام؟! أجيبه ببرود فاق ما اعتدناه منه: المجدّد لمن إذن؟ يدعوني أكفُّ عن الجنون. حالتي النفسية، وفق رأيه، لا تبرّر، أبداً، ما أثبته للمستمعين. أقول له إنها ليست حالتي النفسية، إنما حالة وطن يلفظ أنفاسه الأخيرة. يُردّد لنا حزينا: "تيرارارارارارار"، قبل أن يجيئني بغضبٍ فشل يخفيه: على رأي صادق، أنت تحب الدراما..

يُخبِر صوت فهد، عبر جهاز الإرسال، خاتما:

الموتُ للقلمِ

لِكُلِّ رِيْشَةٍ وَفَمٌ

إذا تفجرت منابع الألم

أنتقلُ إلى فاصل موسيقي. أنصتُ إلى صوت فهدٍ متأخراً، عبر
مكالمة أيوب، بفارق ثوانٍ عن جهاز الإرسال أمامي. أطمئنته: ها هي
القصيدة وقد انتهت. يرقُّ صوته يقول: ليس هذا أوانها. يرتفع
صوتي: وليس أوان بلاد تطلب المعالي! يذكرني بأن مقرّنا لم يعد

سرّيًا. ليس في وسع الحكومة توفير حماية. نحن مرصودون. ويجب ألا تنسى تهديدات الجماعات الدينية. أذكره: ولا تنسى الجماعات الدينية التي في صفّنا. لا ييالي. يجب: الغلبة للصوت المرتفع. أجيبه منفعلًا كيف يُصدّق أنهم يقدمون على حرق مقر أولاد فؤادة؟ يكرّر الاسم ضاغظًا على حروفه: أولاد فؤادة، بالمناسبة! يقول، قبل قليل كتّب أحدهم في الإنترنت تعليقًا على اسم جماعتنا: لن يفلح قومٌ ولّوا أمرهم امرأة! أردف يسألني: فؤادة امرأة؟!

يُعجبه قوله. ينفجر ضاحكًا. أصرخُ به:

- "الأمر ما يضحك!"

يتجاوز ردّي يسألني عن الحديد حول مسودة روايتي إرث النار.

- "ولا شي..".

أحب أن أستمع إلى أيوب جادًا. يقترح للمرّة الألف:

- "انشرها باسم مستعار. فكّر في الموضوع".

لو أنه يدري بأن اسمه واحد من بين الأسماء التي جاءت صريحة في أوراق الرواية، على عكس دأبي في تغيير الأسماء في نصوص نشرتها سابقًا. لو كنت تدري بأنك أيوب، يا أيوب، في روايتي، أتراك تنصّحني بكتابة اسمي مستعارًا على غلافها؟

يستطرد متجاوزا صمتي. يرجوني ألا أنسى نشرة الثالثة. سوف يُعد تقارير موجزة، بما تسمح به الرقابة، لجريدة "الراي" عن اشتباكات اليوم، ثم يرسل لي تقارير كاملة للإذاعة عبر بريدنا الإلكتروني. يعود لاحقا لإعداد تقرير عن تظاهرة المنصورية المحتملة يُحدّثُ بها الموقع الإلكتروني. أسأله: أيوب، هل مازلت مؤمنا بجدوى عملنا؟ يكتسي صوته جديةً: أكثر من أي وقت، يا رجل! اسم أولاد فؤادة، الذي سخرنا منه قبل سنوات، صار شعارا يحمله الناس في الشارع. دع غيرك يسأل هذا السؤال. يختم راجيا: أرجوك اترك المايكروفون واستعن بأغان وطنية إن كنت في مزاج سيء. اترك عنك القصائد المستفزة. أنت تفهم قصدي. إن سلّمنا من الرقابة الحكومية لن نسلم من الآخرين.

أغانٍ وطنية! بات واحدنا يتساءل وهو يستمعُ إلى أغنية وطنية.. عن أي وطن يتحدثون؟ أهني المكالمات. أواصل تقلم فقرة حديث اليوم، تارة بصوتي، وأخرى بتسجيلات صوتية مُعدة سلفا بصوت فهد. أرسلُ، عبر الهاتف، رسالة لضاي، أستنجد به للحضور وإكمال ما تبقى من برامج اليوم. أنا مضطر لترك المكان في أقرب وقت.

يهاتفني ضاي. يبادرني بـ "يا وَجُل" على طريقة لسانه الثقيل في لفظ حرف الراء. يستطرد: كنت أستمع إلى "حديث اليوم". بدا صوتك منفعلا. ولكن، حسنا فعلت. كانت حلقة مميزة.

"أتراه استمع إلى القصيدة؟"، أسألني، وأنا الذي أعرفه متحفظا على هذا النوع من القصائد، "قصائد يُساء تأويلها"، كما يقول

دائماً. أنصرفُ عن تساؤلي ملتفتاً إلى تنبيهه في آخر المكالمة. يطلب مني أن أستخدم السلام إن كنت أنوي ترك المقر بعد الغروب، لأن الحكومة، على حد قوله، ستعاود قطع الكهرباء في بعض المناطق مساءً، كي تجبر الناس على البقاء في بيوتهم خشية تفاقم الأمور. مسكين ضاوي يقلقه أمر قطع الكهرباء دائماً. سنوات طويلة مضت، منذ رحيل والده، لم تبددْ خوفه المزمّن من الأماكن المظلمة. ما رأيته يدعو الله خاشعاً كما يفعل عند دعائه: "اللهم هوّن علينا ظلمة القبور". أطمئنه بأنني لن أبقى هنا إلى وقت الغروب. أبرّر: لأنك سوف تأتي إلى المقر حالا لتكمل بثّ البرامج يا شيخ.

يبدو لي، من صوته، أنه يتسم، وهو الذي يصرُّ على أن ذقنه الطويلة لا تؤهله لأن يكون شيخاً: أنا حاضر، أمهلني فقط لأغير ملابسِي. أنبّه: اسلك طريقاً آخر غير الجسر بين السُّرّة والجابرية. يظنني أحذره من روائح نهر البين. يجيبني: يا أخي لا أحد يشمُّها عداك وأيوب، أنتما واهمان! ليست الرائحة دافعي لأطلب من ضاوي تجنب المرور بالجسر، ولكن اسمه، في البطاقة الشخصية، ولحيته الكثّة يكفلان له عبور الحاجز الأول بسلام، إنما حتماً يوقعانه في مشاكل عند الحاجز الثاني في نهايته. لو أخبرته سوف يسلك الجسر عناداً. لطالما رجوته أن يصدر بطاقة شخصية أخرى باسم مُزوّر، يحذف منها لقب القبيلة، تجنبه المشاكل عند بعض الحواجز، ولكنه دائماً محقٌّ حين يجيب: فعلها أبي من قبل، ولم ينفعه اسم مُزوّر! يؤكّد، حتى لو كان تزوير الاسم مجدياً، فإنه لن يفعل. أتذكر روايتي قيد النشر. نصيحة أيوب. بين اسمي واسم مستعار. اتصالات الناشر اللبناني.

نصيحته بحذف فصول أربعة تلافيا للمنع. أطرده أفكاري. أذكره: لا تنس أن تحضر مصباحاً يدوياً وشموعاً. وكأنه نسي خبراً نقله إليّ للتو. يسألني لماذا؟ أستعير لسانه متخلياً عن "الراء" لصالح "السواو": يا وِجُل.. الحكومة سوف تقطع الكهوباء! يضحك. يُنهي المكالمة ساخراً:

المجد للظلام!

* * *

يحدث الآن 2:42 PM

لا يكاد يرتفع أذان العصر ينثر شيئاً من طمأنينة، حتى يصمُّ أذنيّ
دويّ انفجار في مكان قريب، يهزُّ أرضية الشقة، تاركاً صغيراً عالقا
في أذنيّ، وتصدّعات على زجاج النافذة أمامي. يتبع الدويّ صوت
إطلاق أعيرة نارية. أجدني على أربع فوق الأرض. هل سقطت علينا
السماء وقت إعلان الهدنة؟! الطف يا رب. أحبو نحو الجدار. أستند
إليه مادّاً عنقي إلى النافذة المطلة على الشارع. أستطيع أن أشاهد
بوضوح، بين تصدّعاتها، سحابة دخان كثيفة في آخره، تخرقها تباعة
الجيف مهتاجة. يهاتفني ضاوي فزعا وقد خرج من بيته للتو: هل
سمعت الانفجار؟! أجيبه بأنني سمعت، وبأنني أشاهد، الآن، ما خلفه
من دخان وغبار يتصاعد خلف إحدى البنايات الكبيرة. يجيبني:
يا ساتر، غير معقول! ظننت أنه، من شدّة الدويّ، قد حدث هنا في
الفيحاء. أتوسل إليه، مادام في الفيحاء لا يزال، أن يقفل عائداً،
حفاظاً على سلامته، فالأمور باتت أكثر تعقيداً. يصرُّ على المجيء
متعللاً بأنه قد سلك الدائري الرابع ولم يعد يفصله عن مدخل
الجابرية، شارع تونس، سوى مسافة قصيرة. صوت الأعيرة النارية
مستمر. لا أنهي المكالمة إلا بعد إذعانه لإلحاحي: خلاص، اطمئن ها
أنا في طريقي إلى البيت ثانية. يختم محذراً: إياك أن تترك المقرّ!

أكرّر اتصالاتي بصادق وفهد. لا جديد. أيوب لا يرد على هاتفه يضاعف قلقي. أصوات سيارات الإسعاف والإطفاء تتخلل أصوات الطلقات. هاتفي يتلقى اتصالاً من رقم مجهول، يشي الأربعة والأربعون في بدايته أنه من لندن. لا أرد. أجوب الشقة جيئة وذهاباً كمن ينتظر، في ممر مستشفى، إفاقة قريبٍ يرقد في غرفة العناية الفائقة. لو كان الأمر كذلك لكان الحزن. كل مصيبة تنثال على رؤوسنا نؤمل أنفسنا بأنها الأقسى والأخيرة، ولكن المصائب تأتي إلا أن تتهافت علينا أرتالا تلجم آمالنا. ترفع أصابعها الوسطى في وجهه هدنة مزعومة.

* * *

الفصل السابع

نحالي عائشة، تمسك قلمها الأحمر، تصحّح كشكيل تلميذاتها في زاوية غرفة الجلوس. صارمة الوجه كما هي دائما. لست أدري كيف تطبقها التلميذات في الفصل. امرأة لا تضحك لا تبكي. صادق وفهد وأنا، نستلقي على ظهورنا في أرضية الغرفة. أذرعنا مشية تحت رؤوسنا. نسدُّ أقدامنا الصغيرة إلى الخزانة الخشبية أسفل جهاز التلفزيون. فوزية على أريكة نصف مستلقية. تينا، في زاويتها عند السُّلم تجلس على عتبته الأولى. نتابع حلقة من مسلسل "على الدنيا السلام"، كانت فوزية قد سجّلتها على شريط فيديو. أحببنا هذا المسلسل التلفزيوني أكثر من أي مسلسل آخر، حبّا يشوبه اعتزاز، لأن تصويره تم في منطقة السُّرة حيث نسكن. كنا، ثلاثنا، إذا ما سلكنا شارع طارق بن زياد، بين الساحات التراية مترامية الأطراف، مشيا على الأقدام، نشير إلى مواضع مختلفة منه بحبور؛ هنا كانت حياة الفهد وسعاد عبدالله، بطلتنا المسلسل، في مشهد نهاية الحلقة الأخيرة، تجريان هربا من الفئران، تلوذان بمسشفى المجانين! يقترح فهد اسما جديدا للشارع عوضا عن طارق بن زياد. الأولى أن

يكون اسمه شارع طارق عثمان، نسبة إلى مؤلف المسلسل. تقطع فوزية أمنية ابن أخيها: طارق عثمان فلسطيني، ليس كويتي! يسألها: "وطارق بن زياد.. كويتي؟!". لا تجيب. كنا نجلس ساعات طويلة، نستند إلى سور مدرسة عبدالمحسن البحر الابتدائية، المحاذي لشارع طارق بن زياد، مقابل المبنى الأحمر لمستشفى الطب النفسي في المسلسل، ننتظر ظهور إحدهما، محظوظة أو مبروكة، من دون جدوى. نحث الخطى مسرعين إلى بيتهما. ننتظر ساعات لا يخرج منه سوى أصحاب البيت الأصليين، يضحكون كما لو أنهم اعتادوا منظر الأطفال يتحرّون ظهور الممثلين أمام البيت. تُدير ظهورنا نمضي نحو مستشفى أبقراط في شارع ابن زياد. نراقب بوابته علّ واحدة منهما تظهر. لا أحد. نعيد توزيعنا. فهد عند باب بيتهما، صادق عند مستشفى الطب النفسي، وأنا أمام بوابة أبقراط. لم نكن ندري أن التصوير قد تم قبل شهور من أيامنا تلك، وأن المبنى الأحمر، لمستشفى الطب النفسي، لم يكن سوى مركز شرطة قيد الإنشاء في منطقة السوق المركزي، وأن بيت سعاد عبدالله وحياة الفهد لا يعدو كونه بيتا مثل أي بيت من بيوت السُرّة، وأن مستشفى أبقراط الذي حسبناه مستشفى تخصصيا لم يكن إلا صالة شيخان الفارسي للأفراح، استُخدمت واجهات المباني الخارجية في المسلسل وحسب. أي سعادة كنا نشعر بها تجاه ما خصنا به هذا العمل التلفزيوني، نحن أبناء السُرّة. كنا لا نكف أثناء المتابعة عن الصراخ فجأة إزاء أحد المشاهد: "شوف شوف!"، نشير إلى الساحة الترابية أمام مدرستنا! تنفجر فوزية: "هششش!". تطالبنا بالسكوت كي تتابع بهدوء.

نتجاهلها ونواصل تعليقاتنا. ولأن أُمي حصّة ليست معنا، يرتفع صوت خالتي عائشة: "بس!". نخرس. ننتظر بشغف انتقال الأحداث إلى مستشفى الطب النفسي. رغم غضب خالتي عائشة، لا نكتم ضحكنا على نزيلات المستشفى بأشكالهن وإيماءاتهن المضحكة، وعلى منظر محظوظة ومبروكة مقيدتين إلى السرير، تصرخان، أثناء علاجهما بالصعقات الكهربائية. تينا تغالب ضحكاتها. تصرخ بها خالتي عائشة: "إنّي! على شنو تضحكين؟! قطعة!". تشير بسباباتها إلى الباب آمرة: "المطبخ!". تترك تينا زاويتها، في حين نواصل ضحكنا على مجنونات المسلسل. وحدها فؤادة عبدالعزيز، في دور مدرّسة التاريخ السابقة، بثوبها الأحمر القاني وربطة شعرها سماوية الزرقة، من بين كل نزيلات مستشفى الطب النفسي، تفسد عليّ استمتاعي بمتابعة المسلسل إذا ما انطلق صوتها ذو البحة يسبق صورها. تطوّق مصيدة فئران برتقالية اللون بذراعها. تسير في الممرات محدرة: "الفئران آتية.. احموا الناس من الطاعون". تُرعبُ المجنونات بظهورها المفاجئ، تستنفر المرضى، تترك الدكتور شرقان ومدير المستشفى أبا عقيل و.. أنا. صوتها مؤهلٌ ليكون رابع أصوات الرعب القديمة؛ نداءات بائع الصُرّة اليمني، ونفير صافرات الإنذار، ونباح كلب الجيران السلوقي. خوفي من فؤادة، متحالفا مع ما سمعته عن برامج تلفزيون توعية قديمة تحذر من خطورة القوارض، بات وسواساً قسرياً إزاء الفئران زمن طفولتي. ما عاد ميكي ماوس من الشخصيات الكارتونية المحببة. فقدتُ تعاطفي مع جيرى. أصبحتُ أجد لـ توم ما يبرّر عدوانيته. كنت أحاول أن أواري خوفي من

تلك الشخصية، إلا أن لا شيء يخفى على فوزية التي صارت تُسكتني، إذا ما ناكفتها، تمثيلاً لدور فؤادة. تُفخّم صوتها تُضفي عليه بحة مخيفة، تبخلق في وجهي: "كتكوووت". تلوّح بسبابتها: "أنا التاريخ كله! وأحذركم من الآن؛ الفئران آتية.. احموا الناس من الطاعون!". كانت قد تعرّفت طريقاً لا يمكنني مجاراتها فيه.

مرّت بنا أمي حصّة، تاركة غرفتها متجهة إلى المطبخ في حوش البيت. سألت: "وين تينا؟". اكتفينا بالالتفات نحو خالتي عائشة. توقفت أمي حصّة قبل الممر المؤدي إلى الخارج تلتفت نحونا: "اهتمّوا بدروسكم أخير من التلفزيون". لم نتجاوب معها. أردفت: "أجهّز لكم عشا.. لبنة وزيت زيتون وزعتر". استأنفت سيرها إلى المطبخ تنصح بأن نأكل الكثير من الزعتر لنصبح أذكاء مثل الفلسطينيين، ولنحصل على تقدير "ممتاز!". كنا، في ذلك الوقت، قد آمنا بأسطورتها تلك؛ أسطورة الزعتر، إذ لم نجد مبرراً مقنعاً لتفوق التلاميذ الفلسطينيين في مدارسنا وحصولهم على المراتب الأولى دائماً سوى الزعتر الذي يأكلونه كل صباح. أكلنا الكثير منه حتى ملّته بطوننا من دون فائدة. كنت، في السنة التي اشترى لي فيها والدي الدراجة الهوائية، قد نلت المرتبة الأولى في مدرستي، من دون زعتر. متفوقاً على بقية الطلبة، عدا الأخوين الفلسطينيين سامر وحازم بطبيعة الحال، إذ هكذا كنا نُصنّفها مرتبةً أولى على الكويتيين، مع إيماننا المطلق بأنها مرتبة، في الجمل، لا يدركها إلا تلميذ فلسطيني رضع الزعتر مع حليب أمه.

لم نكن قد فرغنا من متابعة المسلسل حين دخل عمّي صالح يحمل صندوقاً كرتونيا أبيض، يحمل حروفاً إنكليزية حمراء HITACHI وضعه

على الأرض وسط غرفة الجلوس. قال مبتهج الوجه: كاميرا فيديو يابانية الصنع. منذ تلك اللحظة أصبحت الكاميرا واحدة من أفراد بيت آل بن يعقوب، تنتصب طيلة الوقت في زاوية غرفة الجلوس، محمولة على قاعدتها المعدنية، مغطاة بعباءة قديمة تحفظها من الغبار. كانت ترعبنا، قبل أن نعتادها، مثل عجوز قصيرة تتشح بعباءة تملؤها الثقوب لا تفارق زاويتها. أسميناها في ما بعد: "تمثال أمي حصّة"، رغم انزعاج جدّة فهد من التشبيه: "آنا قصيرة.. لكني موقرمة!".

تَهَلَّل وجه خالتي عائشة، في صورة ما أَلِفْتُها عليها، إزاء تدشين مرحلة جديدة تَخْلُدُ فيها ذكرياتٍ حيّة بدلا منها جامدة في صور الكاميرا الـ Polaroid الفورية. تخلقنا حول الكاميرا مثلما تجتمع فئران أمي حصّة حول بيضة مكسورة في قفص دجاجاتها. كاميرا كبيرة تُثَبَّتُ إلى الكتف، أو إلى حامل معدني ذي ثلاثة قوائم، موصولة بجهاز فيديو VHS وشاحن كهرباء. جاءت أمي حصّة يقودها فضولها بسبب ضجيجنا، تتبعها تينا حاملة أطباق العشاء الأسطوري. لم أترك بيت عمّي صالح ذلك المساء إلا بعدما فرغ من تركيب كاميرته وشحن بطاريتها. وقفنا، في الممر، صفّا واحدا أمام الكاميرا، بين مزهريّ ريش الطاووس، تظهر وراءنا صورة "الرئيس"، على حدّ تسمية عمّي صالح. اعتدلنا في وقفتنا، فهد وصادق وأنا، أمام عدسة الكاميرا لتجربتها. فرصة لاستعراض مواهب تمثيلية. بدأ ضوء الكاميرا الأحمر يومض. شرعت خالتي عائشة، من وراء الكاميرا، بوجهٍ لا يشبهها، تردّد أغنية شعبية قديمة: "وين راح أبوي وين راح أبوي؟". لمعت عينا أمي حصّة تنظر إلى كُنْتها بحزن: "الله

يرحمه". توحدت أصواتنا، أمام الكاميرا نجيب خالتي عائشة غناء:
"راح البصرة.. راح البصرة". واصلت أسئلة الأغنية: "إش يجيب لي،
إش يجيب لي؟ شَرَق ورَق شَرَق ورَق". تبتسمُ وسع فمها: "وين
أخطّه وين أخطّه؟". "في صُنيدقي في صُنيدقي". ارتفعت أصواتنا
أكثر بلحن بطيء نكمل الأغنية: "الصندوق ماله مفتاح.. المفتاح عند
الحدّاد". كلمة الحدّاد تترك أثر استحسان على وجه فهد، رغم أن لا
علاقة لحدّاد الأغنية بمؤيد الحدّاد اللاعب. تنتهي الأغنية بـ: "المطر
عند الله". هزّت أمي حصّة رأسها تجاوبا: "لا إله إلا الله". اقتربت
فوزية مقاطعة. تردّدت. سألت شقيقها إن كان يسمح لها بالغناء.
كاد أن يجيبها لولا أجابتها أمها نيابة عنه مشجعة: "غني.. غني
يا فوزية". أوما عمّي صالح برأسه يفتعل ابتسامة. شرعت أمي حصّة
تُصفّق. راحت فوزية، فور اشتعال ضوء الكاميرا الأحمر، تقلد سناء
الخرّاز، فنّانها الوطنية الأثيرة، تغني للأمير: "لقيناه، يا أحلا أيام
العمر.. وعشناه، فرحة على قلوبنا تمر.. جابر أبونا من عمر".
زغردت أمي حصّة. أدار عمّي صالح كاميرته باتجاهها يلتقط المشهد.
ألقت ملفّعها على وجهها بحركة سريعة تخفيه عن الكاميرا. قهقهه
ابنها خلف كاميرته: "تستحين من الكاميرا يُمّه؟!". استحالت صنما.
لا صوت لا حركة. أدار عدسة الكاميرا، ضاحكا، إلى حيث كانت
أسفل الصورة على الجدار. عادت الحياة لأمي حصّة. فوزية تواصل
غناءها: "عاش الأمير المفتدى.. وكلنا له فدى". قاطعها عمّي صالح
بعصبية: "بس.. كافي!". تتمم بوجهٍ ممتعض: لو أن البرلمان لا يزال!
ترك جملة مفتوحة على احتمالاتها. استعد فهد شادّا جسمه، نافخا

صدره كديك يوشك أن يصيح، يؤدي تحية عسكرية، يحاكي أخبار الجبهة التي يُثَّها تلفزيون العراق، وقتَ ينقله اللاقط الهوائي آنذاك مشوَّشا. انطلق بلهجة عراقية أحبينها صغارا: "أنا المُجَنَّد عطية خضير، الفرقة الثامنة.. أحيي سيدي القائد من معسكر أرييل وأبشَّره بنصرٍ من الله قريب". انتبهتُ إلى صادق، احمرَّت أذناه، بدأ ينسحب إلى ما وراء الكاميرا بوجه محبط. فغرت أُمي حصَّة فمها إزاء أداء حفيدها. تضحك ممسكة بملفِها متأهة لتغطية وجهها في أي لحظة تلتفت نحوها عدسة الكاميرا. عمِّي صالح يكتُم ضحكاته وراء كاميرته. دفعني الحماس لمقاطعة فهد باللهجة إياها: "أنا المُجَنَّد حمزة أبو المعالي، من الفرقة الثالثة، مدرعة تكريت، أُسَلِّم على أهلي وعشيرتي..". قاطعني عمِّي صالح مؤنبا: "الرَّيس أول شي!". تداركتُ مصححا: "أأأ.. أُسَلِّم على بطل القادسية سيدي رئيس الجمهورية..". لم يستمر المشهد طويلا. ختمناه بالتلويح عاليا. نضرب الأرض بأقدامنا، على طريقة الهوسة العراقية، مردِّدين: "كلنا جنودك سيدي.. كلنا جنودك". ربما هي المرة الوحيدة التي رأيت فيها خالتي عائشة تبتسم ذلك المساء. تنظر إلى الكاميرا الجديدة بحبور. تُؤمن حياة خالدة لمن تحب. انتبه عمِّي صالح إلى غياب صادق المفاجئ بعد أن مضى الأخير إلى نهاية الممر خروجا. صاح به:

- "تعال يا ولد!".

اختفى صادق. لم يحفل بنداءات عمِّي صالح الذي صاح به مُستفزًا:

- "تعال سلّم على الحُمَيّني!"

انتهى المشهد، في ذاكرتي، بصوت ارتطام باب الحوش
الحديدي.

* * *

يحدث الآن 3:10 PM

أتصلُ بضايوي، بعد بثٍّ موجزٍ الثالثة، أطمئن إلى وصوله، وهو المكشوف للطائفة الأخرى بمجرد النظر إلى وجهه وقراءة اسمه كاملاً في البطاقة الشخصية. لا يرد على اتصالاتي. لا أدري إلى مَنْ أوجه قلقي. لن أغفر لنفسي إن أصابه مكروه، وأنا من طلب منه المجيء. لا قدرة لي على الانتظار. أدسُ قدميَّ بنعليَّ الحَمَام أزمعُ على ترك المقر ذهاباً إلى الفيحاء أتأكد من وصوله. أنتظر في الممر المصعد. يسبقه اتصال أيوب. كارثة ما أستشعرها بصوته الذي يجيء مضطرباً على غير عادة. كان الانفجار الذي سُمع منذ قليل، في مناطق عدة، رداً على إشعال النيران في مسجد عبدالوهاب الفارس، في منطقة كيفان، الأسبوع الماضي. أستوضحه عن قصده. يجيب بغير يقين: أخبار، أو ربما شائعات، عن نسف أحد المباني في الجابرية. أكرر كلمة جاءت في جملة مستفهما: نسف؟! يتردد قبل أن يستطرد: البعض يؤكد أنها "حسينية". أسندُ ظهري إلى الحائط. باب المصعد مشرع. يطبق بعد ثوان. لا تحملني قدماي على السير. يردفُ بحسرة: يا أخي جماعتكم أولاد كلب! تصعقني الكلمة؛ جماعتنا، وأنا الذي لا جماعة لي عدا التي أسسناها زمن الجهل؛ أولاد فؤادة! أصرخ به لعله يستفيق: أيوب! يلوذُ بصمته. أرجوه: إلا أنت! هو في حال لم أعهده عليها قط. ليس أيوب الذي أعرف من يحدثني الآن. أرجوه، وحادثة

الصباح، بصورها وأصواتها، لا تبارح مخيلتي: لا تكرر ما جرى لنا فجر اليوم أرجوك! يطلق زفرة حرّى: أستغفر الله. يسألني كمن تنبّه من غفلة: أنت، حتى الآن، لم تخبرني بما جرى فجر اليوم! أجيبه: "بعدين". لا يصبرُ على سماع إجابة كأنه يخشاها. يسأل: هل يستدعي الأمر قلقا يتابني الآن؟ أنهي مكالمتنا: لا تقلق.

أقطع الممر عائدا إلى الشقة لا ألوي على شيء سوى الذهاب إلى مكان الانفجار. نصحني أيوب بأن أستعين بمعداته في المخزن لأبرّر وجودي في مكان الحادثة. أعثر، بينها، على كاميرا صغيرة تفي بالغرض، وزوج أحذية لن استخدمه بسبب مقاسه الذي لا يناسبني، وقميص بلا أكمام يحمل في ظهره شعار جريدة "الراي". أي سخرية هذه! كنت أستخدم مايكروفون فهد قبل قليل، أجدني الآن في ثياب أيوب! أعود إلى جهاز الإرسال أعتذر للمستمعين عن مواصلة بث البرامج على أن نعاود بثّها لاحقا. أقوم بتشغيل أغاني لست أوّمن بمجدواها.

في الممر، لا أكاد أكبس زر المصعد ثانية حتى يكشف بابه عن ضاوي بوجه باسم، تسبقه رائحة دهن العود. يحمل مصباحا يدويا وحزمة شموع وقدرَ طعام وفندوس تمر. أتناسى إصراري على بقائه في البيت. يكاد يتجاوز باب المصعد لولا أنني أقبلُ عليه أعانقه. يطبق المصعد بابه على كتفينا: هوّن عليك يا وِجُل! يقول وهو يحاول ألا يُسقط الأغراض من يديه. أسأله عن القدر. يكتفي يُذكر: اليوم الخميس. هو صائم كدأبه أيام الإثنين والخميس. يسألني عن فهد

وصادق. أهرز رأسي: لا خير. يتفرس ملاحى ثم ينظر إلى ساعة معصمه: هل تخفي شيئاً؟ لا أحيّر جواباً. أنا غير متأكد. يتسم: "يجيب الله مطر". يرّن هاتفه ينبهه إلى رسالة. يقرأها. يمتنع وجهه. يمدّ يده أمام وجهي يريني شاشة الهاتف: في انضمامك إلى جماعة مشبوهة، غير جماعتك، خروج عن الملة. أستفهمه. يجيب: هذا بسبب تأييد شبكة الملاحدة. أسأله: يؤيدون من؟ يُطمئن: لا عليك. يُغلف إحباطه بابتسامة وهو يكبس أزرار هاتفه. لا أتردد أنظر إلى شاشة الهاتف بين يديه أقرأ ردّه على المرسل: الملة ليست بيت أيك تطردني منها وقتما تشاء! أمسك بهاتفه قبل أن يرسل الرد. لا أوارى شعوري: تمهل! يضحك وهو يدفعني يواصل سيره إلى المقر: من يرتدي قميص أيوب عليه أن يتحلى بصبره وبرود أعصابه.

لو أنه سمع صوت أيوب في مكالمته قبل قليل!

* * *

الفصل الثامن

أحجم صادق، شهورا عدة، عن زيارة حوش بيت عمي صالح. كنت صغيرا، ولكن هذا لا يعني أنني لم أشعر بالحيرة تجاه ما يبدر عن الأخير من مضايقات ورسائل مبطنة يأمل في أن يقوم صادق بتوصيلها إلى عمي عباس. لم أكن أفهمها، ربما، ولكنني حتما فهمت أنها مؤذية لصادق. لم نعد نجتمع إلا في فصل المدرسة، في صف المقاعد الأخير كما اعتدنا الجلوس. ينشغل، كدأبه، يرسم على سطح الطاولة وجوها وعيونا وطائرات حربية، ودائرة في حجم قطعة نفوس معدنية، يكتب أسفلها: "اضغط الزر يختفي المدرس!". سرعان ما انتشر الزر الافتراضي في طاولات الفصل وجدران المدرسة. لا ينفذ واحدنا، أثناء الحصّة الدراسية، ينقر بسبّابه على سطح الطاولة، آملا أن يختفي مدرس لا يصرفه عنا إلا رنين الجرس.

صرتُ أشاهده بين حين وآخر، وقت غروب الشمس، عند باب بيتهم يحمل دفاتر ينتظر عمي عباس يقلّه إلى مكان ما. عرفت لاحقا أنه يذهب إلى الحسينية، يتلقى دروسا دينية لا توفرها حصص التربية الإسلامية في المدرسة كما يقول عمي صالح الذي سارع

بتسجيل فهد في إحدى الجمعيات الدينية، في حين رفض والدي أن أنتسب إلى أي ناد أو تجمع ديني: لديك سجادة صلاة في غرفتك.. أو إن أردت، مسجد الغانم على مبعدة شارعين من هنا. اقتربتُ من صادق. كان متحفظاً قليل الكلام. لم أكن لأتركه وشأنه وأنا مؤمن بأن حوش عمي صالح ينقصه شيء ما، لا يكتمل إلا باكتمالنا فيه. كنا في أبريل 1988، قبل حلول رمضان بأيام. في وقت كان فيه التلفزيون ينقل لنا أخبار اختطاف الطائرة الكويتية؛ الجابرية. أشارت الصحف صراحة إلى تورط عناصر من حزب الله، الموالي لإيران، بعملية الاختطاف. بثّ تلفزيون الكويت الأغنيات الوطنية على مدار الساعة بشكل أجبر فوزية على البقاء أمام الشاشة طيلة الوقت تُسجّل تلك الأغنيات على شريط فيديو.

قررتُ، في ذلك اليوم، زيارة بيت عمي عباس، ولأن والدتي لا تسمح لي، عادة، بالخروج في غير عطلات نهاية الأسبوع، خصوصاً في ظروفنا تلك، انتهزتُ فرصة انشغالها مع نسوة الحيّ، بعد صلاة العشاء، في زيارة بيت جارنا أبي سامي لتهنئة زوجته الأميركية. كانت قد اعتنقت الإسلام لتوها آنذاك. وبالفراحة أُمي حصّة بالخبر: "هداها الله"، تقول عن الجارة التي طالما ردّدت أنها "بنت حلال" لولا كفرها. لم تمر دقائق ثلاث على ترك والدتي للبيت حتى شرع السلوقي في بيت أبي سامي بالنباح، مستقبلاً الغرباء على طريقته. عرفت أنه الوقت المناسب للخروج. ضغطتُ مكبس الجرس المفرد. انتظرت ثواني أمام العتبات الثلاث، أسندتُ ظهري إلى قارب عمي عباس، مقابل اللوح المثبّت أعلى الجرس "منزل عباس عبدالنبي

عبّاس محمد". فوجئت بحوراء، شقيقة صادق التوأم، تفتح لي الباب. كانت أول مرة أراها ترتدي الحجاب، والعباءة تعلو رأسها ممتدة إلى قدميها. أسفتُ كثيرا لأنني لن أشاهد شعرها السني الكثيف مرة أخرى. كيف لهذا الحجاب أن يحيل طفلة إلى امرأة بمجرد ارتدائه! عزيت نفسي بوجنتيها الحمرأوين وعينيها الكحيلتين، كل ما تبقى من صورتها التي أعرف. كدت أسألها عن حجابها، أهئها، أو أقول أي شيء إزاء شكلها الجديد، ولكنني تذكرت محظورات والدتي. انتابني فضولٌ إن كان فهد قد علم بموضوع هذا الحجاب. هو يغضب كلما حدّثته عنها. يظنُّ أنني أُلَمِّحُ إلى شيء كما كانت عمّته فوزية تفعل. أرسلته أُمي حصّة ذات يوم إلى بيت صادق يحمل أطباق طعام، ومنذ ذلك اليوم وهو يصرُّ بشكل ملفت بأن تترك له مهمة توصيل الطعام إلى بيت عمّي عبّاس. وحين رأته فوزية يطيل الوقوف أمام النافذة المطلة على بيت الجار صارت تناكفه، تغني أغنية لمطربه الأثير: "ردّ الزيارة". يحمّرُ وجهه غضبا.

"تفضل.. صادق موجود"، بادرت حوراء إزاء طول صمتي. وجدت صادقاً، في غرفة الجلوس، ممسكا بقبضة التحكم السوداء ذات الزر الأحمر، يراوغ طائرات حربية على شاشة التلفزيون يلعب الـ آتاري. مغرّم بالطائرات الحربية كان. أسفل السُّلم جلس عمّي عبّاس مقرفصاً، أمام زبيل، نظارته الطبية على طرف أنفه، يعالج خيوط صيد السمك ويعيد لفها حول بكراتها الخشبية. سمعتُ، من إحدى الغرف، أغنية لناظم الغزالي. هي غرفة أُمي زينب لا شك. كانت المرة الأولى التي أدخل فيها بيت صادق، متجاوزاً حوشهم

الذي نادرا ما يجتمع فيه، لا يختلف عن بيتنا أو بيت آل بن يعقوب بسجاده وأثاثه والثريات المتدلية من السقف الجبسي المنقوش، الشيء الوحيد الذي لفت انتباهي كان بعض اللوحات على الجدار خلف خزانة التلفزيون، لوحات بتفاصيل كثيرة، خيول وأسود وسيوف، ورجال وسيمين بتقاطيع وجه جميلة، يبدوون أكثر وسامة من الرجل الذي كنت أشاهده مصلوبا في صورة تعلقها تينا على جدار غرفتها الصغيرة. تذكرت ما قاله فهد ذات صباح: "أهل البيت الذين يعبدهم عمّي عبّاس وخالتي فضيلة وأمي زينب..". في ذلك المساء أدرك عقلي الصغير أشياء جديدة، أولها لوحات فنية لآل البيت، وصور لعيون دامعة رسمها صادق، وآخرها صورة فوتوغرافية في أحد رفوف خزانة التلفزيون، بين صورتين قديمتين لصديق وخوراء زمن طفولتهما المبكرة، صورة لرجل بعمامة سوداء ولحية بيضاء كثة، كتب أسفلها بخط أسود مزخرف "روح الله الموسوي الخميني". لم يكن الاسم جديدا عليّ، ولا الصورة، إذ إنني كنت أعرفهما قبلاً، ولكن كل على حدة. الجديد بالنسبة لي، ذلك المساء، هو تركيب الاسم على صاحب الصورة. هو قائد الحرب في الجهة الأخرى، والذي لا أكاد أعرف عنه شيئاً. غص رأسي بأسئلة من النوع الذي تتورّم له الشفاه على حدّ تهديد والدتي. ابتلعتهما ملقياً تحيتي: "السلام عليكم". ردّ عمّي عبّاس التحية. أردف متسائلاً: "جيت بروحك!". أومأت برأسي أوافقه. كان منهما يعالج خيوط الصيد. سألتني: "وين ابن إبليس.. والا إبليس يحرمّ عليه دخلة بيتي؟". كنت معتادا على سماع تسمية فهد "بزون" وفق لهجة أمي زينب لقاء الـ "قطو" وفق تسمية

أُمِّي حِصَّةً، أما ابن إبليس فقد كانت جديدة. كنت قد لمست، قبل شهور، أن عمِّي عبَّاس لا يختلف عن عمِّي صالح، وأن كِلا البيتين صورة معكوسة عن الأخرى. كان ذلك عندما ذهبت وصادق بصحبة عمِّي عبَّاس إلى القُـمبار، وقت الجزر في بحر الدوحة ليلاً. عمِّي صالح لم يسمح لفهد أن يُقَمِّر معنا. قرار منع دخول ابنه إلى بيت الجار يطال سيارة الأخير وشاليهه وصحبته أيضاً. كنا، حفاةً، نخوض في مياه الجزر في الظلام بعيداً. يحمل كل من صادق ووالده مصباحين يدويين يمشطان الأرض السبخة، يتكلمان على ربحين يلتقطان بهما الأسماك العالقة في شباك طاروفٍ مهمل أو في منخفضات غطتها المياه الضحلة قبل رجوع المد، في حين كنتُ أحمل زيبلاً أضع فيه ما يجمعانه من أسماك. استغربت إيهماهما لسرطانات البحر على كثرتها، في حين كنت لا أكف أصرخ أشير إلى أحدها كلما خطفَ بذيبيه الجانبي رأساً خطأً متقطعاً على الرمال الرطبة: "عمي عبَّاس! شوف شوف.. قُبِّب!". لم يكتفِ بقوله إهم لا يأكلون سرطانات البحر، لأنها تأكل الأوساخ، فأكلها حرام. أجابني، بغير اهتمام، حين أخبرته بأننا نأكلها: وهل أنتم تعرفون الحرام؟! أنتم تلك التي لفظها هي المقابل لـ هُم لدى عمِّي صالح. لم يستحسن صمتي على ما يبدو. أردف ضاحكاً: "قول لـ صويلح اني ما أكل الوسخ مثلكم!".

ليلة دخولي إلى بيت عمِّي عبَّاس للمرة الأولى، لم أقل شيئاً إزاء سؤاله عن ابن إبليس. ولم أنو، قبل ذلك، إخبار عمِّي صالح، كما يأمل أبو صادق، بما قاله عن جاره ليلة القُـمبار. اتجهت نحو صادق

أمام شاشة التلفزيون. التفت إليّ. مدّ لي قبضة التحكم: "تعال العب". ما كدت أجلس إلى جانبه على الأرض حتى ظهرت خالتي فضيلة مرتدية عباءتها، بضجة حوراء تحمل بين يديها مغلفا يبدو هدية. سكت غناء الغزالي. خرجت أمي زينب من غرفتها. كانوا في طريقهم إلى الخارج. سألهم عمّي عبّاس: إلى أين؟ التفتت إليه خالتي فضيلة ممسكة بجزء من عباءتها أسفل ذقنها: إلى بيت أبي سامي، فلورنس اعتنقت الإسلام. أرخى يديه المنهمكتين بمعالجة خيوطه. أعاد تثبيت نظارته. سألهما مهتما: على أي مذهب؟ تدخلت أمي زينب بحبيبه مبتسمة: على مذهب زوجها أكيد. صفع عمّي عبّاس الهواء أمام وجهه في خيبة: لو بقيت على دين أهلها لكان خيرا لها!

يحدث الآن 3:50 PM

"الله أكبر.. الله أكبر.. الموت للمعتدي"

ليس سهلاً، تحت تأثير عَرَجِ تردداد وطأته، أن أذهب إلى موقع الحادثة، رغم قربهِ من مقرِّنا، مشياً على قدميَّ. أستقل سيارتي. أوقفها في مكان قريب. رجال الأمن يطوّقون منطقة الانفجار. هوة عميقة في الأرض، أمام واجهة المبنى، قطرها يجاوز أربعة أمتار. قميص أيوب جواز مروري إلى داخل الحلقة الأمنية. النيران تشتعل في أماكن متفرقة. والرماد يملأ كل شيء. قتلى بين ركاب رمادي، أغلبهم من خارج مبنى الحسينية الفارغ بعد الظهيرة. جرحى رماديون تخالهم تماثيل حيّة. بعضهم يئن وبعضهم الآخر يجبو مبتعداً عن بقايا حجارة المبنى يلوح بيده ينيّه إلى وجوده. كلب قدر أسود يجري مبتعداً مطبقاً فكّيه على ذراع مبتورة. رائحة حرق، هسيس نيران، عويل نساء، سبٌّ ولعنٌ وتكبير، رجال إسعاف يركضون، رجال إطفاء يصيح واحدٌهم بالآخر. رجال أمن يفحصون أجساداً متناثرة، يصرخون طلباً للإسعاف: حيّ.. نقالة.. هنا هنا.. يتنفس.. يتحرك.. حيّ حيّ. يطلقون النار على تبّاع جيّفٍ هائجٍ يحطُّ إلى جانب رجل هامد بلا ذراع، يسيل الدم سخياً من كتفه عند الجزء المبتور. عرفنا تبّاع الجيّف لا يقرب الجثة قبل أن تتحلّل. أعرفه اليوم أقلّ صبراً أكثر فتكاً. أجري على الأرض الزلّة بما خلفته خراطيم

رجال الإطفاء من مياه استحالت خليطاً طينياً من دماء و تراب ورماد و حجارة. ما ألفتُ مشاهدته على شاشات التلفزيون من مشاهد و أصوات تدور في دول المنطقة، بتُ أشاهده حياً حولي، ولكن لا جهاز ريموت كونترول هنا، ولا ذلك الزرّ القلم على طاولة صادق! المبنى المعني يخص طائفة. الضحايا حوله من الطائفتين! أعزني برود أعصابك يا أيوب! كيف لك أن تمسك بالكاميرا تلتقط صوراً لو كنت مكاني. أدريك تفعل كما لا أفعل. لا أتمكن من التقاط صورة واحدة. أكره ما أرى. أفشل في السيطرة على رعشة أصابعي. لا أريد الاحتفاظ بصورة أمقت تفاصيلها. أتخيل مصيراً مشابهاً لفهد وصادق. تخنقي عراقي. اتصل بأيوب: ألو أيوب! أي جديد؟ يسارع بحب: الحديد لديك. ألفتُ أعين جدّة الأشياء من حولي. أجيبه صوتاً أفشل في كبح عبراته: لا جديد سوى أعداد القتلى. يجيبني: خذ عندك.. زد طينك بلّة! لا أفوه بكلمة أتأهب لبليته: فتوى، أو ما شابه، أشدّ قسوة من سابقاتها، تدعو إلى تجنّب الاستماع إلى إذاعة أولاد فؤادة أو متابعة موقعها الإلكتروني أو حساباتها في مواقع التواصل الاجتماعي.. أصحابها على ضلال. غصة في الحلق تفضي إلى مرارة أسفل لساني. عيناى صوب الحفرة أمام مبنى الحسينية. أسأله: ممّن؟ يفلت زفرة تشبه ضحكة: كلاهما. هل تُصدّق؟! صدرت الأولى عن إذاعة أسود الحق، ثم لحقتها تأييدات رجال دين، في الجماعة الأخرى، انتشرت سريعاً في مواقع التواصل الاجتماعي ورسائل الهاتف.

يقول كلاهما! وكلاهما لم يتفق يوما على رؤية هلال رمضان
وبدء الصيام في يوم واحد. كلاهما لم يهنئ الآخر أول يوم عيد، لأن
لكليهما يوم عيد أول لا يوافق يوم الآخر. كلاهما لم يتفق على موعد
صلاة. على نسبة زكاة. على دفن موتاهم في مقبرة واحدة. كلاهما
لم يتفق على شيء سوى تجنبنا اليوم. كلاهما يتفق، مرة أولى، ضد
من بُحَّت حناجرهم ينادون بكلمة سواء!

يزيدني أيوب بلة تلو الأخرى تُحيل طيني وحلاً أغرق فيه:
بعض المتشددين، في كلا الفريقين، يرى دما حلالاً أنتبه إلى كلب
الذراع المبتورة يعود من دونها. يتشمم الأرض. لا يجد أيوب، إزاء
صمتي، سوى أن يستطرد: لا أريد أن أزيدك قلقا، ولكن، أحد
رجال الدين أفق بوجوب تدخل الدولة لإيقافك بعد حلقة "حديث
اليوم" وإلا فالنار مصير أولاد فؤادة! تساؤلي يبدو ساخرا من دون
قصد وأنا أسأله: الدولة؟! يجب: هذا ما قاله رجل الدين. لا أتمالك
أعصابي: أراك تدعوهم رجال دين! أيوب! لم يمض على بث
الحلقة سوى ساعة! أي سرعة هذه في إصدار فتوى؟ يجب موضحا:
حسنا، هي ليست من جهة رسمية. ليست فتوى بالمعنى الحرفي بقدر
ما هي رد فعل فوري إزاء تصريح شبكة الملاحدة. تتقلص أمعائي
لسماع الاسم. تنطلق صافرة سيارة إسعاف تبعد عن موقع
الانفجار. أسأله: وما دخلنا نحن بالشبكة؟! يلوذ بصمته ينتظر
خفوت الصافرة. يوضح: شبكة الملاحدة.. تشيد، عبر موقعها في
الإنترنت، بحلقة "حديث اليوم" وقصيدة "المجد للظلام". يقولون إنها

مؤشر لصحوة من غفلة الدين. أقاطعه: ولكتنا. يقاطعي: ولكنهم
استخدموا القصيدة بما يخدمهم. أنت تعرف، منذ إعلانهم عن الشبكة
وهم، كما يفعل الآخرون، يجيرون كل شيء لصالحهم.

يقول إن المتزمتين يقولون إن جماعة أولاد فؤادة وشبكة
الملاحدة، إحداها وليدة الأخرى. يختم المكالمة يُذكرني بالقصيدة
آسفا: ألم أقل لك إنه ليس أوانها؟!

* * *

الفصل التاسع

عدنا ثلاثتنا، إلينا، كما كنا نجتمع في حوش بيت آل بن يعقوب. أي سعادة أحاطتني بعودة صادق ثانية. كنا في العاشر من رمضان، أو تاسعه وفقاً لتقويم بيت عمي عباس. بالكاد سمحت لي والدتي بالخروج بعد أن وعدتها بأنني لن أبارح حوش بيت الجيران، ولن أخرج معهم إن هم دعوني إلى ذلك. أجواء البلاد مشحونة في الشهور الأخيرة لحرب دامت ثمانية أعوام. حرب الخليج الأولى، الحرب العراقية الإيرانية، أو قادسية صدام في بيت عمي صالح، الدفاع المقدس في بيت عمي عباس. في اليوم السابق، ليومنا ذاك، انفجرت قبلة بالقرب من مكتب الخطوط الجوية السعودية، بعد أقل من أربع وعشرين ساعة على إعلان المملكة العربية السعودية قطع علاقاتها الدبلوماسية مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية. في كل مرة نأمل فيها، والذي وأنا، أن تعود والدتي إلى طبيعتها يأخذنا خبر انفجار جديد إلى دوامة من القلق. تعود إلى حالة الفرع كما لو أننا ما زلنا في يوليو 1985. تتسمّر أمام شاشة التلفزيون. تتصل بوالدي وإخوتها وكل أقاربنا تطمئن إلى وجودهم في أماكن آمنة. ثلاثة أعوام

على تفجيرات المقاهي الشعبية لم تحمل والدتي على تجاوز حالتها النفسية. تبكي، مع كل خبر انفجار، مقتل جارنا المسنّ أبي صالح. تستذكره، على دأبه، كل صباح وقت انشغاله بريّ نخلاته الثلاث خارج منزله. والدي مثلها ينتابه قلق، ولكنه قلقٌ مغاير، يتابع مؤشر سوق الأوراق المالية بعد كل خبر تفجير، خوفاً من تأثر السوق المنهار أساساً منذ أزمة سوق المناخ عام 1982، وهو الذي يعقد آمالاً كبيرة على أسهم اشتراها خلال الأزمة الاقتصادية بأسعار زهيدة. خالتي عائشة وخالتي فضيلة تعيشان في خوف مؤقت. وحدها أُمّي حصّة، رغم خسارتها الكبيرة وترملها: "مشواه الجنة"، ورغم مرض ابنتها إثر فجيعتها بموت الأب: "الله الشافي". لا تبدي قلقاً هذه العجوز، تُحصّن إيمانها: "الحافظ الله".

أسفل السّدرّة كنا، في جوّ معتدل منتصف ربيع 1988، لا نزال، منذ أسبوع، في غمرة فرح الإفراج عن رهائن الطائرة المخطوفة، لولا عودة القلق مع انفجار القنبلة في اليوم السابق ليومنا ذاك. كنا، بعد أذان العصر، نبحث عن ثمار نبقٍ غير ناضجة، نجتمعها في سلّة كلفتنا أُمّي حصّة بملئها بالثمار، تحضيراً لعمل أچارها ذائع الصيت في شارعنا؛ أچار أم صالح الذي لا يتقنه سواها، والذي لا يصلح مُطبّق السّمك، كما يؤكد قِط المطابخ فهد، من دونه. كانت تُخلّل كل شيء لتصنع منه الأچار، البَمبر والمانجا والليمون وثوم الجبل والخيار والطماطم والبادنجان والقرنبيط. أرادت تلك السنة أن تجرّب شيئاً جديداً؛ النبق. سألتها فهد بوجه يفتعل علامات القرف: "يُمّه حصّة! كيف تصنعين الأچار من الكُنار؟!". وكأنها ادّخرت

إجابتها لسؤاله قبل أن يفعل. أجابته على الفور: "كُلْ ما يعجبك والبس ما يعجب الناس". أجاها: "ولكن..". قاطعته تدعوه لجمع النبق في صمت وإلا صنعت منه أچاراً! أشارت إلى صدرها بسبابتها المرتعشة: "هذا أچار أم صالح، الله يخلف على أمهاتكم!". تقول أُمي حصّة إن السر وراء جودة الأچار واختلافه يكمنان في الخلّ الذي تصنعه، في البيت، بنفسها بدلا من شرائه جاهزا من السوق. "تعرف السّت الناظرة شلون تسوّي الخلّ؟!"، تناكفني. لطالما سحرتني أجواؤها الغرائبية حين أجدها، على قطعة حصير جدّلتها من سعف بنات كيفان، كأنها بساط سحري جاء بها من زمن بعيد لا يشبه زمننا، تقرفص أمام أواني الخلّ الفخارية، أثناء إعداده، في زاوية الحوش وراء المطبخ، تهزّ رأسها مغمضة عينيها، تُبسّم وتقرأ عليها آيات من القرآن الكريم همسا. أسألها: يُمّه حصّة!.. لماذا تقرأين القرآن على الخلّ؟! توقف هزّ رأسها مبقية على جفنيها مطبقين. تجيب بخشوع: حتى لا يستحيل الخلّ خمرا.

أغصان السّدرّة مثقلة بثمار نبقٍ ناضجة وأخرى خضراء وصفراء لم تنضج بعد. ثمار كثيرة تتناثر على الأرض، وأخرى على سطح السقيفة بالتأكيد. أمرتني أُمي حصّة أن أتسلق الشجرة أقطف بعضا من ثمار تصلح لأچارها. "كنار مخوضر مو مستوي". أجبته بأن فهذا يجيد التسلق أكثر مني. رفضت. رقصت حاجبيها: فهد قطّ.. أنت قرد! كرهت يوما سألتها فيه عن موقع حديقة الحيوان. نزعتُ نعليّ أسفل الشجرة أنظر إلى أغصانها من خلال الهوة الكبيرة في جريد السقيفة متردّدا. قرأت ما جال في خيالي. طمأنت: "الله

يقيد الجن والشياطين في رمضان.. اصعد يا خوَّاف!". تشبث بساق الشجرة أتسلقها في حين كانت تجلس على مقعدها قصير القوائم فوق بلاط الحوش. صاحت فجأة بحفيدها مرتبكة: "فهد!". أشارت نحو نعليّ على الأرض. نظرت، من خلال هوّة السقيفة، إلى نعليّ في الأسفل. إحداهما مقلوبة. ضحك فهد وهو يعيدها إلى وضعها الطبيعي، في حين أخذتُ أردد خائفاً: "أستغفر الله". نظرت أُمّي حصّة إليّ تقول: "عَفِيه على وليدي"، قبل أن تزجر حفيدها، تشتمه على طريقته: "تضحك يا يهودي؟! أشوف شلون تضحك إذا طاحت علينا السما!". هزّني منظرُ رسمته في مخيلتي. تشبّث بأغصان السُدرة. أتساءل: "كيف تسقط علينا السماء إذا كان الله.. أستغفر الله!". واصل فهد ضحكته. نظرت إليه جدّته آسفة: "ياما حذّرتك". هزّت رأسها تستطرد: "القَطوُّ العود ما يتربّي!". احتجت إلى سنوات لأؤمن بقولها. آمنت بأن الكبير لا يمكن أن يكون إلا ما كانه صغيراً. بالكاد جمعنا قدرًا قليلاً من ثمار بعضها لم ينضج بعد وبعضها الآخر على وشك النضوج. كنت أقذف بالثمار في السلة على الأرض. رائحة الطعام، من مطبخ تينا المطل على الحوش، تستدر الريق وتقلّص الأمعاء، تُذكرنا، نحن الثلاثة، بخواء بطوننا في أول رمضان نصومه. تناهى إلى مسامعنا صوت عجلات عربية السوق المركزي على الإسفلت مرتفعاً وراء سور الحوش. انفجرت أُمّي حصّة ضاحكة: "وصل قطار أم عبّاس!". أُمّي زينب جارتنا، أو ببي زينب، بالعراقية، كما يخاطبها حفيدها التوأم، مثل كل جدّات الحيّ شكلاً، تميّز عنهن بقراءتها المصحف وكتب الطبخ

ودليل الهاتف، من دون المرور ببرنامج محور الأمية الذي ترعاه الدولة وقتذاك، والذي فشلت فيه أمي حصّة، رغم ادعائها: "الأبلة، في نحو الأمية، قالت لي مُنتاز". تلقت أمي زينب تعليمها في العراق حتى المرحلة الابتدائية قبل زواجها بجدّ صادق، عبدالنبي، وتركها بلدها. كانت مصدر اعتزاز حفيديها لأنها تقرأ وتكتب، ولأنها تنتمي إلى عائلة عراقية عريقة. مُتعة أمي زينب، التي تشتهر بها في حينها، هي الذهاب إلى فرع السوق المركزي وشراء حوائج المطبخ مشياً على قدميها. وفي كل مرة يلومها مدير السوق، على الإعاقات التي يلحقها الإسفلت بعجلات العرب: "يا حجّية! العربانة للاستخدام داخل الفرع مو برة!". تُعنفه: "هسه لازم أذكرك مرة ثانية! وليدي عباس مساهم في صندوق السوق؟! إخصم كلفة التصليح من صندوق مساهمته رقم 364". لم يقتنع الرجل يوماً بردها. ولم يقوَ على إقناعها. تُذكره دائماً بمبالغ المساهمين من سكّان المنطقة وقت تأسيس السوق المركزي لجمعية السُرّة التعاونية، منتصف الثمانينيات. أشارت أمي حصّة إلى صادق، بصوت يجاوز احتكاك عجلات العرب ارتفاعاً، بأن يفتح باب الحوش: "افتح الباب لعجوز الشّط!". كنت فوق السّدرّة أشاهد أمي زينب، وراء السور، بابتسامة واسعة ضاعفت خطوط وجهها، تدفع عربتها المليئة بالخضار والفواكه. توقفتُ قبل أن تتجاوز بيت آل بن يعقوب نحو بيتها. صاحت: "سمعتك يا عجوز النار!". انفجرت أمي حصّة تقهقه: "الله يجيرنا من النار". تبعثها قهقهات أمي زينب في الخارج. "حيّاك حيّاك". أصرّت جدّة فهد على دخول جدّة صادق رغم ضيق الوقت، لتحضير سُفرة

الإفطار، قبل أذان المغرب، رغم اختلاف التوقيت بين البيتين: "تغرب شمسكم عقب شمسنا بعشر دقائق.. ليش العجلة؟!"، تناكفها أمي حصّة. تطل أمي زينب وراء باب السور الحديدي على الحوش، بوجهها ذي الخطوط الغائرة وعباءتها وحجابها المحكم على جبينها وذقنها بصورة لا تشبه حجاب أمي حصّة. تتجاوز الباب دخولا. تُحيي فهدًا في طريقها: "شلونك بزّون؟". ينبري فهد يجيها بخربش الهواء: "مياااا!". تجرّ أمي حصّة خطواتها نحو الباب تستقبل أمي زينب، تُقبل جبينها كما لم تفعل قط. نستغرب هذا القدر من الاحترام للجارة. تلتفت جدّة فهد نحونا مُبرّرة قُبيلتها: "واجب نحترم الكبير!". تنتفض أم عباس، تُقسم بلهجتها العراقية رافضة: "أحلف بالله، وبحليب أمي حسيبة، إني أكبر مني!". تضرب أمي حصّة صدرها بكفها تملق في جارتها: "خرّفتي يا أم عباس؟!". تقضي العجوزتان وقتًا عند باب الحوش في إثبات أيهما أصغر سنًا في حين تنابع، ثلاثتنا، المشهد بمتعة تفوق متعة متابعتنا لنزيلات مستشفى الطب النفسي في مسلسنا التلفزيوني. انتقل شجارهما المفتعل إلى الحديث عن المطبخ، ثم إلى جلسات شرب الشاي بعد صلاة العشاء في حديقة جمال عبدالناصر في الروضة، مرورًا بخبر الانفجار الذي هزّ العاصمة يوم أمس بالقرب من مكتب الخطوط الجوية السعودية، وصولاً إلى الحرب. كانت أمي زينب تتحدث عن العراق بالتعاطف ذاته عند حديثها عن إيران. وجدّتي أضعف من أن أجم سؤالي. قاطعتهما بعد أن ألقيت آخر ثمرات نبق جمعتها داخل السلة: "بيبي زينب! من تشجّعين.. إيران أم العراق؟". التفتا إليّ. أجابتي أمي

حِصَّة: "هذي حرب، الله يجيرنا، ما هي مباراة كرة قدم يا خيـل!".
لم أعر بالا لإجابتها. كنت أنظر إلى عينيّ أُمي زينب. هزّت رأسها
تمطّ شفتيها: "آه من بطني.. وآه من ظهري".

* * *

يحدث الآن 4:20 PM

أطبقُ عليّ باب سيّارتي. كاميرا أيوب، خالية من صورٍ يضج بها رأسي، في يدي. محاولاتي في التواصل مع صادق وفهد لم تأتِ بجديد. حديث أيوب في مكانته قبل قليل يدفعني للدخول إلى بريدنا الإلكتروني. لا رسائل عدا واحدة من أيوب أرفق بها موجز نشرة السادسة. أنتقل إلى حساب أولاد فؤادة في تويتر، رغم أنني أوكلت لأعضاء مجموعتنا مهمة الدخول، وإعفائي من هذه المسؤولية تحديداً. كنت قد أدركتُ حدّاً لم أعد أطيق به هجوماً يردنا من مستخدمٍ تويتر. جماعات دينية متطرفة وأخرى لا تعترف بدين تكيل اتهاماتها لنا، تشتم وتهدد وتنال من أهلنا وبيوتنا كي يتدخلوا، يضغطوا علينا، يضعوا حدّاً لهراءنا كما يزعمون. آخرون يطالبوننا بالكشف عن أنفسنا: "إن كنتم رجالاً!". أُمسك بهاتفي المحمول أدخل اسم صفحتنا في تويتر: @AwladFuada، تظهر لي الصورة التعريفية للصفحة، فؤادة بثوبها الأحمر القاني وربطة شعرها سماوية الزرقة، تفتح فمها وعينيها على وسعها، تحمل مصيدة فئران برتقالية اللون، تشير بسبابتها محذرة. أُمّرُ نظري على الكلمات أسفل الصورة، أنصتُ في داخلي إلى صوت فوزية جافاً تفتعلُ بحجة أرعبتني صغيراً: "أنا التاريخ كله! وأحذركم من الآن؛ الفئران آتية.. احموا الناس من الطاعون!". التغريدة الأخيرة في الصفحة، منذ دقائق، تقول: "الله

واحد". يبدو أنها لضاي. لا أظن أن أيوبا وراءها وهو الذي حصر نشاطه في صفحتنا على بث الأخبار وحسب. أربعة تعليقات إيجابية على التغريدة، وثمانية هاجمنا، وما يزيد على الخمسين تعليقا لمغردين، إن صحَّ الوصف، يهاجمون بعضهم بعضا؛ "هذا حقُّ أريدَ به باطل.. رافضة.. الله يلعنكم.. نواصب.. تفو.. ألا شأنت وجوهكم.. عُمَر عُمَر عُمَر.. هيهات منا الذلة".

لا أحتمل. ولأن لا صلاحية لدي لحذف تعليقات ليست لي. أُلَس علامة سلّة المهملات أسفل تغريدة "الله واحد" أحذفها. يرِن هاتفي المحمول كاشفا عن رقم حفظته صغيرا ولا أزال، حاجبا صفحة تويتر. هو هاتف بيت عمِّي صالح الذي تطابق أرقامه الأولى رقم هاتف بيتنا القديم وبيت عمِّي عبَّاس. أول أرقام هواتف حفظتها في حياتي، يوم كانت الهواتف ذات الأرقام السبعة سهلة الحفظ، قبل أن تتزايد وتصبح كم؟ ألصقُ هاتفي المحمول بأذني. ينطلق لساني لهفة:

- "ألو فهد!"

يردني الصوت من الطرف الآخر:

- "آنا أم حسن..".

أسحبُ نفسا عميقا قبل أن أجيب:

- "حوراء!"

يجيء الاسم على لساني بمذاق قديم. مضى زمن طويل لم أَلَفْظ فيه اسمها. ربما الرقم الذي ظهر على شاشة هاتفي أعادني إلى زمنه. زمن إذا ما جاء ذكرها مع صادق هي "حوراء". ارتدت الحجاب أصبحت "أختك". تزوجت صارت "أم حسن". حتى فهد، ذكرها في حديثه مقتضب لا يتجاوز "الأهل". ذهبت مع الأهل. اتصال من الأهل. قلت للأهل. لأجدي مجبرا أنني مكالماتي الهاتفية معه خائما: "سَلِّم على الأهل".

أعاود النظر إلى شاشة الهاتف أتأكد من الرقم لعله رقم بيت عباس في الرميثة. أجد الرقم كما لمحتة أول مرة؛ بيت آل بن يعقوب. رغم الضيق والخيبات، أستبشر خيرا باتصال أم حسن من بيت زوجها بعد قطيعة. أسألها عن حال ولديها. تجيب بأنهما يلعبان في الحوش. تسألني عن زوجها وشقيقها. عدا "خير إنشالله" لا أجد لها ردًا، وأنا الذي أدريها، لسان حالها يشكو غياب الإثنين شكوى جدتها قبل سنوات طويلة: "آه من بطني.. وآه من ظهري". تقول بصوت منهك:

- "خالتي عايشة منهارة.. خائفة على فهد".

كلانا يعرف إلام يُفضي قلق هذه المرأة، الساحرة، راصدة الزلازل قبل وقوعها، كما تُسميها تكمًا وعن تجربة. أسمع لنفسني بأن أنني مكالمتي منتهكا خصوصية فهد وحوراء: حسنا فعلت يا أم حسن بعودتك إلي. لا تمهلني: عمي صالح في مستشفى مبارك منذ الساعة الواحدة، أخذته سيارة الإسعاف تصحبه خالتي عائشة. أمني

نفسي بأن ما حدث لأبي فهد هو ما دفع قلب خسالي عائشة
يقرصها ظهر اليوم. أتمنى ألا يجاوز الأمر ذلك. تلوذ حوراء بالصمت
قبل أن تستطرد. تقول إنها لا تفهم شيئاً. عادت خالي أم فهد بعد
ساعتين من المستشفى. حملت قدر طعام من المطبخ. خرجت ولم تفه
بكلمة. تجاوزت قولها لا أريد أن أُلقي بالاً لتصرفات أم فهد
الغامضة. أريد أن يعود فهد الآن ليرى زوجته وقد عادت إلى بيته.
تبرّر وجودها في بيت زوجها في السُّرّة كأنها تقرأ أفكاري: كان
ضرورياً أن أبقى إلى جانب فوزية. شيء لا يمكنني وصفه ينتابني
كلما سمعتُ الاسم. أسألها عن حال عمّة فهد. تجيبني تنهي المكالمة:
"خير إن شاء الله". لا آخذ منها فوق القلق إلا القلق. لا تتبادل سوى
الخير.. إن شاء الله! انتهت المكالمة ولا خير بعدها على ما يبدو. أنظر
إلى شاشة هاتفي المحمول وقد عادت صفحة أولاد فؤادة في تويتر
للظهور بعد مكالمة أم حسن. البعض يشير إلى صفحتنا يواصل
شتائمهم والدعاء على أولاد فؤادة بالويل والثبور وعظائم الأمور. أكاد
أسجل خروجي من الصفحة. أنتبه إلى تداول البعض تغريدة مرفقة
بصورة لعبارتنا المحذوفة "الله واحد"، تقول التغريدة: "أولاد فؤادة
يتراجعون عن تغريدة، الله واحد، إرضاءً لشبكة الملاحدة.. رُفَعَت
الأقلام وجفّت الصُّحف!".

عشراتٌ يعيدون تدوير التغريدة. عشرات يردّدون اتهاماتهم
يطلقون علينا أوصافاً بين روافض ونواصب وملحدين. موالين
للحكومة ومعارضين. في حين اكتفت شبكة الملاحدة بتغريدة تزيد
النار حطباً: "الدين غفلة!". أصابعي المرتعشة تدوّن اسم مجموعتنا في

المكان المخصص للبحث على صفحة تويتر تتبعاً لردود أفعال. يلفتني نشاط وسم #الفئران_آتية، ووسم آخر يبدو جديداً؛ #أوقفوا_أولاد_فؤادة.

في الوسم الأخير أجد تغريدة لأحدهم، يرفق صورة البطاقة الشخصية لضاي تحمل صورته وبياناته الشخصية. كتب صاحب التغريدة: "الكشف عن فأر من فئران فؤادة!".

* * *

الفصل العاشر

ما كادت تمضي أمي زينب، تدفع عربتها، في طريقها إلى بيتها حتى عادت إلى حوش بيت آل بن يعقوب بوجه محبط: نسيتُ المرور على فرع التموين لشراء معجون الطماطم. صاحت أمي حصّة: "تينّا.. يا تينّا". قاطعتها أمي زينب: لا داعي يا أم صالح.. فليذهب أحد الصبية إلى حيدر قبل أن يغلق دُكانه. كنا نتسابق للذهاب إلى البقالة أو السوق المركزي إذا ما احتاجت إحدى العجوزتين شيئاً. فرصة للخروج لا تُعوّض بثمان. يالفرحنا إن احتاجت أمي حصّة عجينة السمبوسة، نتسابق إلى مطعم شاكر الهندي لشرائها خلصة كي لا ينتبه جابر المصري. نعود، نسألها: "ما تشتهين كبدة أو كلاوي أو كباب؟". تدرينا لا نأبه بشهيتها بقدر ما نأبه بشهيتنا للخروج إلى نهاية الشارع نحو بيت العويدل حيث دُكان الجزّار السوري عدنان. يستغرق الطريق بضع دقائق نحيلها ساعات قبل أوبتنا. تخرج أمي حصّة، بين حين وآخر، للقاء صاحباتها في حديقة جمال عبدالناصر في الروضة، أو بالخروج إلى الجبيرة، بصحبة خسالي عائشة، كلما احتاج مطبخ تينا إلى خضار أو فاكهة. تمرُّ بنا مرتدية

عباءتها. نقف أمامها نسدُّ باب الحوش: "يُمَّه حِصَّة خذينا.. خذينا".
تسألنا السؤال الورطة: "منهو تحبون أكثر.. أنا والا الله؟". نبهت.
تصرُّ على سماع إجابة ترضيها: "الله طبعاً!". تدير ظهرها: "مُنتاز! الله
ياخذكم وأفثك منكم". تتخلَّص من إلحاحنا. تختفي وراء الباب
مخلفة تأثير ضحكها على وجوهنا المحبطة. في حين يولد سؤالي إلى
نفسي، كيف أحبه إلى ذلك الحدِّ، ولا أريده أن يأخذني إليه؟! ولأن
أسئلتني تراوح بين عيب وحرام، ابتلعتُ سؤالي.

تخلَّقنا حول أُمِّي زينب، يومنا ذاك، نتمسِّك بعباءتها. تتعالى
أصواتنا نرجوها أن ترسلنا إلى حيدر البقال لشراء معجون الطماطم:
"بيبي زينب.. أنا.. أنا أنا". دسَّتْ كَفَّها ذات العروق النافرة في
حقيبتها الجلدية السوداء، تعطي صادقاً ثمن معجون الطماطم، ثم
تعطي لكلِّ منا ربع دينار لشراء ما يرغب به. صاحت بنا أُمِّي حِصَّة:
بدلاً من شراء العلكة والحلوى تَبْـ...، قاطعها فهد ساخرًا، يحني
ظهره مرخياً شفته السفلى، يُقلِّد صوت عجوز، يُتمُّ جملتها المعتادة:
"تبرعوا لفلسطين". نظرتُ إليه وسِعَ عينيها حتى خلتهما على وشك
السقوط. حرَّرت قدمها من نعلها. انحنيت في سبيلها لالتقاطها وهي
تصيح به: "تضحك عليّ يا يهودي؟!". انطلق فهد هاربًا، تُحلِّق
وراءه نعل أُمِّي حِصَّة قبل أن ترتطم بالباب الحديدي تسقط أرضاً.
ركضتُ نحو الباب، مثل كلب صيد، أُعدِّلُ نعلها المقلوبة.

أمام الباب وقَفَ سامر وحازم يحملان طبق مسخَّن وطبق
عَوَّامة. أرسلتهما أُمهما مثل كلِّ رمضان. هَلَّل وجه أُمِّي حِصَّة
تنادي تينا تحمل الطعام. توصي الولدين ينقلان سلامًا إلى أم طه:

الصابون النابلسي قارب على النفاد! ينصرف الولدان. تشرعُ أمي حصّة تُحدّث بيبي زينب عن بياض زند أم طه بفعل صابونها السحري. تناكفها بيبي زينب: "والله لو تغسلين زندق بـ كلوركس!".

فهد وصادق، ورثا شيئاً من أبويهما أصبحت لحظة في تفاصيل كلامهما. كنا قبل أيام، من يومنا ذاك، في طريقنا إلى فرع النظاراتي حسن، في السوق المركزي الرئيس المطل على شارع طارق بن زياد الممتد إلى الجسر الذي يفضي إلى الجابرية. شارع محظوظة ومبروكة، كما كنا نسميه نسبة إلى مسلسلنا المحب. كنا نجري في الشارع ذاته ولكن ليس باتجاه مستشفى الطب النفسي، هرباً من الفئران، كما كانتنا تفعلان. كانت فوزية قد أرسلتنا لشراء سائل التعقيم الخاص بعدساتها اللاصقة، في وقت كانت تعاني فيه من اعتلال النظر بسبب مرضها. أمام باب محل النظاراتي حسن همس لي فهد: "ليش النظاراتي حسن؟ ليش مو النظاراتي عُمَر؟!". إيغال عمّي صالح في كرهه لجاره صور لفهد أنه، بالضرورة، يجب أن يكره ما يحبه الجار. حين سألتُ فهداً ما الضير في أن يكون النظاراتي حسن، أجاب بأنه اسم لا ينتمي إلى طائفتنا. تذكرت خالي بوجهه الهادئ ولحيته السوداء الطويلة. أجبته بأن خالي اسمه حسن! وكما تعلمنا في منهج التربية الإسلامية في المدرسة فإن: "أحفاد الرسول صلى الله عليه وسلم، أبناء علي بن أبي طالب رضي الله عنه.. الحسن والحسين". رفع حاجبيه دهشة: "إحلف؟!". صادق، الكتوم في عاداته، أجابه، بعد احمرار أذنيه، نيابة عني حلفاً بالله: "والله العظيم". ألحق قسّمه بسؤال: لماذا تحب عُمراً.

اكتفى فهد بإجابته: "رضي الله عنه". اندفعت أجيبه سؤالا: ولماذا لا نجبه؟ تحسست شفتي وصوت أمي يتردد في أذني: لولا الدماء في فمك لصفعتك على شفتيك! لذت بصمتي. أجب صادق، على غير عادة، درسا تلقاه صغيرا: "لأنه ملعون". فكر فهد قليلا قبل أن يقول مذكرا: "قلت لي.. أبوك يقول إن أهل البيت يلعنوننا". قبل دخولنا إلى النظاراتي حسن، ختم صادق مذكرا: "وأبوك يقول إن جماعتنا اختطفت طيارة الجابرية وإننا كفار.. أنت قلت!".

بت أكثر تحفظا. أكثر ترقبا. أكثر قلقا إزاء أي كلمة عابرة تستحيل فعلا يودي بي إلى الرصيف بسن مفقودة وشفاه دامية. خلف بيوتنا دكان البقالة، على مبعدة ثلاثة شوارع توازي شارع علي بن أبي طالب حيث نسكن. ترى، هل تساءل فهد، صغيرا، عن سبب تسمية الشارع: لماذا الخليفة علي بن أبي طالب؟.. ماذا عن الخليفة عمر بن الخطاب؟!

رفعنا دشايشنا الربيعية. طوينا أطرافها لفا حول خصورنا، حتى يسهل علينا الركض نحو دكان الإيراني حيدر لشراء معجون الطماطم. ما حدث، عند النظاراتي حسن، قبل أيام، كان مقدمة لما شهدته في دكان البقالة. فهد لا يحب صاحب الدكان، لأن ابنه متواطئ مع فوزية يبيعها الحلوى، ولأنه يميز صادقا في تعامله. وحده صادق كان يحظى بقطعة حلوى أو علكة مجانية في كل مرة نزور فيها الدكان. يُبرّر فهد اهتمام حيدر: لأنه مثلهم!

عبرنا أسفل البالونات والكرات المطاطية الملونة المعلقة أعلى الباب. ابتسم حيدر ابتسامة واسعة كشفت عن سنن الذهبية، رافعا

حاجبيه الموصولين، يخالهما الرائي حاجبا واحدا ممتداً يعتلي عينيه. حياً صادقاً كدأبه بلهجة هجينة: "شلونك صادق؟". لست أدري ما الذي دعا فهذا للتعقيب: صادقٌ ليس بصادق! التفتنا إليه نستوضح. أدريه يخبيئ أمراً ما. استطرد دونما اكتراث: مثل الحميني! قد يطال النسيان أي شيء في حياتي عدا وجه حيدر ذلك اليوم. اتسعت عيناه بصورة مرعبة. ارتعشت شفته السفلى. قام بثبيت قبعة الصوفية التي يعتمرها صيفاً وشتاءً. استدأر يخرج من وراء مسطبة السكاكر والمكسرات أمامه. أمسك بفهد من ياقة دَشْدَاشَتِه يدفعه إلى خارج الدُكَّان. بقي هو في الداخل، تفصل بينهما عتبة الباب. هزَّ سَبَّابَتِه محذراً: إياك أن تعاود القول! كنت أرتجف. فهد ينظر إلى عينيه مباشرة. أردف حيدر: قُلْ ما شِئْتَ عن أُمِّي.. عن أَبِي.. ولكن إياك أن..

كنا نتناول وجبة الإفطار بعد عودتنا من صلاة المغرب في مسجد مريم الغانم في قطعة 2. سمحت لي والدي أن أبقى لدى الجيران بحجة ذهابي إلى المسجد مع عمِّي صالح لصلاتي المغرب والعشاء. تنتقل يد عمِّي صالح بين أطباق أُمِّي حِصَّة، وأطباق أم طه، متجاوزاً أطباق يبي زينب، كعادته، لا يقرب طعامها. تذكرت سرطانات البحر وقول عمِّي عَبَّاس ليلة خروجنا للقُمبار. "عمي صالح! هل أكل القُبُق حرام؟". أجابني: "من يقول؟". أجبتُه متردداً: "عمي عَبَّاس". "عَمَه بعينه"، قال قبل أن يسألني: "وهل يعرفون هُم الحرام؟!". أتذكر فهذا باهتاً صامتاً منذ ما قبل أذان المغرب، وقت عودتنا من دُكَّان البقالة. يمسك الملعقة بيمينه وكأس

اللبن في شماله. تُعَنِّفه أُمِّي حِصَّةً: "لا تشرب بشمالك.. يشرب معاك الشيطان". نظرتُ إليها أذكرُها بقولها إن الشياطين مقيَّدة في رمضان؟! أجابت من دون أن تلتفت إليَّ: "ما أظن، هذا إن كنت موجود!". ضحكْتُ. ضحكْتُ. ضحك عمِّي صالح وخالتي عائشة وفوزية. قاطع فهدُ ضحكنا: لماذا لا يذبح صدام كل الإيرانيين؟!

* * *

يحدث الآن 4:34 PM

الضيق يطبق علي بعد مكالمة حوراء، وفاجعة انتشار صورة البطاقة الشخصية لضراوي. كفي، بشكل تلقائي، تندفع إلى أضرار مكيف الهواء. يضعع هواء المكيف في هواء الواجهة الخالية من الزجاج. أنا متوتر. أعاد الاتصال بضراوي. لا يرد. أنتقل بأصابعي أعالج أضرار المذياع. إذاعة أولاد فؤادة. ينطلق صوت ضراوي محدثاً مستمعيه بلسانه الثقيل:

- كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يتعوذ بالله كثيراً من الفتن، كما ورد في حديث زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن".

أجدني أهمس إلى نفسي: وكان، عليه الصلاة والسلام، إذا كربه أمر قال: يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث. أنظر إلى السماء في فتحة السقف. أما آن الأوان لتقع على رؤوسنا؟ أعود إلى هاتفى المحمول. أكتبُ إلى ضراوي: فات الأوان يا شيخ. عُد إلى بيتك فوراً! الحقُ رسالتي برسائل أخرى، أنقل له ما حدثني به أيوب؛ فتوى أو ما شابه، مصدرها كلاهما، وجوب تجنبنا، إباحة دمنا، على ضلال، تورطنا مع شبكة الملاحدة.

ينتقل البثُّ إلى أناشيد دينية، يلجأ إليها ضاوي بين الفواصل،
تجنباً للموسيقى التي لا يستمع إليها البتة. يهاتفني ضاحكاً مُطمئناً
كعادته. يقول إنه تلقى اتصالاً من أيوب أخبره خلاله بكل شيء.
يلومني، كما لامه من قبلي، على تصديق مثل هذه الأخبار: وهل
تصدّق أن مثل هذا الكلام يصدر عن رجال دين؟! أجيئه صمماً.
يستطرد مُهوّناً: كل ما قيل لا يعدو كونه ترهات مجانيين أو مراقبين
متحمسين! إجابته التي أراد بها تهويناً أفضت إلى قلق مضاعف.
أجيئه: وهل هناك أخطر من أولئك المراقبين؟ يُطمئني بأن هناك
الكثير من الجماعات الدينية المعتدلة تؤيد أولاد فؤادة. أستعير لسان
أيوب: "الغلبة للصوت المرتفع!". يلوذ بصمته. أتردّد كيف أخبره.
أحذره بشأن انتشار صورة بطاقة هويته. أرجوه أن يوقف برنامجهِ
ويعود إلى الفيحاء بأسرع ما يمكن. يسألني باهتمام: "بطاقتي أنا؟
وين؟". لا أكاد أَلْفُظُ اسم تويتر. يقاطعني: انتهى الفاصل ساعاود
البث!

يعاود بثّه يحكي مستمعيه. يصاحب صوته صوت الأناشيد
خفياً. يواصل ما توقف عنده قبل الفاصل: "أحبي في الله.. عن
ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فذكر الحديث،
وفيه قوله تعالى: "يا محمد إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك
فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي
وترحمي وتتوب علي، وإن أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير
مفتون".

الجملة الأخيرة تجيء على لسانه بنبرة مغايرة. يكررها ضاوي
ثلاثا. وكأنني أراه مغمضا عينيه خاشعا: "فاقبضني إليك غير مفتون..
فاقبضني إليك غير مفتون.. فاقبضني إليك.. غير مفتون". أشفقُ عليه
كلما عانده حرف الرءاء مُشَوِّها نُطقه.
أنتقل إلى بقية الإذاعات أنشدُ أخبارا جديدة..

* * *

الفصل الحادي عشر

كنا نتحلّق حول جريدة "الوطن" صباحاً في بيت عمّي صالح. نلتهم الصفحات. نتحرّى أخباراً عن بطولة رياضية مرتقبة؛ بطولة الصداقة والسلام الأولى. بالغنا بمتابعة الصحف بلهفة لا تناسب أعمارنا، بتحفيّز من فوزية، نبحت في أوراق الجريدة عن كل ما يتّصل بالحدث من ترتيبات؛ تصريحات رئيس اللجنة الأولمبية الشيخ فهد الأحمد الصباح، لقاءات مسؤولين، صور لتجهيزات الملعب، تحضيرات طلبة المدارس لحفل الافتتاح، أخبار الفرق والمنتخبات المشاركة.

كان يوم جمعة، الثاني والعشرين من سبتمبر 1989، لم أدّخر فرصة لمناكفة فوزية حين انطلقت أغنية في التلفزيون. "كويتُ والعربُ.. الأهلُ والنسبُ". تُردّدها مجاميع الطلبة في أوبريت وطني شهير أُقيم قبل عشرة شهور من يومنا ذاك. تركتهم يتفحصون الجريدة على الأرض. وقفتُ تلقائياً أرقص بغناء على إيقاع الأغنية أردّد: "كأنهم حولها.. العينُ والهُدُبُ". أنحني. أقربُ وجهي إلى فوزية، أرقصُ حاجبي فوق عينيّ الحولوين. "إنشالله تصير عمّي!"، قالت من دون أن تضحك. جلستُ على الأرض ثانية، في زاوية

غرفة الجلوس قريبا من تمثال أمي حصّة، بين صادق وفهد وفوزية. لا أخبار ولا جديد في الجريدة يستدعي الاهتمام سوى ما غير مزاج صادق على نحو مفاجئ. أمسك بالجريدة يقرأ صفحتها الأولى باهتمامٍ بادٍ. احمرار أذنيه دفعني لقراءة ما جاء في صدر الصفحة. عنوان فرعي: "أدانتهم بحوادث تفجير مكة المكرمة". أسفله عنوان رئيس: "السعودية تعدم 16 كويتيا وتبرئ 9". نبس صادق يوجّه كلمته إلى لا أحد: "مظلومين". انصرف بعدها إلى بيته تاركا في داخلي سؤالا: من يكونون؟ نسيتُ الأمر تاليا، ثم تذكرته بعد مرور أربعين يوما، حين أدركتُ أنهم ينتمون إلى طائفة بيت عمي عباس، كما قال عمي صالح. انزعج صادق حين سألته. وانزعجتُ أنا لقاء إجابته التي لم أفهم منها شيئا آنذاك. كنت أشعر أنهما، صادق وفهد، يفهمان أكثر مني بسبب أبويهما. كانا يسخران إزاء جهلي وكثرة أسئلي، يطلبان مني أن أعود للعبِ بدُمي المصارعين وجمع صور هولك هوغان بدلا من أسئلي الجاهلة. أتذكر امتعاض صادق يسألني عن رأي عمي صالح في جماعتنا حين اقتحمت الحرم المكي بالسلاح قبل عشر سنوات. وعندما ذهبتُ إلى والدتي أسألها عن جماعة جهيمان التي أخبرني صادق بشأنها، أجابت تلوح بسبابتها: "والله العظيم أحرمك من صحبة الإثنين!". شتمتُ صادقا وفهدا. لم أعاود السؤال ثانية. بقيتُ أسير الغيرة تجاه صديقيّ اللذين يعرفان كل شيء!

انشغل عمي صالح، بعد مرور أربعين يوما على تنفيذ حكم الإعدام، بإخراج سيارتيه وسيارة زوجته من المرآب ليأويها محاذة

الرصيف أمام بيته. استغلق عليّ إدراك السبب قبل أن يفهمني فهدد دافع أبيه إلى ذلك، خيراً نقله أحد الجيران لعمي صالح صباحاً؛ عمّي عبّاس بصدد إقامة مجلس عزاء، أربعينية، لمن ضُربت أعناقهم من الكويتيين في المملكة العربية السعودية. الأبرياء تارة، المجرمون تارة أخرى. كانت أول مرة أسمع فيها الكلمة؛ أربعينية.

هاتفَ عمّي صالح والدي وبقية أصحاب البيوت في شارعنا، يطلب منهم إخراج سياراتهم من بيوتهم، وأسفل المظلات، وإيواءها خارجاً بمحاذاة الرصيف كي لا يزاحمنا ضيوف بيت عمّي عبّاس من المؤبنين في المساحات الفارغة أمام بيوتنا. عمّي صالح يحفظ موقفاً قديماً لجاره اللدود، حينما أحاط المساحة المقابلة لبيته بالسلاسل كي لا تzacمه سيارات المعزين عند بيت آل بن يعقوب وقت وفاة صاحب البيت العجوز في تفجيرات المقاهي الشعبية. ولكن، لو لم يفعلها عمّي عبّاس قبلاً، هل سيكون موقف عمّي صالح مختلفاً؟

قليلٌ من الجيران تجاوب مع دعوة عمّي صالح، كثيرٌ لم يفعل. عاود جارنا الاتصال بأبي فهد يُصحّح خبراً نُقلَ إليه: عبّاس سوف يحضر مجلساً تأيينياً في جامع الإمام الحسين، لا صحّة لما نقلته إليك صباحاً.

عادت سيارات الرصيف إلى أماكنها أسفل المظلات.

* * *

يحدث الآن 4:42 PM

أعلق، داخل سيارتي في الزحام، لا يتسنى لي الخروج من المنطقة المطوّقة من قِبَل رجال الأمن. إذاعة الكويت تبثُ خبرَ تعليق الرحلات الجوية من وإلى مطار الكويت الدولي دونما إشارةٍ إلى أسباب. إذاعة الـ BBC تؤكد، في موجزها؛ مجلس الأمن التابع لهيئة الأمم المتحدة يوافق على مضاعفة قوات حفظ السلام داخل الأراضي الكويتية. أحد ضيوف برنامج المحطة يعقّب على الخبر بعد الموجز: "يكفي الكويت رجلان يحفظان الأمن فيها بدلا من قوات حفظ السلام!". ينفجر ضاحكا. شيء في ينفجر باكيا. منذ شهور نسمع أنباء إرسال قوات حفظ السلام. ولا شيء عدا قوات تحيط المنشآت النفطية. يُنبّهني رنين الهاتف إلى رسالة نصّية طويلة من الناشر: "شو صار! أتابع أخباركم بالتلفزيون.. طمّني عليك يا..". أهمل الرسالة قبل إتمام قراءتها. تطل في ذاكرتي صورٌ للبنان قديمة، وصوت أمي حصّة: "خبول!", تردّها كلما أشار مذيع النشرة إلى حزب من الأحزاب اللبنانية النشطة وقت حربهم الأهلية الأولى. يهاتفني أيوب يقطع خيالاتي: الأمور تزداد سوءا. تزايد الاشتباكات على حدود المملكة العربية السعودية جهتي اليمن والعراق. أخبارٌ غير مؤكدة، ينقلها لي، حول قرارات مؤقتة من جانب السلطات في المملكة بإغلاق المنافذ الحدودية بينها وبين الكويت. بمعنى؛ كويتيوا الداخل..

في الداخل. أتذكر والديّ. أجييه: من كانت لديه نية الخروج..
خرج منذ اشتعالها. يؤكد: مئات السيارات تصطف في طوابير طويلة
لم يتسنّ لها العبور. أعقب: الحدود الشمالية مفتوحة لمن أراد! مجنون
من يهرب من نار كويتية بالكاد اشتعلت ترواً إلى حِمَمٍ عراقية
نستنشق دخانها منذ سنوات. يسألني: إلى أي قسم من العراق
يلجأون؟ تخرج الكلمة من بين شفتيّ: "خبول!". يطلق ضحكة
مفتعلة: "اللهم لا ملجأ ولا منجى". تحيلني عبارته إلى ضاوي. يختم
أيوب مطمئناً: عموماً، لا أخبار رسمية بعد. يسألني قبل أن يُنهي
الاتصال: ألن تخبرني بما جرى فجر اليوم؟ أنهي المكالمة: "بعدين".
أتصل بضاي مرارا. لا رد. أدير مؤشر المذياع إلى محطتنا. لا أفهم
شيئاً! ينطلق صوته في قصيدة، نعم قصيدة وهو الذي لا يفعل! هو
الذي يرى فيها قصائد يُساء تأويلها. ما الذي يدعوه لأن؟! وكيف
يتخلى عن؟ يجيء صوته غاضباً لا يشبهه، ثائراً على كل شيء؛
طبيعته وحالنا وضعف حرف الرأء في لسانه:

تَفَجَّرَ

أيها الغضبُ المهجَرُ

أيها الألقُ المغيَّبُ

في المدى المخنوقِ

في الأفقِ المُعَفَّرِ

"تعويذة في زمن الاحتضار". قصيدة أخرى لخليفة الوقيان! هل
يدري أيوب؟ هل يدري ضاوي مَ يردّد؟ أهو أوانها أم أوان

احتضار؟! ينخفض صوته هادئاً بما يشبه استسلاماً، في حين الأناشيد
الإسلامية تتردد بصوت خفيض وراء صوته:

تَفَجَّرَ

إن دود الأرض يزحفُ

والدُّبَّاءُ المسعورُ يحصدُ حقلَكَ الأخضرُ

ما بال عينيَّ تذرفان الدمع عليك يا؟ كنت مطمئناً يا ضاوي،
كيف صرت؟ هذوؤك يلقي القصيدة لا يُبددُ حالة الارتباك فيَّ. أبحثُ
عن منعطف جانبي في الشارع المزدهم يقودني إلى مقرِّنا. يجلدني
صوتك يردد ما لا يشبهك:

تَفَجَّرَ

إن ليلاً قاتلاً

يطوي المدى

يحتزُّ أعناقَ النجوم.. البدرُ

يسقي شفرة الخنجرُ

يَجِيءُ... يُطِلُّ

محمولاً على اسم الله

—جَلَّ اللهُ—

يرقي سُدَّةَ المنبر!

— اللهُ أكبر!

* * *

الفصل الثاني عشر

في الثلاثين من أكتوبر 1989، مساءً، كنا مع موعد انتظرناه طويلاً. اندسّ فهدٌ، بجسده النحيل، خلف خزانة التلفزيون الخشبية، يعبثُ بسلكِ اللاقط الهوائي يُحسِّن الصورة المهزوزة على الشاشة. ألّقت فوزية جهاز الفيديو شريط VHS. ضغطت زر التسجيل قبل أن تقفل عائدة إلى الأريكة. كان يوماً حافلاً، يوم افتتاح بطولة الصداقة والسلام الأولى، والتي صارت أخيرة. تسمّرنا أمام شاشة التلفزيون في غرفة جلوس بيت آل بن يعقوب. أفراد البيت وتمثال أُمي حصّة وصادق وأنا، وحتى تينا التي اتخذت لها ركناً بالقرب منا ترقبنا كما نرقب ما يجري على الشاشة، ننتظر بدء الأوبريت الغنائي لافتتاح البطولة. أجواء مغايرة. صوت التلفزيون المرتفع وصمت هدير الكنديشة، مع انقضاء فصل الصيف. هتافات الجماهير الحمّسة في الشاشة. رائحة الشاي بالزعفران. الحليب بالزنجبيل. صوت قشور المكسرات تنفلق بين الأصابع والأفواه من حولي. كميات كبيرة من الآيس كريم اشتريناها، خصيصاً لهذه المناسبة، من أبي سامح الفلسطيني قبل أن يختفي في بيّاته الشتوي. لكلّ منا ما يشغله في تلك

الأثناء. لم أكن مهتما بالرياضة عدا المصارعة الحرة، ولا برياضيين جاؤوا من أربع وأربعين دولة عربية وإسلامية للمشاركة في البطولة. كل ما كان يشغلني ويستفز فضولي هو أمر دولتين تلتقيان مرة أولى بعد قطيعة.. العراق وإيران. كنت في لهفة لإدراك الخامس من نوفمبر، بعد أيام من يومنا ذاك، حيث لقاء الفريقين. التقيا في موعدهما. هتافات الجماهير عظيمة كانت عندما صافح قائدا الفريقين كلاهما الآخر. وعندما أهدى الشيخ فهد الأحمد، قبل بدء المباراة، كلاهما نسخة من القرآن الكريم كنت أسألني: لو جاء الشيخ فهد إلى شارعنا، يهدي كلاً من عمّي صالح وعمي عباس نسخة. انصرفت الفكرة من تلقاء ذاتها مع انطلاق صافرة الحكم تعلن بدء مباراة أشعلها المعلق الرياضي خالد الحربان، رغم تعادل سلبي انتهت إليه المباراة.

كنا، يوم الافتتاح قبل المباراة بأيام، نتبادل الحديث همساً، قبل أن تُسكتنا أمي حصة: "هششش.....!" فور ما انطلق صوت المنذيع: "أما الآن، فليفضل سعادة الشيخ فهد الأحمد الجابر الصباح، رئيس اللجنة الأولمبية الكويتية، عضو اللجنة الأولمبية الدولية..". تنتشي أمي حصة لرؤية "الرجل"، على حدّ وصفها له بما يشبه غزلاً، فهو الشيخ، الرجل، الذي قاتل في صفوف منظمة التحرير الفلسطينية لسنوات ضمن العمل الفدائي ضد "اليهود" داخل الأراضي المحتلة. هي لا تعرف التفاصيل أجزم، كما لم تكن نعرف شيئاً عن أمور كهذه. كل ما تعرفه أن الرجل حارب اليهود، وهذا أمر يجاوز الكفاية لامرأة مثلها. اعتلى، أبو أحمد، كما اعتدنا سماع كنيته من عمّي صالح، المنصة ليلقي كلمته قبل بدء الحفل الذي قام بصياغة

كلمات أغنياته. ثارت حماسة الجماهير، ونحن في غرفة الجلوس، إزاء كلمات وجهها إلى أخيه أمير البلاد، قبل افتتاحه البطولة بدقائق: "يا جابر الخير.. هنا، الملتقى هنا، أخوة مسلمون التّم شملنا.. فهذا ابن عمّي، وهذا أخي، ودين السماحة إسلامنا". كنا في صمت نتابع. افتتح الأمير البطولة. انطلقت المجاميع من طلبة المدارس، ترتدي ثيابا تقليدية للدول المشاركة، على أرض الملعب، على أنغام الأغنيات الوطنية، تؤدي استعراضات مع كل لوحة غنائية. أتذكر، وكأنني أسمعها الآن، هتافات الجماهير.. تصفق، تهتف وتغني، وكان كل منا، في بيت آل بن يعقوب، في أمسيتنا تلك، على ليلاه.. يغني!

خالتي عائشة لا تنفك تكلفُ تينا بعمل شيء. أي شيء، على ألا تجلس معنا في غرفة الجلوس بلا خدمة. أمي حصّة لا تبعد عينيها عن شاشة التلفزيون تصدر أمرها: اجلسي يا تينا! تنسحب خالتي عائشة إلى غرفتها حانقة. فهد وصادق يتابعان في صمت. يعقبان على كل عبارة يفوه بها رئيس اللجنة الأولمبية في خطابه، وكأنهما في مسابقة يستعرضان معلوماتهما. ينصتان إليه. يقول:

"هناك شعوب بتلك الديار.. تعاني المجاعة تخشى الدمار".

يتسابقان يجيبانه: "الصومال وفلسطين!". تمرُّ في مخيلتي صور علب تبرعات معدنية لا يخلو منها مكان، الأسواق والمساجد والمدارس، وحتى في غرفة فهد، صندوق يحمل صورة لقبة الصخرة، وأخرى تحمل وجه صبي إفريقي تسيل من عينه دمعة، تعلوها عبارة: من يمسح دمعة هذا المسكين؟

"دعونا ننادي باسم السلام.. ونصلح بين جارٍ وجارٍ".

يجيبانه، يسابق أحدهما الآخر، كلٌّ وفق أولويةٍ نشأ عليها:
"العراق وإيران"، أو "إيران والعراق"، وأنا، إزاء من يريد أن يصلح
بين جارٍ وجارٍ، وددت لو أجبتة قبلهما: "عمي عباس وعمي صالح!"
أو "عمي صالح وعمي عباس".

وجدتني مثل البقية تارة، أتابع ما يجري على شاشة التلفزيون.
تارة أخرى.. أجدني مثل تينا، أتابع الوجوه من حولي. كل واحد
يجذبه في حفل الافتتاح شيء. فوزية تتابع بابتسامة يثقلها حزن لم
أفهمه، ربما كانت تشتتهي شيئاً من الممنوعات المثلجة التي بين أيدينا،
أو ربما تتمنى لو أنها تشارك المجاميع الراقصة في الحفل، تعيد أمجادها
الصغيرة. حدسْتُها تلعن أيامها التي دفعتها لأن تكون في السابعة
عشرة من عمرها، امرأة تقيدها سلطة شقيق أكبر يرى في كل شيء
تفعله نقيصة. فهد كالمنوم مغناطيسياً، يجلس على الأرض مثنياً ساقيه
تحت، يتابع بشغف فاغرا فمه، عيناه باتجاه الشاشة بالكاد ترمشان لئلا
يفوته مشهد. أدريه لا يعنيه في افتتاح البطولة شيء، بعد عدم
مشاركة مؤيد الحداد ضمن تشكيل فريق المنتخب في البطولة، بقدر
ما يعنيه تصدي عبدالكريم عبدالقادر للغناء في حفل الافتتاح. يستمع
إليه بطرب لا يناسب سنّه. ربما لم ينتبه لكلمات الأغنيات بقدر
انتباهه لصوت مطربه الأثير ووقوفه وسط مجاميع الطلبة ينشد أغنياته
ويحرك يديه بطريقة يتميز بها. أُمي حصّة راوحت بين هزّ رأسها
وابتسامات ودموع أنهتها تجهش بكاءً من دون صوت، ربما لم
يلحظها سواي، أثناء عرض لوحة فلسطين يؤديها عبدالكريم متماهيا

مع أصوات المجاميع من حوله: "وإذا بصوت ينادي، متى تعود بلادي". تتمخط في منديلها الورقي وتمسح وجهها قبل أن تنفجر تشتم "اليهود أولاد الحرام"، في حين تردّد المجاميع الراقصة توقّد حماستنا: "قد وضعنا الخط الأحمر، تحت مفهوم العبارة.. نحن أطفال ولكن، بالوغى نصبح كباراً".

سیرتنا تلك الأغنيات، فهد وصادق وأنا، حتى أصبحنا مهووسين بجمع الحجارة حول البيوت قيد البناء في السُرّة، ونحن الذين ما جمعناها قط إلا للعبة عنبر. نطوي دُشاديشنا. نرفعها مثل أكياسٍ نملؤها حجارة، نأخذ أسماء جديدة، صبحي ومازن ومصطفى، نختبئ وراء التلال الرملية وأكياس الإسمنت، نمطر عمال البناء فوق السقالة الخشبية بحجارتنا. يلفت انتباهنا عامل يحمل مثقاباً كهربائياً كبيراً. نتحوّل إليه. نفرغ حملتنا باتجاهه مطراً، نردّد قبل أن نطلق سيقاننا للريح: "إن تكن تملك مدفع، فأنا عندي حجارة.. نحن أطفال ولكن، بالوغى نصبح كباراً". أتذكر فهذا يلتقط أنفاسه جالساً على ركبتيه في الحوش بعد مقاومتنا احتلالاً وهمياً، يقول: "ليتنا فلسطينيين". يناكفه صادق متفهّماً دافع أمنيته: "حتى يغني لنا عبدالكريم: يا زمان اشهد لهم.. أطفالنا من مثلهم؟". لا يخفيه فهد يجيب: "يا ليت!". كان يتقرّب من الأولاد في بيت الزّلمات، يهتم بمصادقة سامر وحازم زميلينا في الفصل الدراسي. يردّد ما يشبه أغنية شعبية محرّفة حفظناها من أبي سامح: عبّي لي الجرّة، عبّي لي الجرّة، يماً يا حنونة، عبّي لي الجرّة، والكويت بعيدة، بعطش بالصحرا..". وفيما نبدي إعجاباً بشخصيتي محظوظة

ومبروكة، كان يذكرنا بمؤلف الممسلسل، الفلسطيني طارق عثمان. يحكي لسامر وحازم عن دروس تلقاها من أمي حصّة، وعن صور يرتقال ظلت عالقة في مخيلته منذ حدثته عن زيارتها لفلسطين صغيرة. تُقسم بأنها كانت تخرج يدها من نافذة السيارة، تقطف يرتقالا من شجرة تحاذي الشارع، بصورة لم تألفها قط. ترفع ذراعها عاليا تجمع يرتقالا وهما في حجرها؛ هكذا هكذا!

كانت مناسبات رياضية وطنية مثالية للمّ الشمل، شمل أفراد البيت على أقل تقدير. في بيت واحد، في وقت واحد، أمام شاشة التلفزيون، كنا مشغولين بنا عربًا. نؤمن بكل ما يجيء بالأغنيات الوطنية. نفرح نغضب أو نبكي. يصدق عبدالكريم بعد وصلة فلسطين: "لبنان العروبة لا للحروب.. دم الأبرياء يغطي الدروب". تربطم أمي حصّة. لا تصدّق كيف لأبناء وطن واحد أن يشعلوه حربا أهلية. "خبول"، تكرر قولها. لو أنها، بعد سنوات، شهدت خبالا حل بنا!

في فبراير 1990، تكرر المشهد بتفاصيله في غرفة الجلوس. يوم افتتاح بطولة كأس الخليج العاشرة في الكويت. في وقت، رغم المنافسة، أصبح فيه خليجين أكثر من أي وقت آخر. لا يكشف التلفزيون بيت أغنية شهيرة: "خليجنا واحد وشعبنا واحد". تصحو الأغنية في مناسبتين؛ بطولة كأس الخليج وعقد قمة مجلس التعاون الخليجي، ثم تختفي بقية الأيام إلا من تأثيرها في نفوسنا. كانت فوزية، بفضل البطولة الرياضية، قد خرجت من حالة ضيق ألّت بها قبل حوالي شهر من يومنا ذاك، حين توفي إحسان عبدالقدّوس

واعتكفت في غرفتها أياما. أخرجتها البطولة من عزلتها. أقمستُ جهاز الفيديو شريطا لتسجيل حفل الافتتاح. تجمع أفراد البيت، بالإضافة إليّ وتينا، لكن من دون صادق الذي كان قد أدرك سنّ البلوغ مبكرا. نما شاربه سريعا. تغيّر صوته وانتشرت البثور على وجنتيه. طرق باب بيت عمّي صالح ذات نهار يحمل أطباق أطعمة تشتهر بها أمي زينب، الدولة الدسّيمة، والدملوج، المحرّم على فوزية، ذلك الذي نتلذذ به كلما نثرت فوقه مزيدا من السكر الناعم ومسحوق القرفة. حملت تينا الأطباق. كاد صادق يستأنف سيره إلى الداخل لولا أوقفه عمّي صالح مالكا عذره بصريح: "صرت رجلا.. ما يصير تدخل عند الحريم". كنتُ، قبلا، أنتظر زمنا يخطّ فيه شاربي. أعمد إلى إزالة الزغب الناعم بشفرة الخلاقة بعكس اتجاه نموه. أدعكُ منبت الشارب الحليق بزيت الخروع، لعل الشعر ينمو سريعا خشنا ويصبح مثل شارب هولك هوغان. أرفع ذراعيّ كل يوم أمام المراة في الحمام، أمعن النظر في إبطي. أتحمّس عانيتي اللساء أتحري جيوش الشعر تحتل جسدي. أتوق لعالم سبقني إليه صادق. عالم الكبار السحري. كانت أحلامه الليلية مصدر الإثارة الوحيد. يرويها لنا. ننصت إلى تفاصيل التفاصيل، مع ما يضيفه مبالغا، في حديثٍ عن أحلام تجمع به بنجمات السينما وممثلات التلفزيون ومذيعاته، وما يترتب على تلك الأحلام من آثار يكتشفها كل صباح. صار فهد يسرق كاتالوغات الملابس النسائية من غرفة فوزية، يعيرني إياها، بعدما يفرغ منها. أتصفح قسم الملابس الداخلية أتحسّس الصور، أتخيل ما تخفيه خربشات اللون الأسود من أجزاء محرّمة في

جسد العارضات، أمهد لأحلام ليلية مستعجلا بلسوغي. ولكنني،
كرهت البلوغ منذ مُنع صادق من دخول بيت عمي صالح. تمنيت أن
أبقى طفلا طيلة حياتي لئلا أُنزع أنا الآخر.

كنا نتابع الحفل، في صمت، أُمي حصّة تمُدُّ ساقها مُسندة
قدميها بجوربيها الصوف إلى المدفأة. خالتي عائشة تقلّب حبات
الكستناء فوق الدوّة مخلفة رائحة احتراق وفرقة القشور فوق الجمر.
ترك دوتها تتجه نحو تمثال أُمي حصّة تتأكد من ظهورنا جميعا في
التصوير. فهد بفرح مضاعف، وجود مؤيد الحدّاد ضمن تشكيلة
المنتخب، ومشاركة عبدالكريم في أوبريت الافتتاح. كان غائبا تماما
مع صوته. فوزية تنظر إلى ساعة الحائط تتحرى بدء استعراض لوحة
الكويت.

عمي صالح شأن آخر. لم أره قط متهلل الوجه منتشيا كما
كان تلك الساعة. كيف لا يكون؟ وقد بدأت اللوحة الاستعراضية
تُمعجّد صاحب الصورة في ممر بيته. رفع جزء من الجمهور ألواحها
ملونة شكلت في مجملها شعار الجمهورية العراقية. ارتفع منطاد ضخّم
يحمل صورة للرئيس العراقي تشبه الصورة المؤطرة في الممر القريب.
انطلق الغناء ثنائيا، بين عبدالكريم عبدالقادر وعبدالله الرويشد، على
إيقاع الكاسور العراقي:

هلا بسيف العرب.. ينحط على يمناي

هلا بللي حكي التاريخ عن أصله

هلا بللي زرع نخلة

وسقاها من شط العرب ماي

لم تعن لي كلمات الأغنية شيئاً عدا، شَطُّ العرب، الكلمة ذات الارتباط الشرطي بأمي زينب التي جاءت من هناك، والتي تذكرنا بها أُمِّي حِصَّة كلما حيَّت صاحبها مناكفة: "هلا بعجوز الشُّط!"، لترد عليها ببيبي زينب: "هلا بعجوز النار!". تتفض أُمِّي حِصَّة دائماً: "الله يَجِرنا من النار!". رفع عمِّي صالح قبضته عالياً، على الطريقة الشهيرة للشيخ فهد الأحمد الذي شارك بكتابة كلمات أغاني الحفل، منتشياً بكلمات الأغنية: "الله الله يا بو عدي". المجاميع الراقصة تردُّ مرَّحبة بالمنتخب العراقي: "هلا بهالجاي.. هلا بهالجاي". أجابه فهد تساؤلاً محبطاً: "أبو عدي؟! ولكن عبدالكريم هو من يغني!". لم يحفل بملاحظة ابنه، منصرفاً عنه منصتاً إلى بقية الأغنية:

بغداد.. أنتِ على الدرب الطويل العين والحارس
يا هذَّة الخيل الأصيل.. صدَّام إهو الفارس

لم يزل يطوِّح قبضته في الهواء يردُّ قافية الأغنية: "الحارس.. الفارس..".

فوزية، التي بدت ساهمة طيلة الوقت، تنتظر انتهاء استعراضات الدول، واخدة تلو الأخرى، تركت الأريكة باتجاه جهاز الفيديو أسفل التلفزيون، تتأكد من استمرار التسجيل قبل بدء استعراض لوحة الكويت في الختام.

انتهى حفل افتتاح البطولة الرياضية غناءً للكويت: "أنا كويتي أنا.. أنا قول وفعل.. وعزومي قويّة". تُذكرنا بالطائرة المخطوفة:

"أنا عن موقعي؛ تحكي الجابرية!". كانت فوزية في قمة سعادتها، وكنا كذلك. أتذكر وسع ابتسامتها، حتى بعد انقضاء الحفل. ارتفع صوت الكنسة الكهربائية تجرُّها تينا. أعدنا، ثلاثتنا، فوزية وفهد وأنا، ترتيب غرفة الجلوس. نلتقط قشور المكسرات من السجّاد نعاون تينا ونغني: "أنا كويتي أنا..". أحرصت تينا إزعاج مكنستها، في حين انصرف عمي صالح بصحبة خالتي عائشة إلى غرفتهما مدندنا:

"هلا بهالجاي.. هلا بهالجاي".

* * *

في فمي جرعة الماء تنمو

تزيد

وعلى جانبي لظى النار يصرخ

هل من مزيد

نحن والصخر كُنا الوقود

نحن والصخر نبقى الوقود

خليفة الوقيان

الفأر الثاني

لظى

الفصل الأول

في الأسبوع الأخير من يوليو 1990، سافر والداك لقضاء بقية الصيف في لندن. لم يكن السفر يعني لك شيئاً؛ وحيداً بلا أصدقاء مثل كل سنة، تقضي معظم الوقت في مَلَلٍ بصحبة والدتك، وأنت على مشارف رجولة تتحرّأها، تحمل أكياس مشترياتك مطأطأ في أسواق أكسفورد. ألححتَ على أمك حِصَّةً، توصلت إليها، قَبَلْتَ جبينها أن تفعل شيئاً، ولكنها بَتَرَتْ توصلاتك بـ: "لا تدخلني في حَرَجٍ مع السَّتِ الناظرة". وخين انقطعتَ عن زيارة بيت آل بن يعقوب ثلاثة أيام، إضراباً وتعبيراً عن حزنك لتخليها عنك، أرسلتَ لكَ فهذا يخبرك: "أمي حِصَّةً تقول: الكلب إلهي عَضُّكَ.. طَقَّيناه!". كانت قد قررت بتر سبب قطيعتك. ابتسمتَ تدفعه يوضِّح. قال إن جدَّته سوف تتصل بوالدك. طرتَ فَرَحاً حين أفلحتَ جارتكم العجوز بإقناعه ببقائك في الكويت. غضبتَ والصدتك. رفضتَ. رفعت سبابتها إلى السماء توشك تتم قَسَمها لولا أن عانقتها تكْمَمَ فمها بكفِّك: "لا يُمَّه.. الله يخليك!". كنت محظوظاً، أو ربما لا، حين سككت عن قَسَمها تنظر إلى والدك. حاولتَ أن تشيه عن قراره.

أجابها بلا حيلة: "العجوز تقول: الولد أمانة عندي". أزمعتُ ترد.
أطفأ غضبها: "اعتبرينا في شهر عسل!". تركتك، على مضض،
لصالح العسل.

انتقلتُ إلى بيت آل بن يعقوب بعدما سافر الاثنان من دونك.
وبعد قائمة تعهدات طويلة بينك وبين والدتك. كان الحيّ، ليلاً،
هادئاً مثل كلّ صيف، صامتاً إلا من صرير سُوير الليل وأصوات
سيارات قلما تعبر. معظم البيوت بلا أنوار، والسيارات تُلْفها الأغطية
القماشية المغيرة أسفل المظلات، أصحابها في سفر. فرحك بوجودك
في بيت الجيران استحال ندماً عظيماً، بعد يوم واحد من سفر
والديك، عندما قبل عمك صالح استضافة كلب أبي سامي في
حوش بيته خلال سفر أصحابه إلى أميركا. رفضت أمك حصّة، في
البدء. ضربت صدرها بكفّها: "كلب في بيتي؟!"، معللة؛ وجود
الكلب في البيت يطرد الملائكة. حاول إقناعها: شارعنا مظلم بعد
خلو البيوت من أهلها. السلوقي ينفع للحراسة، أيام معدودة ويعود
إلى مكانه. لم تقتنع. ذكّرها صالح: "أبو سامي جارنا". لم تكن في
حاجة لتذكيرها بأن النبي أوصى بسابع جار. قبلت على مضض.
ما تخيلتُ يوماً يجمعكما مكان واحد وأنت الذي ينتفض كلما شرع
السلوقي بالنباح. تقاسمتما الحوش وقت اللّهُو، للكلب، في الزاوية،
مساحة تحددها سلسلته المربوطة حول عنقه ليلاً، ولك مساحة تبدأ
حدودها من مبنى الملحق المظل على الحوش حيث المطبخ والديوانية،
وتنتهي عند قفص الدجاجات القريب من السّدرّة. كرهتُ خوفك.
خشيتُ أن يلحظه الآخرون. أخبار التلفزيون لا تكفُّ بين حين

وآخر تُشير إلى اضطراب كويتي عراقي يتابع عمك صالح تفاصيله باهتمام. كنت، لسبب تخجل من ذكره، تجلس داخل البيت مع أبي فهد تتظاهر بمتابعة التلفزيون لا تبرح مكانك. أخبار عن زيارة وليّ العهد، الشيخ سعد العبدالله الصباح، إلى المملكة العربية السعودية فيما أطلقت عليه وسائل الإعلام "حوار جدّة" الذي جَمَعَ وفديّ الكويت والعراق، في وساطة سعودية، من أجل حلّ المشاكل العالقة بين البلدين. كنت تسأل أبا فهد، لماذا؟ يجب ولا تفهم. يُسَطّط إجاباته ولا تفهم، يُسَطّطها أكثر: "الكويت تسرق نفط العراق.. هم يقولون". تستفهمه: "من هم؟". يجيبك: "العراقيون". وعندما تسأله عن رأيه يلوذ بصمته يفتعل انشغاله مع الأخبار في التلفزيون. قبل شهر خمسة من يومكم ذاك، كان العراق قد تقدّم بطلب رسمي بتأجير جزيرتيّ وربة وبويان الكويتيتين. تلك أمور سوف تعرفها عندما تكبر. ما كنت تعي شيئاً مما كان يدور حولك سوى قلق الناس إزاء ما تبثّه الأخبار، وأجوبة مبتورة على أسئلتك الكبيرة. الأمر الوحيد الذي تذكره جيداً أن عمك صالح، ذات يوم، قال لوالدك، على رصيفٍ مقابلٍ لمسجد مريم الغانم في السُّرّة: لو كنتُ مكان السُّلطة هنا لوافقتُ على تأجير الجزيرتين للعراق وفوقهما جزيرة مَسْكَان عطية! والدك يرى في جاركم رجلاً مجنوناً مفتوناً بشخصية الرئيس العراقي يؤمن بكل ما يفوه به من ادعاءات، رجلاً متحاملاً على السلطة منذ حلّ البرلمان، باع عقله للمعارضة في تظاهرات دواوين الإثنين. جاركم يرى في والدك رجلاً انتهازياً لا يهتم إلا المال، تاجر أزمات كما يسميه، استغل أزمة انهيار سوق

المناخ الاقتصادية بشراء الأسهم بأسعار زهيدة، رجلاً ارتضى قرار حل البرلمان حلاً لا يتوافق مع الدستور، وشارك بالتصويت في انتخابات المجلس الوطني، البديل غير الشرعي للبرلمان الكويتي، مبرراً مشاركته بأنها من أجل استقرار البلد وفخوضه من أزمته الاقتصادية. تتذكر والدك، مقابل المسجد، يحاجج عمك صالح، ولا يخفي قلقه إزاء توتر العلاقات بين البلدين وما قد يفضي إليه مستقبلاً. أشار صراحة إلى موضوع تأجيل النظام العراقي لمسألة ترسيم الحدود رغم ترسيم حدود بلاده، آنذاك، مع المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية. سرحت بعيداً تتخيل رسم الخرائط على الأوراق الشفافة في دروس الجغرافيا. "عندك تفسير؟"، سأل والدك جارك في حين كنت تنقل نظرك بينهما منصتا وصور الخرائط المدرسية في رأسك، تبدو الكويت بينها صغيرة بالكاد تُرى. ارتفع صوت عمك صالح: "العراق ما يتجاوز حدوده! يا أخي كافي إشاعات!". لم يفقه والدك بكلمة. استطرد جارك يذكّر بزيارة الأمير إلى العراق قبل شهور، من يومكم ذاك، وكيف استقبله رئيس الجمهورية قبل أن يمنحه وسام الرافدين. "أعتقد كلامي واضح!". ختم صالح. تتذكر والدك لا يحير جواباً، يهز رأسه يمضي نحو سيارته ساهماً. تتذكر أسئلة توجهها إليه طيلة طريق عودتكما من المسجد إلى البيت، لا يلتفت إليك. سألته لماذا لا يوافقون على ترسيم الحدود؟ تضاعفت المسافة بين عينيه وحاجبيه لا يخفي ابتسامة دهشة: "ترسيم؟ إيش عرفك بالترسيم يا بو عشر سنين؟!". أزعجك جهله. صرخت: "إثنعش!". لم يرد. انشغل يصغي إلى الإذاعة. كررت أسئلتك. هرك:

"أووه! أنت ما تشبع أسئلة!". لا تفهم لماذا يُخرسُ الجميع أسئلتك. لم تفهم والدك ولا جارك. لم يكن أبو فهد مؤمناً بأن "الرئيس" حامي البوابة الشرقية وحسب، بل منذ قام الأمير بحل البرلمان وتعطيل الدستور وفرض رقابة مسبقة على الصحف عام 1986 وهو على قناعة بأن الحياة البرلمانية لن تعود إلى الكويت إلا بوساطة عراقية أو بضغوط من "الرئيس". عدوى الافتتان بالـ "رئيس" انتقلت إلى أمك حصّة، لم يكن يعنيها من أمر صاحب الصورة في جدار ممر بيتها شيئاً لولا تصرّحه، قبل أربعة شهور من يومكم ذاك، بأنه سوف يجعل النار تأكل نصف إسرائيل. تتذكر سؤالك لها وهي التي تقول إن النار لا تورث إلا الرماد. تحببك منتشية بأن النار "زينة" إذا ما ورثت رمادا يهوديا. يتدخل صالح يشرح فروقا بين اليهودي والإسرائيلي. تقاطعه: "كلهم يهود!".

بعد سفر جارك أبي سامي وعائلته بيومين، أو ربما ثلاثة، انتشرت في الحيّ إشاعة حول سبب سفرهم، رغم اعتيادكم فراغ بيتهم كل صيف، قيل إن زوجته تلقت اتصالاً من سفارة بلدها يحثها على ترك الكويت في أسرع وقت. قيل، أيضاً، إن بعض سفارات الدول الأجنبية فعلت بالمثل مع رعاياها في الكويت. عمك صالح لا ينفك يردّد: "إشاعة.. إشاعة". يطمئن نساء بيته مستعيدا تصريحات وزير الخارجية الشيخ صباح الأحمد: "المشكلة الكويتية العراقية.. سحابة صيف". وأنت، إلى جانبه تجلس أمام التلفزيون، لا تنفك تسأل أسئلة لا تناسب "الجهال" كما يقول. يجيبك على مضض، وتساءل. يصمت. تسأل. يرتفع صوته مرة أولى في وجهك: "أنت

وين وهذي السوالف وين؟". يسألك لماذا لا تخرج مع فهد إلى الحوش؟ يغوص رأسك بين كتفيك لا تُحير جواباً. يترك غرفة الجلوس باتجاه الممر المفضي إلى حوش البيت. يعود بعد دقائق، متفهماً، وبنبرة هادئة يقول: "ربطت السلوقي".

الفصل الثاني

لأنك كنت أمانة لديها، لم تتركك العجوز لتنام في غرفة فهد، بعيدا عن عينيها. أفسحت لك ركنا صغيرا للنوم في غرفتها. مرتبة إسفنجية على الأرض، أسفل سريرها، فوق سجادة حمراء قانية كثوب فؤادة. تلاصق سريرها طاولة صغيرة، تحمل أدوية القلب والضغط والسكري وساعة جرس منبهة وكأسا زجاجية يغوص فيها طقم أسنانها. لا شيء يغري صبيًا في مثل سنك للمكوث في غرفة كتلك، وكل ما فيها لا يشبهك؛ قطع سجاد عتيقة، سرير نحاسي ولحاف صوفي بألوان نمر، مشط خشبي ومسحوق حناء وصابون سيدر وصابون نابلسي، برطمان عسل، وتين مجفف وثلاثة أكياس تمور؛ برّحي وسعمران وإخلاص. بسكويت مالح منتهي الصلاحية وزجاجات تضم أشياء تُميّز من بينها حبّات الهيل والزعفران، كسرات بخور ودهن عود معتّق، وأشياء لا تعرفها من أحجار سوداء وأدوات كشط جلد الأقدام المتبيّس، روائح نفاذة؛ دهان فِكس، ودهان آخر تحمل علبة صورة نمر أحضرته تينا من سريلانكا، وروائح أخرى ثقيلة، محببة، تسكن المكان مثل غيمة. تنام العجوز

باكرا وهذا ما يزعجك. سمحت لفهد في اليوم الثاني أن يشاركك فراشك بعد إلحاحكما، مادام السهر ممنوعا. كانت تفصل بينكما بواسطة وسادة طويلة. تستغرب حرصها: "لا تزيجوها!". تسألها مناكفا: "ترسيم حدود؟". تستلقي على سريرها النحاسي: "سيد بوزك وإحمد!". كتما تكتمان ضحكاتكما بسبب شخيرها كلما ارتفع فور استلقائها على السرير. كنت تلاحظ حركتها في الظلام، تستيقظ بين حين وحين ترفع رأسها عن الوسادة تنظر نحوكما قبل أن تغط في النوم مرة أخرى. لم تفهم الداعي إلى مبالغتها في مراقبتكما على هذا النحو حتى الليلة التالية. استيقظت، في منتصف الليل، على صوتها زاجرا حفيدها: "إحمد يا فهد!". يرتفع شخيره فجأة. تستطرد العجوز تحذره بأنها تستطيع رؤيته حتى في الظلام. تزجره: "حرام!". لا يرد. تختم تحذيرها تذكره بأن كفه سوف تحبل إذا ما كرر فعلته! منذ تلك الليلة وأنت تنام بلا الوسادة الطويلة الفاصلة، وبلا فهد. نبهك الأمر إليك. تُناوشك أحلام لا تتم. تخشى أن تُلس كفك في مكان سيّري، تكتشف جدّة طارئة على جسدك تستعجل بللا، حدّثكم عنه صادق، يشبه زلال البيض. خشيت أن يفتضح أمرك، يُقبض عليك تمارس اكتشافك، تُطرد من البيت رجلاً بكف حُبلى.

ما عاد شخير العجوز يضحكك. تتقلب فوق مرتبتك الأرضية تحاول اقتناص فرصة نوم إذا ما خفّ الشخير، بعض دقائق، كلما غيّرت من وضعية نومها. تستعيد كلمات العجوز: "أقدر أشوف في الظلمة". تخالها مشعوذة. تطوف في خيالك صورة الكأس الزجاجية

تصطك بداخلها الأسنان بما يشبه ضحكة كارتونية. يهرب النوم من عينيك ثانية. تعتصر وسادتك. تتأفف. "أحمد خَمَدك الله"، تقول العجوز. تشكو لها ملك وهروب النوم من عينيك. تعدك: "باكر أقول لك قصة". كنتَ قد حفظتَ كل قصص جنّيات السُّدرة: "أعرفها". أخفضت صوتها تضيفي على حديثها شيئاً من غموض: "باكر أسولف لك عن الفيران الأربعة". خوفك من الفئران لا يردع فضولك: "ليش باكر! ليش مو ألحين؟". تقول إنها حكاية طويلة. تنهض جالسا على رجليّ ساقيك، تنظر نحوها في الظلام تسأل عن الفئران الأربعة: ما أسماؤها؟ تنقلب على جانبها. تجييك: فأر اسمه جمر. تستدرجها تُكمل: والآخر؟ تتأفف وهي تُسميه: رماد. ينفد صبرك: بقي فأران. يرتفع شخيرها ناعما. تخمّن أنت الاسمين. لعلهما ميكى ماوس وجيري. تطرد الفكرة. تحاول أن تنام. تحضي خرافا في مخيلتك. لا فائدة. تحصي فئراناً. يطير النوم من عينيك. يضطرب النور المتسلل في الشق الأفقي أسفل باب غرفتها، يلفت انتباهك، ينبّهك إلى مرور أحدهم. "أمي حصّة!". تنبها. تجيب بصوت بالكاد يخرج من حنجرتها: "هممم—". يرتجف صوتك:

- "في أحد يمشي ورا الباب!".

تنقلب على جانبها يئنُّ سريرها إثر حركتها:

- "إنت حلمان".

تمعن النظر. الظلُّ يراقص النور أسفل الباب لا يزال. تؤكد:

- "والله في أحد ورا الباب!".

تطمئنك:

- "سلوقي زوج الأمريكية ما يخلي الحرامية تقرب من باب الحوش. نام يا خوآف".

- "في ظل تحت الباب؟ شوفي شوفي!".

تطلق زفرة نفاد صبر:

- "هذه فوزية جايه تذكرني بموعد الدوا".

ولأن فوزية لم تنطق وراء الباب. تصر أنت: "لأ.. مو فوزية".
ترك مرتبتك متجهها إلى مكبس الضوء. تنتفض العجوز رافعة لحافها
إلى منتصف وجهها: "يا ويلك! ارجع لفراشك!". تديرها تتحاشى
النور كيلا ترى وجهها من دون طقم أسنانها، وهي التي ما انفكت
تردد بحروف تشبه الحروف: "ما تشوفي بلا ضرورس إلا على
موتي!". تجلس فوق مرتبتك مثنيا ساقيك تحتك، تراقب اضطراب
النور أسفل الباب. تؤكد أن من وراءه ليس لصاً ولا فوزية!

تأفف العجوز:

- "يمكن الفيران!".

تتكور وراء لحافك. تغرق في بحر من عرق. تلعن اليوم الذي
طلبت فيه وساطتها لدى والدك لتبقيك في الكويت. تلتقط أطراف

النوم. تخرج ساقا من تحت لحافك، تحرك أصابع قدمك المتعركة، تباعد بينها، يلامسها هواء الكنديشة. تتذكر الفئران. تخفي ساقك داخل اللحاف مرة أخرى. ينفجر صوت فؤادة متضخما في رأسك: "آتية.. آتية..". يختفي صوتها ما إن ينطق فهد، وراء الباب، بصوت أعلى من الهمس قليلا: "صلاة الفجر".

تتحلقون حول سفرة الطعام الأرضية بعد أوبتكم من المسجد، عمك صالح وفهد وأنت. تدخل أمك حصّة تحمل إبريق الحليب، تتبعها خالتك عائشة بصينية الطعام. خادمتكم السيريلانكية لا تصحو فجرا: "لأنها ما تصلي مثلنا..!", تردّ العجوز على كئتها. سألتها قبل سنوات، تينا وفلورنس مسيحيتان.. "ليش تحبين هذي وتكرهين هذيك؟!". إجابتها جاءتك جاهزة: تينا خادمة، وفلورنس زوجة مسلم، لا يخاف الله! ماذا لو اعتنق أبناؤه دين أمهم! ختمت: "مصيبة تصيب الظالم! أسئلتك دمها ثقيل!".

نور يسبق الشروق لوّن نوافذ غرفة الجلوس بزُرقة رمادية. عبق مكانكم بروائح خبز وبقلاء ونخّي وحليب مُهَيَّل. رَن جرس الهاتف. "يا الله خير". قالت العجوز، قبل جلوسها، متوجسة من رنينه فجرا. قفز فهد يحمل السماعة. التفتت إليه أمّه بوجه باهت: "آنا قلبي قارصني.. ما ورا هالتليفون إلا مصيبة". تنهرها أمك حصّة: "قال الله ولا فالك بالساحرة". يعيد عمك صالح، إلى الآتية، حبة باقلاء كان قد التقطها لتوه. ينظر كلكم إلى فهد باهتمام. يرد التحية. يهز رأسه. يمدّ يده بسماعة الهاتف إلى أمّه: "يَمّة.. خالي يسأل عنك". تلتقط أمّه السماعة. يضطرب حاجباها. ترتعش شفتاها قبل أن تعيد

السَّمَاة تقول: "مصيبه!". أردفت: "الكويت راحت!". لم تفهم كيف تروح الكويت، وإلى أين؟ قالت عائشة: "الجيش العراقي..". عيناها على عمّك صالح تحديدا. تكمل خيرا تلقته للتوّ: ".. دخل الكويت!". دخول.. هي أقصى كلمة تصف الحدث يومكم ذاك، لعلكم تستوعبون، قبل أن تمر أيام تتغيّر فيها المفردة، تكبر وتشكّل بقدر ما تسمح به قدرتكم على الاستيعاب تدريجيا لهضم الحقيقة. دخولهم صار أزمة، الأزمة صارت غزوا واحتلالا. أمّك حصّة تهذي بشيء، غير مصدّقة فعلة الرئيس العراقي: "الحيّ يقلب". تسارع إلى دوائها. تتساءل: "وين إللي يبي يحرق إسرائيل؟!". لا تتذكر شيئا مما تقوله خالتك عائشة، ولا النظرات المذعورة المستفهمة لكل من حولك، لا تتذكر شيئا عدا عمّك صباح يصيح في زوجته: "إشاعات.. إشاعات". وددت لو تجري إلى فوزية المعتكفة في غرفتها مفجوعة بقرار اتخذه شقيقها بعد تخرجها في الثانوية قبل أسابيع: "لا دراسة في الجامعة!". تصيح بها: "الجيش العراقي.. دخل الكويت!". تنظر إلى عمّك صالح تدفعك كلمة دخل، تستعيده مترنما قبل شهور سيّئة: "هلا بهالجاي.. هلا بهالجاي!". تنظر إلى زوجته تسأل نفسك كيف تنبأت بأن الهاتف يحمل مصيبة!

لم تلبث الأخبار، التي أرادها أبو فهد إشاعات، أن تصبح بعد شروق الشمس حقيقة. إذاعة بغداد تصدر البيانات، واحدا تلو الآخر، أخبار، زغاريد، تصريحات حول تحرير الكويت. تحريرها ممن؟ تتساءلون. صوت المذيع يوسف مصطفى، منفعلا على غير عادته، في إذاعة الكويت قبل انقطاع بثها، يناشد العالم: "هنا الكويت.. أيها

المواطنون الكويتيون الأحرار، أيها العرب في كل مكان، لقد كشّر الغدر عن نابه، وكشف الطغيان عن مخالبه..". تمر الساعات طويلة. رنين الهاتف لا يتوقف. والدتك تتصل من الخارج منهارة. تلفظ كلمات بالكاد تعيد ترتيبها: أخبار الـ BBC.. العراق الكويت حرب.. سيأتي خالك حسن يأخذك معه إلى الفيحاء.. عليك أن تبقى معه في بيته "فهمت؟!". عمّك صالح أمام شاشة التلفزيون كالصنم لا يتحرك فيه شيء عدا جفنيه يرمشان. المشهد أمامكم على الشاشة أسفل أبراج الكويت الثلاثة، رجال بدشاديش كويتية ووجوه غير، يهتفون ويرددون هوسّة عراقية، تماما مثلما كنتم تفعلون أمام كاميرا الـ HITACHI، يرحبون بجنود آشوس هبّوا لنصرة الثوار المطالبين بتحريرهم من قارون الكويت والطغمة الغاشمة، وعلى الشاشة كلمات بالخط الأصفر: "الثوار الكويتيون يرحبون بجنود العراق الأماجد". أنت لا تفهم شيئا. أنت تشعر وحسب. تشعر بشيء لا تدريه. أسئلتك التي غصّ بها رأسك ماتت على شفّتك. لست قادرا على الاعتكاف في غرفة مثل فوزية، أو الصلاة والدعاء مع أمّك حصّة، أو الرّد على الهاتف كما يفعل فهد، أو أن تبقى صلبا بلا تعبير مثل خالتك عائشة. أو أن تغمض عينيك كهذي مثل تينا تستعيد صور دماء سُفِكت في اشتباكات غمر التاميل مع الحكومة السنهالية في سريلانكا. مثل عمّك صالح تماما كنت. ساهمّ هو يتابع شاشة التلفزيون. ساهمّ أنت تتابع الوجوه من حولك. أصوات مروحيّات في سمائككم. تمّون أنفسكم لو أنّها كويتية ولكنها ليست. شيء من طمأنينة أحاطتكم بعد تلقيكم أخبارا شبه مؤكدة:

غادر الأمير وولي العهد قصر دَسْمَان. وصلا إلى السعودية. ذاكرتك الصغيرة استدعت أحلام فوزية الكبيرة؛ التخرج في الجامعة، مصافحة أمير البلاد. ماذا لو طال أمد بقائهم وامتد؟ ماذا لو أن الأمير..؟ هَزُّ رأسك طاردا الفكرة. ما كدتم تتنفسون الصعداء إزاء وصول رأس السلطة إلى السعودية حتى هاتفكم ليلا من يؤكد: "استشهاد الشيخ فهد الأحمد أمام بوابة قصر دَسْمَان". تضاربت الأقوال حول كيفية مقتله. المؤكد أنه ما عِلِمَ بخروج أخيه الأمير. اتجه إلى قصر الإمارة دَسْمَان. اشتبك مع أفراد من الحرس الجمهوري العراقي مقابل البوابة قبل أن يخرَّ صريعا بثلاث طلقات. انفجرت أمك حِصَّة تبكيه. تضربُ فخذيه حسرة: "راح الرجل!". بكته عائشة. بكته فوزية. كنت تستدعيه في آخر مرة شاهدته فيها عبر التلفزيون يوم بطولة الصداقة والسلام. تتردَّد داخل رأسك أغنية افتتاح البطولة: "هنا هنا هنا.. الملتقى هنا.. إخوة مسلمون.. التَّمَّ شملنا!". غصَّ رأسك بالأسئلة. الوهن الذي أحاطكما أنت وفهد دفعكما إلى النظر نحو عمك صالح تستمدان منه شيئا من قوَّة، ولكنه مرَّر إبهامه أسفل عينيْن فضحهما احمرارهما يتظاهر بعكس حاله. هَزَّ رأسه إزاء الخبر. خانه صوته بما يشبه الرجاء: ممكن.. ممكن إشاعة.

* * *

الفصل الثالث

وطنك الذي تعرفه باسمه: الكويت، استحال خلال أيام إلى المحافظة التاسعة عشرة من محافظات العراق العظيم. صفتك مواطناً كويتياً ما عادت. كما يزعم التلفزيون والمذيع، أنت منذ انقضاء الأسبوع الأول للاحتلال مواطن عراقي من سكان محافظة النداء السليبية. محافظة اقتطعها الاستعمار ظلماً، عادت، بفضل الله وعزم جنود المجد والسؤدد، إلى حضن الوطن الأكبر. "الله أكبر"؛ تلفظها أمك حصّة أمام ادعاءات مذياعها. حالكم كانت ثورة، كما صوّرها إعلام النظام العراقي في الأيام الأولى، مستفيداً من تظاهرات دواوين الإثنين المناهضة لقرار حلّ برلمانكم. استنجد أصحاب الثورة بالجمهورية العراقية الشقيقة. الثورة صارت، خلال أقل من أسبوع، جمهورية الكويت الفتية يرأس حكومتها مواطن كويتي أظهرته شاشات التلفزيون يرتدي بشتاً يصفح "الرئيس". أمك حصّة، أمام الشاشة، تسند كفيها إلى رأسها: "يا الله غربله!". مع انقضاء الأسبوع الأول أعلن ثوار مزعمون انضمام جمهوريتهم الفتية إلى الجمهورية الأم!

عمّك صالح، مساء اليوم الأول، الخميس، الثاني من أغسطس 1990، خرج من عزلة ساعات قضاها في غرفته، يمني نفسه: أيام وتعود الأمور إلى نصابها. ليس غريبا أنك لم تفهم شيئا مما حدث. صالح نفسه لا يفهم شيئا. يوم ثانٍ للاحتلال، قطع النظام الجديد الاتصالات الدولية مبقيا عليها محلية. يومٌ ثالث ترفض تينا عرض أمك حصّة لاصطحابها إلى سفارة سريلانكا مفضلة البقاء إلى جانب "ماما كبير" كما تسميها. "بنت حلال.. أحسن من غيرها"، تقول العجوز عن تينا، تتحطم بينها وبين نفسها: "من تَرَكَ داره قَلَّ مقداره". تتهكّم على من سارع بالخروج من الكويت: "دجاج!". يأخذك كلامها إلى وقت مضى. كلامها قبل سنتين أسفل السُّدرة؛ دجاجات تتخلى عن بيضها المكسور لفئران لا تجرؤ على الاقتراب من القفص لولا صفار البيضة المكسورة والزلال المسكوب. يوم رابع، هاتَفَكَ خالك حسن يخبرك بأنه يرتب أموره لإيصال أسرته إلى المملكة العربية السعودية برًّا. بصفتك ابن شقيقته وبصفته خالك هو مسؤول عنك. قال أمرا: "جهّز جنطة خفيفة.. باكر الفجر". اعتصرك حزن مباغت وأنت الذي كرهت بقاءك في بيت آل بن يعقوب، كيف لك أن تترك السُّرّة؟ ماذا لو استعصت العودة؟ اكتفى فهد بسؤال حائر غلفه حزن: "تركنا؟". غمزت له تدعوه لأن يتبعك إلى بيتك. لا سلطة لأمك حصّة في أمر كهذا. لا وساطات في ظرف استثنائي. حسمتَ أمرك. ذهبتَ وفهد إلى بيتكم. يبدو كئيبا مثل أي وقت. انحنيت أمام غرفة والديك. سألك فهد: "ليش؟". أجبته: "المفتاح!". أزحت طرفا من قطعة سجّاد أسفل الباب.

التقطت سلسلة مفاتيح. نظرَ إليك فهد لا يسأل ما شأن غرفتَهما بتجهيز حقيبة سفرِكَ! كان يدندن بصوت خفيض يداري حزنه. شأنه كلما أراد أن يبدو في حال غير حاله: "المفتاح عند الحدّاد". كنت تجرّب مفتاحاً تلو آخر. فتحتَ باب الغرفة. التفتتُ إلى صاحبك: "المفتاح عندي". قفزَ على كلمات الأغنية منها: "والمطر عند الله". فتشت في الأدراج. عثرت على جواز السفر بين شهادات أسهم وكمبيالات والدك. نظرتَ إلى فهد تسأله أين تخفيه؟ ابتسامته الواسعة سبقت اقتراحه. فور عودتكما، ألقى فهد بجسده النحيل، أسفل السّدرّة، مثل قِطٍّ يتبرّز، يحفر بعمق شبرين. كنتَ مرتبكا أمام السلوقي المستفزّ في زاويته يرتفع نباحه. دسّ فهد كيساً بلاستيكيّاً يحمل جواز سفرِكَ. ردم الحفرة بقدميه. ضرب كفيه ببعضهما بعد إنجاز مهمّته. هزّ مؤخرته للكلب الغاضب: "ميااااا!". ضحكتما كثيراً، رغم قلقكما، لا تفقهان مدى خطورة ما يجري. دلفتما الممرّ إلى غرفة الجلوس. لكزتَ فهداً تشير بذقنك إلى الجدار الخالي إلا من نبات متسلقة تحيط مربّعا فارغا بين مزهريتي ريش الطاووس: "راح الرئيس!", قلتَ له. أضاف: "وورق الجرايد". خالك، الذي جاء بصحبة ابنه ضاري، فتش كل مكان في بيتكم. قرّر السفر من دونك. أحاطك بين ذراعيه يعتصرِكَ. لحيته الكثة تلامسُ خدّك: "أوصل الأهل وأرجع الكويت". كنت تتبادل النظر مع فهد تكتم ابتسامته. غادر خالك موصيا جارتكم العجوز بالعناية بك إلى حين عودته. ركضتما، أنت وفهد، إلى أسفل السّدرّة تستخرجان جواز السفر. اختلفتما على مكان دفنه. لم تعثرا على شيء. رفعتَ رأسك

تنظر إلى الأغصان، تضربُ كفُّك يعضهما: "سكنهم مساكنهم".
آمنتَ بأن جنَّاتِ السُّدرة صادرت جواز سفرِكَ. يوم خامسٍ علِمْتَ
بعودة الخال إلى بيته، بصحبة أسرة كويتية، بعد مصادرة سيارته
السُّفان عند منفذ النويصيب الحدودي. دَعَاكَ. رفضتَ. تركك
وشأنك في رعاية العجوز على أن يزورك بين يوم وآخر. أحوال فهد
يعزمون على الخروج من الكويت، يتصلون بشقيقتهم: "عايشة!
تعال معانا السعودية". رفضَ صالح؛ لا خروج! انتشت أملك حصَّة
لجوابه. استفهمته زوجته. أجاب بأن الحدود غير آمنة. صفت
العجوز الهواء أمام وجهها تمطُّ شفيتها محبطة. يومٌ سادس، الأحداث
من حولكما لا تزال في طور الأزمة. التصقت بأملك حصَّة. كانت
تحمل مذياعها الترانزستور. بيانات القيادات العراقية لا تزال. أخبارٌ
تشير إلى نية انسحاب بعد استتباب الأمن وتسليم زمام السلطة إلى،
من أسموهم، ثوارا كويتيين. هزَّت العجوز رأسها بلا يقين: يفوتك
من الكذاب صدقٌ كثير! يومٌ سابع.. يتصرف صالح وفق ما يرده من
مكالمات الهاتف؛ جنود الاحتلال يقتحمون البيوت لا يتورعون عن
دخول غرف النوم بحثا عن ممنوعات أو مطلويين. على إثر الخبر يوجه
كلامه إلى عائشة وفوزية. يقرر رجل البيت أن تبقى النساء بالحجاب
والدرَّاعة حتى في وقت النوم. لا يخفي قلقه: "أخاف على الحرم
يُمَّه". تتذكرهما، زوجته وشقيقته، حتى وقت دخول كل منهما
غرفتها ليلا، ترتديان الدرَّاعة المنزلية واسعة طويلة الأكمام. عائشة
بالحجاب طيلة الوقت. فوزية تكتفي تعقص شعرها وراء رأسها. لا
عِطرٌ ولا زينة ولا أي شيء. تتذكر أملك حصَّة مهمومة: من أراد

أن...، تبتّر جملةً لها. تستطرد متجاوزة كلمةً محظورة: .. لن يرُدّه ثوب طويل أو حجاب! يومٌ ثامن، دفعك جرس الباب للخروج صحبة فهد. كنتما أمام شاب كويتي مرتبك. بدا في أول الثلاثين بشارب كُتٌ ولحية قصيرة سوداء داكنة، اعتمر غترة مهترئة. وجهه مألوف، لعله من سُكّان المنطقة. مَدَّ يده إلى فهد يناوله كيساً بلاستيكيّاً يحمل شعار السوق المركزي لجمعية السُرّة التعاونية. "شنو هذا؟"، سأله فهد. أجابه الشاب باسمًا: خبز.. خبز وجُبْن كيلا تضطروا للخروج. استدار الشاب قبل أن يسأله فهد: "منهو إنت؟". أجابه ماضياً في السير نحو سيارته: "جاسم". فتح صندوق السيارة يحمل كيساً آخر يمضي نحو بيتكم. التفتَ إليكما مستطرداً: "جاسم المطوّع". كبس زر الجرس. نبهته إلى خلو بيتكم من أصحابه: "سافروا". مسح بنظراته البيت يتفحّصه قبل أن يمضي نحو بيت عمّك عبّاس. عدتما إلى الداخل. وبخكما صالح. لا تأخذاً شيئاً من غريب! أكد له فهد: "مو غريب!". قال إن وجهه مألوف، شاهده في السوق المركزي ربّما، أو في المسجد أو في ساحات كرة القدم الترابية. فوزية تستل منشوراً ورقياً بين أرغفة الخبز. تُناولهُ أخيها بعد قراءته. تسأله متحمّسة: "نروح؟!". يقرأ عمّك صالح المنشور الداعي إلى التظاهر في إحدى المناطق. يصرخ بفوزية موجّهاً سبّابته إلى السُلّم: "غُرفتكَ!". تجري إلى غرفتها باكية في حين يطوي الورقة في كفّه يهرع إلى المبخّر يشعل فيها النار: "جَهَّال"، قال عنهم، لا يعرفون فداحة ما يقدمون عليه! التفتَ إلى أمّه بعدما أحال الورقة رماداً: "مو من صالحنا نتحرّش فيهم". أمك حِصّة، رغم انشغالها مقرّفة خلف آلة

خياطتها على الأرض، في حجرها علبة حلوى ماكتوش ملأها
بكراتٍ وإبر ومشابك ودبابيس، تخطط فتقا في ثوب صلاحها، تفتعل
ابتسامة تعني بها شيئاً ما. احمرَّ وجه ابنها. ذكرها، كمن يبرّر، بمقتل
مصورٍ شابٍّ في تظاهرة الرميثة قبل يوم. أوقفت العجوز دوران آلة
الخياطة. قالت من دون أن تنظر إليه: "الحافظ الله". بدا عمك صالح
بغضب يشوبه شيء من خجل. مضى إلى السُّلم ينوي مصالحة
فوزية. هو على يقين بأنها لن تفتح له باب غرفتها. التفت إليك:
"تعال ويّاي". عند غرفتها في الطابق العلوي همس لك أمرا: "طّق
الباب". أوشكت أن تطرق بابها لولا أمسك صالح بيدك. قرّب أذنه
إلى الباب ينصت. كانت فوزية تترتل القرآن بحسٍّ شفيف يلامس
القلب. تنهّد صالح بوجه باسم. يقول إن شقيقته تتلو القرآن على
طريقة الشيخ بن عبيدان إمام مسجدهم القلم في كيفان. طرق
الباب. سكّت عن الترتيل. لم ترد. دفعك تناديها: "فوزية!". لم ترد.
ألصقت شفتيك في الزاوية بين الباب وإطاره: "عمّي فوزية..
افتحي". فتحت بابها. نظرت إليك بملامح امتعاض إثر خديعتك.
دخل عمك صالح بوجه مسالم. كدت تتبعه لولا ألصق كفّه على
صدرك: "خلاص.. روح إنت!". أطبق الباب. ما أوشكت على قطع
منتصف درجات السُّلم نزولا حتى انطلقت صرخاته في الأعلى.
تركت أملك حصّة آلة خياطتها همّ بالصعود. عند أول درجات
السُّلم كانت، تستند إلى الدرابزين. ظهر ابنها آخر السُّلم في الأعلى
يحمل أوراقا مطوية: "هذي البنت مجنونة!". لم تنطق العجوز.
أستطرد: "تعلّق أعلام الكويت وصور الأمير وولي العهد على

خزائنها!". عبث في أدراج خزانة التلفزيون في غرفة الجلوس قبل أن يعثر على أعواد ثقاب أخذها معه إلى الحوش.

يومٌ تاسع، ليس عدا إذاعتيّ لندن ومونت كارلو مصدر أخبار موثوقة مع سيطرة قوات الاحتلال على التلفزيون. لا يترقب أفراد البيت شيئاً كترقبهم مواقف الدول العربية، أثناء القمة الطارئة في القاهرة، يحبسون أنفاسهم بانتظار إدانة ووقوفٍ إلى الجانب الكويتي. بين امتنان وخذلان كانت حالكم. دولٌ مع. دولٌ ضد. دولٌ بين بين.

زاركم، صبيحة اليوم التالي، الشقيقان أبو طه وأبو نائل. نادى فهداً أباه: "يّه! الزّلمات يسألون عنك". نظر الرجل إلى ابنه مستفهماً؟ أوضح فهد بأنهم الفلسطينيون أصحاب البيت في آخر الشارع. ارتبك صالح يسأل ماذا يريدون. مطّ فهد شفّته رافعا كتفيه: "ما أدري". تبعتماه إلى باب الحوش حيث التقى الزائرين. بدا وجلاً.

- "خير؟"، سألهما.

أجاب أبو نائل بما يشبه عتباً:

- "هون؟! بصيرش غالب نحكي يا زلمة؟!".

لم يجبه صالح. تدخل أبو طه:

- "مش مشكلة، معك حق، بس احنا اجينا عشان نقول..

مرّينا عَـ بيوت الحيّ..".

قاطعہ أبو فہد:

- "مو شغلي بيوت الجيران.. خير؟"

توقفت سيارة قريبا من رصيفكم. تعرّف فهد إلى سائقها. أخير
أباه:

- "يّه.. هذا جاسم المطوّع".

ارتبك صالح من قدوم صاحب الخبز والجبن وال... منشورات.
تجاهل تنبيه ولده. التفت إلى أبي طه:

- "شنو بعد؟ خلّصنا.. بسرعة!".

هزّ أبو طه رأسه متفهما:

- "إحنا ما خصناش بلي بتسمعوه بالأخبار.. إنت عارف
من إمتا إحنا ساكنين هون.. واللي يجري عليكم يجري
علينا..".

قاطعہ مرة ثانية:

- "ما أعرف شي.. خير؟".

تدخل أبو نائل:

- "طيب.. خلّص فھمنا..".

أشار إلى أخيه وهو يهم بالانصراف:

- "يلاً نروّح..".

أمسك أبو طه ذراع أخيه: "استنى!". نظر إلى أبي فهد:

- "ما حداش من الجيران مانع نكون موجسودين هون..
وولادنا، زَيّ ولادكم، ما بيعرفوا مكان غير.. أصلاً
ييموتو لو..".

قاطعه مرةً أخيرة:

- "مو شغلي!".

استدار عائداً. أطبق الباب الحديدي الأسود. فتحه ثانية تلبية
لرنين الجرس. كان جاسم المطوّع يحمل كيس خبز. سارع عمك
صالح قبل أن ينبس الشاب بكلمة:

- "مَحْنَا بحاجة لأغراضك!".

مدّ جاسم كيسه البلاستيكي إلى أبي فهد يخبره بأن لكم، بين
أرغفة الخبز، مبلغاً من المال وَرَدَ من الحكومة في الخارج.

الفصل الرابع

تكاثر الذباب في أحيائكم إثر تكثُر أكياس القمامة على الأرصفة أمام مساكنكم. تسلل إلى البيوت. ذباب كبير لزج بزرقة لامعة يُسمع طنينه عن بعد. ذبابٌ فجَّ لا يفهم لغة أمك حصّة "كِش" كِش". تزايدت قطط الشوارع رغم غياب رائحة السمك في مطبخ تينا. استأنستم صغار القطط بدلا من طردها. الروائح الكريهة باتت جزءا من المكان. تنتظرون المتطوعين من شباب المنطقة لإزالتها وإحراقها بعيدا عن أحيائكم بعد هرب عمال التنظيف الأجانب من البلاد. لم تعد المياه بالوفرة التي كانت. تنقطع في فترات متفرقة. اقتصدتم في الشرب والغسيل. كنتم تنظفون أجسادكم بمناشف مبلولة بالماء الساخن بين يوم وآخر. تناكفون بعضكم، أنت وصادق وفهد، كلٌ يسخر من رائحة الآخر. اسودّت رقابكم وركبكم، تنثُّ أجسادكم رائحة حامضة. "خسنا وخاست الديرة!"، تعلّق أمك حصّة، ضاغطة أنفها بين إصبعيها، كلما مرَّ واحدكم بالقرب منها. وإذا ما تدفقت المياه في الحمام سخية، نادتك تنزعون ملابسكم مكتفين بسرّاءيلكم الداخلية، تدعك أجسادكم، بالصابونة الحمراء

أو الصابون النابلسي، متأففة وهي تنظر إلى المياه السوداء تسيل من أجسادكم على بلاط الحمام الأبيض: "نزل منكم نقط يا عيال!". كانت قد ملأت قدور الطبخ الكبيرة وأحواض الاستحمام ماء للشرب تحسباً لانقطاعه فترات طويلة. لم تبدِ العجوز قلقاً من انقطاع الماء، بين وقت وآخر، إلا في ما يخص إخلاصة وسعمرانة وبرحيّة، بنات كيفان الثلاث: "خوفي النخل يعطش". ما كنت تفهم كيف توزّع مزاجها على هذا النحو. إيمان وصلابة نحو وطن محتل، وقلق دائم من عطش النخيل.

ما عادت الفئران تحوم حول قفص الدجاجات أسفل السُّدرة وحسب؛ تسللت إلى البيوت. كنت تشمُّ رائحةً ترايبة حامضة، لا تعرف مصدرها، إذا ما استلقيت على أرائك غرفة الجلوس. ورغم أنك لم تشاهد فأراً داخل البيت قط، فإن أملك حصّة تؤكّد، كلما أزاحت مساند الأرائك كاشفةً عن فضلات بنيّة داكنة تقارب حبات الرُّز حجماً، تقول إنها الفئران، ليس ضرورياً أن تراها لكي تعرف أنها بيننا. تتذكر وعدّها، تذكّرها: "متى تقولين لي قصة الفيران الأربعة؟". تفتعل انشغالا بتنظيف المكان. تجيب: "في الليل". يأتي الليل، مثل كلِّ ليل. تنزع طقم أسنانها. تتحدث في ظلام غرفتها. ثمّهّد للقصة: "زور ابن الزرزور، إلهي عمره ما كذب ولا حلف زور..". ثم يسبق شخيرها الحكاية.

طبيعة ما ألّفتموها قبلاً قرّبتكم إليكم. رنين جرس الباب يتواصل. عديد من الشباب المتطوعين في السوق المركزي لجمعية السُّرّة يطوفون البيوت يسألون عن حاجات الأهالي، يقدمون خبزاً،

حليب أطفال، حفاظات، وكل ما من شأنه أن يقلل دواعي خروج الأهالي. يسأل فهد: "كل يوم خبز خبز! ما في سمك؟". تلومه جدته: "لا يا بطران!". تتحسّر على الحال كيف صارت والأسلاك الشائكة والخنادق تحاذي بحر الخليج على امتداد الساحل الكويتي. تمدّ كفّها تشير ناحية بيت الجار. تتحدّث عن قارب عبّاس الذي لم يسرح مكانه منذ مصيبتكم.

ذات نهار، كنت وفهد أسفل السّدرّة تشران حبوبا تستدرجان الحمام والزرّازير: "تَعْ تَعْ". الطيور لا تقترب. لا تدري لماذا تطمئن الحمامات لأملك حصّة ولا تطمئن لكما. يبرّر فهد: "صوت أمي حصّة غير". رنّ جرس الباب. تراكضتا إليه. سيارة جمع النفايات الضخمة يقودها رجلٌ مُلثّم بغترته، نظّاراته سوداء. يقف بالقرب من بابكم شاب أسمر آخر، يبدو في منتصف أو أواخر العشرين، يلفّ غترته حول رأسه بإهمال. "عندكم زبالة؟". جرى فهد إلى الداخل يسأل تينا أن تخرج ما لديها من قمامة، في حين بقيت مع الشاب في الخارج. كان ينظر إلى بيتك. يمضي نحوه، يقف بين السيارات المكسوّة بالقماش، يتفحص البيت كمن ينوي شراءه. عيناه سوداوان واسعتان بشكل ملفت تخالّ نظراتها تخرق ما تقع عليه. له شارب دقيق أسود وحاجبان مرسومان بعناية. عاد فهد تتبعه تينا يحملان أكياس القمامة. "منهو اللي يطق الجرس؟"، ارتفع صوت صالح خارجا من الديوانية في ملحق البيت. "سيارة الزبالة.. عمي". تقدّم صالح نحو الشاب. تعرّف إليه: "عبداللطيف؟!". صافحه يُحيّيه: "قواكم الله". ألقت تينا وفهد أكياس القمامة في مؤخرة السيارة، في

حين سأل أبو فهد: "ما عدنا نشوفك في مسجد الغانم!". يبدو الشاب في عجلة من أمره: "أصلي في مسجد الريعان". كان ينظر إلى بيتك وهو يجيب. نُبّه أبو فهد: لا زبالة لديهم... محظوظون تركوا البلاد قبل.. التفت حوله، أخفض صوته: قبل دخول الجماعة! هزّ الشاب رأسه بنظرات تحترق البيت الفارغ من أهله. قفز إلى مؤخرة سيارة النفايات بتشبّث بمقبض حديدي قبل أن يدير الرجل المثلّم محركها ماضياً إلى البيوت المجاورة يستأنف عمله. سأل فهد: "تعرفه ييه؟". أوماً صالح: "عبداللطيف.. ولد عبدالله المنير".

أسبوع ثالث.. إذاعتكم الكويتية، بأصوات عراقية، تهيب بمواطني المحافظة التاسعة عشرة إلى مزاوله أعمالهم والعودة إلى وظائفهم في الوزارات والمؤسسات: "ومن يتخلف يُعرّض نفسه لمساءلة القانون".

كنتم في غرفة الجلوس، مضى شهرٌ على الثاني من أغسطس، عمك صالح عاد لتوّه، بوجهٍ محبط، من السوق المركزي لجمعية السُرّة التعاونية. يصف الذعر في وجوه تتحرى خيراً أكيداً بين مئات الإشاعات. قيل؛ جماعات من الجالية الفلسطينية تنضم إلى صفوف الجيش الشعبي العراقي. تُنبّه أمك حصّة إلى ما بدأ به القول: قيل. لم يبال صالح بردّ أمه، راح، إزاء تجهم العجوز، يصف ما رآه في جمعية السُرّة، عربات السوق تغص بالمواد الغذائية، كأن أصحابها عزموا على الاعتكاف في بيوتهم سنوات؛ معلّبات، أكياس رز، خبز، سكر، قناني مياه معدنية. ملصقات على بوابة السوق الكهربائية تحت سكان المحافظة على ضرورة استبدال لوحات السيّارات. وجوب

القيادة باللوحات الجديدة العراق-كويت، وإلا.. حُرِّمَ أصحاب السيارات من التزوّد بالوقود. التلفزيون يحدّد مهلة أخيرة لاستبدال اللوحات، 26 سبتمبر. قيل إن من يتخلّف تُصادر سيارته إن كان محظوظاً، إن لم يكن.. يُصادر هو. تمرُّ ساعات. عمّك صالح لا يني، بين حين وآخر، يقف على رصيف بيته يتحقّق من سيارات الجيران، يتفحص لوحاتها، إن بادر أحدهم واستبدل لوحته لربما أزال عنه بعض الحرج: "لستُ أول من يفعل"، ولكن اللوحات كويتية لا تزال. القلق الذي طوّق أبا فهد انتقل إليك. لأنك لا تفهم الكثير، ولأن أسئلتك مزعجة، تستجد بأعين الكبار مؤشراً لما ينبغي أن تكون عليه حالك. وأعينهم لا تحمل سوى ترقب لآتٍ مجهول. الغريب أنك لم تفتقد والديك. ما افتقدته هو الطمأنينة في بيت آل بن يعقوب والحرية التي اعتدتها فيه. لعل ما استثار حنينك إلى والدتك، يوم صاحت بك العجوز: "تعال إسمع"، هو صوتها في برنامج "نداءات كويتية" تبثّه إذاعة المملكة العربية السعودية حيث أقامت هي ووالدك، برنامج يصل كويتي الخارج بكويتي الداخل. جاء صوت والدتك مكسوراً: "آنا وأبوك بخير..". حثّك على ترك الكويت مع من يعزم على الخروج إلى المملكة. لم تلتقط أنفاسها تستغل الثواني المخصصة لكل متصل: "ولدي أمانة في رقبتك يا أم صالح.. ولدي أمانة". انخرطت في نوبة بكاء قبل أن ينطلق نداء كويتي آخر يبحث عن لا يستطيع جواباً. كنتم في شتات. بين لاجئ وآخر مقطوع عن العالم. ليس كإذاعة المملكة العربية السعودية إذاعة تشعركم بضعفكم عبر برامجها الداعمة. في برنامج

"رسائل كويتية"، يناشد المذيع المواطنين السعوديين بالتبرّع إلى ضيوف المملكة من الكويتيين. يشير إلى أعداد العائلات "اللاجئة"، وإن لم يستخدم اللفظ. عائلات تسكن فصول المدارس السعودية. تتجسّد نداءات المذيع في مخيلتك على شكل عُلب تبرعات نقدية لا تحمل صورة قبة الصخرة ولا صورة صبي إفريقي. تتخيلها عُلباً تحمل صورة طفل بألوان علم الكويت. يشاركك فهد خيالك: "علب تبرعات للكويتيين.. من يمسح دموع هذا المسكين؟". أشفقت على من خرج. أحبيت بيت آل بن يعقوب. أحبيت السُرّة أكثر.

بصفتك أمانة، أمرتك العجوز: لا خروج من البيت! وإذا ما حاججتها بأن فهذا يقضي معظم وقته في حوش عمّك عبّاس. قاطعتك: "صالح كفيل بولده". هاتّفك خالك حسن ينوي زيارة البصرة ليجري اتصالات دولية مع أقاربكم في الخارج. خشيت ألا تعود. تحججت بضياح جواز سفرك لم تعرف أن لا حاجة لوثيقة سفر تنقلك بين محافظات وطن واحد. تتدخل أمك حصّة: "الولد أمانة عندي يا بو ضاري". تسمّرت أمام النوافذ، مصدرا وحيدا لأخبار تفهمها مقارنة مع أخبار إذاعة لا يفهمها سوى الكبار. تترقّب جنود الاحتلال كلما مرّت سيارات الجيب تُمنّي نفسك بالألا تتوقف أمام الباب بنية الاقتحام. لمحت فهداً وصادقاً، بصحبة سامر وحازم، في الحديقة الصغيرة في حوش الجار، تحت ظلال السُدرة في جزئها المطل على بيت عمّك عبّاس. ينحنون على الأرض يلتقطون أشياء بين الأعشاب الجافة. لست بحاجة لأن تُخمن.. حجارة! وقد صنعوا منها تلاً صغيراً. سبب كافٍ لمكوث فهد فترات طويلة في

بيت صادق بعيدا عن عيني أبيه. قلقك عليهما، ربما، أو غيرتك إزاء اجتماعهما من دونك دفعك للوشاية بهما عند عمك صالح: "فهد يجمع صخر في بيت عمي عباس!". لم يكثر الرجل بدءا: لعله يجمعها للعبة عنبر! استدرك يسأل غاضبا: "في بيت عباسو؟!". هززت رأسك تؤكد. أخبرته بأنهما جمعا حجارة كثيرة. لا علاقة للأمر بلعبة شعبية تحتاج إلى سبعة أحجار فقط. غاص رأسك بين كتفيك خجلا إزاء صرخة أبي فهد وسط حوش بيته: "فهد!". لم يرد. نظر إليك: "روح هاته!". أربكتك صيغة إلقاء القبض تلك. لم تجد فهدا في حوش الجار. كان في أسفل السلم في غرفة الجلوس يعبثُ وصادق بخيوط مطاطية وشرائط لاصقة يصنعون النبيطة. "أبوك يبيك"، أخبرته وأنت تتفحص جدّة طارئة على المكان. الجدران، في بيت جاركم، لم تعد بصورتها التي رأيت مرة أولى. مسحت غرفة الجلوس بعينيك. لا صور لآل البيت، لا جياذ بيضاء لا أسود لا سيوف، جدران عارية تماما. نظرت إلى الأرفف في خزانة التلفزيون، ليس عدا صورتين لصادق وحوراء.. لم تعد صور الإمام تتوسطهما. ما كاد فهد يفتح باب البيت الحديدي حتى عاجله أبوه بصفعة دوى صوتها في أذنيك: "صخر يا ابن الكلب؟! وفي بيت عباسو!". لا تفهم لم يشتتم الرجل نفسه. الذي تفهمه أنك كنت السبب وراء الصفعة. ثار شائما الحجارة وأصحابها. يشرح لابنه أن المحتل لا يعرف شيئا في أرض قيد الاحتلال، أهل الحجارة، "إلي تقلدهم"، ساعدوا المحتل أرشدوه إلى بيوت المطلوبين! مثلك فهد تماما، لا يصدق كلام أبيه. صاح عمك صالح بابنه: تتخذ من الواشي قدوة؟! تذكر أبا

طه. أبا نائل. أياكون بيت الزلّمات خطرا يهدّد شارعكم؟ كرهت
نفسك لما جلبته لصديقك وأنت من وشى به وبحجارتّه. كرهت
نفسك أكثر إزاء وصف أمك حصّة تلومك على وشايتك: "يا شبّاب
النار!". تدرّيها مانحة ألقاباً يصعب الفكّك منها؛ السّت الناظرة، قط
المطابخ، الساحرة، زوج الأميركية. كنت تحتمل تلميحاتها وتشبيهها
لك بالقروء، سخرية، ولكنك لست مستعداً لقبول اللقب الجديد،
عتباً؛ شبّاب النار، وأنت الذي كرهت النار منذ قالت إنّها لا تورث
إلا رماداً! وقف فهد أمام جدّته يُخبرها بما قاله أبوه عن الفلسطينيين.
مدّت كفّها أمام وجهه بأصابع متباعدة. "أصابعك ماهي سوا!".
سمعها صالح. صاح يؤكّد: "سوا!". ذكرّته بالكويتي الذي أسماه
الاحتلال رئيساً لحكومة الكويت المؤقتة. سألته: "إنت وهو..
سوا؟!".

انزويت بعيداً. تلوم نفسك كثيراً قبل أن يصالح الرجل ابنه ليلاً.
من عادته أن يرضيه بشراء هدية من "ألعاب الوليد"، أو "مركز نحن
والأطفال". في ظرفكم إياه، ما من هدية متاحة عدا: قل لصديق أن
يأتي إلى هنا وقتما شاء.. لو أراد.
رجاه فهد: أو أذهب أنا إليه..
ردّ أبوه حاسماً: "لا!".

الفصل الخامس

دأبك، في ظرف اعتيادي، أن تجري نحو الهاتف فضولا كلما شرع بالرنين. كنت مولعا بالأجراس؛ جرس الهاتف، جرس الباب، وجرس المدرسة كلما انطلق يعلن نهاية حصّة دراسية ممّلة. في ظرف استثنائي، لم تكره شيئا كما كرهت رنين الأجراس. جرس الباب، إذا ما كان أهل البيت في الداخل، يعني حملة تفتيشية في الغالب، أو، في أحسن الأحوال، جاسم أو عبداللطيف، يوزّع أحدهما الخبز غلافا لمنشورات مناهضة أو مبالغ نقدية ترد من الحكومة في الخارج، ويسأل الآخر عن القمامة. جرس الهاتف يعني توجيهها لما سوف يفعله صالح على إثر خبر يُنقل إليه. منذ يوم الاحتلال الأول وهو يتصرّف بشكل آلي بعد كل مكالمة. يقفل سمّاعة الهاتف، يحرق صوراً له بالزيّ العسكري زمن التحاقه بخدمة التجنيد الإلزامي. يقفل سمّاعة الهاتف، يتجّه إلى المطبخ في الحوش يعمل مع تينا على ملء غالونات بلاستيكية بمياه الشرب. يقفل سمّاعة الهاتف، يدفن بندقية صيدٍ بالقرب من السّدرّة في الحديقة. يقفل سمّاعة الهاتف، يؤوي السيارات الثلاث داخل الحوش لئلا يتبّه جنود الاحتلال إلى أرقام لوحاتها تحمل اسم الكويت لا تزال.

بقيتم على حال الفرع هذه مع كل اتصال ينقل خبراً أو إشاعة
محملة التصديق؛ نية المحتل قطع المياه عن الأهالي، عقوبة تصل إلى
الإعدام لمن يحتفظ في بيته بسلاح حتى لو كان بندقية صيد، اعتقال
أي رجل له صورة بزي عسكري. فوزية في غرفتها معظم الوقت لا
تفتح لأحد. تستنيك إذا ما طرقت بابها تحمل خبراً يهمها. ولأنك
تدري أن كيفان تعني لها الكثير، تحمل لها أخبار عمليات مقاومة
استثنائية في تلك المنطقة، وكيف صار الناس يسمونها كيفان
الصمود. يتهلل وجه فوزية: "كيفان غير". تجهيها: "والسرّة بعد". ثمّ
سبّبتها تضغطُ سرّتك، تتهكّم على اسم المنطقة. لا تدري ما الذي
أصابك لحظة ملامسة إصبعها لجسدك. جيش من النمل يدبُّ صاعداً
من ظهرك إلى رأسك. نظرت إلى وجهها بشفّة مرتخية. عقدت
حاجبيها: "شفيك؟". تركت غرفتها راکضاً لا تملك إجابة.

انكسرت حرارة الصيف في سبتمبر مع ظهور نجم سهيل جلياً
في سماءكم. قليلاً ما يزوركم نوم. رتابة أيامكم، في وقتٍ تنقطع فيه
الكهرباء وتتعطّل أجهزة الكنديشة، تدفعكم للخروج إلى الحوش
تفترشون الأرض. شارعكم هادئ إلا من صرير سُوير الليل. كل
سُبل تسليتكم لا تتعدى سور الحوش. كان القمرُ بدراً أتاح لكم
رؤية معقولة في الظلام. حملت العجوز عصاً طويلة ثبّتت في رأسها
سكيناً مثل رمح، وفي يدها الأخرى تحمل مصباحاً يدوياً. سألتها
وهي تمضي نحو قفص دجاجاتها، ملقية ملفّعها على رأسها كيفما
اتفق مثل غُترة: "وين؟". أجابت من دون أن تلتفت: "القُبار". فهقه
عملك صالح. سكت سُوير الليل فور مشيها بين الحشائش حول

القفص. ارتبكتُ خشية أن تكون قد دهسته من دون قصد. توقفت
لثوانٍ تتحراه يستأنف صريره. ابتسمتُ فور ما فعل. انحنيت فوق
الحشائش تُحدثه. تحضُّه يواصل غناؤه حتى تستجيب أنشاه الغائبة.
أدارت ظهرها تعالج المصائد تخلصها من فئران نافقة بواسطة رمحها:
"ما تشمّون الريحة؟!". هزّون رؤوسكم. "معلوم! ما دام ريحتكم
خايسة!", قالت العجوز تاركة جمعتها مفتوحة. انشغلت وفهد
بمداعبة قطط صغيرة استأنستموها. أمك حصّة رحبت بوجودها، ما
عادت تخاطبها طاردة: "تتّ تتّ"، لعلها تُخلص قفص دجاجاتها من
الفئران. لولا تزايد الفئران ما رضينا بالقطط، قالت مبرّرة، قبل أن
تتدارك: زمن أغبر! فئران وقطط وكلاب في بيتي!

فرغتُ من التقاط الفئران النافقة. تركتُما القطط وشأنهما.
تبعتهما إلى باب الحوش. أرسلتكما لرمي كيس الفئران خارجا في
الساحة الترايية إلى جانب بيت أبي سامي. وقفتُ تتفحص
النخلات الثلاث. علّت وجهها ابتسامة مطمئنة. "يُمّه حصّة! تحبين
بنات كيفان وايد؟". بدت شاردة حين أجابتك: "واحب صويحبها".
تدهشك قدرتها على أنسنة الأشياء وهي تحكي عن إخلاصة
وسعمرانة وبرحيّة. كيف أحضرها أبو صالح، رحمه الله، فسائل من
أماكن بعيدة؛ القصيم والبصرة والأهواز، انتقاها من بين عشرات
النخيل لتسكن قربه بدلا من غرسها مع أخريات في مزرعة الوفرة.
كان يسافر كثيرا، وإذا ما طابت له بلّحة، عند مضيّفه، سأل عن
مصدرها، يدفع كل ما لديه لقاء أن يحظى بفسيلة من النخلة الأم،
يحملها معه عائدا، يغرسها في حديقة بيته أو في مزرعته. حدثكما

عن لقائها الأول في بيت كيفان، وكيف تعارفت الفسائل الصغيرة إلى بعضها البعض، تحمل كل واحدة تاريخها غائرا في تنوءات جذعها. كيف كبرت، وصارت تُنافس واحداً منها الأخرى، محبة لأصحاب البيت تطرح أشهى الثمار. قفلت عائدة إلى الداخل وهي تترحم على زوجها وتدعو بطول العمر لـ بُنياتها الثلاث.

تحلّقتم حول المذيع على بساط خشن مخطط بالأحمر والأزرق وسط الحوش. يشرب الكبار الشاي في جوٍّ معقول خفيف الرطوبة، يستمعون إلى الإذاعة وقت النشرة كأن أخبارها لا تشبهها في غرفة الجلوس. سكت صرير سُوير الليل ثانية. رَقَصَت العجوز حاجبيها: "وصلت حبيبتة". استلقيتما على ظهريكما، تتوسدان فخذي العجوز، تحدّقان في النجم الضيف، في سماء أحالَ البدرُ سوادها زرقاً داكنة. أطفأت أمك حصّة مذيعها. "يا حلاة القمر". تنظر إلى السماء يجرّها حنين إلى زمنٍ كانت فيه السماء أقرب كما تقول، في بيت طيني قديم في المرقاب، تطل حجراته على حوشٍ مفتوح على السماء. "كنا نعرف السما أكثر.. وكانت تعرفنا". زفرت. "وقت القبط، قبل الكنديشة، ننام في السطح.. القاع فراشنا والسما لحافنا". نظرت إلى وجهها. كانت تحدّق في البدر لا تزال. سألتها: "يُمّهِ حصّة! كم عمرك؟". أخفضت رأسها: "والله ما أدري يا وليدي، أنا قديمة!". نظرت في الفراغ كأنها تتهجى كلماتٍ خفية: "الله يرحمها، أمي شريفة، تقول: جيتي يا حصيصه للدنيا سنة الطبعة، أو عقبها بسنة سنتين، عقب ما غرقت المراكب في مغاصات الخليج". بترت كلماتها: "إيه.. ذاك زمن وهذا زمن". قالت إنها سوف تحكي لكم

حكاية، ما دام سهيلا في ضيافة سمائكم. التفت إليها: حكاية الفئران الأربعة؟ صفعتك على جبينك: "لا"، لأن حكاية الفئران الأربعة طويلة "وايد". تلومها: "ملينا من قصص جنيات السُدرة!". تجاوزت قولك تنظر إلى سِدْرَتِها في الظلام: "سَكْنُهم مساكنهم". حدّقت في السماء ثانية. شرعت تحكي عن سهيل وأساطيره، سهيل الذي يأتي مُبشرا بالشتاء والمطر. ليته يُبشرنا برحيلهم عن أرضنا مع انسحاب الصيف، تُمنّي العجوز نفسها. أبقت عينيها على السماء. "هذي قصة حكّتها لي، حلوة اللبن، أُمي شريفة، ربي يتغمدها برحمته، يوم كنت صغيرة". أغمضت عينيها تستل نفّسا عميقا: "زور ابن الزرزور.. إللي عمره ما كذب ولا حلف زور..". راحت تقصُّ وهي تُمسّد رأسيكما: سهيل وصاحبه، دَخَلَت بينهما الفئران..

- "وين دخلت؟"، سألتها.

شدّت شعرك تكتم ضحكة:

- "ماني رادّة عليك".

استطردتُ تحدّثكم عن قصة جرّت في زمن سحيق في مكان ما بين الصحراء والساحل.. "زمان! لا نقط ولا كهربا ولا كونكريت..".

قاطعتها:

- "يُمّه حصّة! وين صارت القصة؟".

أجابتك:

- "إذا قاطعتني بعد مرّة.. ماني مكملة!"

حدّثكم عن سهيل وصاحبه اللذين لا يجمعهما رابط عدا عشق فتاة تدعى عاقبة، وأرض وراثها من أسلافهما منذ سنوات طويلة، يفلحانها، يعيشان على محاصيلها، ولا يعرفان مأوى سواها. يعتنيان بها نهاراً. يتناوبان على حراستها ليلاً. ولأنهما لم يبرحا أرضهما يوماً، أو يهملها، أو يسلمها إلى أغراب يفلحونها، لم تتمكن الفئران من سرقة محاصيل الأرض من رزّ وحنطة وذرة وشعير. جاءت الفئران. وإذا ما جاع فأر استمات ليحصل على ما يسد جوعه وإن جاء امتلاؤه على خراب ديار. أدركت الخبيثة أنها لن تسود الأرض ما لم تتمكن من الدخول بين سهيل وصاحبه. لم ترغب بالتخلّص منهما معاً، لأن الفئران بطبيعتها تأتي على الحصاد ولكنها لا تفلح الأرض. كان بقاء أحد الصديقين ضرورياً من أجل حياة الفئران. يفلح الأرض كي تستمر في عطاياها موسماً تلو آخر. تسرقه إذا ما هدّه التعب ونام ليلاً بلا صاحبٍ يسهر على حراسة جهده. ولأنها تعرف أن كلا الصاحبين يهيم بعاقبة ويرى أنه الأجدر بحبّها، لم تجد الفئران سواها سبيلاً إلى الدخول بين سهيل وصاحبه لتفرّق بينهما. هاجمت الفئران عاقبة داخل خيمتها البعيدة. صرخت الفتاة. استجارت. هبّ سهيل وصاحبه يسابق واحدتهما الآخر لنجدتها. يجريان في الظلمة. يتبعان صوتها ونور سراج يتسلل من خيمتها. دبّت الغيرة بينهما. كلاهما يصبو إلى نجدة الفتاة ونيل ودّها. تشاجر سهيل وصاحبه بالقرب من الخيمة، كلاهما

يدّعي أن عاقبة نادته باسمه. حمل سهيل حجرا. شجّ رأس صاحبه. سقط على الأرض يسيل الدم من مفارق شعرة. جزع سهيل لمراى الدم. سقط على ركبتيه يهزّ كفتي صاحبه. ظنه ميتا ولم يكن. صرخ شاتما نفسه. جرى هربا من ذنبه المضطرج بدمائه. لم يجد وسيلة يكفر بها عن خطيئته عدا اعتزاله العالم ولجؤه إلى جنوب السماء. بعيدا. وحيدا لا يجاوره نجم. صارت السماء تصرخ ألما لحال الصاحيين. ترسل دمعها مدرارا على الأرض. عندما نفرت الفئران إلى أرضهما استعاد الفتى الجريح وعيه. لم يجد سهيلا حوله، أعطته عاقبة سراجها ليبحث عن صاحبه. لم يجده في الأرض التي أحالتها الفئران خرابا. مضى يهيم في القفار حاملا سراجَه ينادي سهيلا الذي اختفى في السماء، ولا يظهر إلا مرة كل عام في مثل يوم نداءات عاقبة عندما تذكر السماء الفجيعة وتبكيهما. يمكث سهيل أياما يطل على الأرض يراقب ما حلّ بها. يبحث عن صاحبه الذي حمل سراجَ عاقبة وغاب في القفار يبحث عنه. هكذا صار سهيل نجما. أما صاحبه فقد اختفى، طاله النسيان، ولم تحفظ الأسطورة اسمه، إلا أن الناس صارت تناديه بـ شهاب، يدّعي البعض رؤيته، بين ليلة وأخرى، حاملا سراجَه خاطفا في السماء. ماتت الفئران على أرضٍ خرّ بها رحيل صاحبيها. بقيت عاقبة وحيدة بلا سراج.

– "يا ليت إذا ميتٌ أصير نجمة"، قال فهد لجدّته.

انتفضت: "قال الله ولا فالك!" تخشى مرور ملكٍ صدفة في الجوار، يسمع أمنيته. يحملها إلى الله:

أردف ينظر إلى وجهها:

- "عشان أشوفكم من فوق إذا اشتقت لكم"، قالها حزينا.

صفعته جدته على جبينه: "يجعل يومي قبل يومك". سألتها: "وقصة الفيران الأربعة؟". حجت جبينك بكفيك خشية صفة مماثلة. ولأنها لم تكثر، أظهرت لها عدم اهتمامك بقصة سهيل التي لا يمكن لها أن تكون حقيقية. أجابتك: "ابن الزرزور عمره ما كذب ولا حلف زورا!". تذكرت مصير من يحلف زورا: "تطيح علينا السما!". كان ينبغي أن تسقط السماء، يسقط معها سهيل، يلتقي صاحبه، كنت تفكر قبل أن تستغفر. شرع السلوقي بالنباح. التصقت أكثر بأملك حصّة. تخلطمت العجوز، قالت إنها ما حسبت حساب طول بقائه في بيتها. وافقها صالح: "ولا آنا"، ثم شرع يقنع نفسه بأهمية وجود الكلب من أجل حماية البيت. واصل الكلب نباحه. التفت صالح إلى فهد يأمره بأن يفك قيد السلوقي، يأخذه إلى الحوض الترابي لعله يقضي حاجته. نظر إليك مناكفا كاشفا سرك: "تخاف من الكلب يا ولد؟". أجابته العجوز دون أن تنظر إليه: "غيره يخاف كلاب لابسة ثياب!". امتقع وجهه. نظرت إليك تأمرك بفك قيد السلوقي. شللك طلبها، بالكاد ابتلعت ريقك: "آنا؟". ربّبت على ظهرك: "يلله يا سبع!". سبقك فهد إلى زاوية الحوش بصيح بك: "تعال!". أوقفته جدته: "اقعد إنت!". تصببت عرقا رغم اعتدال الطقس. صرت تكيل الشتائم، في سرك، لسهيل الذي دفعكم إلى مسامرته في الحوش. ما كدت تترك مكانك على الأرض، تجرّ

خطواتك إلى زاوية السلوقي، تقطع نصف المسافة تحدّق في عينيه،
حتى انطلقت صيحات تكبير وهتافات من أسطح البيوت المحيطة تُندّد
بالاحتلال. أجفل الكلب في البدء. أجفلت أنت. انطلقت أعيرة نارية
كثيفة تتوهج حُمرة تملأ سماءكم كالمنطق. حاكها السلوقي نباحا.
انتفضتم فرارا إلى الداخل. آخر الواصلين إلى غرفة الجلوس كانت
أمك حصّة تكنس الأرض بخطواتها تحمل مذياعها فزعة من سبيل
الطلقات النارية: "إذا دَلَق سَهيل لا تَأمن السبيل!". انفجرت
ضاحكين، في ذروة هلعكم. رَنَ الهاتف يُخرس ضحكات غرفة
الجلوس. تبادلتم النظرات كما في كل مرة يرن فيها جرس. حمل
صالح السمّاعة بوجه من تلقى خيرا مفاجعا. تمت أمّه: "سترك
يا ستار". لم يتحدث كثيرا. كان ينظر إلى أعلى السبيل. أدركتم
خطورة المكالمات من رعشات كفيه. همست عائشة: "خير؟ عسى ما
شر؟". أشار لها بكفه أن تصمت. تمت إلى مهايفه: "لا حول ولا
قوة..". أطبق السمّاعة يطلق زفرة طويلة يحدّق في الأرض. لم يفّه
بكلمة. صاحت به عائشة: "خير؟ إشفيك؟". ارتفع صوت أمك
حصّة منبها: "صوتك يا عائشة!". اختفى صالح في غرفته تتبعه
زوجته. فضولكما، أنت وفهد، في أوجه. سألتما العجوز. أجابت:
ننتظر عائشة لعلها تعود بخير. عادت كتنها بوجه باهت. أخبرت
هامسة: اقتياد فتيات إلى مراكز أمنية. تلكأت عائشة أمام سؤال أمك
حصّة: "ليش؟". ارتبكت في إجابتها تنظر إليكما، الجهال، بطرف
عينيهما: لماذا برأيك؟ ضربت العجوز صدرها بكفّها من دون أن
تنطق. هزّت أم فهد رأسها:

- "الله يستر على بناتنا..".

لم يمكث صالح في غرفته طويلا. خرج يحمل آلة حلاقة كتلك التي يخلق بها مشتاق الباكستاني رؤوسكم. ارتقى السلم، بخطوات سريعة، إلى الأعلى. بهت العجوز تنظر إليه وسع عينيها. صرخت به في حين كانت هم بالوقوف بطيئة الحركة تمد ذراعها إلى فهد كي يسندها:

- "وين رايح؟ اصبر يا صالح خاف الله!".

دفعت كتفها تصيح:

- "روحي امسكيه يا عايشة!".

تسمرتما، أنت وفهد، في مكانكما، في حين تجر العجوز خطواتها تتكى إلى الجدار نحو السلم تنادي ابنها. لا يصلكم من الطابق العلوي إلا طرقات عنيفة على باب غرفة فوزية وصوت عائشة تصرخ:

- "افتح الباب.. صالح! عليك الله لأ!".

* * *

الفصل السادس

مكوئك في غرفة العجوز ليلاً قرّبها إليك أكثر من أي وقت مضى. انزعاجك الذي كان، ما عاد. أحاديثها الليلية في الغرفة لا تشبه أحاديث النهار خارجها، وكأنها إذا نزعت طقم أسنانها، في الظلام، تستحيل امرأة أخرى. آمنت بأن هذا الطقم يحول بينك وبين سماع الكثير من القصص، ما كان للعجوز أن تتحرر منها لولا انتزاعها إياها. بتّ تسبقها إلى غرفة نومها فور فراغكم من تناول العشاء، في حين تذهب هي إلى الحمام تتوضأ قبل النوم. تستغرب وضوءها في غير وقت صلاة. تجيئك دائماً: حتى أموت طاهرة إذا ما قبض الله روحني وأنا نائمة. ثمضي إلى غرفتها تحمل منشفة مَعْطَرَة، تُجَفِّفُ ساعديها. تشبك ذراعيك أمام صدرك تتكئ إلى الحائط، بالقرب من الباب، تنتظرها تفرغ من إعداد المساحة المخصصة لنومك. وإن اقتربت مساعداً فهرتك: لستُ عجوزاً! هنيئاً لك المرتبة أسفل سريرها رغم صعوبة انحنائها. تراقبها بحب. تتشقق روائحها الليلية المنعشة، صابون لايف بوي، أو صابونة حمراء، على حدّ وصفها. تُسند كفيها إلى ركبتيها: "يا الله عليك ولا على غيرك". تسحب شفّيتك إلى فمك لكلاً

تُقلت ضحكة. عجزتها الكبيرة تبدو أكبر عندما تنحني. تمضي صوب خزانة ملابسها تفتح بابها الخشبي، تنتشر في جو الغرفة رائحة كريات النفتالين البيضاء. تنزع ملفعها وتودع أساورها الخزانة. تمسك بزجاجة كلونيا أم بنت، Pompeia Lotion، تفرغ قدرا كبيرا من السائل الذهبي في كفيها قبل أن تقفل إلى سريرها. تجلس. تطلب منك أو تأمرك: اطفئ النور. تفتعل حزنا في تعبيرات وجهك: ليس الآن يمه حصّة. هز رأسها: اطفئ النور.. لن ننام قبل أن نُسوّف.. لا تقلق. تُسّع ابتسامتك. تُطفئ النور من دون أن تترك مكانك بالقرب من الباب. لا تطيل انتظارك. تشعل النور فجأة بعد ثوان. تجدها، بوجه متأهب واثق، تبتسم ابتسامة واسعة مفتعلة تؤكد بقاء أسنانها في فمها. تمسك بزجاجة محلول الأسنان تنظر إليك كاشفة لعبتك: اطفئ النور وتعال اجلس في فراشك يا يهودي! تتودّدها مفتعلا حزنك: أريد أن أراك تنزعين أسنانك أرجوك. تقاطعك: على موتي!

تطفئ النور. تتحسّس طريقك بيديك وسط الظلام. تقرّص في فراشك أسفل سريرها. يُخرسك خشوعها. تنصت إلى همسها تخاطب الله مردّدة أذكار ما قبل النوم. معها فقط تشعر الله قريبا كأنك، وفق مخيلتك، تُخلّق في السماء. تقرأ العجوز المعوّذات. تنفث في كفيها. تُتمّم بكلمات بالكاد تلتقط بعضها يُميّزها حرف الـ سين. هي لم تنزع طقم أسنانها إذن. سـ سبحان.. اللهم رب السموات السبع.. اللهم إني أسـ ألك.. الذي أطعمنا وسـ قانا وكفانا.. فليـ س قبلك شيء.. باسـ ممك اللهم.. أسـ لمت نفسي إليك.

فور ما يخبرو حرف الـ سين في أذكراها تلفظُ سين سؤالك،
 تُبادلك سينك بـ سين السوالف التي تُحب. كانت تجيبك على
 كل سؤال. تحكي لك عن كل شيء عدا قصة الفئران الأربعة التي
 وعدتك بها. تؤجلها إلى ليلة تليها. تتحدث عما تريد هي قوله. تفهم
 بعضاً من كلامها. تجهل الكثير منه. تتحدث هي بدافع الحاجة إلى
 الحديث. بسؤالك أم من دونه. أمك حصّة، في الليل وحسب، شأن
 آخر. في سوالف الليل تتعرّف إلى ما لم تعرفه من قبل. لماذا تقسو
 أمك حصّة على ابنها صالح. لأنه يقسو على فوزية، صالح رجل
 البيت، في البيت وحسب، رجل على شقيقته، قليلة الحظ، المريضة
 يتيمة الأب. لماذا هي مريضة. ابتلاء من الله. لماذا يتليها الله. يختبرها.
 لماذا يختبرها. لأنه يُحبّها. ألا يحبني الله وأنا سليم البدن معافي من
 الأمراض. احرص واستغفر الله. أستغفر الله. عَفِيَه على وليدي. ماذا
 لو نَجَحَتْ في الاختبار هل يُشفيها الله. الاختبار عند أمك السّت
 الناضرة في المدرسة يا خبل. أستغفر الله، متى ابتلاها الله. ما رأيتُ
 "جاهل" يسأل كما تفعل أنت. أنا لستُ "جاهل"، متى ابتلاها الله.
 عند موت أبيها في تفجيرات المقاهي الشعبية قبل خمسة أعوام. كيف.
 بكت كثيراً، حتى أنني لقاء بكائها لم أقوَ على البكاء، لم أبك أباً
 صالح، بكيت فوزية، بنت أبوها، كما كان يُسميها رحمه الله، بكيتها
 حينما نقلناها إلى المستشفى مهدودة الحيل. أُغمي عليها. صالح الذي
 أردته رجلاً في غياب أبيه، صار طفلاً. عائشة، من يومها، هي
 عائشة، لم ألحظ لها حزناً على غياب أبي صالح، ربما تحسبه حياً في
 الصور التي تحتفظ بها الخيلة!

تصمت العجوز..

يُمّه حِصّة، هل نمت. من أين يجيء النوم يا ولدي، اللهم شافها وعافها..

حدّثك عن حبها لفوزية، بنت أبوها وعُويّنة أمها، وكيف كتب الله لها الحياة بعد موت تسعة ذكور في بطنها، بين ولادة صالح وشقيقته. شرعت تستعيد كلام طبيب ابنتها بعد فقدان أبي صالح، ارتفاع حادّ مفاجئ في مستوى السكر، حالة عرضية، بسبب أزمة نفسية. لا يخفي الطبيب قلقه إزاء احتمال تطور الأزمة العابرة إلى مرض دائم، مردّة استعدادها وراثيا، وإهمالها للعلاج وتهاونها في أكل المنوعات.

ثم، ماذا حصل يُمّه حِصّة. لم تكن حالة "أم يومين" كما أخبرنا طبيبها، ما ورثت ابنتي إلا المرض، كانت تُذكرني بمواعيد دوائي، أصبحنا نُذكر بعضنا. هل يكره عمّي صالح فوزية. صالح يكره ضعفه، مسكين لا حول له ولا قوة، هو يحب شقيقته ويخشى عليها، وفوزية رغم ما فعله بها يوم أمس لم تُقاوم، هي تفهم أنه يحبها وأن ما فعله ليس إلا تعبيرا عن خوفه عليها، أنت كنت في الحوش حينما نزل إلى غرفة الجلوس يحمل آلة الخلاقة يكي مثل الـ "جاهل" يا رُوَيْحَة أمّه. هل رأيت فوزية يُمّه حِصّة، هل فتحت لك باب غرفتها. رأيتها يا عُويّنة أمها، مثل حمامة منتوفة الريش. هل أزال صالح شعرها على الصّففر؟ ها؟ يُمّه حِصّة! نمت؟

بكت العجوز مثل "جاهل".

وددت لو أنك ترى وجهها، ولكن الظلام. توقفت العجوز عن البكاء تستغفر ربها. راحت من دون أن تسألها تتحدث عن صالح:

"صالح، الله يصلحه، ابني وليس ابني، منذ صغره لا أفهمه. ليته مثل ولده، سمي جدّه فهد الله يغفر له، وارث ملامحه وطباعه..".

تطلق زفرة تشبه ضحكة. توصيك خيرا بحفيدها. تعرج بحديثها إلى صادق. أنتم الثلاثة. بنات كيفان. ربّعك عزوئك. تصمت قبل أن تُخصّ فهدًا محبة فائضة في حديثها. هو وحيد أبويه منذ جراحة أُجريت لعائشة. لم يعد يستفزك أمر الرّجيم، ولا علاقة إزالته بعدم إنباج مريد من الأبناء بعد فهد. كنت تنصتُ إلى العجوز كمن يتعرّف إلى امرأة لم يكن يعرفها قط.

تستطرّد:

".. أصبح فهد رجلا، يشبه جدّه، حتى في حبه — مُطبّق السمك.. قَطّ المطابخ".

تسكت العجوز. تخالها تبتسم لمرآى زوجها في مخيلتها. تردف:

"صالح حبيب، لكنه يُصغي كثيرا، كلمة تأخذه بعيدا، وأخرى تعيده إلى حيث كان. ينصت إلى عائشة.. إلى أصحابه في الديوانية وتجمّعات المسجد.. إلى التلفزيون وأخبار الإذاعة والجرائد.. وآخرها ما يُسمونه تظاهرات دواوين الإثنين".

لا تدري سببا وراء انفلات العجوز حديثا عن ولدها الذي لا يهتمك أمره بقدر ما يهتمك معرفة المزيد عن فوزية. تتذكر عمك صالح يتصرف وفق ما يرده من مكالمات هاتفية منذ يوم الاحتلال الأول. تستطرد أمك حصّة:

"أكمل دراسته الجامعية في القاهرة. صور جمال عبدالناصر التي علّقها أبو صالح على جدران البيت تضاعفت بعودة ابنه من مصر".

تصمت قبل أن تسألك:

- "تعرف الزعيم عبدالناصر؟".

لا ترد على سؤالها. تستأنف:

- "الله يخلف عليك! ما تعرف الرجاجيل!".

يرتفع صوتها:

- "عبدالناصر اللي حارب اليهود!".

تستطرد متهمكة بأنكم تردّدون، كالبغاوات، كل صباح "تحيا الأمة العربية" وأنتم لا تفقهون شيئا!

لا تأبه بصمتك تواصل:

"الله يرحمه، أبا صالح، كان رجلا، يحب جمال، يسجّل خطاباتهِ ويسمعها ولا أم كلثوم في زمنها. أما صالح، ربي يصلح حاله، كل يوم شكل. معاهم معاهم، عليهم عليهم! مرة يقصّر دِشداشته، مرّة

يلبس مثل الإنكليز. يُحب تعليق الصُّور، مرّة جمال عبدالناصر، ومرّة الكافر أبو لحية متوفة..".

رغم عدم رضاها عن حال ابنها، تتحدث عنه بحب. تتذكره وقت عاد، في أول إجازة دراسية، من القاهرة، ببذلة بنية وشعر لامع مفروق وشاربٍ دقيق. يقف أمام المرأة في غرفته، يلبس مثل المصريين، يستمع إلى عبدالحليم حافظ، ممسكا بمشط بروش يقرّبه إلى شفّتيه يحاكي أغنياته.

تقاطع نفسها كأنها تذكرت شيئا مهما. تحدّثك عن زمن قيام العجّمْ على شاه إيران. حمل صالح صورة الإمام الخميني، يحدثُ والديه عن رجلٍ عاد من منفاه من أجل ثورة إسلامية.. "وأنا وأبوه، يا عون الله، ما نفهم شيئا من قوله عدا ثورة إسلامية.. حياها الله! من يعاف الإسلام؟ الإسلام زين".

تتحسّس قنينة الماء في الظلام. تبسمل. ترتشف قبل أن تكمل:

قامت ثورتهم. أزال صالح كل الصور عن جدرانها وقت حرب العراقيين والإيرانيين. علّق صورة صدام حسين. لا أدري ما الذي أصاب أولادنا، من يومها صار واحدٌ يحسب الله في صفّه ضد الآخر.. ما كنا نعرف شيئا من هذا والله.. فتنة.. فتنة، اللهم يا كافي، أنجس من ذيل فأر!

تناجي الله تسأله هدايةً، لصالح وعبّاس، رافة بها وبجارتها زينب. تطلق زفرةً حرّى: "يطلع من بطنك دودٌ يا كلك!".

وَلَدًا!
تَسْمَعُنِي؟
يَا وَلَدًا!
إِنْتَ نَمْتُ؟!

* * *

الفصل السابع

قارب الاحتلال شهره الثاني، والحال تزداد سوءاً، والمحتل يحكم قبضته على كل شيء. أفزعتكم طلقات نارية قريبة من بيوتكم فجراً. عاد صالح من صلاة الفجر في مسجد مريم الغانم يحمل خيراً؛ قيل إن شاباً أطلق أعيرة نارية على سيارات عسكرية كانت في طريقها إلى منطقة الجابرية. لو سمعه عسكر الاحتلال ينطق اسم المنطقة المحظورة! وقد اتخذت مناطقكم أسماء جديدة فرضتها قوات الاحتلال؛ جابريتكم صارت منطقة الأحرار، ديناركم الكويتي صار، بعد أيام، عراقياً. مناطقكم السكنية؛ السالمية، سلوى، الخالدية والشويخ.. صارت لها مسميات جديدة؛ حي النصر، حي الخنساء، الجمهورية والرشيد. لو استمرت حالكم.. لن تعرفوكم. انزعج عمك صالح إزاء سؤالك: لماذا تغيير الأسماء؟ ارتفع صوته: أنت لا تكفّ عن الأسئلة؟! وحدها أمك حصّة تجيب: كي لا تعود الكويت كويتية! تخيفك إجابتها. تأمل ألا يطل السرّة اسمٌ جديد.

هاتفكم، يومكم ذاك، خالك حسن يؤكد أن جنوداً يقومون بحملات تفتيشية عشوائية في البيوت بحثاً عن متورطين بالهجوم على

الرتل العسكري بالقرب من جسر الجابرية. حذر خالك أبا فهد ألا يقترب أحدكم أو يدخل بيت شقيقته. أوصاه بعدم السماح لك، تحت أي ظرف، بدخول بيتك. وإن سُئِلتم عن البيت أو أصحابه ادَّعوا بأنكم لا تعرفون عدا أن أهله في سفر. قام صالح يذرع غرفة الجلوس جيئة وذهابا: "أبو ضاري في راسه شي!". صاح بكما يتناهبه قلق من زيارة محتملة: "إنت وفهد.. لحقوني". تبعتهما إلى غرفة فوزية. أمر كما بتفتيش غرفتها جيدا لعل المخبئة تحتفظ بما يودي بحياتكم. فتح الخزان وشرع، مع ابنه، يبحثان بين الملابس وفي الأرفف. نظر إليك وهو يشير إلى أدراج مكتبها الصغير: "شوف هناك!". فوزية، بوجه متورم من النوم أو البكاء، بحجاب يلتصق بجلدة رأسها، تفهم دوافع نظرتك المكسورة إليها، لا تمنع. تُشير نحو أدراج مكتبها تحثك على البحث. تقدَّمت نحو المكتب وفي رأسك صورة الفراشة الوردية. شعرٌ أسود طويل يجاوز منتصف مؤخرتها كما تصفه أمها، أو تحت ظهرها كما تصفه هي. ما كادت تفتح دُرجا أول حتى أطبقته بسرعة تنتقل إلى الدرج أسفل. لفتَ إليك انتباه صالح من دون قصد. تقدَّم إليك أمرا: "افتحه!". فتحت الدرج الثاني في الأسفل. زجرك: "الأول". نظرك باتجاه فوزية. هزَّت رأسها موافقة. فتحته ببطء كاشفا عن قطع شوكولاتة ماكتوش كثيرة فوق كيس بلاستيكي يحمل اسم وشعار مكتبة البدور. كتمت أنفاسك ترقبا. فتح أبو فهد الكيس البلاستيكي يتفحص محتواه؛ ثلاث روايات لـ إحسان عبدالقدوس. أطلق زفرة ارتياح. أعاد الكيس. التقط قطع الحلوى تاركاً لها واحدة. أطبق درج المكتب: "هذا يضر صحتك".

لم يقل شيئاً آخر. كنت تُسألك: ماذا عمّا يضرُّ بعقلها وأخلاقها؟! قبل انصرافكم، التفت صالح إلى فوزية بوجهٍ سَمِيحٍ: "إذا رجعت الكويت..". ابتسم قبل أن يستطرد: "تسجلين في الجامعة".

عصر يومكم إياه، اجتمعتم في غرفة الجلوس تنصتون إلى إذاعة مونت كارلو تتابعون تفاصيل مؤتمر جدّة الشعبي. لقاء يجمع الحكومة في المنفى وأطياناً من الكويتيين ضمنهم أصوات معارضة منذ تعطيل البرلمان. صوت الأمير في خطابه يعتصر قلوب النساء في بيت آل بن يعقوب. يُكي فوزية. أمّك حصّة كما لو تحاور أحداً، لا تنفك تَهزُّ رأسها تردّد: "إيه.. إيه"، وراء كل عبارة يفوه بها عبدالعزيز الصقر في كلمته ممثلاً الشعب الكويتي في المؤتمر. عمّك صالح ينصت مضيقاً عينيه. لا تعرف سبباً وراء ركله للمذيع وغضبه على نحو مفاجئ: أخرسوه! انزلق المذيع على الأرض بعد إصرار الصقر: إن موقف بعض القيادات الفلسطينية لن يؤثر على تضامنا الثابت مع الشعب الفلسطيني في كفاحه العادل لتحرير وطنه. التقطت أمّك حصّة المذيع، كمن تحمل رضيعاً، نظرت إلى ابنها: هل جُنت؟! لا تدري سبباً لرد فعلها، تأييداً لما جاء في البيان أم خوفاً على مذياعها. أعادت تشغيله. واصل صوت الصقر: ".. إننا نعلن على الرغم من آلامنا وجراحنا وما جرّه عدوان النظام العراقي الآثم من المصائب والويلات على شعبنا، فإننا لا نُضمر للشعب العراقي الشقيق شراً ولا نحمل له حقداً". أخرست العجوز مذياعها صامته ساهمة. ارتفع صوتٌ في الشارع ينادي: "بَرْد.. بَرْد..". جاء أبو سامح بسائع المثلجات في غير أوانه. كاد يفرّ قلبك من مكانه فرحاً لولا اتساع

عينيَّ عمَّك صالح الذي همَّ واقفاً: "القوَّاد! والله جريء؟!". استغربت لفظه وهو الذي لا يفعل أمام أهل بيته. لم تلبث نداءات البائع طويلاً أمام صوت جاء أكثر ارتفاعاً أوقف نداءاته. مضى أبو فهد إلى الخارج بدشداشته المنزلية يستطلع الأمر. تبعتماه، أنت وفهد، يقودكما الفضول. وجدتم جاركم عبَّاس يصيح بالرجل الواقف وراء عربته والشمسية الحمراء مكسورة: لا خير فيكم يا أولاد الـ...! فتح غطاء عربة الآيسكريم والرجل يحاول أن يثنيه بلا حول. انحنى أبو صادق على الأرض مقابل بيته يحمل بين يديه حفنة تراب. صاح أبو سامح، بضعف، بلهجة أعادتكم إلى صوت المدرسة: "يا عمِّي شو دخلني؟!". هالَ عمَّك عبَّاس التراب على الثلجات داخل العربة. وضع أبو سامح كفيه على رأسه: "يا عمِّي عيب.. حرام!". اجتمعت الكلمتان في غير موضعهما وفق ارتباطٍ شرطي مع أسئلتك؛ عيب حرام. فارَّ غضب عمَّك صالح: "إنتو تعرفون الحرام؟! أبوكم.. أبو منظمة التحرير يا أولاد الحرام!". بكيتما، أو أوشكتما، أنت وفهد إزاء منظر الرجل يدفع عربته بعيداً عن بيوتكم. تذكرتما حديث الرجل عن عربةٍ ألحقت أبناءه الثلاثة في الجامعة. لا شأن لكم بمنظمة التحرير. لا شأن لكم بما لا تفقهون. لا شأن لكم بشيء عدا رجل لاسمه علي ألستكم طعم الفانيلا والشوكولاتة والكاراميل. رحل بوجهه الكهل الذابل، بلحيته النابتة زغباً أبيض وبشرة حمصتها الشمس. اختفت نداءات الـ: "برُد.. برُد". غادركم أبو سامح مع أغنية "عبي لي الجرّة". لطالما تمَّيّت اتفاقاً بين جاريك. اتفاقهما جاء على ما لا تشتهي. إثر عودتكم إلى الداخل وجدتم العجوز تنتظر

صامتة. سأل فهد أباه: ييه! هل كان عمي عباس على حق؟ جاءت
إجابته أكيدة: طبعاً! نظرتما، أنت وفهد، إلى بعضكما في حيرة
حدسها صالح. ربّت على ظهر ابنه. برّر: "آنا وأخوي على ابن
عمي.. وآنا وابن عمي على الغريب". لا غريب في هساركم ذاك
سوى اثنين؛ وصفه جاره اللدود بابن عمّ، ووصفه لأبي سامح
بالغريب!

عينك، لا إراديا، انتقلنا إلى أمك حصّة مؤمنا بأنها سوف تقول
شيئا إزاء جدّة الوصف..
ولكنها لم..

الفصل الثامن

كتم ثلاثكم في الحوش، قبل مغيب الشمس، أمام الكاميرا الـ HITACHI المثبتة إلى حاملها المعدني ذي القوائم الثلاثة. يرتدي فهد تي-شيرت أصفر لنادي القادسية يتقمص مؤيد الحداد هذّاف بطولة كأس الأمير 90، ويظهر صادق بـ تي-شيرت النادي العربي الأخضر، يتبادلان الكرة ركلا بالقرب من السُدرة، يفتعلان جواً آمناً يضيفانه على التصوير، في حين تتحدث أنت إلى الكاميرا تحضيرا لإرسال شريط الفيديو مع من يخرج إلى المملكة العربية السعودية آملا وصوله إلى أيدي أبويك. كنت قد حصلت منذ أيام على شريط كاسيت يحمل رسائل صوتية منهما. أوصله من تسلل برّا بعد إغلاق الحدود الكويتية السعودية أمام العائدين. لم تفتعل ابتسامتك أمام الكاميرا وأنت تتحدث إلى والديك. كنت حقيقيا، سعيدا بكل شيء رغم خطورة ما يجري خارج البيوت، ورغم أخبار الاعتقالات والحكايات المسربة لوسائل التعذيب في المراكز التي اتخذها جنود الاحتلال سجوناً لانتزاع الاعترافات. كنت تسترسل حديثا. تبتسم:

- "أحنا بخير.. يُعْمُه..".

تلمع عيناك دمعاً إزاء اللفظ: يُمَّه. تخنقك عيرة. للكلمة "يُمَّه"
وقع موجع إذا ما جاءت في وقتٍ لا تسمعك فيه. ينطلق نفير سيارة
جمع النفايات. تسارع قبل أن تقاطعك زيارة عبداللطيف المحتملة: لا
تقلقا علي، أنا لا أخرج من..

يقاطعك صادق وفهد في خيبة:

- "عيد التصوير.. عيد!"

يشيران إلى السماء حيث مروحية الاستطلاع فوق رؤوسكم يبدد
هديرها جواً آمناً افتعلتموه. توقفون التصوير تنتظرون ابتعاد المروحية
واختفاء صوتها. تستأنفون عملكم. يتخذ صاحبك مكانهما في الخلفية
يتبادلان بينهما كرة القدم في دور مُملٍ مكرور. تحاور الكاميرا: أنا لا
أخرج من البيت يُمَّه.. أنام في غرفة أُمِّي حصّة.. لم أشاهد جندياً عراقياً
حتى هذا الوقت لا تقلقي.. أصلاً لا جنود في السُرّة!

تقاطعك أصوات أعيرة نارية في آخر الشارع. يصيح فهد في
خيبة:

- "أوووه!"

يسقط صادق على ركبتيه أرضاً:

- "تعبنّا!"

تودّد لهما. تبتسم راجياً:

- "نعيد.. نعيد آخر مرة.."

تعيد التسجيل تكرر كلاما لم تنسَ منه شيئا عدا ابتسامتك التي كانت تواء. خيوط عرق تنحدر من شعرك خلف أذنيك. تستقر في ظهرك. صديقاك من خلفك، اسودّت ياقتهما عرقا، يسكران الكرة بينهما مُرهقين، بوجوه متعبة وحواجب معقودة وآذان ترهف السمع تحسبا لأي صوت يُفسد جو التصوير. بالكاد أنجزت شريطك الفيديو. استبدلتم الشريط، تخلقون أجواء تسليتكم بعد استفاد كل الألعاب داخل سور الحوش؛ كرة القدم، عنبر، الغمضة وشد الحبل. تمقت هذه اللعبة الأخيرة. تستبدل مكانك في كل مرة، تارة تشد مع صادق، ومع فهد تارة أخرى. تكره أن تكون في ذلك الموقف، بين اثنين ليس لك إلا الانضمام إلى أحدهما ضد الآخر في لعبة تعتمد على القوة وحسب. تركتم ألعابكم تلك، تقتلون الوقت تمثيلا ارتجاليا. يتقمص فهد، أمام الكاميرا، عبدالكريم عبدالقادر بإيماءات يديه يُفخّم صوته يغني: "للصبر آخر.. خلاص، عافك الخاطر". تدفعانه، صادق وأنت إلى الكف عن تقليد عبدالكريم: "ملينا!". يعدكم: "آخر أغنية.. والله والله". تمهلانه وقتا يختار أغنية أخرى. وقف جامدا فاتحا ذراعيه أمام الكاميرا. استل نفسا عميقا. أغمض عينيه بشدة. فتح فمه واسعا. شرع يغني بصوت وإن لم يشبه صوت مطربه، فإنه يشبه أسلوبه إلى حد مذهل: "وإذا بصوت ينادي.. متى تعود بلادي؟". نبّه صادق ما إن فرغ من غنائه: "هذي أغنية عبدالكريم عن فلسطين". هز فهد رأسه من دون أن ينطق. وقفتما، أنت وصادق، تتقمصان شخصيات مختلفة تفتعلان حوارات سخيفة. يتحول صاحبك إلى كرة القدم. يتحسر صادق على عدم مقدرتكم الخروج ولعب الكرة في حديقة جمال عبدالناصر. تقف أنت

وراء الكاميرا تتابع لعبهما. تُعلقُ بأسلوب خالد الحربان: "فهد آل بن يعقوب.. معاه الكرة.. يعدّي.. قوووووول!". قاطعكم رنين جرس الباب يغرد بالحاح. تبادلتم نظرات ملؤها الفزع. الإصبع المجهولة تواصل ضغطها مكبس الجرس. أمّلتَ نفسك عساه عبداللطيف، رغم عدم رؤيتكم له منذ فترة بصحبة سيارة جمع النفايات التي اكتفى قائدها بإطلاق نفير سيارته كلما مرّ بشارعكم. تقدّم فهد صوب الباب. "لا تفتح!", همسَ صادق مخذرا. توقف الرنين ليطلق المجهول الباب الحديدي بقوة. أوشكتم على الهرب إلى الداخل لولا ارتفاع صوت عالٍ: "افتحوا الباب!". امتقع وجه صادق: "يبي زينب!". هرع إلى الباب يستطلع أمر جدّته. هالكم منظرها، تلهث حافية بلا عباءة، بدّت نخيلة أكثر، بالكاد لفّت ملفّعها بلا إحكام تتطاير منه أجزاء من شعرها الأشيب. هرولت إلى الداخل تصيح: "عبّاس.. عبّاس!". تبعتموها بوجوه صفراء. تعثّرت عند عتبة الباب. أسندها صادق. هرع أصحاب البيت إلى الممر تدفعهم نداءات الجارة العجوز. ما كادت ترى عمّك صالح حتى أمسكت يديه باكية: عبّاس.. أخذوا عبّاس! خانتها ركبناها. سقطت أرضا. ذهل صالح لا ييادر قولاً أو فعلاً. احمرار أذني صادق انتشر في وجهه:

- "أبوي!".

خرج من البيت راكضا. سارعت خالتك عائشة وفوزية تسندان أمك زينب، كنتَ تحدّق في وجه أمك حصّة. بقيت واقفة تنظر إلى ابنها. مرتبكا كان غير قادر على النظر إلى عينيّ أمّه. انفرجت شفتاه غاضبا: فعلها الفلسطيني!

ما جاء في بالكم أن يكون المعني أبو سامح. أمك حصّة لا تزال صامته تنظر إليه بعينين تقولان: "ماذا بعد؟"، ولا بعد أمام الرجل، بين النساء، عدا الذهاب إلى غرفته يجلب مفتاح السيارة. لحقت به خالتك عائشة. صاحت بها أم صالح تنهرها: عائشة! ابقى هنا!

خرج عمك صالح من غرفته بغترة حمراء لفها، حول رأسه، كيفما اتفق. اتجه إلى الخارج مطأطئ الرأس بدشداشته المنزلية. صاحت به زوجته تسأل عن وجهته. أجاها ماشيا:

- "مخفر السرة..".

تبعته مخدرة:

- "عليك الله لا تروح.. أنا قلبي قارصني!".

نظر صالح إلى عيني أمه. كانت تحدّق فيه لا تزال. مضى في سيره. نبهته عائشة تشبّثُ بحُجّة:

- "ولكن لوحة السيارة.. كويتية!".

توقف. عمك صالح عند أول الممر يفكر. نظر إلى أمه. كانت تُحدّق في عينيه. نكّس رأسه ساهما. ما رأيته ضعيفا حائرا كيومكم ذاك. فاجأك يناديك. نظرت إليه مرتبكا. سألك:

- "وين القاري؟".

الفصل التاسع

فوق طبقات الغبار المتراكمة في حوش بيتك لمحت آثار خطوات، رسمت طريقها بدءاً من باب الحوش اختفاءً وراء الباب الداخلي المفضي إلى غرفة الجلوس، ثم رسمت خطاً آخر من الداخل إلى الخارج. شغلك الأمر. الأكيد أنها لم تكن خطواتك أو خطوات فهد، يوم بحثكما عن جواز سفرك، قبل شهرين. كدت تدخل البيت متجاوزاً الحوش لولا خوفك من مجهول يتربص بك، وانصياحاً لتحذير خالك حسن من الدخول. عمك صالح ينتظر في بيته عودتك بالدراجة. سلّمته إياها ورأسك يغص بأسئلة بعدد آثار الأحذية فوق الغبار في حوش بيتك.

خرج صالح، ولم يعد منذ أن غادر بدراجتك باحثاً عن عبّاس في مخفر السُرّة، حيث عسكر الاحتلال. آخر صورة تذكره فيها مطأطئاً، في الحوش، يتحاشى نظرات أمّه، يطوي أطراف دِشداشته حول خاصرته، يركب الدراجة مثل طفل. آخر صوت له: "وين القاري؟". كل من في البيت يسأل يتحدث يدعو ويصلي إلا العجوز صامته على غير دأب. شاحبة. ترسلك عائشة إلى بيت

عبّاس. لا جديد بين نحيب النساء عدا ضربات أملك زينب على
فخذيهما باكية:

- "ما تُعرف إبراهيم.. والله ما تُعرف إبراهيم!"

تكرر ردّها على من اقتحم بيتها من الجنود يسأل عن صاحب
الاسم. توسلت إليهم أن يتركوا لها وحيدها؛ "وليدي، الله يرضى
عليك. ما بقلبك رحمة. بالله وببيك. داخلة عليك"، تظنُّ أن لهجتها
شفيعتها، لعلها تُلين قلوبهم، ولكن، لسانها العراقي لم يفعل. ما من
لهجة تحاور أوامر عسكرية لها لغتها الخاصة. مرّ يوم، يوم ثان، لا
أخبار عنهما، صالح وعبّاس. هرع أقاربهما يبحثون. لا جدوى.
كنت قد هاتفت خالك حسن تخبره بالأمر. وعدك أن يتصرف.
طرق باب البيت بعد زيارة مخفر السُرّة وعدد من المدارس التي
أحالتها القيادات العراقية مراكز لجميع المعتقلين: "لا خير.. لا يعرفون
شيئاً". العجوز مضربة عن الطعام كما اكتشفت أنت وتينا. لا يدخل
جوفها عدا الشاي شيء. تستلقي أسفل سريرها النحاسي ليلاً.
الغرفة مضاعة حتى وقت متأخر. تتلو العجوز ما تحفظ من آيات
قرآنية بصوت مسموع وخشوع مضاعف. تأمرك بعد نفاد مخزون
ذاكرتها: توضاً. قبل أن تطلب منك الإمساك بالمصحف لقراءة آياته.
تُبرّر العجوز: لا أدري أين أضعت نظارتي. تدرّجها لا تقرأ. لا تملك
نظارة. لم تخرج من دروس برنامج محو الأمية إلا بحفظ أرقام أعانتها
على استخدام التليفون ومعرفة أسعار بضائع السوق المركزي. تدرّجها
لا ترضى أن تبدي إليك حاجة. تحت خطوك، متفهما، نحو خزانة

الخشبية حيث المصحف: أنا أقرأ لك ما تريدنِ يُمّه حصّة. تملأ أنفك رائحة النفشالين بمجرد فتح باب الخزانة. تقرّص فوق مرتبتك على الأرض. تتمم العجوز: ألا يا من أعاد يونس من بطن الحوت.. أعدّه سالما. تفتح المصحف بين يديك تقرأ. يقاطعك طرق فوزية على الباب: "يُمّه.. لا تنسين الدواء". تتابع قراءتك لدقائق قبل أن تتوقف تذكرها: "الدواء.. يُمّه حصّة!". تستأنف قراءتك وأنت تتابعها. تمسك العجوز بأشرطة الأدوية. تجمع في كفّها اليسرى أقراصا خمسة. تمسك، بالكفّ ذاتها، كأس الماء. تلصق كفّها اليمنى بفمها تلتقم الهواء، قبل أن تمسك الكأس يمينها تُقرّبه من شفيتها. عيناك على كفّها والدهشة في وجهك. تعيد العجوز كأسها بعد ارتشافها قدرا قليلا من الماء. تجمع أقراصها، خلصة، في منديل ورقي. ترميه في سلة القمامة أسفل طاولة أدويتها. بقيت طوال الليل تتساءل دون أن تجرؤ على السؤال. كنت بين نوم ويقظة عندما جاءك صوتها بما يشبه حلما: "يا شبّاب النار!"، حذّرتك من أن تفشي ما رأيت. ولأنك تكره أن تشمك بلقب، أذعنت.

يوم ثالث منذ اختفائهما. عائشة متماسكة كما تعرفها، أو ربما تفتعل تماسكا. لا تكف اتصالاتها عبر الهاتف. تفرّغ أصابعها. تقضم أظفارها. تختفي في غرفتها. تخرج بعينين متورمتين وأنف أحمر. ينفلت صوتها عاليا تصرخ بفهد، تُسمع جدّته: "راح أبوك!". تضغط فكّيها تشتم لا أحد. ترمق أمك حصّة بطرف عينيها: "حسبي الله على من تسبّب". العجوز التي لا يرتفع صوت في حضرّها تلوذ بصمتها، مخطوفاً لوها. وجهها باهت أصفر. أنت وحدك تعرف

أسباب ذبولها في حين البقية تردّه إلى غياب ابنها. كنت في مأزق بين أن تكون شَبَاب النار أو حافظ السّر. تحدّق في وجهها في حين تَهزُّ رأسها بما يشبه صلاة. أمك زينب وخالتك فضيلة وهوراء، تناوبن على زيارة بيت آل بن يعقوب بوجوه مرهقة: "أي أخبار؟". لا أخبار. أمك حصّة تدبل، جفاف شفيتها يقلقك، أصابعها ترتعش. تقترب منها فوزية. تعانقها. تمسح على ظهرها تقول: "يا نظر عيني إنّي". تُذكرها: "أخذتِ الدوا؟". تَهزُّ العجوز رأسها إيجابا. تجري أنت نحو غرفتها. يفزحك تضاعف أعداد المناديل الورقية التي تحوي أقراص أدويتها في سلة القمامة. وددت لو أنك تخبر الجميع، ولكنك لست شَبَاب النار! تبا! لو كنت شَبَاب النار.. لو!

عائشة لم تقوَ صبرا، جميع إخوتها في السعودية: "لا حول ولا قوّة". هاتفت خالك حسن ليصحبها إلى مخفر السُرّة. ذهبتما، فهد وأنت، معها. لفتت انتباهك لوحة سيارة خالك لدى وصوله؛ العراق - كويت. نقطة تُحسب لأبي فهد. ضايقت كثيرا انصباغ خالك حسن. ما كدتم تخرجون من شارعكم، مرورا ببيت الزّلمات، حتى أوقف خالك سيارته يستطلع أمر صراخ نساء البيت. كان أبو طه ممدّدا يحمله أخوه وأبناءؤه إلى السيارة. أزمة قلبية. عرفتم في ما بعد أن الرجل سقط فور صدور قرار السلطات العراقية بمساواة الدينار الكويتي بالدينار العراقي، مع إعطاء مهلة اثني عشر يوما قبل محاسبة كل من يتعامل بالدينانير الكويتية. لم يحتمل الرجل فكرة أن المئة ألف دينار حصيلة شقاء عمره في العمل استحالَت في يوم واحد إلى ما يساوي ستة آلاف فقط!

ترجل خالك حسن وعائشة من السيارة، في حين بقيت وفهد داخلها أمام مخفر الشرطة الذي خلته، منذ إنشائه، مستشفى للطب النفسي كما أوهمكم مسلسكم التلفزيوني الأثير. فرق كبير بين طرافة مشاهد المجنونات وبين كآبة منظر العسكر في مخيلتك داخل المبنى الأحمر. تخيلت أبطال مسلسك المحبب، محظوظة ومبروكة والدكتور شرقان ومدير المستشفى أبا عقيل، مقيدين بالسلاسل معصوبي الأعين، وفؤادة مكمة الفم لا تقوى على الصراخ: "احموا الناس من الطاعون!". لم تمض دقائق حتى خرجت عائشة يصحبها خالك حبن بمسد لحيته بوجه محبط. لم تستدل عليه. ما كدتم تبتعدون بالسيارة أمام مواقف السيارات حتى صاح فهد: "يمه! شوفي هناك.. القاري!". كانت دراجتك مربوطة بسلسلة إلى أحد القوائم. ارتفع صوت عائشة: "الله يلعن القاري وصاحب القاري!". غصت في مقعد السيارة يضغط فهد على ركبتيك مهوّنًا.

بحث خالك حسن، في الأيام التسعة لفقدان جاريك، في كل الأماكن المحتملة. معتقل المشاتل ومراكز التحقيق المنتشرة في المحافظات وثلاجات حفظ الموتى في المستشفيات. لا شيء. أمك حصّة تضرر. لا تسمع لها صوتا عدا ترنمة خفيضة لا تميز إن كانت أغنية أو تلاوة قرآن. تقتعد كرسيها الخشبي قصير القوائم أسفل سِدْرَتِهَا. تنف خبزا تنثره على الأرض تنادي: "تَعْ تَعْ". فوزية، بحجابها الملتصق بجلدة رأسها، لا تخفي قلقا إزاء طارئ حلّ بأمها.

كنت في غرفة الجلوس. يومٌ عاشرٌ منذ خرج صالح بدراجتك.
انفجرت عائشة فجأة تصرخ في وجه العجوز المقرفصة في زاويتها
تفتعل انشغالا تخطط أثواب الـ "ساري" لـ تينا: حسبني الله
عليك ما رأيتُ امرأة بقسوة قلبك! ارتعدت أوصالك إزاء ارتفاع
صوتها في حضرة العجوز. كانت أمك حصّة تدير آلتها تحدّق في
موضع الإبرة دونما انفعال إزاء ثورة كُتّتها: راح الرجل بسبب
عنادك، لا أحد يفهمك في هذا البيت كما أفعل، احتملتك سنوات
من أجل صالح ولن أحتمل المزيد في غيابه! زادت العجوز سرعة
دوران آلة خياطتها تشغل نفسها عن سماع ما تكيّله لها كُتّتها من
كلمات كالسكاكين. تقدّمت إليها عائشة. انحنت على آلة الخياطة
تمسك عجلتها توقف هديرها. قرّبت وجهها إلى وجه أمك حصّة.
همست: لن تعطينا ممّا أعطاك زمانك. هزّك ارتفاع صوتها أكثر:
انظري إليّ! لم تقو العجوز نظرا إلى عيني كُتّتها. مطأطئة. منكفئة
على ذاتها، بثوبها البني الواسع، هزيلة مثل خيشة رُز مهمة. واصلت
عائشة تضغط فكّيها تقول: تريدني مثلك أرملة شهيد؟ عينا أمك
حصّة على موضع الإبرة لا تزال. عينا عائشة على وجه العجوز:
توقين لرؤية فهد مثل ابنتك مريض بلا أب كي يستريح قلبك؟
كرّرت تأمرها صارخة:

- "حِطّي عينك بعيني!"

رفعت العجوز رأسها تنظر إليّ عينيّ عائشة. تفرّست وجه أمك
حصّة. عيناها حمراوان بلمعة تسبق الدمع. شفتها السفلى ترتعش.

رَنَ جرس الباب. خرجت العجوز من صمتها تشهق، كأنما مسَّتْها
كهرباء. انفلتت دموعها سخية على وجهٍ يبتسم وسعَ شفتيه:

- "وليدي صالح!"

* * *

الفصل العاشر

ألقي القبض على عباس بسبب خراطيش فارغة عثر عليها جنود الاحتلال في الساحة المزروعة أمام بيته. حدث ذلك أثناء الحملة التفتيشية، بعد أن أطلق الشاب المجهول أعيرة نارية على رتل عسكري يعبر شارع علي بن أبي طالب في طريقه إلى الجسر الواصل بين الشُّرة والجابرية. وجود أغلفة الطلقات، في حد ذاته، إدانة لصاحب البيت رغم خلو بيته من السلاح. ما كنتم لتعرفوا هذه التفاصيل لولا أخبركم أبو سامح الذي كان وراء رنين جرس الباب فهاكم ذاك. جاء من دون عربة الآيس كريم. مَدَّ يده إلى عائشة بورقة وقال إن كلاهما، عباس وصالح، هناك. قرأت أم فهد بين ما دُوِّن في الورقة: "دائرة الأمن في البصرة". ضربت صدرها بكفها: "البصرة؟!". نظرت إلى فهد. تذكرت أغنية أمه: "وين راح أبوي؟ راح البصرة.. راح البصرة!". نظرت عائشة إلى عيني الرجل الذي همَّ ينصرف: "بَرْدًا"، استوقفته تناديه بنداءاته. انفلتت منه ضحكة لا تشبه ضحكة: "بطلنا نبيع!". استمهلته: "إصبر.. لا تروح.. عليك الله!". دعت للدخول إلى الديوانية في ملحق البيت المطل على الحوش.

تلفتَ قبل أن يقول: "لكن بسرعة". جاء خالك حسن ملبياً هاتف عائشة. اجتمع بالرجل ليعرف منه التفاصيل. لا تفاصيل عدا أن قهمة صالح هي سؤاله عن عباس، ولا قهمة لعباس عدا خراطيش الطلقات الفارغة أمام بيته. لا شأن لعباس على ما يبدو بأغلفة الذخيرة الفارغة، يقول أبو سامح، أغلب الظن أنه إبراهيم منصور، أو المنير.

- "عبد اللطيف المنير؟".

سأله خالك متجاوزاً اسم إبراهيم منصور. ولكن الرجل لا يتذكر اسمه الأول، قال إنه كان يراه في السوق المركزي لجمعية السُّرة، وكثيراً ما كان يمر أمام بيته بعربة الآيس كريم، وأخيراً أصبح يراه في شوارع السُّرة يطوف بسيارة جمع النفايات قبل أن يتوارى عن الأنظار. قيل إنهما، إبراهيم منصور والمنير، يعملان مع جماعة جاسم المطوع المسلحة. كلاهما مطلوب للجهات الأمنية العراقية بعد اعتقال جاسم. تبادلتما النظرات أنت وفهد. أنتما تتذكران الاسم جيداً. جاسم الخبز والجبن والمنشورات. توقفتما عند عبارة اعتقال. يقول الرجل، وشى أحدهم بجاسم، أُفرج عنه بعد اعتقاله وتعذيبه، بقي تحت المراقبة بغرض اكتشاف بقية أفراد المجموعة، اعتُقل مرة أخرى. امتقع وجه خالك حسن: من أين لك كل هذه التفاصيل؟ من أخبرك بهذه الأسماء؟ ارتفع صوت أبي سامح. ردّ كمن تلقى إهانة: دفنتُ ثلاثة من أخوتي في هذا البلد.. أنا كويتي أكثر منك! تمالك أعصابه وهو يستطرد: أطوف شوارع السُّرة منذ ما يزيد على الستة عشر عاماً يا أبا ضاري، أعرف جاسم جيداً، وأعرف

عبداللطيف شكلا، وحده إبراهيم منصور لا يبدو من أبناء السُّرَّة.
فتح خالك زراً دِشداشْتِه. نظر إلى عيني الرجل يطن اتهاماً: من الذي
وشى بالمطوّع؟ أجابه أبو سامح: رجل عسكري يعمل في الجيش،
تقرّب منه، كشف سرّه. مسدّ أبو ضاري لحيته. واصل استجوابه:
الجيش العراقي؟ هزّ أبو سامح رأسه يؤكد: الجيش الكويتي. انفعل
خالك حسن: هذا غير صحيح. أصرّ أبو سامح: هذا صحيح.
تململت غائشة في جلستها. أطلقت زفرة تنبّه لها خالك حسن. سأل
الرجل: من أخبرك بمكان صالح وعبّاس؟ نهض أبو سامح يرفع
ذراعيه: لا تورطني أرجوك سوف يخربون بيتي لو..

هزّ خالك حسن رأسه في خيبة. ضيق عينيه يسأله مقاطعاً: أفا!
تعمل معهم يا أبا سامح؟ انتفض الرجل: معاذ الله! ولو! عيب عليّ
يا زَلْمة! استل نفساً قبل أن يُطأطى مستطرداً: لو أجبتك فسوف
تضعنا كلنا في كفة واحدة.

الفصل الحادي عشر

كانت زيارتك الأولى للعراق. قطع خالك حسن طريق سفوان متجهاً إلى البصرة. الطريق رغم قصرها طويلة. جهاز تبريد الهواء ينفخُ منها رغم اعتدال الطقس خارج السيارة المخنوقة بأنفاسكم، بالكاد يلطف الجوَّ داخلها. المحميات الزراعية تتناثر على جانبي الطريق. تشاهد أشجار أثل متفرقة غير بعيدة. كنت تلتفت تكتشف جدّة الأشياء وراء زجاج النوافذ. وجوه المزارعين. الغترة البيضاء المرقطة بالأسود. أنابيب الآبار الارتوازية، وبيوتاً طينية صغيرة متناثرة في المساحات الفضاء. طرقٌ شبه معبّدة على جانبي الطريق تسلكها سياراتٍ عسكرية تمضي في الصحراء نحو وحداتٍ عسكرية. الصمت هو كل ما يجمعكم. تنصتون إلى صوت الإذاعة. ثقبٌ صغير تنفذ إليكم من خلاله أحوال العالم. كنتم تخشون أن يمر الموجز من دون ذكر للكويت. تفزعكم فكرة أن يُنسى أمركم. مذييع ومذيعة يتناوبان قراءة موجز الأخبار. مشايخ اليمن يقفون موقف المملكة العربية السعودية ضد رئيس بلادهم الداعم للعراق. تنصت في داخلك إلى نداءات بائع الصُرّة: "خام.. خام". إيران تعلن أنها مع

دول مجلس التعاون الخليجي لإيجاد حلّ سلمي للأزمة. يقفز في
مخيلتك وجه حيدر البقال بابتسامته ذات السنّ الذهبية. هكذا كانت
الوجوه والأصوات تستدعي نفسها مع كل دولة يشار إليها في خبر.
تيناً. الأستاذ دسوقي وجابر المصري. شاكر البهري وعلامين
البنجابي. الحلاق الباكستاني مشتاق. عدنان السوري والأستاذ
مُرَهِف. زميل الفصل عبدالفضيل السوداني وآخرون. كنت من دون
قصد تقولهم. تُعَلِّبهم. تضعهم في مراتب مختلفة وفقاً لمواقف
أنظمتهم. كنتم، رغم ظرفكم، كمن حقق انتصاراً إزاء سماع خبر
رياضي وقت الموجز، على غير عادة: بكين تطرد العراق من الألعاب
الأولمبية. جاءت كلمة طرد تعويضاً عما لم تقدرُوا عليه إزاء العسكر
في وطنكم.

خالك حسن خلف المقود. ابنه ضاري لصق الباب، تشاركه
المقعد في المقدمة. عائشة وفضيلة وحوراء وصادق وفهد في المقاعد
الخلفية. تكدّستم في السيارة كما نصّح أبو سامح خالك حسن: خذ
معك النساء والأولاد تسهيلاً لزيارة المعتقلين. تركم أمك حصّة في
البيت، برعاية أمك زينب وفوزية وتينا. لم تتمكن من السفر بسبب
سوء حالتها بعد تلقيها أخبار أبي سامح. خالك يعرف الطريق
جيّداً، يزور سترال البصرة، منذ أيام الاحتلال الأولى لإجراء
المكالمات الدولية مع أقاربكم في الخارج. أثناء الطريق، مروراً بمدخل
الشارع المؤدي إلى قضاء الزبير، أشارت فضيلة إليه أن ينعطف
يساراً. صوّبت سبّابتها نحو جامع يبدو بعيداً، تميّزه منارة أثرية.
طلبت النزول هناك: خمس دقائق.. لن أتأخر. تفهّم خالك حسن

رغبتها. أوقف السيارة بالقرب من جامع خطوة الإمام علي في الزبير. ترجلت فضيلة يتبعها التوأمان حوراء وصادق. مدَّ فهد ذراعه من مقعده ورائك. قرَّصَ أذنك. تجاهلته. سأل ماذا يفعلون؟ لم يجبه أحد. مكثت فضيلة مع التوأمين قرابة العشر دقائق، تتوسل وتبتهل للإمام أن يرد لها غائبها. عادت بوجه مطمئن قبل أن يدير خالك سيارته نحو مركز مدينة البصرة.

تتذكر جيدا كيف كان خالك، في سترال البصرة، باهتا. مدَّ يده إلى موظف السترال بورقة تحمل أرقام هواتف مختلفة. أشار الرجل نحو إحدى الكبائن. مرَّ الوقت سريعا. لا تتذكر عدا صوت والدتك عبر الهاتف تتخلل نشيجها جملٌ مبتورة. سرعان ما انتهت المكالمات لتتوالى المكالمات الأخرى على عجل. خالك حسن يطبق كفه المرتعشة على سماعة الهاتف. تتذكر حزنا يغلفُ صوته كأنه يلقي رموزا في بيت قصيدة: "راح، قبل يومين، هو وفايز كنعان أمام بيت الأخير في الفيحاء.. لم أكن في البيت. ولدي ضاري شاهد كل شيء".

أمام مبنى دائرة الأمن أوقف خالك سيارته. ترجَّل يصحب عائشة وفضيلة والأبناء في حين أبقاك وضاري في السيارة. الفناء المقابل للمبنى يغصُّ بسيارات تحمل اللوحات الجديدة، العراق-كويت. عائلات كثيرة تسأل عن أبنائها تتحرى خيرا أكيدا. مرَّ وقت طويل. ضاري لا يبعد عينيه عن باب المبنى يقضم أظفاره: تأخو أبسي! استفهمته عن سبب قلقه، متجاوزا علَّةً في لسانه لم تألفها قبلا. عيناه مصوبتان نحو الباب. تكثفت أنفاسه على زجاج

النافذة الجانبية: أخشى أن يُمسكوه. شيءٌ من قلقه انتقل إليك. ارتعشت شفتاه قبل أن تنفر جان عن جملته: ذبحوا عبداللطيف وفايز كنعان، وصَوَّبوا شخصا آخر. شرع يصف المشهد على الرصيف المقابل لبيتهم، تلفتُ انتباهك، مرة أخرى، استحالة الرءِ وأواً على لسانه لدى نطقه الرصيف. بقيتَ سنوات لا تفهم خللاً حلَّ بلسانه. كيف تحوّل ضاري إلى ضاوي؟

سألته عن الشخص الثالث: قد يكون إبراهيم منصور الذي أخبرنا عنه بائع الآيس كريم. نفّض رأسه مؤكداً عكس حدسك. استشعرت دفئا أسفل فخذك الأيمن تشربّه مقعدك. عاود ضاوي قضم أظفاره كأنه يوشك أن يلتهم أصابعه. أردف ونظّره وراء الزجاج: رأيتهم من نافذة غرفتي قبل يومين، لا تزال بقع الدماء البنية المتحجرة هناك، بقع دماء وجزء من جلدة رأس مسلوخة على الرصيف، شكل الشعر والدماء والـ...—

لاذ بصمته. لزمك الأمر وقتاً لتدرك أن من راح هو عبداللطيف المنير. وجدت تبريراً لاختفاء سيارة النفايات وعودتها لاحقاً يقودها الرجل المثلث وحيداً، يكتفي بتبنيهمكم بواسطة نفير السيارة إلى طوافه في شوارع المنطقة، بعد سقوط صاحبه متورطاً بعمليات مسلحة. تهلل وجه ضاوي عندما كشف باب المبنى عن أيه بعد حوالي ساعتين انتظار.

عاد حسن تتبعه وجوةً محبطة. نظرتُ إلى عائشة وفضيلة، يتبعهما الأولاد، مثل دجاجتين وأفراخهما. تخالهما أختين، بنفس

الوجوه المحمرة اللامعة. في المصائب كل الوجوه تتشابه. تكسّر الجميع في السيارة. نظر خالك إلى ابنه تدفعه الرائحة. فتح زجاج النوافذ. همّ ينطلق لولا ظهور رجل عسكري عند باب المبنى. أشار له أن يترجل. تحدّث العسكري إليه. كان خالك حسن يهزُّ رأسه منصتا قبل أن يعود إلى السيارة يخبر فضيلة وعائشة: يريد مالا. سألته خالتك فضيلة: كي يطلقوا سراحهما؟ أجابها: كي يسمحوا بزيارتكما نهار غد. عدّ خالك دنائره العراقية: لا تكفي! بكت فضيلة. عائشة تعض شفتها السفلى تنظر إلى لا شيء. دسّت فضيلة يدها داخل ثيابها تُخرج عُقدا وأساور ذهبية: "هذا كل ما لدي!". رفض خالك حسن المجازفة برشوته ذهبًا. أدار محرك سيارته باتجاه شارع الكويت. لفت انتباهك الاسم الممنوع في وطنك. تعرف الكويت وطنا. تعرّفت إليها، في العراق، شارعًا. أوقف خالك السيارة في ساحة قرية. استأنفتم الطريق مترجلين صوب سوق الصاغة في العشار نهاية سوق المغايز، مروراً بمحال التوابل في سوق الهندود. أجواء شبيهة بشارع الغربللي في سوق المباركية في الكويت لولا اختلاف اللهجة. دكاكين شعبية على جانبي السكّة. ساعات وملابس وأحذية وسجّاد وأوانٍ ومجال صيدلة ودندرمة. لفت انتباهك العراقي هناك، لا يشبهه في أرضك. لا علاقة للزّي العسكري بالأمر. شيء تجهله يُفرّق بين الإثنين.

دخلت وصادق وحوراء، مع خالتك فضيلة، محل ذهب. محل صغير منخفض السقف بإنارة خافتة. وضعت فضيلة عُقدها وأساورها فوق المنضدة الزجاجية أمام البائع العجوز الأصلع كثر

الشارب. سألها بصوتٍ مدخنٍ عثيق: رهن؟ هزّت رأسها: بيع. ثبت الرجل نظارته على أرنبة أنفه مكوراً شفتيه يتفحص العقد بأدواته. ينقل نظره بين العقد وبينكم يتفرّس وجوهكم. سأل قبل أن يزنه: من الكويت؟ أومات فضيلة موافقة. كان غريباً على أذنك سماع الاسم، كويت، في العراق وهي الكلمة المحظورة في وطنك؛ محافظة النداء. تنحنح الرجل. قال: اعذريني لو سألتُ. نظر نحو الباب قبل أن يردف سؤاله عن حاجتها إلى المال. غطّت فضيلة وجهها بجزء من عباءتها تخفي بكاءً. طلب منها الجلوس. غاب في غرفة جانبية لها باب صغير يحمل الأساور والعقد. عاد يحمل مظروفا ورقيا وكأس ماء ناولهما أم صادق. نهضت تومئ له شاكرة قبل أن تمضي إلى الخارج من دون أن تحصي الأوراق النقدية في المظروف. "الله يساعدكم"، قالها الرجل عند باب محله مودّعاً.

في السيارة، ناولت فضيلة خالك حسن المظروف. مزّق طرفه. أخرج الأوراق النقدية يحصيها. التفت إليها مستنكراً: "بس؟". عاود النظر إلى داخل المظروف الورقي. دسّ كفه. اتسعت حدقتاه ينظر إلى أم صادق. أخرج العقد والأساور الذهبية. سألها: ما هذا؟!

* * *

الفصل الثاني عشر

تطلبت زيارتكم لصالح وعبّاس أن تمكثوا ليلة في البصرة. الليلة، بسبب إجراءات الزيارة، صارت ليلتين. التقيتم عبّاسا وصالحا في نهاركم الثالث. بعد قضاء ليلتين كثيبتين في غرفة في فندق حمدان تطلُّ على نهر العُشَّار، اضطررتم خلالها للنوم على ضوء المصباح بسبب ضاوي: "أخاف من الظلمة". في حين قضى خالك ليلتيه متقلبا فوق المقعد الخلفي لسيارته عوضا عن تأجير غرفة، توفيراً لمال زيارة المعتقلين اللذين عُرضاً، في اليوم الثالث، مقيدين بين عشرات شباب وشيوخ كويتيين أمام أهلهم. لم تتجاوز الزيارة نصف الساعة، لا تتذكر منها عدا نشيج النساء، واختلاط الدمع بالعرق، والذعر على وجهي جاريك حليقي الرأس في ساحة ترايبية صغيرة بعد إزالة العُصابتين عن أعينهما. لم يتجاوب العسكر مع توسلاتكم في تمديد وقت الزيارة. متى يُطلق سراحهما. لا جواب. لاشيء معلوم قبل المحاكمة، قال رجل عسكري. جاء وقع الكلمة، محاكمة، كبيرا في نفوسكم، ورغم اللقاء عدتم إلى الكويت بقلق أشد.

ما إن دلفت السيارة شارعكم حتى لاحظتم زحمة السيارات أمام بيت الزَّلمات. كانوا يستقبلون المعزَّين في وفاة أبي طه الذي لفظ أنفاسه الأخيرة في المستشفى بعد غيبوبة دامت أسبوعين. تذكرت وجه الرجل خائبا إزاء استقبال عمك صالح عند باب بيته قبل أسابيع. سألكم خالك حسن: هل ستذهبون لتعزيتهم؟ أجاب فهد نيابة عنك وصادق: "أبوي ما يرضى". لم يُجب خالك. همست بأذن فهد: نسأل أمي حصّة. تعرفها ستدفعكم لتعزية من شاركتموهم لعب كرة القدم في الساحات الترابية لسنوات.

ما كان مقدراً لك أن تسألها. ما جاء في بالك أن غياب ليلتين في العراق من شأنه إحالة أمك حصّة إلى كتلة آدمية مثل كومة ثياب رثّة على فراش المرض. سقطت أثناء غيابكم بعدما هدّها التعب. أمرت بأن يوضع سريرها النحاسي في غرفة الجلوس، مقابل الممر، حتى إذا ما أقبل صالح تلقّته فور دخوله. لم تقوَ حراكا، متأملة عودة ابنها معكم. لم يتوقف حرق البخور بانتظار أن يكشف عنه ممر غرفة الجلوس. أسرعْتَ أنت وفهد بالدخول تسبقان الجميع. أفزعك وجه أمك حصّة. مغمضة عينيها. فاعرة فمها، بما يشبه ابتسامة، من دون أسنان. بدت امرأة أخرى تكبر تلك التي تعرفها بسنوات طويلة. أمك زينب تقرأ القرآن عند رأسها. فوزية تمسح العرق عن جبينها، وعلى الأرض إلى جانب السرير تجلس تينا تُدلكُ ساقها. ركضت صوبها. سألت أمك زينب: هل عدتم بهما؟ لم تجبها. اكتفى فهد بهزّ رأسه، يقف إلى يمين السرير النحاسي، ينظر إلى وجه جدّته الجديد. قرّبت وجهك إلى وجه أمك حصّة، مادّا عنقك أسفل أنبوب المغذي

المعلق في حامل معدني إلى جانب سريرها. إبرة المغذي، كأنها مغروسة في قلبك. تخرق جلد كفها. تغوص في عرقها النافر. ترسم بقعة زرقاء داكنة. كنت تنصت إلى نبضك في أذنك. تشعر بتدفق الدم في صدغيك. تكتم عبرات غلبت فهذا. قُبلت جبينها: "يَمَّه حصّة شلونك؟". لا ترد. تسمع صفير أنفاسها البطيئة. أنت تعرفها من دون أسنان تتحدث كثيرا. ما بالها الآن صامتة. ترفع صوتك تحدثها لعلها تستجيب. شرعت تطمئنئها: "عمي صالح بخير". جاء اسم ابنها كروح دبّت في جسد ميت. رفعت ذراعها ترتعش. فتحت كفها تنثر لا شيء في الهواء. حرّكت شفيتها طويلا. بالكاد خرج صوتها رقيقا يرتجف: "تَعْ تَعْ". طفت يبصرك على من حولك ترجو إجابة: ما بها؟ أطبقت أملك زينب مصحفها فور دخول عائشة وفضيلة. سألت: أين هما؟ هزّت عائشة رأسها. اكتفت تُطمئن على غير عادتها: هما بخير.. سوف يُطلق سراحهما قريبا. نظرت أملك زينب إلى وجه جارقتها العجوز. لا تزال تردّد: "تَعْ تَعْ". حدّقت أم عباس في عائشة. قالت: لو عدتم بصالح، الآن، صالح على الأقل. انتفض جسدها تكتم نحيبا.

مرّت أيامٌ ثلاثة ثقيلة. يزوركم خلالها طبيبٌ فلسطيني يعمل في مستشفى هادي في الجابرية. هو من اكتشف، يوم سفركم، عزوف العجوز عن أخذ الدواء. يستبدل أكياس المغذي. لا يخفي قلقا: حالتها غير مستقرة. سيارات الإسعاف، وأهم المعدات الطبية، سلكت طريق اللاعودة ناحية حدود الشمال منذ الأسابيع الأولى للاحتلال. العسكر

الذين سمعت عنهم كثيرا أصبحت تراهم بشكل يومي. تُميزون حرسا جمهوريا عن جيشٍ شعبي بألوان طاقياتهم. يقتحمون بيت آل بن يعقوب والبيوت المجاورة يسألون عن إبراهيم منصور المتواري عن الأنظار. يطأون السجّاد بأحذيتهم العسكرية يركلون أبواب الغرف. يحققون معكم. مع الخادمة. مع العجوز التي تجيئهم "تت" تارة و"كش" تارة أخرى. ينصرفون: "عجوز خرفانة!". في اليوم الرابع لعودتكم من البصرة كانت أمك حصّة في طارئ جديد على حالة جديدة. محاطة بالجميع. عائشة وفوزية وفهد وتينا وأمك زينب. شفتاهما، مسحوبتان إلى ثغرها، لا تكفّان عن الحركة من دون أن تلفظ كلمة مسموعة. كلمات هوائية دافئة تنطلق من فمها مهجور الأسنان. قرّبت أذنك من شفّتها لعلّك تلتقط جملة. غريبة رائحة ثغرها. عائشة تجلس بالقرب من تمثال أمك حصّة. تسند مرفقيها إلى ركبتيها. تحمل وجهها بين كفيها تحدّق في أرض غرفة الجلوس. لفت انتباهك التمثال عاريا من عباءته المثقبة. مهمة على الأرض أسفل القوائم المعدنية الثلاثة. كانت الدائرة الصغيرة أعلى عدسة الكاميرا — HITACHI تومض لونا أحمر. تعرف جيّدا ما يعنيه ذلك. لم يتبّه لاستغرابك أحدٌ عدا تينا تنظر إلى الكاميرا. نظرت إلى عائشة. لكزتك هامة: امرأة مجنون. أوقفت أمك حصّة حركة شفّتها. فتحت عينيها على اتساعهما تحدّق في سقف غرفة الجلوس كأنها تتهجى حروفا في الهواء. أمسكت كفّها بلطف خشية أن تؤلّها إبرة المغذي. باردة كانت. ارتبكت فوزية. "يُمّه.. يُمّه". فمها مفتوح لم يزل. تسارعت حركة يؤبؤها تُمشطُ السقف هبوطا نحو المروراءكم. "تُعْ تُعْ". اختلجست

عروقها النافرة في رقبتها. ضغطتُ كفك. أغمضت عينها اليسرى.
بقيت اليمنى مفتوحة، ثابتةً بؤبؤها على المر. أرخت قبضتها. حررتُ
كفك. لا تتذكر عدا الأصوات تنطلق في اللحظة ذاتها. نشيجُ هارموني
وداعي: يُمهَّ يُمَّه.. أم صالح.. يُمَّه يا نظر عيني.. خالتي.. ماما كبير..
يُمَّه حصّة! سحبتُ خطاك نحو تماثيلها في الزاوية مثل رجل آلي مأمور.
تدريها لا تتحرك. تستحيل صنما إذا ما واجهتها عدسة الكاميرا. "آنا
أصحيها"، لم يسمعك أحدٌ وأنت تقول. وقفت وراء تماثيل أمك حصّة
في زاويته لا تعي فعلا أقدمت عليه. أدت وجه الكاميرا إلى الجدار،
بعيدا عن وجه العجوز ذي العين المفتوحة على ممر بيتها. صحتُ
بأعلى صوتك تُنبِّهها متجاوزا نحيب غرفة الجلوس: "تستحين من
الكاميرا يُمَّه؟!". بقي الصنم ساكنا. نحيبهم إزاء الفجيرة لم يمنعهم
يصمتون ينظرون إليك. انحنت أمك زينب تحمل العبء من الأرض
أسفل الكاميرا. رمتها مثل شبكة صيدٍ على جسد جارها تغطيه.
تقدّمت صوبك. عانقتك. غاص وجهك بين رقبتها ووجهها. لها
رائحة أمك حصّة. كنت تغالب نشيجك: "بيبي زينب..
شفيكم؟!". يأتيك صوتها، واهنا، تئنُّ عند أذنك:

يا حبيبة قلبي يا أم صالح..

يا حبيبة قلبي يا حصّة..

أغمضتُ عينا مطمئنة على أهل بيتها..

أبقت عينا تتحرى عودة صالح!

الفصل الثالث عشر

أنتم لا تكون موتاكم، أنتم تكونكم بعدهم. تكون ما أخذوه
 برحيلهم. يخلفونكم بلا جدار تتكون عليه، وأمك حصّة جدار،
 رغم تصدعاته، كان متكأكم الآمن. ترك غياها غصة في حلقكم،
 لا أنتم قادرون على لفظها ولا على ابتلاعها. رحلت. شعرت وكأن
 بيت آل بن يعقوب بلا سقف يحميه. أخذت معها أجمل ما في بيتها؛
 صوتها الأخضر، رائحتها الخليل من كلونيا أم بنت والصابونة الحمراء
 والنفثالين ودهن العود والحناء، هدير مكنة خياطتها، ضحكة تينا
 وانخفاض صوت عائشة وبصر فوزية. بكى من حولك كثيرا. كلما
 تمالكت نفسك انفجر من أمامك باكيا يستدر دموعك. تهرب إلى
 عائشة تستمد شيئا من صلابتها. كان يوما أطول من سائر أيامك
 الطويلة وقت الاحتلال. كنت مشدوها إلى حدّ عجزت معه على
 البكاء. فهد كان مثلك تماما. تجلسان في زاوية غرفة الجلوس، بالقرب
 من تمثال أمك حصّة، بحواسٍ تلتقط كل ما يجري. لم يقترب منك
 الموت قط إلى هذه الدرجة. حتى استشهاد عبداللطيف المنير ووفاء
 أبي طه مرّ تأثيرهما سريعا. فوزية في غرفة أمها تقفل الباب. أنت

لا تفهم، أو لا تريد أن تفهم، لماذا أمك حصّة في الحمام تغسلها أمك زينب مع امرأة غريبة بصابون السّدر الذي كانت تصنعه في حياتها، صابون سِدرتها، سِدرة العشاق ومسكن الجن الآمن. كل شيء جديد. الشعور بالفقد وعدم التيقن منه بعد. هي لا تزال في البيت. حتى الكلمات التي قِلت في ذلك اليوم، لم تألفها، أو لم تعرف لها سببا. تخرج أمك زينب من الحمام مُشمّرة عن ساعدين يقطران ماءً. تحدّث عائشة.. كفن، كافور، رغوّة السّدر، قطن ونايلون. بيبي زينب! ماذا تفعلون بأمي حصّة؟ لم تجرؤ على السؤال. أنت تعرف أنها تحب صابون السّدر كما تحب أشياءها الخاصة. وددت لو أحضرت لهم، من خزانتها، كلونيا أم بنت تعطر بها كفيها، ودهن العود لتضع قليلا منه خلف أذنيها بطرف سبابتها. لم تصدّق أن المرأة المكفّنة المحمولة على نقالة هي أمك حصّة. التصقت بتمثالها أكثر. أطبقت كفك على طرف عباءته. أخبرت مغسلة الموتى: وجهها مضىء تبارك الله، لكن عينها اليمنى، سبحان الله، مفتوحة! دخل رجلان يحملان نعشها. أيقنت أنك لن ترى العجوز مرة أخرى حينما توارت وراء الممر المفضي إلى الخارج. يشيّعها أهل بيتها وجاراتها ونساء من أهلها لم تعرفهم قبلا. فوزية تنتحب بحرقة. تينا وفهد وعائشة وأمك زينب وخالتك فضيلة وحوراء، وأخريات يلتحفن السواد. يبكين وراء جثمانها المربوط بخيوط مثل خيمة مطوية مهملة في مخزن. نهضت راكضا ما إن ارتفع نحيب النساء في الحوش. لم تستطع اقترابا إلى ذاك الجسد الممدّد على نقالة الموتى كما فعل الجميع. التصقت بالسّدرة تُرسل نظرك يشيّعها. لم ينتبه أحدٌ سواك

إلى الدجاجات، في القفص القريب، ترفع رؤوسها إلى السماء،
مغمضة أعينها، تفرغر. لم ينتبه أحدٌ إلى هديل الحمام في السُّدرة،
متاغما بما يشبه عزفا جماعيا وراء الأغصان المتشابكة والأوراق، في
مسكن الجحش، سِدرة العشاق.

تزاحمت النسوة مع فهد عند باب الحوش ما إن ارتطم باب
سيارة نقل الموتى. مشرّبة أعناقهم، يرسلون نظراتهم وراء السيارة
وهي تقل الجثمان تختفي آخر الشارع، تتبعها، إلى مقبرة
الصليبيخات، سيارتا خالك حسن وأحد أقرباء العجوز.

أنت لم تعرف أنها لا تأتي فرادى، في يومكم ذاك وحسب،
اكتشفت أن المصائب إن أقبلتْ، أقبلت تمسك إحداها بيد الأخرى.
إلى حدٍّ تجهل فيه علامٌ تبكي. كنت في غرفة فهد تنام ليلتك، في
حين تركتم فوزية تنام في غرفة أمها تحتضن وسادتها. استنزف الحزن
تلك التي ما نادت أمها إلا بـ يا نظر عيني. لم تقف فوزية في عزاء
أمها، ولم تفعل عائشة التي بقيت معها في مستشفى مبارك في
الجابرية، أو حسب تسميات مستجدّة، مستشفى الفداء في منطقة
الأحرار، طيلة أيام ثلاثة مع فهد، في حين غصَّ بيت آل بن يعقوب
بالمعزيّات. تجلس أمك زينب في الصدر، أول الصّف، تُعزيّها النسوة
أولا قبل مرورهن على قريبات الراحلة. كنت في الديوانية معظم
الوقت مع صادق. تراقب الجنود من النافذة المطلة على الشارع.
يركنون سيارتهم العسكرية مقابل بيتك. يراقبون بيت آل بن يعقوب
بحجة: ممنوع التجمّعات. تعود عائشة في الليل تاركة ابنها في
المستشفى إلى جانب عمّته. لم تفهم منها ما قاله طبيب فوزية. بسبب

مرض السكري. بسبب إهمال العلاج. تهتك الأوعية الدموية. تلف الشبكية. الذي فهمته وحسب؛ أن فوزية عميت. "قليلة حظ"، تذكرت قول أمك حصّة. لم تفكر كيف تستأنف فوزية حياتها في الظلام. كل ما جاء في بالك هو روايات إحسان عبدالقدوس في غرفتها. كيف تقرأها. تذكرت وعد صالح. سوف تكملين دراستك ما إن تُفرج. متى يعود صالح. متى تفرج. وكيف لفوزية، وحالتها تلك، أن تلتحق بالجامعة؟ أسئلتك التي كانت تزعج الجميع استوطنت رأسك. لا أحد يملك أن يجيب، ولا أنت قادر على ممارسة السؤال. ما كادت أيام العزاء الثلاثة تنتهي، أخذت معها سوادا لفّ بيتكم، حتى انتشر في السُرّة كلها خبرٌ. أفرج عن جاسم المطوّع. اقتيد إلى بيته. احترقت رأسه رصاصة أمام أهله. خرّ صريعا عند الباب. ما كادت السُرّة تتجاوز حزنها على عبداللطيف حتى استجدّ الحزن بفقد جاسم.

كانت عائشة في بيت عمك عباس صباحا، الأسبوع الثاني من نوفمبر، بعد مرور أربعين يوما على وفاة أمك حصّة. أقامت لها أمك زينب مجلس عزاء في أربعينيتها. ليست جديدة عليك الكلمة. أربعينية. تذكرت انزعاج عمك صالح في المرة الماضية. الأربعينية التي أقيمت، قبل شهور، في جامع الإمام الحسين لمن أدانتهم المملكة العربية السعودية بتفجيرات مكة.

غصّ بيت عمك عباس بالمعزين، وغصّ شارعكم بجنود الاحتلال بحجة التجمعات إياها. لم يهتم لأمر الأربعينية أحد، ربما، بقدر فوزية التي نادتك أنت وفهد وضايوي: "خذوني إلى بيت

عبّاس"، رغبةً بحضور عزاءٍ لم يتسنَّ لها حضوره قبل أربعين يوماً. أسِفَتَ لمنظرها. يعاونها فهد في اختيار ملابسها وحجاب رأسها الذي بدأ ينمو فيه الشعر. لا تملك عباءةً ضرورةً حضور العزاء. اقترح فهد: عباءة التمثال! زجرته: إياك أن تعرّي أُمِّي من عباءتها! غصَّ فهد بعبرته. لم تستغرب قولها. كنتَ مثلها، تشعر أن أملك حصّةً هي من يقفُ هناك في زاوية غرفة الجلوس. تراقب أهل بيتها. تطمئن إلى أن شيئاً لن يتغيّر برحيلها. أحضر فهد عباءةً من خزانة أُمّه. شدّدت فوزية قبل ارتدائها:

- "أحلف إنها مو عباية أُمِّي؟".

أقسم لها فهد بأنه لم يقرب التمثال. توعّدته:

- "والله إذا شفت الكاميرا بدون عباية..".

لم تُكمل. حجبت وجهها بكفيها. بكت. منذ ذلك اليوم صرّت أنت بصرها. أمسكتما بساعديها تقودانها إلى بيت الجار يتبعكم ابن خالك. تمشي بخطوات مضطربة فوق الحشائش اليابسة بين سَعَمَرانة وبرحيّة. لفتَ انتباهك اختفاء الجنود من الشارع. تركتما فوزية في غرفة الجلوس هناك بين نساء كثيرات يتوشحن بالسواد. يجلس بعضهن على كراسٍ، والبعض الآخر يقتعد الأرض يستمع إلى ترتيل المَلَايَةِ بخشوع. أملك زينب ساهمة تُمرّر خَرَزَ مسبحتها بين أصابعها تتمتم. وجدتم صادقاً عند باب البيت. أخبرك مُشيراً بذقنه إلى بيتك: هناك جنودٌ في الداخل! أوضح مرتبكاً إزاء

صمتك: تسلق أحدهم السور. فتح الباب للبقية. مكثوا قليلا. خرج بعضهم، ولكنني متأكد أن بعضا آخر لا يزال في الداخل!

خلعت نعليك. تسلقت إخلاصة المظلة على بيتك. التفت إلى فهد:

- "فهد! عدل نعالِي".

انحنى فهد على نعلك المقلوبة يدير باطنها إلى الأرض بشفتين تشبهان هلالا مقلوبا. استقام ينظر إليك يعينين حمراوين. تشبثت بمنصف جذع النخلة تطل على حوش بيتك الخالي من الجنود. لا شيء عدا البلاط يحمل غبارة آثار أحذية بدت أكثر مما رأيته في المرة السابقة. ابتلعت خوفك وغيرتك على غرفة والديك مستذكرا نصيحة خالك بعدم دخول البيت تحت أي ظرف.

بعد أذان العصر، انطلق نفير سيارة جمع النفايات يُنبهكم إلى مرورها في شارعكم. كنت وفهد وصادق وضاي في غرفة الجلوس. نادتك تينا تطلب المساعدة. أسقطتم أكياس القمامة عند الباب تتابعون فوضى تجري أمامكم. رؤوس كثيرة تطل من نوافذ بيوت الجيران. سيارات عسكرية تغلق الطريق أمام سيارة جمع النفايات وخلفها. جنود عشرة. أكثر بقليل. يحيطون السيارة. يخرج آخرون من بيتك يحملون ألواح خشبية تحمل أسلحة آلية وزجاجات مولوتوف. يصوب أربعة من الجنود بنادقهم إلى السائق المثلث. صرخ أحدهم، يبدو أعلى رتبة، بزي مختلف، له شارب طويل معقوف مثل شارب هولك هوغان: "انزل يا إبراهيم.. سلم نفسك!". التفت

إليك فهد ممتقع الوجه: "إبراهيم منصور!". ركض ضاوي إلى الداخل مخلفاً. بَلَلَهُ على الأرض. ترجل السائق رافعا ذراعيه للأعلى. أحاط به اثنان من الجنود يقيّدان يديه وراء ظهره. أزال أحدهما الغترة كاشفا وجهها بلحية كثّة. كان ينظر إليك، أثناء جرّه إلى سيارة الجيب العسكرية، قبل أن يعصبوا عينيه يقتادوه إلى جهة غير معلومة. صادق وفهد يتفرّسان وجهك في صمت. لم تفهم تعبيرات الشفقة على وجهيهما. كنت ذاهلا. التفت إليهما فور ما اختفت السيارات العسكرية في آخر الشارع وراء بيت الزّلمات: هل رأيتما وجه الرجل؟! حرّكا رأسيهما يوافقانك. سألتهما وعينيك على آخر الشارع: ألا يُشبه خالي حسن؟!

* * *

الفصل الرابع عشر

قوّات التحالف؛ كانت العبارة الأكثر تردُّداً في شهركم الأخير للاحتلال. أميركا التي ما رأيتموها، أطفالاً، إلا بصورة تظهر في أفلام الأكشن وبرامج المصارعة الحرة باتت خلاصكم. أميركا تحذر.. تمنح فرصة.. ترسل الجنود وتُحضّر. أميركا تقود قوّات التحالف لتحرير الكويت. قوات كثيرة من دول العالم. دول عربية. دول أجنبية. دول كثيرة.. كثيرة، ليس من بينها دول.. الضد! كنت ترسم في مخيلتك جيشاً قوامه شخصيات رافقت الاسم؛ أميركا. شخصيات سينمائية. أبطال مصارعة. رامبو، جيمس بوند، روكي، هولك هوغان، التمثيت واريور، مستر تي، سوبر مان، بات مان وسبايدر مان وتيرميناتور يقودهم كابتن أميركا!

صرتم تترقبون أخبار الحرب. أنتم الذين لا تعرفون الحرب إلا على شاشات التلفزيون أخباراً وأفلاماً أو ألعاب آتاري. صرتم لا تخرجون من البيت إلا للضرورة، ولا ضرورة، بعد انقطاع سيارة جمع النفايات عن المرور بشارعكم، عدا إلقاء القمامة، على قَلْتها، في الساحة الترايكة للصيقة بيت أبي سامي. تنصتون إلى أخبار

الإذاعة. مهلة أخيرة. عدّة وعتاد. أسماء جديدة؛ طائرات شبح، صواريخ سكود وباتريوت. منشورات ورقية لا يخلو منها بيت. إرشادات سلامة. مولّد كهرباء. إسعافات أولية. تخزين ما يسهل تخزينه من مواد غذائية. اقتصاد في المأكل والمشرب لم تألفوه قبلا. شموع بديل إنارة. شرائط بلاستيكية لاصقة تُبقي زجاج نوافذكم متماسكا في حال قصفٍ محتمل. إغلاق منافذ الهواء خشية استخدام المحتل أسلحة كيميائية. مناشف وفحم ومواد مطبخ لصنع كمّات. الحرب التي حسبتموها خلاصكم، كانت، ولكن ليست بالسهولة أو السرعة التي حسبتم. عنق الزجاجة الذي حُشِرَ فيه العدو، على حدّ تعبير وسائل الإعلام، كان طويلا. اندلعت الحرب الجوية في السابع عشر من يناير 1991. عاصفة الصحراء. كما أسمتها أميركا، أم المعارك كما أسماها الرّيس. طال أمدها. سرت أخبار، في الأسبوع الأول؛ القوات العراقية تفتح مصبّات النفط تضخّها في مياه الخليج. فهد لا يبدو مازحا وهو يسأل عن حال السمك في البحر. سكان المناطق الساحلية يؤكّدون؛ أمواج سوداء. قيل إن الطيران الفرنسي قصف المصبّات قاصدا دفنها تلافيا لكارثة بيئية. أخبار كثيرة يتناقلها الجيران يناقض أحدها الآخر. كنتم تنامون على أصوات القذائف ورائحة الشموع المنطفئة. تهتزّ الأرض من تحتكم. يتصدّع من شدّة القصف زجاج النوافذ. اجتمعتم، وقت الضربة الأولى، أنت ومن بقي من عائلي صالح وعبّاس، أسفل السُّلم حيث هيأتم، وفقا للإرشادات، ملجأكم. تينا تصرخ مع كل انفجار تحجب وجهها بكفيها. تحتضنها عائشة تهدئ روعها. فضيلة تبكي. أمك زينب بين دعاء وقراءة آيات

من القرآن الكريم. فهد يبالغ بمراعاة حوراء، يناولها قنينة ماء، يطمئنها. صادق يدسُ سبَّابتيه في أذنيه الحمراءوين. فوزية تلتصق بك تسألك إن كنت تشاهد شيئاً. لا خيار لديك عدا أن تكون رجلاً. تطمئنها، لا شيء عدا الأصوات التي تسمعين. عواء السلوقي يشبه بكاءً بعد كل دويّ. فهد لم يتمالك نفسه. خرج رغم صراخ عائشة: لا تخرج! عاد بالسلوقي إلى ملجئكم أسفل السُّلم. تشنّجت في مكانك. انزوى الكلب في المسافة الضيقة مخفياً ذيله بين رجليه. لم يعد يزعجك. ألفت وجوده بينكم.

كانت الأرض أسفل السُّلم مفروشة بالمرتبات والوسائد. تحيطكم معلبات الأغذية وقناني المياه المعدنية. تنامون جنباً إلى جنب. الإذاعات لا تزال تحدّث أخبارها في مسامعكم، لا تصدّقون ولا تكذبون. تنتقون من بينها ما تتمنونه حقيقة. انقطعت الكهرباء. لا تدرون إن كان الأمر حكراً على شارعكم أم إنه يتجاوزه إلى بقية شوارع السُّرّة، أو إذا ما كانت الكويت كلها غارقة في الظلام وفقاً لأخبار حول تفجير محطات الكهرباء والماء. قيل إن الجيش العراقي يزعم على الانسحاب. قيل إنهم أضرموا النيران في آبار النفط تفجيراً بعجين تي أن تي يزن أطنانا، انتقاماً ربّما، أو لحجب رؤية طيران دول التحالف عن القوات المنسحبة برّاً نحو الشمال.

كنتم بالكاد تنامون دقائق بين دويّ انفجار وآخر. مُمدّدين أسفل السُّلم. أمك زينب وفضيلة وحوراء وعائشة وتينا وفوزية، وأنتم الثلاثة، والكلب. أيقظتكم فوزية ساعة شروق يوم ما قبل التحرير. كانت أصوات الطيران ودويّ الانفجارات قد توقفت.

الحرب تلتقط أنفاسها: هل تسمعون ما أسمع؟ أمسكت كفها
تطمئننها: هدير مولد الكهرباء في الحوش. هزّت رأسها: "لا".
وضعت سيّابتها أمام شفيتها: "إسمع". سمعتم. خرجتم إلى الحوش
تنظرون إلى السماء في نصف إغماضة. كان النور يلوّن سماءكم قبل
ظهور قرص الشمس بالكامل. أخرستكم الدهشة ينظر واحدكم إلى
الآخر. عشرات من طيور النورس تفرد أجنحتها تحوم في سمائكم.
يضجّ المكان بأصواتها تُجاوز صوت هدير مولد الكهرباء. يحطّ
بعضها متعبا فوق سور الحوش. أنتم لا تجدون تفسيراً لوجودها
والساحل يعد عن السُرّة أميالا. انحنى صادق على الأرض يلتقط
طائرا. رفعه حاملا إياه من ساقيه. على ريشه لطخات زيت أسود.
"ميت". ناداكم فهد فور ما فتح باب الحوش الحديدي: انظروا
هناك! تكدّستم عند الباب تنظرون. بعض الجيران في الخارج. بعضهم
يطل من النوافذ. مئات من النوارس وطيور الرهيز الساحلية تأخذ
دور القطط والذباب والفئران، تنافسها، تعبث في جبل القمامة في
الساحة الترايبية اللصيقة لبيت أبي سامي. فوزية تسأل: ماذا هناك؟
كنت عينيها. تصف لها كل ما تشاهد تاركا لأصوات النوارس
إكمال الصورة. استغرقكم المشهد عدة دقائق قبل أن يتحوّل. ما
كادت الشمس ترتفع قليلا حتى اسودّت سماءكم فجأة. سكنت
النوارس. حلّ الليل في غير أوانه. شرعت أمك زينب تتمتم تلو
الشهادتين. غرق المكان في الظلام. ارتفع صوتها تحثكم: "تشهدوا..
تشهدوا.. حانت حانت!". تشبّثت فوزية بذراعك. ماذا يحدث. لم
تملك لها تفسيراً وقد كنت والجميع مثلها تمدون أيديكم أمامكم

تلمسون طريقكم إزاء ظلمة مباغته. كما لو كنتم في حلم. أمسكت فضيلة بأمك زينب تدفعها للدخول. تتحسس طريقها. تتوكأ على الجدران. العجوز تتفض. انتابتها نوبة هستيريا: "قامت القيامة.. قامت!". تهدؤها فضيلة. وددت تسأل عن علامات تسبق اليوم. كيف تقوم قبل أن؟ تطمئننها: "بيبي زينب.. لا تخافين". ولكنك كنت خائفا كما لو كنت ابن خالك في غرفة مظلمة. دخان أسود كثيف يحجب الرؤية. أخبرت فوزية بأمره. صاحت أمك زينب كأنها تذكرت للتو ولدها: "عبّاس.. عبّاس". كانت فوزية قد تركت ذراعك. أخذت تصبح كمن أضاع ابته. فوزية! كنت تنادي. لم ترد.

أضيء مبنى الملحق المطل على الحوش. تسلل النور من نافذتي المطبخ والديوانية وباب الحمام المشرع.

جاءكم صوت فوزية من الداخل: "ها؟ شَبَّ النور؟".

الفصل الخامس عشر

شهوركم السبعة مرّت مثل دهر. كلمة إشاعة التي اعتدتموها طيلة أيامكم السالفة، لم يلفظها أحدٌ يوم سماع الخبر؛ في السادس والعشرين من فبراير 1991: "الكويت حُرّة!". خرجتم إلى الشارع، أمام بيوتكم، رغم تلوّث الجوّ وتناوب الليل والنهار عشرات المرات في اليوم الواحد، إثر دخان حرائق آبار النفط. يحمل الجيران أعلاما وصورا لأميركم وولي عهده لم تطلها النيران زمن تجريم الاحتفاظ بها. أنت لم تبتعد كثيرا. كنت على عتبة الباب تمسك ذراع فوزية تصف لها ما يجري. أعلام. صور. أطفال الحيّ ومراهقوه يغنون. يصفقون. الجيران، بعضهم يُمسك بعضا بما يشبه رقصة شعبية ارتجالية. زغاريد النساء تنطلق من نوافذ البيوت تتوجد مع أصوات النوارس في سمائكم. فهد، رغم ضالة جسمه، يحمل صادقاً على كتفيه في صورة كاريكاتورية. الأخير يرفع قبضتيه يلوّح عاليا. يرتفع نغيم السيارات يحاكي غناء الشارع. وطني الكويت سلّمت للمجد. يب يب. وعلى جبينك طالع السعد. يب يب. فرحكم ليس حكرا عليكم. عمّال مصريون، بأثوابهم الصعيدية الواسعة، من بينهم جابر المصري، يشاركونكم فرحكم يهتفون:

"بالطول، بالعرض.. يطلع صدام من الأرض". فوزية تبسم، تبكي، تُصَفِّقُ تفاعلاً مع صور ترسمها الأصوات في مخيلتها. اقشعرت أبدانكم مع مرور سيارات مصفحة في شارعكم، تحمل كل واحدة منها علماً من أعلام دول التحالف. فوزية تنصت إليك: "أميركا.. بريطانيا.. فرنسا.. مصر.. صادق يلتقط علم المملكة العربية السعودية ألقاه إليه أحد الجنود. يرفعه عالياً. يهتف. أحد الجيران فوق سطح بيته يرفع علماً أميركياً عملاقاً.. الأطفال يرفعون أعلام دول الخليج.. ودول عربية وأجنبية أخرى.. الجنود يهدون الأطفال فواكه وحلوى وبسكويت..". تَهْزُ فوزية رأسها تفاعلاً مع وصفك. لا تخفي دموعاً تلفظها عيناها الثابتان. اقترب فهدٌ من إحدى السيارات المصفحة، يرفعُ كتفيه يُدْني صادقاً إلى الجندي الأميركي فوقها. يقرب صادق كفيه إلى جانبي وجهه مثل بوق. يرفع صوته: "ماي فاذر آند هيز فاذر إن عراق.. هيلب ذم پليز!". يتسم الجندي يناوله موزتين.

لم يكونا، عباس وصالح، في حاجة إلى مساعدة الجندي الأميركي لفك أسرهما. عندما قُدرت لهما العودة، كما لم تُقدر لمئات من أسرى. جاء أسرُ صالح وعباس في معتقلات البصرة في صالحهما؛ يوم اندلاع الانتفاضة جنوب العراق. انتشرت الفوضى، في الداخل، بعد الحرب وانسحاب الجيش العراقي. جنود طحتهم الحروب ثاروا على قائدهم. لم يقتصر الأمر عليهم، كما أخبركم صالح بعد عودته عما عايشه وسمعه هناك. خرج الأهالي في الشوارع الرئيسية لمحافظة النجف يتجهون إلى مرقد الإمام علي. ارتفعت النداءات في مكبرات الصوت تحت الشعب العراقي على التظاهر ضد النظام. فتحت

السجون. هرب المعتقلون من أسرى ومرتكبي جرائم. كان الجاران من بين الأسرى الكويتيين الذين تسنى لهم الهرب إلى الكويت سيرا على الأقدام، قبل إخماد الثورة قصفا بالطيران العمودي، رغم مزاعم الحظر الجوي الذي تفرضه أميركا على العراق.

عائشة التي ضاعف التحرير شعورها بالفقد تجاه عمك صالح انفجرت تبكي كل شيء. تبكي فرحا لخروج قوات الاحتلال. لعودة الأسير. تبكي، بأثر رجعي، حزنا على فقد أمك حصّة. قفز فهد يتعلّق بأبيه فور دخوله البيت حليق الرأس، نحيل الجسد، محمّص الوجه، طويل الذقن. صرخ ينبهكم: "أبوي!". ارتفعت الزغاريد من بيت أمك زينب في اللحظة ذاتها. خرجت عائشة من غرفتها بثياب النوم منكوشة الشعر. هرعت إلى زوجها غير مصدقة. فكّت عناقه وابنه. تسمّرت أمامه بشفاة مرتعشة. فتح لها ذراعيه باسماء يغالب دموعه. دفعته تضرب صدره. صرخت به: حسبتك ميتا.. أذبحك لو كنت! سقطت على ركبتيها تحتضن ساقيه تطلق أنينها بسخاء زامّة شفتيها. انحنى صالح عليها بجسد ينتفض يقبل رأسها. لم تمض ساعة على عودة الأسيرين حتى جاءت زوجة خالك حسن بعباءتها ووجهها الشاحب. تمسك ضاويا من يده. تنظر إلى وجه عمك صالح يحدوها أمل مات فور ما أخبرها بأنه لم يرَ زوجها أو يسمع عنه هناك.

رَن جرس الباب بعد يوم من عودة أسيرَيْكم. دخلت تينا تخبركم: "بابا عباس". أمرها صالح بأن تدخل الجار إلى الديوانية: مجنونة! كيف يقف الرجل في الشارع؟! كان مزاجه سيئا، كما ينبغي أن يكون مزاج رجل فقد أمه ووقف عاجزا أمام مصيبة حلّت

بشقيقته. لحقتهما بعمك صالح إلى الديوانية حيث ينتظره عمك عباس. كانت جدران الحوش وأرضيته مليئة بالسُّخام. سماءكم سوداء لا تزال. دخلتم الديوانية. وجدتم أبا صادق واقفا برفقة رجلين من الجيران. بادر أبو فهد وهو يشير إلى المقاعد:

- "إستريحوا إستريحوا..".

هزَّ أبو صادق رأسه رافضا:

- "نستريح بعدين..".

سأله عمك صالح:

- "خير؟".

أجابه موجِّهاً سيَّابته بعيدا:

- "الخير، بعد ما يطلعون الفَلَسْطَن من الشارع..".

"طلَّعوا" من الشارع. كانت آخر مرة تسمع فيها لهجتهم المألوفة عصر ذلك اليوم. ما عادت اللهجة ضمن خليط اللهجات في شارعكم. ما عاد بيت الزَّلمات هناك على رأس الشارع لصيقا بمحل علامين البنجابي، ولا عاد فريق كرة القدم العائلي يشارككم في ساحات السُّرَّة الترايبية. ضغط عمك عباس مكبس الجرس. ضرب الباب بكلتا يديه بقوة. فتح أبو نائل الباب ينظر إلى وجوه جيرانه المكفهرة. بادره عمك صالح: "اسمع". لم يسمع.

- "اسمع انت.. أصلاً بعد ما مات أبو طه.. بَطَل عَنَّا أيّ
اشي هون!"

قالها أبو نائل قبل أن يُمحى وجوده وأفراد بيته من شارعكم.
أسَّس له حياةً جديدةً في الأردن. محى كل شيء عدا وجهه الحزين
في ذاكرتك الملعونة.

* * *

الفصل السادس عشر

وطني.. وطن النهار..
آه يا وطن.. يَلِيَّ انوَلَدْتُ من جديد..
أنتَ محيط الأرض، يا موج البحار..
وطن النهار..

في أيامكم تلك لم تكن محبة عبدالكريم عبدالقادر حكرا على
فهد آل بن يعقوب وحده. كان الصوت الجريح، كما يسميه محبوه،
صوتكم جميعا حين غنّى وطن النهار، وأبكاكم، رغم شُحِّ النهار
تحت سماء أبت حرائق النفط إلا أن تحيلها ليلا مستمرا يكسرُ عين
الشمس في ذروة شروقها. تنصتون إلى الأغنية في الوقت الذي تستمع
فيه مناطق أخرى في الكويت إلى أصوات انفجارات ألغام زرعتها
المحتل قبل انسحابه. انشغل فهدُ يبحث عن لونٍ للأغنية. يعجز.
يقول: "كل الألوان".

عاد والداك برّا من السعودية بعودة الكويت. عانقتك والدتك
طويلا حتى تعرّق جسدك بين ذراعيها. بالكاد تعرّفتها. واهنة صفراء
تحيط عينيها هالات داكنة. عدتَ إلى بيتكم. وعادت أشياء كثيرة في

وطن وُلِدَ من جديد. وما للمولود الجديد إلا أن يتعايش مع جِدَّة الأشياء ويقبلها بطبيعة الحال، أو، بعكس طبيعتها. عاد عدنان السوري يفتح محل الجزارة في ملحق بيت العويدل المطل على الشارع. نفضَ علامين البنجابي الغبار عن محل الغسيل وكَيَّ الملابس. ملأ العتبات أمام باب محله بصاقا بنيًا افتقدتم رؤيته شهورا. عادت الحياة إلى مجمّع الأنبيي المغلق منذ الأسبوع الأول من أغسطس 1990. كشف شاكر الهندي واجهة مطعمه الزجاجية يعرض مأكولات تَقَطَّر زيتا. تظهر وراءه صورة ملصقة على الجدار تجمع أميركم مع سلطان البهّرة. علّق البقال حيدر الإيراني الكُرات المطاطية الملونة ومسدّسات الماء والسيوف البلاستيكية أعلى باب دُكَّانه. وزَّعَ، فرحا، العلّكة والفسق والحَبَّ الشمسي على الأطفال، كل الأطفال. عاود جابر المصري نشاطه يدير سيخ الشاورما، يوم دجاج ويوم لحم كما عودكم. يزيّن سقف المطعم بأعلام كويتية وأخرى مصرية. ألصق أبو فواز صورا كبيرة للأمير وولي والعهد وأبراج الكويت على الواجهة الزجاجية. غصَّ مدخل مكتبته بكتب لا تدري كيف وأين ومتى طُبعت. تحمل أغلفتها صورا أصبحت دارجة فيما بعد؛ خريطة الكويت تنزف دما، رسمٌ للرئيس العراقي يمتطي فيلا يتجه نحو الكعبة، رسم آخر لرأسه بجسد ثعبان. رسوم أصبحت تطاردك في نومك لسنوات. غاص سليم الخياط بين قطع الأقمشة يفصِّلُ للأطفال ثيابا بألوان علّم الكويت. عاود الحلاق الباكستاني مشتاق نشاطه يزيل الغبار عن اللافتة أعلى دُكَّانه، صالون جوهرة السُرَّة، لا يدري سببا وراء إطلاق الكثير من الرجال للحاهم

يرفضون أن يُنسبها بشفرتها. حتى عبدالكريم فاجأ فهداً بظهوره في صورة على غلاف كاسيت وطني بلحية كثة. قيل إنه الكاسيت الأخير قبل اعتزاله الفن، لأن الفن حرام، ولأن الله هداه أخيراً وتاب عليه. في حين لم تكن لحيته سوى تمويهها أثناء الاحتلال لئلا يتعرّف إليه الجنود. سألك فهد: "إذا صار عبدالكريم دين.. ما يصير يغني؟". أومأت مؤكداً. أجابك: "الله لا يهديه إنشالله!".

عاد خليط شارعكم كما ألفتموه.. الجميع عدا! صرت تحصي ما لم يعد موجودا في وطنك الجديد. تحسب الأشياء التي أخذتها قوات الاحتلال معها انسحاباً؛ روح أمك حصّة، بصر فوزية، وجود تينا ورائحة زيت جوز الهند في شعرها بعد غياب "ماما كبير"، حضور خالك حسن، حرف الرءاء في لسان ضاوي، صيحات أبي سامح الفلسطيني: "برّد.. برّد"، ونداءات بائع الصُرّة اليميني: "خام.. خاام"، وبيت الزلّمات وفريق كرة القدم، ومعلمي المدارس من الفلسطينيين والأردنيين. غادر مئات الآلاف من الفلسطينيين مخلفين وراءهم بضع عائلات، نالت من حسن الحظ أو سوءه فرصة للبقاء مع واقع جديد يكفل لهم تلافي مصير غير آمن: نحن من لبنان.

اختفت أغنيات ناظم الغزالي في حوش أمك زينب، العجوز التي عاد أصلها، فجأة، إلى الأحساء. ما عادت بيبي زينب. صارت: "أمي زينب من الحسا"، كما يؤكد صادق متحدياً لسان جدّته الذي صار عاراً بعد التحرير؛ لئلا تخرج حفيديها أمام أصدقائهما تلفت الانتباه: "جدّتك عراقية؟!". عاشت تأمل بيوم تُفتح فيه حدود الشمال، تزور أهلها، وإذا ما اقتربت ساعتها ترحل

لتموت هناك، تُدفن في النجف حيث دُفِن أسلافها قرب مقام أمير المؤمنين.

ما عاد للـ "رئيس" حضور في بيت آل بن يعقوب، والمحبة العراقية فيه صارت سعودية محضة. صار صوت أبي سامح الفلسطيني صوتاً آخر، لشابٍ سوريٍّ، رغم بهجة أطفال الشارع لصيحاته: "برّد.. برّد"، لم يكن صوته يشبه شارعكم. نداءات بائع الصُرّة استحالت رنيناً لأجراس بيوتكم، اليمينيون صاروا هنوداً، تجار شنطة، غصت بهم شوارعكم، يبيعون البخور ودهن العود وأقلام الكُحل والساعات المقلدة الرخيصة. حُرمت من مشاهدة مسلسلات تلفزيونية تورط بعض ممثليها العراقيين بالتعاون مع نظامهم. مسلسلكم الأثير، على الدنيا السلام، لم يكن بمنأى. صار يُبث بمشاهد مخدوفة.

بعد سنوات طوال، سوف تتذكر، عبدالكريم يصدق بأغنية ملوّنة صارت بمنزلة نشيد؛ وطن النهار: "غصباً على الآلام، ترجع وطن من جديد". تسأل نفسك إزاء وطن رجّع، أو أرجعوه، بعد احتلال. ترفض الفكرة موقناً بأنهم ما أرجعوه ولكن شبه لكم.

لوّن غياب الأسرى الكويت بالأصفر. الاحتلال، رغم أنه أخذ بانسحابه الكثير، خلف وراءه الكثير أيضاً. إعلانات تضم صور الخراب تحت عنوان "كي لا ننسى". لوحات ولافتات قماشية وملصقات صفراء تحمل شعار "لا تنسوا أسرانا" في الشوارع وعلى جدران البيوت وفي شاشات التلفزيون. سبة جديدة يتداولها صبية الشارع فيما بينهم: "يا عراقي!". عبداللطيف المنير وجاسم المطوع

صارا نُصْبًا تذكاريًا من رخامٍ أخرس عند السوق المركزي على الرصيف المقابل لبيت محظوظة ومبروكة. ألصقَ فهد صورتيهما مع صورة كبيرة للشيخ فهد الأحمد، على جدار غرفته، بين صور مؤيد الحدّاد، أزالها عمك صالح: لا تُلصق الصور! السبب؛ لأنها حرام، ولأنها تطرد الملائكة من البيت. سألته عن صور فهد التي تعلقها عائشة على خزانة التلفزيون، وصور المسيح مصلوبا كانت على جدران غرفة تينا، ألا تفعل فعل صور الشهداء مع الملائكة؟ نظرتـه دفعتك تسحب سؤالك تعتذر: "خلاص.. ما أسأل مرة ثانية!". صور الشهداء والأسرى في بيت عمك صالح، قبل إزالتها، لا تشبه صورهم في بيت عمك عباس. زوجة خالك حسن تصطحب ضاوي، تراوح بين اللجنة الوطنية لشؤون الأسرى ومكتب الشهيد، بحثا عن زوجها في سجون العراق. ولا خير. مفرداتٌ جديدٌ بعضها، وبعضها ازداد تكريسا، على رأسها دول الضد؛ العراق ومن كان في صفه من دول عربية. صارت الكويت، كما قال عبدالكريم عبد القادر، محيط الأرض وموج البحار. وصرت في مساحة صغيرة، جزيرة، لا ترى أبعد من نفسها. كل المفاهيم آلت إلى عكسها. فلورنس؛ التي كانت سُبّة أبي سامي ونقيصته، زمن أمك حصّة، وقت كان زوج الأميركية، صارت أعلى شأنًا وأرفع منزلة. استيقيتهم وصف زوجها، ليس خطأ من قدره كما كنتم تفعلون بل اعترافا بتفوقه وتفوق أبنائه بما يربطهم مع امرأة أميركية.

كنت في أول يوم دراسي بعد التحرير. أواخر 1991. في طابور الصباح في مدرسة النجاح المتوسطة. تقفُ بين مئات الطلبة، يرتفع

أمامكم علم الكويت عاليا في ساحة المدرسة. تهتفون للمرة الأولى بعد وقت طويل: تحيا الكويت.. عاش الأمير.. تحيا الأمة العربية، قبل ترديدكم النشيد الوطني بحماسٍ افتقدتموه شهورا، تلاحظون تأثيره على وجوه المدرّسين الكويتيين والعرب. كنتم قد دلفتم الفصل للتوّ بعد رنين الجرس يعلن بدء الحصة الدراسية الأولى. بينما يتسابق الطلبة على حجز المقاعد في الصفّ الأمامي، تسابقتم أنتم الثلاثة، تجددون عادتكم، لاحتلال المقاعد في الصفّ الأخير بعيدا عن اهتمام مُعلّميكُم. ترسمون أزرارا افتراضية على أسطح طاولاتكم. لم يتغيّر فصلكم الدراسي. عدتم كما تركتموه في المرحلة السابقة. صادق وفهد وأنت. تؤرجحون مقاعدكم على قوائمها الخلفية وتسندونها إلى الجدار. زملاء الفصل أمامكم كما هم، عدا اكتساب بعضهم ألقابا جديدة؛ ابن الأسير أو ابن الشهيد. كنتم فيما مضى ثمانية وثلاثين تلميذا، صرتم أربعة وثلاثين بعد غياب عَوْض السيمني وعبدالفضيل السوداني وسامر وحازم الفلسطينيين.

ما كدتم تضعون كتبكم على الطاولات أمامكم حتى دخل المدرّس الأول، الأستاذ مُرهف. في زيارة سريعة. "اقلبوا الكتب على الطاولات"، أمركم. قلبتموها. كان على ظهر الكتب شعار دائري لمجلس التعاون الخليجي يضم أعلام الدول الخليجية الست، بالإضافة إلى العراق الذي كان قد انضم إلى بعض المؤسسات في المجلس من بينها المؤسسة التعليمية والرياضية. أمسك الأستاذ مُرهف بواحد من الكتب يشير إلى العلم العراقي يملككم تعليمات الإدارة المدرسية:

- "بالمزِيل الأبيض.. لوّنوا هذا العلم..".

شرعتم بإزالة علم العراق من الغلاف الخلفي للكتاب. أمركم تفتحون بقية الكتب. يملككم أرقام الصفحات مروراً على أعلام وخرائط بعض الدول. مُلغى، محذوف، علامة إكس، خارج المنهج. صفحة وجه وظهر.. اقطعوها! سعادتك بتقليص منهاجكم الدراسية لم تشك عن ممارسة عادتك. رفعت يدك عالياً:

- "أستاذ.. أستاذ.. عندي سؤال!"

حدّق في وجهك وسع عينيه يتحقّق من كونك أنت:

- "العمى يا نقّاق! انت لِسَّاتك عمّ تسأل؟! لكُ بعدنا بأول ساعة بأول يوم!"

أنت لا تفتعل أسئلتك. لا تدري ما الذي يغضبهم. استقمت واقفاً تلجّق صرير مقعدك بتساؤلِكَ:

- "أستاذ مُرهف.. قبل شوي، في الساحة، كنا نقول تحيا الأمة العربية، والحين نشخبط على صور الخرائط والأعلام!؟".

جحظت عيناه. تطلّع إلى وجهك فاتحاً ذراعيه:

- "طيب وبعدين؟ شو طالع لي باليانصيب انت!؟".

ثقتك زائدة على ما يبدو حين أجبته:

- "واحد من اثنين.. أما نوَقِّف تحيا الأمة العربية، أو ما نشخبط على الخرائط والأعلام!"

لم يأبه لخيارٍ من اثنين كنتَ قد اقترحتهما. اقترح خياراً ثالثاً
يُشبه أمراً:

- "أو تأكلُ خراً!"

* * *

سيصيرُ الرملُ جَمَرا..
ويصيرُ البحرُ ناراً..

سعاد الصباح

الفأر الثالث

جَفَر

يحدث الآن 4:56 PM

كلما نشطت تفاصيل الشهور السبعة، أخذتني إليها، تفصلي
عن كل شيء عداها. تواجهني بشخص كان أنا، لم أعد أعرفه.
تعرّفتني إلى أناس احتفظوا.. بأسمائهم ونحسب.
أنا الآن هنا. لا يفصلي عن مقرّ أولاد فؤادة عدا مئات أمتار،
أستطيع مشاهدة البناية، ولكنني عالق في الزحام بين سيارات
المتجمهرين ورجال الأمن والإسعاف والإطفاء. كل المنعطقات عن
يميني مسدودة بالإطارات المشتعلة وأكياس الرمل. ألتقطُ هاتفي أتصل
بابن خالي. لا يرد، في حين صوته في الإذاعة، يكرّر القصيد، لا
يزال. يرتفع تارة. ينخفض أخرى:

تَفَجَّرُ

إن أفعى الدارِ تخرجُ

من شقوقٍ.. من صخورِ جدرانك

ثقوبِ عريشك القشِّ

نسيجِ لحافِكَ الهشِّ

تُنجُّ النارَ في أزهارِ بستانك

تُصوِّحُ غرسك الأخضرُ

ماذا تفعل، برّبك، يا ضاوي! أعاد الاتصال. رُدّ رُدّ. لا مشكلة لدي إن غيرك فعل. لا رَد. يهاتفني أيوب. أَسكت صوت الإذاعة في سيارتي. يجيء صوته مرتفعا متجاوزا صوت الإذاعة في سيارته: هل جنتم؟! أطمئنته رغم انفعالي: أنا في طريقي إلى ضاوي، ليس المقر بعيدا، سوف أصلح الأمر. يقاطعني: تصلح ماذا؟ اسمع اسمع..

يرفع صوت الإذاعة في سيارته، وهو ليس في حاجة لأن يفعل. صراخ الناطق لا يحتاج إلى غير صمت أيوب: "أولئك النواصب انذبن اتخذوا من القرآن شعارا بدلا من دين الله يدسّون السُّمَّ في العسل.. يقول الإمام علي عليه السلام؛ حين سكت أهل الحق عن الباطل، توهم أهل الباطل أنهم على حق، ويقول الله تبارك وتعالى في كتابه: "وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا". يا من تدّعون أن القرآن آتية.. ألا أنتم القرآن وإن لبستم ثياب ال...".

- "أي إذاعة هذي؟".

أسأله رافعا صوتي. يجيب على دأبه ساخرا:

- "الأخ يقول إحنا نواصب. واضحة! إذاعة آل البيت..".

- "أيوب!".

لا يأبه بمقاطعتي:

- "إسمع إسمع جماعتكم!".

- "أيوب!".

ينتقل إلى إذاعة أسود الحق. تبثُّ صوت ضاوي في القصيدة إياها،
في نقل مشترك، يعقبُ عليها صوتٌ غليظٌ كأن صاحبه يُمسك بهاتف
أيوب يصرخ في أذني: "هذا ما تقوله القرآن بمباركة الملاحدة!". يرتفع
صوت ضاوي، والأنشودة الإسلامية وراء صوته لا تزال:

تَفَجَّرَ
قَدْ دُبِحَتِ الْآنَ
مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ،
تُرَاوِدُكَ الذَّنَابُ السُّودُ
تَسْرِقُ مِنْكَ نَبْضَ الرُّوحِ
تُنَاوِشُ لَحْمَكَ الْمَهْدُورَ

يصرخ الصوت الغليظ بما أوتيت حنجرتَه من غلظة: "ألا شُلَّتِ
ألسنة الروافض.. مَنْ هُم الذَّنَابُ السُّود مَنْ؟ وإن كنا، فإن الذَّنَابَ
خير من قرآن تطاولت على أصحاب الحق. يا من صارت الفأرة
رمزكم، وقد قال فيها رسول الحق صلى الله عليه وسلم؛ خمس فواسق
تقتلن في الحرم: الفأرة والعقرب والغراب والحديا والكلب العقور.

يرتفع صوت أيوب، في الهاتف، ضاحكا: "ما أردى من المربوط
إلا المفتلت!".

يكرر الناطق حديث النبي صلى الله عليه وسلم وفق ما يريده
مؤكدًا: خمس فواسق تقتلن في الحرم.. خمس فواسق على رأسها
الفأرة يا من يُمجِّدُ الفأرة وينادي بحماية الناس من الطاعون!

يسألني أيوب عن صادق وقهد. لا أخبار. يتوسل إليّ إجابة عما جرى. أنهي مكالمتي أدفعه للبحث عنهما، وسؤالهما عما فعلاه فجر اليوم. أرفع صوت إذاعتنا في سيارتي. ينهي ضاوي القصيدة:

أشأتُ السَّباع.. النمل
تشرب نرَقَكَ المسفوخ
وللجزارِ شوقَ عارمٍ للنَّحرِ
للسكينِ نَصْلٌ جائع يزأرُ

ينتقل البثُّ إلى أنشودة دينية. تردني رسالة نصيَّة من بسيرت:
"صديقي.. انسى الرواية، انشالله ما انطبعت.. ردّ طمني عليك!".

* * *

الفصل الثاني

شهورنا السبعة المظلمة أفضت إلى حالة جديدة. لم تكن مشرقة بالضرورة. بدت أفضل مما كنا عليه قبل الاحتلال، ولكنها لم تكن. شيء ما استغرقني سنوات طوال لإدراكه. لو أن لي ذاكرة، مثل غيري، معطوبة! كنا نتجهز لحضور المسرحية الساخرة سيف العرب، أواخر صيف 1992. أول مسرحية للكبار نحضرها. والكبار، دائماً، شأن آخر. كنت قد بلغت الرابعة عشرة في تلك السنة، ومن حسن حظي أن عمي صالح لم ينزعج من وجودي في بينهم معظم الأوقات. كنت في غرفة فوزية. كحالتها لا تشبه غرفة كفيفة. تغصُّ جدرانها بالأعلام والصور والشعارات، وميداليات التكريم المدرسية، علقت بينها فستانها الوردي المنفوش، ذلك الذي ارتدته في حفل العيد الوطني قبل سنوات. كنت أقرأ لها رواية بعدما أرسلتني إلى مكتبة البدور لشرائها، كدأبنا منذ فقدت بصرها. نجلس في كرسيين متقابلين. توجه عينيها الصامتين إلى السقف تنصتُ إليّ. كلما أنهيت فصلاً أتأهب للخروج مع صادق وفهد إلى مجمع الأنبياء، كانت تناديني: "اصبر لحظة!". تمدُّ ذراعيها أمامها تحركُ أصابعها في الهواء.

أَقْرَبُ وَجْهِي بَيْنَ كَفِّهَا. تَحَسُّسُهُ. تَمَرُّرُ إصْبَعَا بَيْنَ أَنْفِي وَشَفْتِي
تَتَأَكَّدُ مِنْ نَعُومَةِ شَارِبِي. "كَتَكُوتُ! لَا تَكْبِرُ"، تَقُولُ رَاجِيَةً، خَشْيَةً
أَنْ يَمْنَعَنِي شَقِيقَتُهَا مِنْ دُخُولِ بَيْتِهِمْ، فِي حِينٍ لَا أَفَكِّرُ فِي شَيْءٍ عِدا
نَعُومَةِ كَفِّهَا وَعَطْرُهَا عَلَى وَجْهِي.

عِنْدَمَا فَضَلْتُ فَوْزِيَّةَ الْبَقَاءِ فِي الْبَيْتِ تَنَصَّتْ إِلَى قِرَاءَتِي عَوْضًا
عَنْ حُضُورِ الْمَسْرُحِيَّةِ، عَرَضَ عَلَيَّ عَمِّي صَالِحُ الذَّهَابِ مَعَهُمْ مُسْتَفِيدًا
مِنْ تَذَكُّرَةِ دُخُولِ فَوْزِيَّةِ. لَمْ أَكُنْ مُتَحِمِّسًا لِحُضُورِ الْمَسْرُحِيَّةِ لَوْلَا
مُشَارَكَةُ الْمُمَثِّلَةِ حَيَاةَ الْفَهْدِ، مَحْظُوظَةٌ. تَخَلَّيْتُ عَنْ فَوْزِيَّةِ. لَمْ تَعْتَسِبْ.
سَأَلْتُ فَهْدًا عَنْ سَعَادِ عَبْدِ اللَّهِ: "مَبْرُوكَةٌ مَعَهُمْ فِي الْمَسْرُحِيَّةِ؟". هَزُّ
رَأْسِهِ نَافِيًا يَعْدِدُ أَسْمَاءَ الْمُمَثِّلِينَ. بَدَأَ خِلَافَ صَادِقٍ وَفَهْدٍ عَابِرًا عِنْدَمَا
اِحْتَجَّ صَادِقٌ: "اسْمُهُ عَبْدِ الْحُسَيْنِ عَبْدِ الرَّضَا!", فِي حِينٍ أَصْرَّ فَهْدٌ عَلَى
تَسْمِيَةِ دَارِجَةِ لِلْفَنَانِ، بَطْلِ الْمَسْرُحِيَّةِ وَمُؤَلِّفِهَا؛ حُسَيْنِ عَبْدِ الرَّضَا.
طَالَ سَجَاهُمَا، يَسْتَمِيتُ وَاحِدُهُمَا يَقْنَعُ الْآخَرَ. حُسَيْنٌ. لَا.
عَبْدُ الْحُسَيْنِ. يَصْرُ فَهْدٌ عَلَى أَنَّا نَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَأَنْ إِنْ لَحَاقَ كَلِمَةُ عَبْدٍ
لِغَيْرِ اللَّهِ حَرَامٌ وَكَفَرٌ. يَنْفَعِلُ صَادِقٌ: "عَبْدٌ يَعْنِي خَادِمٌ.. وَعَبْدُ الْحُسَيْنِ
يَعْنِي خَادِمَهُ.. يَا حِمَارًا!". "لَا تَسُبَّ.. إِنَّتِ الْحِمَارُ!". "لَا.. إِنَّتِ!".
يَتَبَادَلَانِ التَّهْمَ صَرَخَا. أَنْتِ كَافِرَةٌ. أَنْتِ عِرَاقِيَّةٌ. يَصْمَتَانِ يَنْظُرَانِ إِلَى
يَنْتَظِرَانِ تَدْخُلًا، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ لَعِبَةَ شَدِّ الْحَبْلِ هَذِهِ، رَغِمَ أَنْ أَمْرُ
الْأَسْمَاءِ لَمْ يَعِدْ يَقْلِقُنِي كَدَابِهُ قَبْلَ سِنَوَاتٍ أَرْبَعٍ، بَيْنَ الْعُمَرِيَّةِ وَالْعُمَيْرِيَّةِ.
نَظَرْتُ إِلَى صَادِقٍ: "سَمُّهُ عَبْدِ الْحُسَيْنِ.. وَأَنْتِ..". أَشْرْتُ إِلَى فَهْدٍ:
"سَمُّهُ حُسَيْنٌ". اتَّفَقَا بِإِجَابَتِهِمَا: "مَا يَصِيرُ!". حَضَرْنَا الْمَسْرُحِيَّةِ. لَا
يَكْلُمُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ.

ذهبتُ بسيارة عمِّي صالح إلى مسرح الدسمة، فيما تبعنا عمِّي عباس بسيارته. أتذكر أن أبا فهد بدا سعيدا بلافتات الحملات الانتخابية تملأ الشوارع، تأهباً لبرلمان 92 بعد تعطيل للحياة البرلمانية امتدَّ لسِتِّ سنوات. سعادته لم تدم طويلاً عند مرورنا في شارع الدائري الثاني، بين الدسمة والدعيرة، إذ برزت إحدى اللافتات لمرشح يرتدي عمامة سوداء. "عشنا وشفنا!"، هزَّ رأسه يستطرد: "ليت الأمير يحلّ البرلمان".

في صفِّ المقاعد الثاني كنا نتابع أحداث المسرحية. لو أنهم اختاروا لها اسماً آخر! كنت أقول لنفسي، مستعيداً كلمات الأغنية في افتتاح بطولة كأس الخليج العاشرة قبل ستين ونيف: "هلا بسيف العرب.. ينحط على يمناي!". ذاكرته سيئة من يتذكر كل شيء، وأنا ملعون بذاكرتي. لو أنني نسيت مثل البقية! أتذكرهم يضحكون ملء أفواههم منذ بداية المسرحية. مثلهم كنتُ أضحك. عدا أمي زينب. أنظر إلى وجهها يلقي عليه المسرح شيئاً من إضاءته. بقيت صامتة لئلا تخونها ابتسامة. تقرَّب ساعة معصمها إلى وجهها في الظلام. تتأفف. أتذكر فهذا في نهاية الجزء الأول يدسُّ إصبعيه أسفل لسانه. يُطلق صفيراً قبل أن يصفق بحرارة، ليس إزاء مشهد مؤثر لاستشهاد بطل المسرحية بطلقة جندي عراقي، بل لأن عبدالكريم فاجأنا بصوته يغني موالاً باكياً لا يشبه مسرحية ساخرة: "يا خوي.. لا تبكي على من مات واستشهد". أنا أكره أن أكون ضعيفاً أمام الغير. ولكن، منحني ظلام المسرح حرية أن أكون أنا إزاء حزن مباغت. "من مات لأجل الوطن.. بـ العون هو الأسعد!". تذكرتُ عبداللطيف المنير

وجاسم المطوّع وتُصبهما الرخامي. تذكرتُ خالي حسن يوم أزيح اللثام عن وجهه. ما أردتُ له سعادة ينشدها عبدالكريم عبدالقادر في مواله الحزين؛ من مات هو الأسعد. أتراه ميتاً؟ سعيداً؟ تمنيته يعود إلى بيته يقوم لسان ولده، يوقف تبوله اللا إرادي، ويخلصه من رهابٍ مزمن تجاه الأماكن المظلمة. يعود بيته، كما كان، هو الأسعد!

الضحك الذي ضجّت به مقاعد الجمهور، في الجزء الثاني من المسرحية، بدا سخيفاً أمام عبّوس أمي زينب. لم يتوقف ضحك عمّي صالح، حتى السعال، منذ ظهر الفنان عبدالحسين عبدالرضا بلباسٍ عسكري يؤدي دوره متممّاً شخصية الرئيس العراقي، يطوف بين فلاحين عراقيين حفاة، يرقصون بشباب رثّة موغلين في الهزل. نهضت أمي زينب: "هاي مسخرة!". لم يتح لي الظلام مشاهدة وجهي صادق وحوراء بشكل جيد. أدري لسان الجدّة يخرجهما. كانت غاضبة. غاضبة بحق. دفعتُ عمّي عبّاس من كتفه تحته على المغادرة: "العراقيين مو هيّج بهام!". كنت بالكاد خرجتُ من تأثير مشهد الموت في جزء المسرحية الأول. صفعني أمي زينب بقولها. ندمتُ على عدم بقائي مع فوزية في البيت، أقرأ لها روايات قديسها، إحسان عبدالقدّوس. أنا لا أحب مسرحيات الكبار. تشبّثتُ بعباءة أمي زينب: "أروح وياكم!". خرجنا تشيعنا ضحكات الجمهور أميّز من بينها، أعلاها، ضحك عمّي صالح. غادرتُ مسرح الدسمة بسيارة عمّي عبّاس.

أتذكرني في أواخر عطلة صيف 1993 في غرفة جلوس بيت أبي صادق، بعدما أصبح بيته مكان تجمعنا عوضاً عن بيت آل بن

يعقوب. أتذكر الغرفة عادت كعهدي بها تحمل جدرانها صور الأئمة والحياد والسيوف، ولوحات رسمها صادق عجزتُ عن فكِّ رموزها. قادتنا حوراء، فهد وأنا، إلى حيث يجلس شقيقها. ثنيت ساقِيَّ أجلس فوقهما إلى جانب فهد وصادق على الأرض أمام شاشة التلفزيون. كنت وفهد قد عدنا للتو من مؤسسة الحشَّاش للفيديو في الجابرية مشيا على الأقدام. رؤوسنا ساخنة، تنزُّ أجسادنا عرقًا. لم يقوَ فهد صبرا إزاء إعلان قرأه في الجريدة. هاتفي في البيت ظهرا: "ألو! بعدك زعلان على أبوي؟". كان يدري بأني أحمل عتبا مريرا. الذي لا يدرية أن عتبي ليس تجاه عمِّي صالح، إنما تجاه الزمن الذي حرمني من دخول بيته بحجة أنني أصبحتُ رجلا. تساهل قليلا، حين أخبر شقيقته، إن كانت قراءتي لها ضرورية، فلتكن عبر الهاتف. رفضت فوزية. حُرِمنا من جلسات القراءة.

ولأنني لم أجبه، سألني: "تروح ويَّاي الجابرية؟". لا مجال للتخمين: "كاسيت جديد لعبدالكريم؟". تجاوز سؤالي: "غير ثيابك بسرعة!". غيَّرتُ مزاجي بسرعة. نسيت مرارة عتبٍ أحمله تجاه بيت آل بن يعقوب. هرعت فورا لتغيير ملابسِي. من سوى عبدالكريم يدفع فهذا للمشِي، من السُّرَّة مرورا بالجسر، إلى الجابرية ظهرا في ذروة الصيف؟! ومن سواه يشفع لصاحبِي يُرغمني على مصاحبته إلى مؤسسة الحشَّاش مشيا، احتفالا بمناسبة سنوية يتحرَّق لها فهد أكثر من عيد؟! حتَّ خطوهُ مسرعا ما إن لمح صورة الكاسيت الجديد كبيرة على واجهة المحل الزجاجية. اشترى شريطِي كاسيت من الألبوم ذاته، وألحَّ على البائع الهندي أن يعطيه صورة ترويجية

للألبوم الجديد، كبيرة كتلك التي يعلّقها على واجهة المحل. اشترط
البائع: "لازم يدفع نُص دينار زيادة". أعطاه فهد دينارا. بسَطَ
الصورة على منضدة البائع فوق أشرطة الكاسيت وكاتالوجات أفلام
الفديو، يحدِّق في عبدالكريم، بدشداشته الرمادية وعقاله المائل، كمن
ينظر إلى أمر خارق. سألته: "ليش بس تحب عبدالكريم؟"، أجاب:
"لأنه يغني لي بروحي". لم يُبعد نظره عن الصورة. "ولكن!"، قلت له
متردّدا. ترك وجه عبدالكريم على المنضدة. نظر إليّ يستوضح ما بعد
الـ لكن. أجبتّه: "صوته كبير!". عقد حاجبيه ماطًا شفّيته. شرعتُ
أشرحُ له ما لم أجد له وصفا. فتحتُ فمي على وسعِهِ: "عاااااااااا".
انزعج: "يا حيوان!". تجاوزتُ شتيّمته أسأل: "النسخة الثانية لي؟".
أجاب بغير اكتراث: "وحدة لي ووحدة لعمي فوزية". انفلت لساني
يسأل: "شلونها؟". هدأت ملامحهُ: "تسأل عنك". لم أوار مشاعري:

- "لیش منعنی عمی صالح؟".

قال، وهو يحدِّق في الصورة، إنني صرت رجلاً. أجبته:

— "أدري.. لكن فوزية عميا!".

أجابنی:

— "أدري.. لكنك مفتّح!".

كنا نقطع الجسر أوبة إلى السُرَّة. انتصبت على جانبي الطريق، في مقدّمة الجسر، ألواح غطاها الغبار لصور مربعة

للاحتلال، تحمل شعار "كي لا ننسى". سألتُ فهذا عن الأشياء التي لن ينساها من زمن الشهور السبعة. عدّها. العراقيون الأشرار. دول الضّد. الشهداء والأسرى. الحرائق والمباني المدمّرة، حقول الألغام وآبار النفط ودخانها الذي حجب الشمس لشهور عدة تلت يوم التحرير. كان يتذكر كل شيء بالأرقام. سبعة شهور احتلال. خمسة دول ساندت العراق. ستمائة وخمسة أسرى. خمسمائة وسبعون شهيدا. سبعمائة وسبعة وعشرون بثرا نفطية نفثت نيرانها تحترق على مدار تسعة شهور. أكثر من مليون لغم برّي وبحري. أتذكره يحصي الأرقام في حين كنت أواصل المشي صامتا. سألتني: "شفيك؟". أخبرته أن والدتي تريدني أن أنسى كل تلك الأشياء. سألتني عن الأشياء التي تريدني، السّت النازرة، أن أتذكرها. كانت المرة الأولى التي يشير بها إلى والدتي على طريقة أُمي حصّة. كانت المرة الأولى التي لم يزعجني فيها الوصف. كانت والدتي كلما شاهدت صورة أو تقريرا في التلفزيون يحمل الشعار "كي لا ننسى" تغلق التلفزيون. تُمسّد رأسي. تُعدّد الأشياء التي لا تريد لي نسيانها؛ لا تنسى أن الكويتيين عملوا في جمع القمامة بعدما كانوا ملوكا في بلادهم. لا تنسى أننا أصبحنا لاجئين في ليلة وضحاها في شتى بقاع الأرض. لا تنسى أن بعضنا، رغم إعانات الحكومة في المنفى، عاش على التبرعات طيلة أشهر الاحتلال. لا تنسى أن البعض ضحى بحياته من أجل وطنه. لا تنسى أننا نسينا كل خلافاتنا واختلافاتنا من أجل بلادنا. لا تنسى أنك لا تساوي شيئا من دون وطنك. ثم أخيرا، والأهم، لا تنسى أن الدنيا تدور! سألتني فهذا: "والتعذيب وحرايق

النفط والألغام والـ...". قاطعته: "أمي تقول انسى". حذق في وجهي. سأل: "نسيت؟". لذت بصمتي ألفت إلى الورا أنظر إلى اللوح: "كي لا نسي". سألني قاطعا صمتي: "وأبوك؟". لا أتذكر حديثا لوالدي إزاء ما حل بنا عدا عبارتين لا يتفك يكررها، الأولى: "مو حرام كل هالنفط احترق؟!"، والثانية: "الله يعز الأمير أسقط قروض المواطنين ومديونياهم".

قطعنا الجسر وصولا إلى شارع طارق بن زياد في السرة. أصر فهد على زيارة بيت عمي عباس ما إن دلفنا شارعنا. سألته عن أوان الاستماع إلى الكاسيت الجديد. أجابني: "بعدين". هو لم يفعلها من قبل قط. عادته يوم صدور كاسيت جديد لعبدالكريم أن يختفي في غرفته يوما بأكمله. يخرج في اليوم التالي وهو يحفظ أغاني الكاسيت كما يحفظ اسمه.

جلسنا، في بيت عمي عباس، على الأرض يتوسطنا صادق المهووس بألعاب الفيديو. يحكم كفيه على مقبض تحكم جهاز الـ SEGA، مأخوذا بلعبة عاصفة الصحراء، Desert Storm، يقود طائرة مروحية أميركية يصلي جنودا عراقيين رصاصا كثيفا. أفرغ ذخيرته ثارا إلكترونيا. ارتفعت ضحكاته، تشفيا، تجاوز أصوات الانفجارات في الشاشة أمامه. كان عمي عباس يجلس على أريكة خلفنا يتابع حماسنا، يحصي القتلى. وجهت حوراء شقيقها: "هناك.. ورا الصندوق الكبير!". فجّر صادق الصندوق وما وراءه. يتغير الرقم أعلى الشاشة يسجل عدد القتلى، في حين نتظر، أنا وفهد، مقبض التحكم ينتقل إلينا لنأتي على ما بقي من جنود عراقيين يتمرسون

خلف جدران آيلة للسقوط، نوجّه صواريخنا إلى خنادق لعلها تخفي أحدهم. نكسر أرقاماً قياسية حقّقها صادق. هتفَ فهد: "حوراء! شوفي شوفي هالحركة!". استبدل قذيفة واحدة كبيرة بطلقات رشاشة تضاعف الأرقام في عدّاد القتلى أعلى الشاشة. التفتُ إلى عمّي عبّاس أسأله عن ضحايا رصاصاتنا وصواريخنا: "يُعتبرون شهداء؟". أجابني: "لأ طبعاً!". عدتُ لمتابعة الشاشة مطمئناً. خرج فهد مع ارتفاع أذان المغرب. انتبهت إلى كيس مؤسسة الحشّاش على الأرض إلى جانبي. التقطته أتبع فهداً قبل أن يدرك بيته المحظور عليّ. سألتني حوراء: "وين؟". أجبتها راكضاً: "فهد نسي عبدالكريم". ناديته عند الجوش: "فهد!". لوّحتُ له بالكيس. كان قد أدرك باب حوشهم. أجاب بصوت مرتفع: "اتركه هناك.. آخذه غداً". لم أفهم كيف له، بعد رحلتنا المضنية، أن يتخلى عن الكاسيت بهذه السهولة. نظرتُ إلى داخل الكيس. وجدت نسخة واحدة من كاسيت عبدالكريم عبدالقادر.. "ظماي انت 93".

* * *

يحدث الآن 5:02 PM

لا شرطة مرور تفكُّ هذا الازدحام الذي لا أرى آخره. أشفقُ على رجال الأمن والمرور والإسعاف والمطافئ، الموظفين منهم والمتطوعين، لا تكفي أعدادهم لتغطية مناطق الخراب. وجوهم هلعة. ماذا لو كان أحد أقاربهم بين الضحايا؟ ألتفتُ حولي لعل طريقاً سالكة بين السيارات تفضي إلى وجهتي. ألمح رسومات لفئران مشطوبة بعلامة X، وشعارات، ممهورة بتوقيع أولاد فؤادة، على أسوار بعض البيوت، احموا الناس من الطاعون، الفئران آتية!

أمسك بهاتفي أتصفح تويتر. صورة البطاقة الشخصية تأخذ طريقاً سالكة بين مستخدمي البرنامج. كلُّ يعيد تدويرها يُدرج تعليقاً يوجِّهه لضاي: "إن مَنْ يعرف من أي منطقة تبثُ إذاعة أولاد فؤادة براجمها يعرف حتماً بأنك زنديقٌ رافضي". يبدو أن مقرّناً لم يعد سرّياً كما يقول أيوب. تعليق آخر يرد على الأول: "اقرأ اسمه، قبل أن تتكلم، وأنت تعرف أنه ناصبي إرهابي". أنظر إلى وجه ضاي في صورة بطاقة يتداولها الناس. له وجه خالي حسن. ابتسامته الهادئة. أسنانه البيضاء المنتظمة. لحيته الداكنة المُرْتَبَة. لا شيء مما تحمله التعليقات يشبهك يا ابن الخال. لا شيء. تختفي الصورة وراء اسم الناشر يصحبه رنين الهاتف: "ألو".

- "يا خَيّ طز بالرواية.. بس طمني عليك!"

خوف الآخر وخشيته عليك عزاء في حد ذاته. صوتي يخالف
إجابتي:

- "آنا بخير..".

- "والله؟".

لا أحيّر جوابا. يسألني عن الحال. يحثني على الخروج بدلا من
الاستمرار في. لا جدوى من. والحال من سيء إلى. لا يؤجل سؤاله
في نهاية المكالمة:

- "بَعْرِفِ الْوَقْتِ مَتَوَ مُنَاسِب.. بِسْ شَوْ قِلْت؟ نَطْبِعِ
الرَّوَايَةِ؟".

أنظر ناحية أعلام خضراء وصور كبيرة تعلو البنايات لرجال
مُعَمَّمِينَ. تشبه، في مضمونها، أعلاما سوداء وصورا تعلو بعض بيوت
السُّرَّة ومدارسها. تدفعني الصور والأعلام لأجيب مشرطا:

- "كاملة".

- "يا رجل موضوعك مهم. دخيل الله حرام يمنعوه مِنشان
أربع فصول مِّنَّا محرزة!".

ما يجول في خاطري. والازدحام من حولي. كلاهما أو أحدهما
يحيلُ نبرة صوتي غاضبة:

- "الحذف ما يغيّر شيئا! إنت ما تدري! أوضاع الرقابة
بائسة.. إنت ما تسمع عن مجازر الكتب عندنا؟!".

- "عمي روق.. روق..".

يدفعه ترددي يضغط:

- "هيدا متو حكيي أنا.. هيدا حكيي المحرر.. منشيل
الفصول الأربعة وبوعدك روايتك بتفوت..".

تُنهى المكالمة بما يشبه رهانا. تُجاز، بعد حذف الفصول الأربعة،
أو لا تُجاز. وأنا أبحثُ في ازدحامي هذا عن مجاز إلى مقرنا. انعطفُ
خروجاً عن الزحام، صعوداً فوق الرصيف، أقطعه إلى الشارع
المقابل. تختفي بنايتنا وراء بناية ضخمة. الأنشودة الدينية في إذاعة
أولاد فؤادة لا تزال.

- نستأنف بثً برنامجنا أحببتنا المستمعين..

يمدّد ضاوي وقت حلقة اضطرارا. لن يدوم الأمر طويلاً يا ابن
الخال! الشمسُ في آخر غروبها. أنظر إلى الساعة في معصمي،
الخامسة وخمس دقائق. أمامك دقيقة واحدة. أدريك تتحرى أذان
المغرب، لن تستمع إليه في الجابية وفق توقيتك. لا ضير إن جاء
متأخراً عن موعدك عشر دقائق، الله أكبر، هذا النداء الذي ما عاد
للصلاة وحسب. صار يسبق كل حزّ سكين وطلقة رصاصة
وانفجار. أتحرقُ للوصول، أعفك من هذه المهمة. سوف أصل قريباً
إلى المقر، من أجل نشرة السادسة وفقاً لما أرسله أيوب من أخبار على
بريدنا الإلكتروني. سأتولى بنفسني بثً برنامج صادق "أنا التاريخ
كله". يكون صادق قد فتح هاتفه المحمول، ويردّ فهد على اتصالي

بدلاً من عبدالكريم. أفرغ في التاسعة لبرنامجي "حنين"، ففي هذه اللحظات أحتاج هرباً من زمي هذا إلى زمنٍ ينسيني مشاهدات اليوم. تتوقف السيارات أمامي فجأة عند الإشارة الحمراء. أنتبه إلى صمت إذاعتنا مدةً بعد عبارة استئناف ضاوي. أرفع صوت الإذاعة إلى آخره. مجموعات تعبر الشارع عن يميني تشير إلى ما وراء البناية الضخمة. آخرون لا يلتفتون إلى شيء عدا طريقهم. أرهف سمعي مع الإذاعة. صوت بالكاد يُسمع لطرقات متكررة. ونداءات، ربما.. لست متأكداً. لعله ضعف الإرسال. لعلها تشوشات إذاعة أخرى. يقترب الصوت. يتعد. لا يزال غير واضح ألقط منه بضع كلمات. يا الله يا الله. يتقبضُ صدري. أنظر في نافذة السقف أهرب من ضيقي إلى رحابة السماء. "المطر عند الله"، تنشط الأغنية داخل رأسي. الأرض ترفضني. تلفظني. أتذكر ضاوي كلما استغلقت أموره يقول "يجيب الله مطر". ينهض صوت أمي حصّة من سباته، يتلع صوت ضاوي، تصيح: "راح تطيح علينا السما". أحتاج إلى زرٍّ كزرٍّ صادق. أضغطه.. يختفي كل شيء، أو أختفي!

يرتفع نفير السيارات ورائي ينبهني إلى الإشارة الخضراء. "يا الله يا الله". شيء ما يجري لضواوي. قلبي يقرصني يا ابن خالي. أجتاوز الإشارة. تظهر بنايتنا وراء البناية الضخمة. نوافذ مقرّنا في الدور الأخير تنفُثُ دخاناً كثيفاً. يرتفعُ أذان المغرب: "الله أكبر.. الله أكبر". ينفجر صوت ضاوي فجأة في الإذاعة. يقترب. يتعد: اللهم هوّن علينا ظُلمة القبور.. اللهم وسّع قبري ونور لي فيه.. اللهم هوّن علينا ظُلمة القبور..

فجيعتي بمصيرك المحتمل، يا ابن الخال، لم تشغلني، أنتبه إلى
حرف الراء. سليما في لسانك، يرُنُّ في أذني.

"يجيب الله مطر يا ضاوي.. يجيب الله مطر".

* * *

الفصل الثالث

ذات ظهيرة، ربيع 1994، أمسك فهد بلوح صفيح، بالقرب من السُدرة. كان اللوح ذات يوم جزءاً من قفص دجاجات أمي حصّة. رفعه كاشفاً عن رمل رطب خلّفته أمطار الشتاء الماضي. الأرض مثالية لتكاثر دود القُبّي. شرعتُ وصادقُ نحفر الرمل بأظفارنا نبحثُ عن دودٍ نشطٍ ممتلئٍ يصلحُ لاجتذاب طيور الربيع وقت الحبال. دودٌ كبير ذلك الذي يستحيلُ، تالياً، أبا جعل. بخلاف ديدان صغيرة، في أفضل أحوالها، تتطور إلى خنافس نافهة. لا هواية تُحقق متعة الحبال إلا مُتعة القُمبار لدينا. كرهتُ القُمبار، منذ آخر مرة قَمِرتُ فيها قبل ستّ سنوات، بسبب عمّي عبّاس وكلامه المسموم. صارت هواية الحبال متعة فريدة أبقيتها بعيداً عن عُقدِ جارينا. سرحتُ مع زرزورٍ نافقٍ، بالقرب من اللوح الصفيح، تملأ بطنه ديدان صغيرة تتلوّى وتثير الغثيان. نُبْهني صادق: ما بالك؟ أقوال أمي حصّة لا تفارقني. أجبته: يخرج من بطنك دودٌ يأكلك. لم يعرني اهتماماً. مددتُ يدي إلى الرمل الرطب. الكثير من الدُودِ في البقعة أسفل اللوح. شرع صادق يلتقطه بين إصبعيه، يضغط منتصفه، يتحقق من

صحته: "مَدَّ إيدك!". كنت قد رفعتُ كفي عن التراب، صفقتُهما ببعض، بعدما رأيت غيرانا لا قدرة للقبّي على حفرها، وفضلات بنية داكنة تقارب حبّات الرُّز حجماً. تشمّمتُ المكان. رائحة ترايبه حامضة أعرفها جيداً. ظننتها اختفت. تذكرتُ قول أُمّي حصّة، ليس ضرورياً أن تراها كي تعرف بوجودها. صادق وفهد يحسباني أبالغ إذا ما رحت أصِفُ الرائحة. لا يصدّقان. أنت واهم.

كانت حصيلتنا كبيرة من الدُّود. لا يكفُّ عن الحركة في قِلاع زجاجة كولا فارغة. طوينا أطراف دشاديشنا الشتوية الداكنة لفّاً حول خصورنا. حملنا فخاخنا الشبكيّة الخضراء وزجاجة الدُّود. ححثنا الخطى إلى برٍّ مشرف في نهاية شارع دمشق. في المنطقة التي سوف تصبح سكنية خلال أقل من عشر سنوات. قامت المنطقة بعد ثورة لا مثيل لها ضدّ ثعالب الحصني والجرايع والضُّبان والسحالي وقت دخول الحفّارات وسيارات خلط الإسمنت إلى البرّ. يُشاهد الضُّبُّ خاطفا بين ألْسنة الإسفلت يبحث عن مكان آمن. صار الجربوع بلا مأوى، تدكُّ آلات الحفر غيرانه فوق صغاره، يتقاذف هلعاً من ضجيج أصوات آلات البناء. كان ذلك تحضيراً لتقسيم البرّ إلى خمس مناطق سكنية؛ السلام وحِطّين والشهداء والصّدّيق والزهراء. كان البرّ القريب مكاننا الأثير وقت حصولنا على رخصة القيادة عام 1996، المكان الوحيد الذي نستعرض فيه بسياراتنا نثير الغبار حولنا بعيداً عن دوريات شرطة المرور. تنهي فوضانا بفرش قطعة سجّاد نمضي وقتاً هادئاً في الظلام بعيداً عن ضوضاء المناطق السكنية وأنوارها. يتحدّث فهد عن أسماء المناطق الوليدة. الصّدّيق نسبة إلى

الخليفة أبي بكر الصديق. يستغرب صادق تسمية منطقة بأكملها؛
الصديق، في حين اكتفى المسؤولون بشارع يحمل اسم الإمام علي بن
أبي طالب في السُّرَّة. يُذكره فهد بتسمية منطقة الزهراء نسبة لابنة
النبي فاطمة الزهراء زوجة الإمام علي. "لا تزعل"، يقول له.
يُصَوِّر حديثهما للسامع مزاحاً، ولكنه لم يكن. يبدأ باسم المناطق،
وينتهي بما يشبه خلافاً حول أحقية أصحاب الرسول في خلافته. من
يخلف من. كنا في الجزء الذي صار اسمه منطقة السلام. نفتش
الأرض ليلاً. نسنُدُ ظهورنا إلى سيارتي. كنتُ ساهماً أتتبع جربوعاً
مفجوعاً يقفزُ هنا، وضباً لاهثاً يركضُ هناك. يضحك صادق وفهد
إزاء حزني لحالها مشرّدة في الظلام. يهونُ صادق الأمر بعبارة قالها لي
قبل سنتين في المكان نفسه: يموت أحدهم ليعيشَ آخر!

بعد نصف ساعة، قضيناها مشياً حاملين فخاخنا وزجاجة الدُّود،
كنا في البرّ. مكان آمن، في زمن يسبقُ تشظّيه إلى خمس مناطق سكنية.
في جوٍّ مشمسٍ بارد، تحت سماءٍ صافية الزرقة. انتشرت أزهار النّوير
على امتداد البصر مثل سجادة صفراء لا آخر لها. مضينا في السير نبتعد
عن ضجيج الشارع. أحبيتُ المكان الربيعي لولا أن لحتُ كلباً سائياً في
الجوار. "هش هش!"، طرده صادق يرميه بحجر: الكلاب السائبة
جبانة! همس فهد وهو يشير إلى طائر صرّد رمادي غير بعيد: "هناك
هناك.. حمّامي عربي!". توقفنا على مبعدة من الصرّد الرمادي، كان
مولافاً حول سيدة جافة. يحطُّ فوقها يدسُّ منقاره في ريش صدره
الأبيض قبل أن يطير ثانية. يرتفع أسفل السّدر، على مبعدة خطوات،
تلّ صغير لحجارة مهمة. لم نأبه بابتعاد الطائر، واثقين بأن المولافَ

يعود إلى مكان يألفه. غرفَ فهد حفنة رملٍ، جعلها تنسلّ من بين
 أصابعه في الهواء يحدّد اتجاهها. تطايرت حبات الرمل تساير الريح في
 وجهتها. نقلتُ الأحجار من مكانها أصنعُ تلاً باتجاه هبوب الريح
 صوب السّدرّة. أسندتُ الفخّ إليه أبرزه أمام الصّرد الرمادي إذا ما حطّ
 عائداً إلى الغصن. ندره يواجه الريح بصدرة الأبيض أبداً. غطيتُ
 أجزاءً من الفخّ بالتراب. أخرجَ صادق القبيّ من زجاجة الكولا. التقطه
 بين إصبعيه يزيل حبات رملٍ عالقة بجسده الأصفر اللزج. ثبته في
 منتصف الفخّ بخيط مطاطي أحكم لفّة عليه. صار القبيّ يتلوّى
 ويتنصب بصورة لافتة في سكون ما حوله. ابتعدنا، مئات أمتار، نراقب
 السّدرّة الجافة، بعيداً بين أزهار النّوير. أقبل الصّرد الرمادي، يطير
 منخفضاً، مهيباً يحوم حول السّدرّة. حطّ على الغصن الجاف يواجه
 الريح بصدرة الأبيض. يتلفت حوله والخط الأسود حول عينيه مثل
 عُصابة اللصوص في الأفلام. تنبّه إلى حركة القبيّ فوق التلّ الصخري.
 لحتُ الكلب السائب يُقعي بعيداً، بين النّوير، يظهرُ رأسه، مادّاً لسانه،
 يراقب الطير في مثل جلستنا تماماً. هبط الطير على التلّ الصخري يتلفت
 حوله. يحركُ رأسه بما يشبه رقصة شعبية. اقتربَ من الفخّ. تحفّزَ
 الكلب. قرّب الطائر رأسه إلى الدّودة حذراً. تسحبُ الكلبُ في البدء.
 صار الحمّامي العربي قريباً جداً يناورُ القبيّ. نقلتُ نظري بين الكلب
 والطائر في حين أنصتُ إلى نبضات قلبي في رأسي. صار الكلب
 يركضُ نحو الحمّامي العربي يثيرُ الغبار ورائه من مسافة بعيدة. لم
 يكن مثل سلوقي أبي سامي وإن مائله شكلاً. كان ملطخاً
 بالأوساخ. شكله مرعب. الكلاب السائبة تنسى جنبها وقتَ جوعها.

فتح الطائر منقاره الأسود. لم نتحرك. حبسنا أنفاسنا. نراقب الكلب في مشهد يشبه أفلام الحيوانات الوثائقية. شيء ما سقط من الذاكرة عندما دوى انفجار عظيم ترك صفيرا في أذني وغبارا كثيفا مثل غيمة سقطت من السماء. استغرقنا الأمر وقتا لنذكر أن الكلب وطأ لغما أثناء جريه صوب فريسته. كانت أشلاؤه قد تناثرت في المكان. كنا نلهث جلوسا. نرتعش. نخشى حراكا يُفضي إلى مصير مشابه لمصير الكلب. صرنا ندرس الخطوة أسفل أقدامنا. لم نهرب في البدء. نتصرف بغير إدراك. يتلفت فهد باحثا عن الصرد الرمادي، يقول: "فلت الحمامي العربي". كسر صادق زجاجة الكولا محررا الدود أسفل التل الصخري. حرر القبي من قيده المطاطي في الفخ. لا أدري، إلى هذا اليوم، لماذا لم نطلق سيقاننا للريح خروجا من البر فور الانفجار. ولماذا صرنا نتلفت بحثا عن الصرد الرمادي وكأن قوة خفية تحميه. ندرسه يطير منخفضا. ولكنه، رغم ذلك، اختفى. كانت السيارات قد تزاхمت في نهاية شارع دمشق. بداية الطريق الرملية. عند التقاء الإسفلت بالرمل. حملتنا سيارة إلى بيوتنا. نسيت ما قاله السائق صراخا إزاء حماقتنا. نسيت كل شيء مثل حلم لم أتذكر منه عدا قول صادق إزاء مشهد عظيم. قول صار لا يفارقني: يموت أحدهم.. ليعيش آخر!

تزامن شهر محرم مع بداية عطلة صيف 1994. كنت في غرفتي أهم للخروج عندما رن جرس الباب مساء العاشر من الشهر الهجري. دسست زجاجة عطر في جيب دشناشتي قبل ذهابي إلى مجمع الأنبي حيث ينتظرنني فهد. وجدت صادقا وراء باب الحوش يحمل قدري طعام من الذي تعدّه أمي زينب كل عام في ذكرى أيام مقتل

الحسين. ناولني صادق الطعام: "امسك بسرعة". أجبته: "هذا وايد!". نظر باتجاه بيت آل بن يعقوب، برّر بأن أمي زينب أرسلته يحمل الطعام. قدرّ لنا وآخر لبيت عمّي صالح. ولكن عمّي عباس أسرّ إليه قبل خروجه بأن يكفي بإيصال الطعام إلى بيتنا متجاوزا بيت جاره اللصيق. سألته عن رغبة أمي زينب، قاطعني: "أعصي أبوي؟!"، ثم راح يؤكد أن أبا فهد لا يأكل من طعامهم. توترت علاقة الجارين ثانية. تركتُ القدرين على الطاولة في غرفة الجلوس. تركني صادق ليذهب مع عمّي عباس إلى الحسينية في اليوم الأخير، في حين ذهبتُ إلى مجمع الأنبي. "تفضّل!"، صاح جابر وهو يدير سيخ الشاورما أثناء مروري أمام مطعمه: "شاورما؟ ساندويتش مكرونة بالكاتشب؟". اكتفيتُ بالتلويح له هازًا رأسي. رفع صوته عاتبا: "خلاص؟! جابر بقي كُخّه وماكدونالدز هو الحلوا!". كان المطعم الأميركي الشهير قد افتتح أول فرع له في الكويت قبل أسابيع. قيل إنه الأكبر، مساحةً، في العالم. قيل إن السيارات تصطف أمامه في طوابير طويلة. قيل إنه يخصص جزءا من أرباحه لدعم إسرائيل. قيلت أشياء كثيرة، ولكن، يفوتك من الكذاب صدق كثير. تجاوزتُ جابرا، مرورا أمام مكتبة البدور، حيث اقتعد أبو فواز كرسيّا عند الباب: "ما عدنا نشوفك!". افتعلتُ ابتسامة. سألت: "منهو إلهي يقرا لبنت بن يعقوب ألحين؟". مططتُ شفتيّ رافعا كفتيّ أهزّ رأسي. مضيت تاركا إياه ورائي متحفظا: "القَطو أكل لسانك؟!". تجاهلتُ قِطّة ملتفتا إلى قِطّ آخر يجلسُ على صناديق كولا فارغة، يرفع أطراف دِشداشته إلى ركبتيه، يدخن سيجارة، أمام دُكان حيدر. لم يكن صاحب الدُكان

موجودا. غاب، هو وولده، عن دُكانه شأن كل يوم عاشوراء في كل سنة. "شلونك فهد؟"، سألته قبل دخولي إلى دُكان البقالة. وجدتُ ابن شاكر البُهري ينوب عن حيدر وابنه. يجلس خلف مسطبة العلكة والحب الشمسي. ناولته نصف دينار لقاء علبة سجائر قبل أن أنضم إلى فهد أقتعدُ صندوق كولا إلى جانبه. ما كدتُ أسحبُ نفَساً من السيجارة، أهدقُ في توهج جمرها منتشياً، حتى نبَّهني:

- "إسترها إسترها!"

أخفيتُ سيجارتي، ممسكا بعقبها بين سبَّاتي وإبهامي، مخفياً جمرها وراء كفي. حبستُ الدخان في صدري. بالمثل فعلَ فهد، لحين مرور سيارة عمي عباس في السُّكة أمام المجمع واختفائها في آخر الشارع. كان زجاجها الخلفي يحمل ملصقا صغيرا لتلك الصور التي صارت تنتشر على زجاج السيارات، تشير صراحة إلى طائفةٍ ينتمي إليها صاحب السيارة، بصورة لم نألفها قبل الاحتلال؛ مثل سيف ذي الفقار وسفينة تحمل أسماء الأئمة.

أطلقتُ الدخان من صدري باهتا. سألتُ فهداً منذ متى يعيرُ اهتماماً لأبي صادق لئلا يراه يدخن. لم يرد. سحقتُ سيجارتي بقدمي قبل أن أهيئها. رششتُ العطر على كفي ووجنتي وملابسي. أشرتُ بذقني نحو حرفي الـ F والـ H على جدار مبنى محوّل الكهرباء أمامنا. تعلوهما كلمات مجتزأة من أغنية؛ "بيني وبينك غربةٍ كُنَّها الليل". ممهورة بلقب عبدالكريم عبدالقادر، الصوت الجريح. أخبرته بأنه يهينُ صادقاً بفعله هذا. نظر في الفراغ ينفثُ دخانا كثيفا

من منخرية قبل أن يقول: "ضادق أخوي". سألته: "وحوراء؟". لم
يرد. صاح أبو فواز يناديه:

– "يا ابن الملوّح!".

التفتنا إليه. واصل يحذر فهدًا:

– "ما ورا هالدرب خير!".

نظرنا، فهدٌ وأنا، إلى بعضنا في حيرة. واصل الرجل:

– "لو أهلكم يعرفون.. يموتون حسرة!".

احمرَّ وجه فهد لم يُجر جوابا. رَقَّ صوت أبي فواز في
نصيحته:

– "اتركها يا وليدي.. اتركها!".

ترك أبو فواز مقعده يتجه نحونا يمدُّ إصبعيه، مثل علامة النصر،
يقرَّبهما إلى شفّتيه:

– "سيحارتك أطول منك!".

التقط سيجارة فهد من بين إصبعيه. رماها بعيدا:

– "اتركها يا وليدي!".

يحدث الآن 6:52 PM

يرتفع هدير مولّدات الكهرباء في البيوت والبنيات وقتَ قطعت الحكومة الكهرباء، في وقتٍ لا مجد فيه إلا للظلام. ذابت رزم الشموع التي أحضرها مساء اليوم، قبل أن يشعلها. مضى قبل أن يواجه ظلاماً يخافه. ظلامٌ ساكنٌ لولا وميض أحمر لسيارات إطفاء، وآخر أخضر لسيارة إسعاف، يلقيان لونيّهما تناوباً، يكشفان السُخام، على بنايتنا، وعلى الوجوه المذعورة لسكّان الطابق العاشر. يجلسُ بعضهم على الرصيف مستسلماً لإسعافات أولية. يتنفسُ عبر كمّام. أحّاج كمّاماً يقيني رائحة ننته أليها الجميع إلا أيوب وأنا. يُحدّث واحدّهم الآخر بأن الحريق كان بسبب تماس كهربائي. يعزوه آخر إلى موقد الطبخ. يقاطعهما ثالث؛ عثور رجال الأدلة الجنائية على جالون فارغ، والكثير من الفئران الهاربة من الشقة المشتعلة، في ممرّ الدور العاشر. كان باب الشقة مقفلاً والمفتاح في مقبض الباب من الخارج. يُلمّحُ أحدهم إلى شبهة جنائية. يسأل صاحبه يتأكد من موضع المفتاح من جهتي الباب: "وين المفتاح؟". تختفي أصواتهم مع أصوات سيارات الإطفاء والإسعاف. يتردّد الصوتُ قديماً داخل رأسي في غير وقته، يراوح بين مبتدأ الأغنية وختامها: "المفتاح عند الحدّاد"، "والطر عند الله". مُسعفان، بشياهما البيض، يكشفُ عنهما باب البناية، يسيران في عجل نحو سيارة إسعاف مشرعة بأيها تنتظر

قدوم قطعة صغيرة على نقالة جرحى. لا أدري لم العجلة. أسحبُ
رجلي العرجاء صوبَهما. يدفعان النقالة إلى السيارة. أستمهلهما:

- "لحظة.. لحظة!"

أُمسِكُ بذراع أحد المسعفين وهو يطبق بايَّ السيارة. يفتح
ذراعيه بمنعني من الاقتراب. وجهه صارم:

- "ما يصير!"

أرجوه:

- "طلبتك يا خوي.. لا تردني..".

ينظر إليّ يسأل:

- "قريبك؟".

تنفلتُ مني عبره:

- "ولد خالي..".

تلين ملامحه. ينظر إلى زميله. يهزّان رأسيهما يعاودان فتح
الباب. أتقدّم نحو ما تبقى من ضاوي تحت اللحاف الأبيض داخل
السيارة. يُمسك الرجل بكتفي:

- "تقدر؟".

أومئ برأسي مؤكدا. كفّه تطبق على كتفي لا تزال:

- "أكيد؟".

أمرّ إصبعي أسفل أنفي أمسح ما تحالف مع دمعي:

- "أكيد".

أجلس على ركبتيّ قرب النقالة داخل سيارة الإسعاف. أمسكُ
بطرف اللحاف أزيله ببطء. إن كان اللثام، ذات يوم، قد كشف
عمّن كنت أظنه يُشبه خالي حسن، فإن اللحاف في سيارة الإسعاف
يكشف عما لا يشبه ابنه. شيء يشبه الجسد ينثُ رائحة شواء بعدما
كان دهن العود عطره. وعدتني يا شيخ بالمطر. أهكذا ترحل
يا رجل، يا ابن فؤادة، بلا مطر؟ تغيب يا ابن الخال، ولو يعود الخال
عنك يسأل، ماذا أقول؟ هل أقول له هاك بواقِي ابنك وقد صار
جُرماً متفحّماً بطول ذراع؟ حملة رجال إطفاء يسلمونه لرجال
إسعاف فات أوان إسعافهم. رحلت بجزء متفحّم وأجزاء رماد
أورثتها نارٌ قديمة. خلّفتني وراءك إذن. خلّفتَ حرف الرء مُعاقا في
أذني يشتاقي إلى لسانك. وقدرَ طعام وفندوس تمرٍ ينتظران يمينك.
غابت الشمسُ عن شمسك وقت أذان المغرب. وقتَ عانقت السماء
ظلمتها و.. لم تمطر. أعيد اللحاف فوق الجسد المتفحّم. أنظر إلى
بُروز الجسد تحته. ماذا لو كان شخصا آخر؟

- "شيد حيلك..".

التفتُ إلى مصدر الصوت ورائي. أجدُ أيوبا. يملأ السُّخام ثيابه
ووجهه وكفيه. التفتُ إليه وكأن يديه أن يغيّر أمرا كان محتوما. أو
أن يجيء بخير يكذب ما حدث. لربما كان ذلك الشيء على النقاله
يخصُ آخر غير ابن خالي.

- "أيوب! جابك الله..".

أهرعُ إليه أقول:

- "لا تخاف.. مو أكيد.. مو أكيد..".

يتسم، والدمع يرسم خطين على سخام وجهه. ابتسمتُ
بالمثل. هزرتُ رأسي:

- "آنا ما شفت وجهه.. يمكن مو ضاوي.. حتى ريحته
غير..".

ينظر إلى وجهي مستغربا. أمرُّ إصبعي على أسناني. أتذكر
سنيّ المفقودة. أضحك. أسأله لماذا ينظر إليّ على هذا النحو؟!

يعانقني. يتفض جسده.

الفصل الرابع

كنت وحيدا في البيت. بداية عطلة صيف 1995. أحبتُ بيتنا أكثر من أي وقتٍ مضى، منذ استعصى دخولي إلى بيت آل بن يعقوب، ومنذ اشترى والدي قطعة أرض كبيرة في شارع أبي حيان التوحيدي في الروضة ليقيم بيتا جديدا. الروضة لا تبعد، عدا بضع دقائق بالسيارة، عن السُّرَّة. ولكنني أكره أن أكون في مكان غير مكاني. كانت والدتي في السوق تحضر حاجياتها، مثل كل سنة، قبل سفرنا إلى لندن. لم أفكر في إقناعها ببقائي في الكويت، ولا معين لي في إقناع والدي بأنني سوف أكون أمانة لدى من؟ كنت قد طلبتُ من والدتي ألا أسافر معهما قبل سنتين. أجابت: "والله، إلهي رفع السماء، ما تقعد دقيقة بروحك!". رضختُ، رغم أن لا علاقة للسماء بالأمر. كان والدي، الغائب عن البيت في الغالب، أكثر غيابا مع انشغاله في بناء بيتنا الجديد. لم يعد لوالدي وجود أو أهمية في حياتي. ليس بسبب غيابه الدائم عن البيت، بين الشركة ومتابعة البناء، إنما بسبب غيابٍ عن السُّرَّة يُمهِّدُه لنا. هو لا يفهم ماذا يعني اقتلاعي من ذلك المكان. كان يحدثني عن الديوانية الكبيرة المطلة على

الحوش، وعن حمام السباحة والجاكوزي والسونا وغرفة البخار في سرداب بيت العمر. يُزعجه عدم اكترائي بخرائط يبسطها أمامي لهيكل البيت الجديد: "وين تبي غرفتك؟". تترجم عيناه حنقا تسكتُ عنه شفتاه إزاء إجابتي: "أي غرفة.. ما تفرق".
رَنَّ هاتف البيت مساء. حَيَّتني خالتي عائشة قبل أن تقول: "خذ كلم فوزية". فَرَّ قلبى لسماع الاسم. كانت أول مرة تطلب الاتصال منذ حظري من دخول بيتهم بتهمة تجاوزي السن القانونية. جاء صوتها مغلفا بعتب شفيف:

- "خلاص كتكوت؟ صرت كبير علينا؟".

رغم المكانة التي تحتلها فوزية لدي. ضايقتني كلمة كتكوت. أجبتهذا ذاكرة قهمة أعتزُّ بها؛ أنا رجل! أطلقت زفرة قبل أن تُعقَّب: لستَ رجلا. قاطعتها مبحلقا:

- "نعم؟!".

أتمت جملتها:

- "إنت شيخ الرجال..".

لم أتمالك شوقي إليها وإلى صوتي يقرأ روايات إحسان عبدالقدوس في غرفتها..

- "فوزية آنا وايد ولهان عليك..".

لم تمهلي أتمم ما أردتُ قوله. اندفعتُ تقول:

- "تدري؟ لو ترجع عيوني دقيقة وحدة.. ما أبسي أشوف غير وجهك".

نبهتني خلال خرس أصابني:

- "كتكوت!".

انفلتت ضحكتي عالية. سألتني:

- "طلعت لك شوارب؟".

تحسستُ شاربسي من دون أن أجيب. استطردتُ:

- "ما عليه.. أنا كلمت صالح.. وافق إنك ترجع تقرا لي".

سألتها كيف رضح لها وهو، كما تقول، أسدٌ عليها. ضحكت تخبرني بأن عائشة هي من فعلت، لأن قراءة فهد لروايات إحسان عبدالقدوس سيئة جداً، ولأن عائشة تقرأ بصوت عالٍ مثل مدرّسة في فصل، ولأنني لا أزالُ كتكوتا في السابعة عشرة من عمري وهي في الثالثة والعشرين. قالت متجاوزة كل شيء:

- "أمي، الله يرحمها، كانت تحبك وايد..".

اختنقتُ بعيراتي. أردفتُ تقول:

- "وآنا بعد..".

جاوزتُ مشاعري مقدزتي على النطق. قالت:

- "يا الله تعال".

طلبتُ منها أن تمهلني وقتاً أحضّر فيه سيفي البلاستيكي أولاً.
خانتها ذاكرتها. سألتني لماذا السيف؟ جررتُ مشهداً بعيداً: لكي
نتبارز. أنا بالسيف وأنتِ بأنفك. أجمتُ ضحكها تفتعل غضباً:
"كتكوت!".

أجبتها:

- "آنا آسف فوزية".

ارتفع صوتها:

- "نعم؟!".

تداركتُ:

- "آنا آسف عمي..".

* * *

يحدث الآن 7:15 PM

تبتعد سيارات الإطفاء والإسعاف والنجدة بضوضائها، مخلفة صمتا وروائح دخان تخالط الهواء الفاسد، وبرك المياه حول البناية. يختفي الناس في بيوتهم، خشية رصاصات رجال الأمن، المشروعة، وقت إعلان مفاجئ لحظر التجول بدءا من الساعة. الظلام المعقول خارج البناية لا يشبه الظلام في الداخل. نمدُّ أيدينا أمامنا كمن يغوص في حبر. نتحسّس الجدران. نقطع السلام صعودا إلى الدور العاشر. ينتبه أيوب إلى مشيتي. يسألني ما بالك تعرج؟ "ولا شي". أصوات مروحيات تجوب المنطقة. نعيبُ تباع الجيف قريب جدا يملأ صدها المكان. أعيرة نارية تخرق الصمت في الخارج. يسبقني أيوب يمدُّ هاتفه المحمول أمامه، يبدد ضوء شاشته ظلام السلام. أحتفظ بهاتفني في جيب دِشداشتي لئلا تنفذ بطاريته قبل اتصال من فهد أو صادق. يتوقف أيوب يدسُ كفّه في جيبه يخرج زجاجة عطر. يصبُّ في راحة كفّه. يقرّبها إلى أنفه يتنشق مثل مدمن. يمدُّ كفّه إليّ. أتزود بالرائحة قبل أن نمضي صعودا. أعبت بأزرار هاتفني أتصل بضايي. الجهاز مغلق. يهمسُ أيوب: "انتبه". أنتبه إلى ضوء هاتفه يزيحُ ظلمة عن جسد متكوّم على درجات السلم. أنحني على الجسد اتحقق من هويته لربما يكون. ولكنه لم يكن. جثة شاب يبدو في أوائل الثلاثين بنظارة طبية سمكة الإطار. يضمُّ ذراعيه إلى صدره يحضن أوراقا. أمسكُ

بواحدة أسأل أيوبا أن يُقَرَّبَ ضوء الهاتف. تتضح حروف العبارة على الورقة: "الدين غفلة!". يغمغم أيوب: لا عجب في أن يتجنبه رجال الإسعاف! أهرُجُ الجسد الملقى لعل فيه حياة. "ميت!", يقول أيوب. أُقَرَّبُ أُذني إلى صدر الشاب. يكرّر أيوب: "ميت". يدير إضاءة هاتفه المحمول نحو آخر السلم. بالكاد أرى جسما يجاوز الذراع طولا ينتصب فوق الدرايزين. نواصل المشي صعودا. أتبيّن تباع الجيف ضخما. أنظر إليه لأول مرة من مسافة قريبة جدا. إنه كما يصفه الناس؛ له جسد العقاب ورأس البومة ولون الغراب. يحدّق في الجثة وراءنا. تتناهى إلى مسامعنا أصوات ضربات قوية بصدى مكبوت. يلتفت أيوب نحوي يشير إلى مصدر الصوت؛ المصعد. يتهلّل وجهي. لعله ضاوي. أحثّه لنسرع إليه قبل أن يقتله الظلام. أيوب لا يرد. نحن بين الطابقين الثاني والثالث. نصعد نحو الباب المؤدي إلى الممرّ بين الشقق. أركض في العتمة صوب المصعد العالق، وصوت الضربات على بابه لا يزال. أصبح: "منهو؟". يجيبني صوت صبيّة، من الطابق العلوي، تستنجد. تتابني خيبة. أدير ظهري لأيوب في الممر. أقول له قافلا نحو السلام:

- "مو ضاوي..".

يُنْبهني صوته، ورائي، هادئا:

- "والبنت؟".

- "عادي.. الصبح ترجع الكهربا.. ما راح تموت!".

بمسك بذراعي. ألفتُ إليه أنظر إلى وجهه بما يتيح ضوء شاشة الهاتف في يده. أستغربُ الحيرة في ملامحه. نحن عاجزون عن مساعدة أنفسنا. ما باله يتحلى بشهامته لا يزال. أسأله لماذا ينظر إليّ كمن ينظر إلى مجنون. أمسك بيده أحثه يتبعني صعودا إلى الطابق العاشر. يسحب يده. يصرخُ بسي:

- "إنت مجنون؟!"

- "إنت المجنون!"

لا أمهله يفوه بكلمة. أنفجر في وجهه لعله يشوب إلى رشده:

- "أختك؟ بنتك؟ قريبتك؟!"

يعقد حاجبيه يستنكر قولي. أعقد حاجبيّ أستنكر نظرتَه لي. مالنا نحن ومن يعلق في مصعد ما دمنا، كلنا، عالقين في هذا المكان الذي يسمونه وطننا. أصرخ في وجهه: "إصحي إصحي!". تنطفئ شاشة الهاتف في يده. نفوس في الحبر والصمت ثانية. ألم مباغت، في خدّي الأيسر، يصحبه صوت كالبرق يسقطني أرضا. صبيّة المصعد لا تزال تطلق نداءاتها تستنجد. يركض أيوب إلى السلام نحو الطابق الذي توقف عنده المصعد. أمسحُ بكفّي موضع الألم في وجهي أبرّده. صفيّر في أذني اليسرى يمزّق صمت المكان. أحبو نحو الزاوية ألوذ بها مثل فأر مذعور. أرتجف. أتخيل صوراً أخيرة لضاي. تلتهمه النيران. يصرخ ألما. يصرخ ذعرا. يصرخ تضرعا لله أن يأتي بمطر أو يهوّن ظلمة قبر. الصبيّة تضرب باب المصعد. ضاي، داخل رأسي،

يضرب باب الشقة المقل من الخارج والنيران تشتعل في دُشْداشْتِه.
يترك آثار كُفِّهِ سوداء على الباب. يصيح.. مطر مطر.. تضحك
النيران. تصرخ صبيّة المصعد. تصرخ فؤادة: احموا الناس من
الطاعون! وأنا.. أنا الطاعون. أنا من جئت بكل هذه المصائب. فهد
وصادق، لو أنكما لم تلحقا بي في الساحة الترابية. ضاوي، لو أنني
لم أطلب منك المجيء. جئت بسببي. مت بسببي. أستعيد
صوتك أنصت إليه مشوشا في الإذاعة. يا الله يا الله. أغطي وجهي
بكفّي. أئن. أنتحب. ينحني أيوب عليّ. لا أدري كم مرّ من وقت
وأنا أهذي. يمسك بكفّي يزيحهما عن وجهي. يحمل مصباحا يدويا
في يده. وفي يده الأخرى يطوّق صبيّة المصعد بجسدها النحيل وثوبها
الأسود. بنت صغيرة. تبدو في التاسعة. العاشرة على أبعد تقدير.
تنظر إليّ منكوشة الشعر. تزيح خصلات تغطي عينيها الواسعتين.
"عمّي.."، تقول قبل أن تنفرج شفتاها الورديتان عن سؤال:

– "إنتوا عيال فؤادة؟".

أنظرُ إلى أيوب بالكاد الملح ابتسامته. راحت الصبيّة تروي
حكايتها. منذ اقتحم بيتها أفراد ملثمون، يرتدون الأسود، قبل ثلاثة
أيام. يجرون والدها على الأرض بعدما أوسعوه ضربا، أمام بناته،
بسبب نشاطه ضمن جماعة مخالفة للقوانين العرفية. جرت الحادثة بعد
يوم واحد منذ أُطلق سراحه من معتقل التحرير. هي ابنة كبرى بين
ثلاثٍ ماتت أمهم في تفجير مجمّع الآفنيوز قبل ثلاث سنوات. "أمي
راحت عند الله.. لكن أبوي..". تقول إن أخواتها في رعاية الجيران،

في الوقت الذي أمضت فيه أيامها الثلاثة، على ضفة نهر البين تنادي والدها، لأن الناس يقولون إن كل أولئك الذين اختفوا، منذ اشتعال الحرب، يستقرون في قاع النهر. "لكن أبوي ما يرد عليّ!". حملها رجل شرطة إلى مقرنا من أجل أن نذيع خبر اختفاء والدها، لعل أحدهم يعرف له مكانا غير قاع نهر البين. امتقع وجهي أنظر إلى أيوب. هز رأسه يؤكد ما كان يحذر منه دائما. مقرنا لم يعد سرّيا. قالت الصبيّة إن الشرطي حذرها من ترك البناية والخروج ليلا. تُنهي حكايتها بسؤالٍ مجددا:

- "عمي.. إنتو عيال فؤادة؟".

"إحنا عيال كلب"، أقول في سرّي. بأي وجه أجيبها، وأنا لا أملك عدا وجه لا يحمل إلا الضعف. لا يشبه وجوها رسمتها الصبيّة لمن تسأل عنهم. أتجاوز سؤالها بسؤال عن اسمها. تجيب:

- "حصّة..".

كيف لدهن العود أن يرافق الاسم على هذا النحو، ينتشر في الجو رغم رائحة الحرق وعفونة الهواء. أختنق بصوتي:

- "إي حبيبي.. إحنا عيال فؤادة..".

- "إنت أي واحد فيهم؟".

يجيبها أيوب باسمها:

- "هذا الكاتب".

تقترب مني. تلتفت إلى أيوب تأخذ منه المصباح اليدوي. توجه
النور إلى راحة كفها. تُريني رسمة فأر مشطوب بعلامة X:

- "آنا أحبكم وايد..".

قَبِلْتُ كفها الصغيرة:

- "واحنا نحبك.. حصّة..".

* * *

الفصل الخامس

"اترك باب الغرفة مفتوحاً" ..

قالها عمي صالح أثناء ارتقائي السُّلم، بصحبة فهد، إلى غرفة فوزية. كنت مرتبكاً في بيت آل بن يعقوب على غير عادة. شعرتني غريباً، وكأني في بيت غير الذي كان مصنعا لأجل ذكرياتي. حتى تمثال أُمي حصّة، بعباءته القديمة، في زاوية غرفة الجلوس لم يدفعني لتجاوز شعوري ذاك. لم يحرك فيّ إلا غصّة ظننتني ابتلعها خلال السنوات الخمس منذ رحيل جارتنا العجوز. ما كدتُ أعبّر باب الغرفة، أطأ سجادهما الوردية، أنظر إلى فوزية متأهبة في كرسيها. حتى شرع فهد ينقل نظره بيننا، يومئ يديه كأنه يعزف على آلة العود. يرمش ساخراً. يُغني أغنية اختار لها ألوان قوس قزح: "شفتك شفتك، قلبي رجف، صبري ضعف". عينا فوزية تجاه السقف، شحichtان بَصراً سخichtان دمعاً. ابتسمتُ تلوم ابن شقيقها على انتقاء هذه الأغنية تحديداً: "ما لقيت إلا.. شفتك؟!". أجاب فهد بأن الأغنية ليست لها. خَزَرَنِي: "الحكي لك يا جارة!". ردّدت فوزية كلمات أغنية أخرى لعبدالكريم من دون أن تغنيها: "حتى النظر ما

يفيد، وان جاك عذره...". قالت ليس فهد وحده من يحفظ أغنيات عبدالكريم. صفق لها ابن أخيها يتسمّ وسع شفتيه. مدّت كفّها في اتجاه غير الذي كنت أقف فيه. سارعتُ إليها بكفّي مصافحا: "شلونك فوزية؟". أجابت: "هلا بأخوي.. هلا بنظر عيني". في حين واصل فهد غناءه يحركُ يديه يعزف على لا شيء: "شفتك يا لهفة خاطري.. لوني تغير وانخطف". لمحتني في مرآة لا أهمية لها في غرفة فوزية، في حين كانت كفّها في كفي. جاء وصف أغنية فهد يشبهني تماما. كنت أنصتُ في داخلي إلى صوت عبدالكريم في أغنية غير أغنيّ فهد وفوزية: "كانت معي، طول العمر، عين وهذب.. كانت معي، من الصغر، حبّ انكتب"، لأكتشف أن عبدالكريم يغنينا كلنا، ليس كما اعتاد فهد أن يقول: "عبدالكريم يغني لي بروحي". لم يعد صوته كبيرا. صار في مثل سنّي، أو ربما أنا الذي صرت مثله كبيرا مع نموّ شاربي.

لفتني وجود كراسٍ أربعة عوضا عن اثنين ألفتُ وجودهما في المكان. لم يمضِ وقت طويل قبل أن تنضم إلينا حوراء، بحجّة زيارة فوزية، تحتل الكرسيّ الرابع. سافر أبوها برفقة جدّتها، إلى الأردن، أرض مخاتلة بين أرضين ممنوعة واحدهما عن الأخرى، تصل الأقارب، من الكويتيين والعراقيين، ببعضهم. تعود أمي زينب، في كل مرّة، بحنين أقلّ تجاه أهلها، وآخر مضاعف لمكان لم تطأه منذ ما يزيد على خمسة أعوام. لم أبدأ دهشة إزاء سفر أمي زينب للقاء أهلها في الأردن، خلافا لما قاله صادق عن سفر جدّته إلى أهلها في الأحساء. احتلت حوراء المقعد مقابل فهد. "ينقصنا صادق"، قلتُ،

رغم يقيني بأن لا وساطة من شأنها تسهيل أمر زيارته، ولا هو مهتمٌ بدخول بيت آل بن يعقوب الذي لم يعد يتسع إلا لبعضنا وبالخيلة. كنت قد مررتُ على مكتبة البدور قبل مجيئي، أحمل رواية نصحتني بها أبو فواز، "ثقوب في الثوب الأسود" لـ عبد القدوس. لم يتردد فهد، إزاء رؤية الرواية بين يدي، يقول: "ثقوب في عباءة تمثال أمي حصّة!". عقدت فوزية حاجبيها متنهدة: "الله يرحمها". سألتُ إلامَ نشأت في غياب أمّها؟ أجمعنا على فقد أشياء كثيرة. "مثل شنو؟". أصرّت أن تُحدّد. أجابت حوراء بأنها لا تفتقدها كثيرا، لأنها، منذ كانت طفلة، تشعر بأن أمي حصّة هي نفسها بيبي زينب. تلعثمت قبل أن تعيد آخر جملتها متخلية عن لقب بيبي مستعيضة عنه بـ أمي. ختمتُ بأن أمي حصّة لم تمت. ابتسم فهد وهو يُبرزُ أصابع كفيه مثل مخالب. قال إنه يشتهي أچارها الشهوي مع مطبّق السمك. استلّت فوزية نفساً عميقاً. قالت إنها تشاق إلى رائحة دهن العود في ملفع أمّها. نظر الثلاثة إليّ يتحرّون إجابتي. كنتُ أشاق إلى سوائفها وقصصها حول جنّيات السُدرة والحيوانات والأشجار الناطقة وبنات كيفان ونجم سهيل والفئران الأربعة. قاطعني فهد: "الفئران الأربعة؟!". سألني إن كانت جدّته قد حكّت لي بالفعل تلك الحكاية. لستُ أدري لماذا هزرتُ رأسي إيجاباً. أمّنتني امتيازاً لم يسعف الوقت أمي حصّة لتمنحه لأحد. تحمّس فهد يرجوني أن أحكي له ما لم تحكه الجدّة. أجبت: "بعدين!". تدخلت فوزية تسألني أن أحكي لهم شيئاً مما أذكره من سوائف أمّها. سألتها: "وإحسان عبد القدوس؟". أجابت: "بعدين". لم أثير فضولهم حينما بدأتُ أعدّد

أسماء القصص التي نحفظها. بدا عليهم الفضول حينما نظرتُ إلى وجه فوزية أخبرهم بأنني أحفظُ الجزء الثاني من قصة سهيل. قصة أجمل جُرم سماوي في درب التبانة. بدا الامتعاض على وجه فهد ينقل نظره بين وجهي ووجه عمته في ريبة. سألتني فوزية: "إنت متأكد إن أمي تعرف درب التبانة أصلاً؟". أجبتها بسرعة: "هي قالت إن الأبله علّمتهم في محو الأمية!". استندتُ إلى ظهر الكرسي. مهدتُ لقصتي: "زور، ابن الزرزور، إللي عمره ما كذب ولا حلف زور..". قهّل وجه فوزية.

"حين اختفى سهيل في جنوب السماء حاملاً ذنبه الكبير، وراح شهاب يبحث عنه حاملاً سراجَه أمامه، سمع القمرُ بحكايتهما. صار بدراً، ينير لشهاب دروب السماء المظلمة. تتسع رؤية شهاب أكثر مما يتيح له سراجُ يحمله. مضت أيام يُشاهدُ فيها شهابٌ بصورة خطّ ناريٍّ خاطف في السماء ينادي صاحبه. كان كلما ظهر سهيل، مضى شهاب نحوه مسرعاً، يقطع مسافة الشهور من دون راحة، ولكنه في كل مرة يصل فيها، بعد مسيرة الشهور الطويلة، يكون صاحبه قد اختفى على أمل البزوغ في نفس الموعد من السنة المقبلة. زار شهاب القمر، وقد كان بدراً مكتملاً، منيراً جميلاً، أجملُ أجرام مجرة درب التبانة قاطبة..".

أجبرتني دموعُ لمعت في عيني فوزية، إزاء وصفي للقمر، على السكوت قليلاً. تأفف فهد قبل أن أواصل:

"شكى شهاب للبدر عجزه عن إدراك سهيل، طالبا منه، وهو الجرم الكبير الذي حتما يرى كل شيء، أن يدلّه على صاحبه، بدلا من الاكتفاء بإنارة دروب السماء. بكى البدر. سألت منه دمة ضخمة سقطت من السماء على الأرض التي أحالتها الفئران خرابا. ظهر الزرع فيها مرة أخرى. رُزّ وحنطة وذرة وشعير. طلب البدر من شهاب أن يعود ليفلّح أرضه عوضا عن إهدار وقته. لم يفهم شهاب. "ولكنك ترى كل شيء!"، قال للبدر يرجوه أن يدلّه على مكان صاحبه. أجابه البدر بأنه لا يرى شيئا رغم النور الذي يرسله إلى كل مكان، لأنه في الحقيقة لا يملك بصرا. هتّ شهاب غير مصدّق بأن الجرم السماوي الجميل، رغم كل النور الذي يعكسه لمن حوله، لا يستطيع الرؤية. ولأنه أعمى، صار يجد ذاته في إنارة الطريق للآخرين. حمل شهاب سراجَه مودعا البدر، ولا أحد يعرف الطريق الذي سلكه؛ هل بحث عن صاحبه أم عاد لأرضه المهجورة".

مرّرت فوزية إصبعها أسفل عينيها ما إن أنهيت الحكاية. ابتسمت وهي تقول إنني أجيد تأليف القصص. "مو تألفي!"، أجبتها قاطعا. اكتفت بابتسامتها في حين تدخل فهد: "أمي حصّة ما تقول قصص بايخة مثل هذي!". انفلتت عبارتي رغما عني: "قصص بايخة؟! ألف وحدة مثلها لو كنت تقدر!". انفجرت حوراء ضاحكة. ألبست فوزية وجهها جدية وهي تحثني أن أكتب قصصا للأطفال. لربما يأتي يوم أصير فيه كاتبا مشهورا: "آنا واثقة إنت تقدر". لم أقرأ لعبدالقدّوس يوما ذاك. قالت لي فوزية قبل عودتي إلى البيت: "نظّر

عيني انت.. وأحلا أخو في الدنيا.. اكتب على شاتي". عند باب الحوش، أمسك فهد بذراعي، قبل أن أعود إلى البيت. سألتني:

- "انت تحب عمتي مثل اختك.. صح؟".

هزرت رأسي أوافقته. شدني يضغط ذراعي:

- "إحلف والله!".

لم أتمكن من النظر إلى عيني، وصوت أمي حصّة في رأسي: "تطيح علينا السما!". حرّرت ذراعي من قبضته. أجبتة:

- "لا تدخل الله.. الله يخليك..".

يحدث الآن 8:00 PM

أجلسُ على أرض ما تبقى من مقرّ أولاد فؤادة. أَسْنِدُ ظَهْرِي إلى الجدار، بين السواد الذي يلوّن كلَّ شيء. سواد غيَاب النور، وسواد السُّخام على الأرض والجدران والسقف وأجهزة الإرسال والكمبيوتر والطابعات. حِصَّة، بثوبها الأسود، في الزاوية تضمُّ ركبتيها إلى صدرها. تعبْتُ بهاتف أيوب تبحث عن لعبة تقتل وقتها حين رفع حظر التجول مع طلوع النور. يُقَطِّع أيوب أشرطة صفراء لفها رجال الأدلة الجنائية حول بعض الأماكن في الشقة. يتحسَّس شيئاً بطرف قدمه. "غريب!"، يقول وهو يوجّه نور المصباح إلى فأر متفحّم. يختفي داخل الغرف، يحمل مصباحه اليدوي، يبحث عن شيء خلفته النار سليماً. تتقدّم حِصَّة تجلس إلى جانبي. تلتصق بي. تقول: أنا أكره الظلام، الظلام أخذ أبي. تحتضن ذراعي: "كنت راح أموت داخل الأسنسير في الظلمة". لا تأبه بصمتي. تنظر إلى وجهي تقول:

- "آنا أحب أمي حِصَّة".

لا تمهلي أسأل عما يبدّد حيرتي. من أين لها أن تجيء بالاسم؟ تعبْتُ بحقيبتها تُخرجُ ثلاثة كتب صغيرة تناولني إياها. لا أُواري ابتسامة وأنا أُمسِكُ بَكُتْبي الثلاثة. أول كتاباتي في سلسلة قصص

الأطفال؛ سلسلة ابن الزرزور، نشرتها تحت اسم ولد فؤادة. كيف لهذه الصبيّة أن تُنسي كل ما يجري. تقول إنها أحبّت أمي حصّة راوية الحكايات. تُناولني قلمًا تطلب مني أوقع على إحدى القصص. أخيرها: قصة سهيل، قصة جنيّات السّدرّة، أم قصة النخلات الثلاث؟ تختار الثالثة:

- "أحب بنات كيفان".

أجيبني هامسا: "وآنا أحبها.. وأحب صويحبته".

تقول:

- "عندي إختين".

تبتسم:

- "آنا إخلاصة، وخواتي برحيّة وسعمرانة".

تُتبع قولها بضحكة. تتعهد، إذا ما كبرنَ والحال كما هي، بأن تؤسّس جماعة مثل جماعتنا، تسميها بنات كيفان. من قال إن لا جدوى من وراء الكتابة؟! أفتحُ الغلاف على صورة أبداع صادق في رسمها بالألوان المائية. صورة ثابتة لأمي حصّة، في الصفحة الأولى من قصص السلسلة، تقرّصُ بعاءتها السوداء بين ثلاثة أولاد يرتدون الدشاديش، وفتاة ذات شعر أسود طويل، بفستان وردي منفوش. تمهّدُ العجوز لقصّتها: "زور، ابن الزرزور، اللي عمره ما كذب..". أكتبُ في الفراغ الأبيض أعلى الصورة: "إلى حصّة الصغيرة، إخلاصة.. إليك أجمل قصة

حكيتها.. أمي حصّة". تعيد الكتب إلى حقيبتها. تطبع قبلة على وجنتي.
يرن هاتف أيوب بين يديها. ترفع صوتها تناديه:

- "عمي! تليفونك یرن".

يرفعُ صوته يسألها عن اسم المتصل أو رقمه الظاهر على الشاشة. تقرأ له الرقم. يدفعني رقم هاتف بيت آل بن يعقوب لألتقط الهاتف من بين يديها: "ألو!". لا تزال حوراء عند فوزية في السُّرّة. تسألني عن بطنها وعن ظهرها؛ صادق وفهد. ليس عندي جواب آخر. خير إن شاء الله. تقول إن صالحًا لا يزال في مستشفى مبارك. مؤكّد أن حالته حرجة: "خايفة عمي صالح يموت بعين مغمضة.. وعين مفتوحة". أتذكر وجهه ظهر اليوم عند باب بيته. أتذكر ذلك. أتذكر قوله: "هذا ثمركم يا زرع السبخة". من مِنّا زرعُ من يا أبا فهد؟ أتجاوز قولها أسأل عن فوزية. تقول إنها صامّة منذ عصر اليوم. أتذكرها آخر مرة رأيتها، قبل ثمانية عشر عامًا، في القاعة الماسية لفندق شيراتون. كيف تبدو الآن؟ تنهي حوراء المكالمة بأنها وولديها وفوزية بخير. توصينا بعدم الخروج لحين رفع حظر التجوّل. ألمحُ حصّة في الظلام تعبثُ في حقيبتها. تمسكُ بشيء تقرّبه إلى فمها. تمدهُ إليّ. أهرّ رأسِي أخبرها بأني لستُ جائعًا. تضحك. تعيد ما بيدها إلى الحقيبة. تتقدّم نحوي تستعيد هاتف أيوب. تضيء شاشته تمضي صوبَ أشرطة الأدلة الجنائية، تقطع جزءًا صغيرًا، تلفُ به شعرها. تعقّصه وراء رأسها. تجلس إلى جانبي. توجه ضوء الشاشة إلى وجهي: "عمي.. يصير أسأل؟". أومئ لها مشجعًا. تسألني عن

عمري. أجيها. اثنان وأربعون. "وانتي؟". تجيب: "إحبدعش".
تتململ في جلستها. تبدو متورطة بسؤال. "تبين تقولين شي..
حصّة؟". اسمها يوجعني. تومئ برأسها. تقول بأنها تريد أن تفضي لي
سرًا إن أنا أجبتُ عن سؤالها أولاً:

- "ما تشم الريحّة؟".

- "أي ريحة؟!".

ثبرطم:

- "خلاص.. ولا شي..".

أيوب يراقبنا عند باب إحدى الغرف. أرجوها تُفضي. تُفضي.
هي تخجل أن تبدي تقززا إزاء الهواء الفاسد، لأن أحدا لا ينتبه إلى
الأمر عداها هي ووالدها وشرطي أوصلها إلى مقرنا قبل ساعات.
أطمئنها بأنني وأيوب نشمّ ما تشم. يتهلل وجهها. تسألني عن سبب
الرائحة. ولأنني أكبر من والدها، على حدّ رأيها، فلا بد أن لدي سببا
مقنعا أكثر مما يقوله. أسألها عن رأيها. تردّد قبل أن تجيب. هو يقول
إن الرائحة لن تزول إلا بجفاف نهر البين ورحيل تباعة الجيف. وكلا
الأمرين لن ينتهي إلا إذا..

تصمت حصّة. يقترب أيوب يحضّها تستطرد. تهزّ رأسها
ترفض. يسألها عن اسم أبيها. تهزّ رأسها ترفض. يسألها عن نشاطها.
تهزّ رأسها ترفض. ينفذ صبري أسألها:

- "لازم نعرف أبوك على شان نساعدك حصّة!".

أتجاوز وجع الاسم أتحرّى منها جواباً. تكتفي تحدّد أوصافه.
عمره خمسة وثلاثون. طويل نحيل. نظارة طبية بإطار سميك. اختطفه
الملثّمون قبل ثلاثة أيام! نتبادل، أنا وأيوب، الصمت في حين تسألني
الصبيّة: "عمي! متأكد إنك تشم الريحّة؟". أصفُ لها أطوار الرائحة.
حامضة طورا تحرق العين. تهزُّ رأسها توافقني. زنخة طورا آخر مثل
بيض فاسد. ترفع حاجبيها باهتمام. تلسُ يديها داخل حقبتها.
تناولني زجاجة عطر: "خذ".
يرنُّ هاتف أيوب ينبّه إلى رسالة. تتسع حدقتاه يقرأ. يمدُّ هاتفه
يقرب الشاشة أمام وجهي. كتبت حوراء: أحدهم يضرب باب
البيت بعنف!

* * *

الفصل السادس

مضت سنتان أولفُ فيهما قصصا، أُحورُ أخرى. أعتكف في غرفتي أكتبها على أوراق تمهيدا لزيارة غرفة فوزية. صيرتُ إحسانها. أطعمُ قصصي بحكايات حب، وقصص أُمي حصّة، وأغانٍ وطنية أحببتها فوزية. أزعجتُ فهذا بفائض حبٍّ في ما أكتب، رغم حبٍّ يجمعه بحورائه التي تخلّفت عن اجتماعاتنا في غرفة فوزية. وقد فعل فهد بالمثل، تاليا، بطبيعة الحال. كانت علاقتهما واضحة، بين مدٍّ وجزر، يشهد عليها خطُّ الهاتف الجديد في غرفه فهد، وجهاز الرّد الآلي يجيب كل يوم بأغنية، سوداء غالبا، أحنُّ بسماعها المرحلة التي أدركاها حبّا. "لا خطاويننا وراها لقا.. وإن تلاقينا، نتلاقى بشقا". أحزنتني الأغنية حين سماعها في الهاتف. أفصحتُ فوزية: "فهد كلّم أمّه بخصوص حوراء". عائشة لم تخبر زوجها. اكتفت تحذّر ابنها: "أبوها عبّاس وأبوك صالح.. إنت مجنون؟!". حوراء صارحت فضيلة. لم يختلف ردها عن ردِّ عائشة. كنت أشعر بمرارتها، تشبه مرارتي تجاه من؟ مرارة كبيرة وشعور بالفقد، حين صار لزاما علينا ترك السُرّة في سبتمبر 1997. لم نسافر، صيفنا ذاك، بسبب انتقالنا من

السُّرَّة إلى الروضة. كنت في سيارتي، ليلاً، أحاذي رصيف بيتنا، حين جاء فهد وصادق يودعاني. انتقل والدائي إلى البيت الجديد قبل أسبوع، في حين بقيتُ أمدد فترة إقامتي قبل أن تلفظني السُّرَّة. مفسحاً بيتي لأصحابه الجدد، غير مُصدِّق بأن غريباً سوف يسكن غرفتي يصبح جاراً لجيران القدامى. "عمتي تنترك في الحوش تبسي تسلم عليك"، قال فهد. أجبتُه: "سلم عليها". حدَّق في وجهي يقول: "تنترك!". اكنفيت أكرر: "سلم عليها". أدركتُ محرك السيارة أشير بسبَّابتي بعيداً: "أنا رايح الروضة.. مو مسافر!". ولكنني كنت أعني بأنني كنت على سفر لا رجعة بعده. مضيتُ أقود سيارتي. أدركتُ نهاية الشارع، عند بيتٍ كان للزُّلمات قبل سنوات سبع، بالقرب من محلِّ علامين البنجابي. قفزتُ أمامي صورة الحزن في وجه أبي نائل في يومه الأخير. لم تفلح مقارنة بُعد الوجهتين عن السُّرَّة في تخفيف مرارتي لقاء تركي شارعنا القديم؛ الروضة القريبة من هنا، وعمَّان الأبعد من هناك! لا شأن للمسافة في أمري. شعور غير مبرَّر دفعني لأن أستدير بسيارتي. لم أكثرث بيتنا ولا بيت عمي عباس. توقفتُ أمام بيت أوسط جمع الإثنين في حوشه. مرَّرتُ نظري على بنات كيفان؛ إخلاصة وبرحيَّة وسَعْمَرانة. الباب الحديدي الأسود. السُّدرة وراء السور. فتحتُ النافذة عن يساري. صرير سُوير الليل، بين الحشائش أمام بيتي صادق وفهد، كان يعزفُ أغنية رحيلي. أكثر سيارات شارعهم مُغبرة تلفُّها الأغطية القماشية. أصحابها في سفر. أكره السفر. "إنت رجعت؟!"، فاجأني صادق يصيح بي عند باب بيته. اختلقتُ سبباً لعودتي: "رجعت أقول لك

سَلَّمَ عَلَى أُمِّي زَيْنَب.. وَابِدَ". تَفَرَّسَ وَجْهِي يَهُوْنُ: "إِنْتَ مَوْ
مَسَافِرْ!". مَضَيْتِ أَقُودَ سَيَارَتِي أَنْظُرْ، رَغْمَ الضَّبَابِ فِي عَيْنِي، إِلَى مَحَلِّ
الْجَزَارَةِ فِي بَيْتِ الْعَوِيدِل، وَدَكَكَيْنِ مَجْمَعِ الْأَنْبَعِي. كَانَتْ عَلَى هَيَأَتِهَا
تَدْبُ حَيَاةً، إِلَّا مَكْتَبَةَ الْبَدُورِ تَحْمِلُ وَاجْهَتَهَا وَرَقَةً تَحْمِلُ رَقْمَ هَاتِفِ
وَاسْمِ أَبِي فَوَّازٍ تَعْلُوهُ عِبَارَةٌ: "لِلْبَيْعِ". أَتَذَكِّرُنِي عِنْدَ مَنْعُطِ شَارِعِ
أَبِي حَيَّانِ التَّوْحِيدِي فِي الرُّوْضَةِ، مَرُورًا بِمَطْعَمِ شَهْرِيَارِ الَّذِي لَا
تُشْبِهُ شَاوَرْمَاهُ شَاوَرْمَا جَابِرٍ فِي مَجْمَعِ الْأَنْبَعِي، وَالَّذِي لَا يَبِيعُ
سَنْدَوِيتَشَاتٍ الْمَعْكُورَةَ بِالْكَاتَشَابِ. غَضَّتْ سَيَارَتِي بِدُخَانِ سِيَجَارَتِي.
كَانَتْ نَوَافِذُ السَّيَارَةِ مَغْلُقَةً لِثَلَا يَنْفِلْتُ صَوْتَ عَبْدِ الْكَرِيمِ خَارِجَهَا
يَكْشِفُ سَرِّي: "وَدَاعِيَّةٌ يَا آخِرَ لَيْلَةٍ تَجْمَعُنَا". رَشَشْتُ عَطْرًا بِمَا يَشْبِهُ
اسْتِحْمَامًا قَبْلَ دُخُولِي الْبَيْتِ. وَالَّذِي تَعْرِفُ مَاذَا يَعْنِي تَرْكِي لِشَارِعِنَا
الْقَدِيمِ. كَانَتْ قَرْيَةٌ مِنِّي جَدًّا لَيْلَتِي تِلْكَ. فَتَحْتُ ذِرَاعَيْهَا عَلَيَّ
وَسِعَهُمَا تَعَانَقْنِي طَوِيلًا فَوْرَ دُخُولِي الْأَوَّلِ، فِي حِينٍ أُرْخَيْتُ ذِرَاعِي لَا
أَبَادِلُهَا عِنَاقًا. تَشَمَّمْتَنِي. هَمَسْتُ فِي أُذُنِي: "عَطْرُكَ حَلُوءٌ!". اسْتَطَرَدْتُ:
"لَكِنْ أَنْفَاسُكَ كَرِيهَةٌ". اعْتَصَرْتَنِي بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا تُوْنِبْنِي عَلَى التَّدْخِينِ.
لَمْ أَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ. تَمَلَّمْتُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا. هِيَ تَعْرِفُ تَمَامًا مَقْدَارَ وَحْشَتِي
فِي الْبَيْتِ الْجَدِيدِ. "إِذَا مَا تَرْتَاخُ فِي الدِّيَوَانِيَةِ الْجَدِيدَةِ، رُوحُ السُّرَّةِ،
شُوفِ رِبْعَكَ، وَقْتُ مَا تَبِي". حَرَّرْتُ جَسَدِي مِنْ ذِرَاعَيْهَا:
"يَمَّةً". تَفَرَّسْتُ مَلَايَحِي تَتَرَقَّبُ قَوْلًا أُمَهِّدُ لَهُ. كُنْتُ أَحَدُّقُ فِي عَيْنَيْهَا:
- "قُولِي وَاللَّهِ الْعَظِيمِ، إِلَهِي رَفَعَ السَّمَاءَ، إِنِّي مَا أَدْخَلُ السُّرَّةَ
بَعْدَ الْيَوْمِ!".

أسندت كَفِّها على كَفِّي تسأل قلقة:

- "ليش؟".

لم أستطع إطالة النظر إلى وجهها. ألححتُ عليها أن تفعل.
تَلَّصتُ. خَزَرْتَنِي: "شفيك؟". كنت أجيبها بطلبِي كلما كررت
أَسْأَلْتُهَا: "حَلْفِي يُمَّه".

- "وليش الحلفان؟ إحلف انت! براحتك لو ما تَبِّي
تروح!".

ارتفع صوتي في وجهها:

- "آنا ما أقدر.. ما أقدر يُمَّه..".

أحاطتني بذراعيها مرَّة أخرى. كنتُ أعرف أنني لا أجيد ما
اعتادت هي عليه في جعل الله حدًّا بينها وبين قولها. لا أستطيع مدُّ
سَبَابَتِي إلى السماء أفحمها في شأني، إيمانًا بسقوطها على رأسي إن أنا
أحشْتُ بَقَسَمِي، لأن القَسَمَ شيء كبير، ولأنني لست مثل "ابن
الزرزور اللي عُمره ما كذب ولا حلف زور". التمعت عينا والدتي:
"حبيبي إنت تبالغ!". وضعتُ وجهي بين كَفِّها: "في أحد
مزعلك؟". زممتُ شفتي لِثَلَا تفلت عبراتي.

- "حبيبي شفيك؟ ترتاح إذا آنا حلفت؟".

أومأتُ لها مؤكدا مثل طفل. ألصقتُ وجهي بين رقبتها وكتفها
تُمسِّدُ مؤخرة رأسي:

- "يلعن أبو السرّة.. والله، إلهي رفع السماء، ما تدخلها وأنا موجودة!".

رفعتُ ذراعيّ أطوقها بشدّة. سألتني:

- "لكن ليش؟".

* * *

يحدث الآن 8:43 PM

يتصل كلانا، أيوب وأنا، بحوراء. لا رد. هاتف بيت آل بن يعقوب. لا رد.

تتشبّث حصّة بدشداشتي:

- "أروح معاكم!"

يرجونا أيوب التزام البقاء في المقر، في حين يذهب هو إلى ابنة عمّه في السُرّة. أنفضّ من الأرض أزيل السُخام عن دِشداشتي:

- "أروح معاك!"

ينبّهني:

- "السُرّة!"

أهزّ رأسي أوكد:

- "أروح معاك."

هو بحسب قطيعتي مع السُرّة لا تزال. تجاوز استغرابه ينظر إلى الصبيّة. تنظر إليه. ينظر إليّ يسأل:

- "وحظر التجوّل؟"

وكان الحظر يطالنا أنا والصبية وحدنا.

أجيبه:

- "الحافظ الله..".

نركض نقطع السلام نزولا. أحمل حصّة بين يدي. يسبقنا أيوب يحمل مصباحه اليدوي. الجنة، بين الطابقين الثالث والثاني. ممسوخة الملامح في الظلام، يجمّ ثبّاع الجيف بمخالبه على صدرها، يدسّ منقاره الأسود المعقوف يمزّق لحمها. صرخت حصّة: "ثبّاع الجيف!". حجبت عينيها بكفي لئلا تنبّه إلى الجنة أسفل الطائر. باب البناية يكشف عن نور مضطرب في الخارج. يطفئ أيوب مصباحه. يطلّ من وراء باب البناية على الشارع. يرفع رأسه يتحقّق من عبده وجود قناسة على أسطح البنايات. ينظر شمالا. يتجاوز الباب يُغمغم:

- "عيال الكلب!".

أتبعه، أمسك بيد حصّة، أستوضح سبب الشتيمة. أجده يقف على مبعدة من سيارته والنيران تشتعل فيها. ألقت يمينا نحو الرصيف المحاذي للإشارة الضوئية.

- "سيارتي هناك..".

أركض، بقدر ما يسمح به عرجي، صوب السيارة. يتبعني أيوب. يتنبّه إلى كومة الخردة على العجلات. "سيارتك سكراب! تمشي؟". أومئ برأسي. يشير إلى الواجهة الأمامية يستغرب خلوها

من الزجاج. يسألني: "حادث؟". أجيبه: "بعدين أقول لك". يكاد يقول شيئاً. أطمئنه ألا يقلق. أقود سيارتي بلا أنوار. يعبثُ أيوب بأزرار المذياع: ".. وذلك إثر انفجار خمسٍ وثلاثين سيارة مفخخة خلال أربع دقائق.. يعلن مجلس الوزراء أن كيفان منطقة منكوبة، ويناشد المواطنين في كافة المناطق البقاء في منازلهم..". إذاعة الكويت، على غير عادة، لا توارى حقيقة. يصرخ أيوب: "غير صحيح!". المنصورية تشتعل. "إشاعات!". احتجاز رهائن داخل حسينية في بنيد القار. "كذب!". وزارة الداخلية تهيب بالقناصة عدم التعرض للطيور السوداء؛ وحدها كفيلة بانتشال الجثث. "كلام فاضي!". جرحى في اشتباك الروضة فجر اليوم. أخرسُ المذياع. يُطمئن أيوب: "صدقني إشاعات". لا أرد. يوتُ عن يميني تحرق. جبلٌ، من إطارات السيارات، يشتعل عند مخرج الدائري الرابع. يتأفف أيوب يحثني على الاستدارة:

- "بسرعة!".

أستدير بسيارتي نحو مخرج آخر. ثمُدُّ حصّة سبّابتها الصغيرة
همس:

- "عمي.. شوف فوق!".

أنظر إلى البدر يقارب اكتماله يتيح لنا تمييز الأشياء في الظلمة. "شيّ يخوّف!", يقول أيوب. أنتبه إلى سبّابة حصّة، لا شأن لها بالبدر. تلقي النيران ضوءاً مضطرباً على عشراتٍ من تبّاعة الجيف

تخطُّ فوق أعمدة الإنارة المعطلة. عند الشارع الدوّار أسأل أيوباً:
"وين؟". يصيح بي أن أتجّه إلى مخرج الدائري الخامس. أتبعُ
توجيهاته أقود سيارتي بذاكرة صِفر. يهاتفُ ابنة عمّه. لا رد. جبل
ناري آخر يسدُّ مخرج الدائري يخلفُ دخاناً كثيفاً أسود. مثله يقطع
الطريق المؤدي إلى شارع تونس. آخر تُشاهد نيرانه من بعيد، يشي
باستحالة العبور إلى طريق الفحيحيل مقابل مستشفى هادي. الجابرية
محاطة بالجبال النارية من كل صوب. "وين؟"، أسأل أيوب. يلتفتُ
إليّ:

- "الجسر!"

أذكره بحواجز المثلثون. يرميني بسؤاله:

- "عندك خيار غيره؟".

ألوذ بصمّي. يخمّنُ سبب تردّدي. يصرخ بي:

- "لا تقول لي إنك ما تبّي تدخل السُرّة!"

أواصل القيادة نحو الجسر:

- "دخلتها اليوم الظهر..".

أدريه يستغربُ قولي وأنا الذي ما أقتربتُ من السُرّة منذ ثلاثة

وعشرين عاماً:

- "دخلت السُرّة؟!".

يكرّر قولي يدفعني أوكد:

- "رحت بيت فهد أسأل عنه..".

يعقد حاجبيه كأنني أذكره بما نسيه. يمسك هاتفه يجري اتصالاً.
ينظر إليّ قبل أن يبعد الهاتف عن أذنه. تبثت ملامحه. يقول:

- "عبدالكريم عبدالقادر!".

يجري اتصالاً آخر. يطلق زفرة طويلة:

- "الجهاز مغلق!".

ينظر إلى ساعة معصمه.

- "الساعة تسع وعشراً وبنهم؟!".

الفصل السابع

أثتُ عالمي الخاص، أول انتقالي إلى الروضة، مفسحا مجالا أكبر لعزلة أقلقني والدي. حتى وقت ذهابي إلى المسجد، كنت أشعرني وحيدا لا أعرف المصلين. صوت الإمام غير مألوف، حتى كلامه لم يعد مفهوما. رائحة السجاد لا تشبهها في مسجدنا القلم. ما من عمود بين أعمدة المسجد يتعرفني إذا ما أسندتُ ظهري إليه. استغرب والدي ملاحظاتي أثناء عودتنا إلى البيت مشيا. سألتني: "جاي تصلي والا تشمّ السجاد وتغد العواميد؟!". لم ينتظر أجابتي. استطرد يقول: إن الله الذي صلينا له في مسجد مريم الغانم هو الله في مسجد الروضة، هو الله في كل مكان: "لكنك تبالغ".

ألقتُ المنطقة بعدما صار أبو حيان التوحيدي أكثر من مجرد اسم لشارع أسكن فيه. تعرّفتُ إليه أكثر فور انتقالي. أعوضُ فقد علي بس أبي طالب الشارع القلم. أسستُ لعلاقة جديدة. أمضيتُ أياما في مكتبة الفيحاء العامة أبحث عن التوحيدي بين الكتب. ألهم صفحاها. أنا لم أقرأ شيئا كهذا في حياتي. أقفُ عند اطمئنانه وعلاقته بربه وثقته بعفوه ومغفرته حتى في ساعات موته، وأنا الذي، في تلك السن، بسبب

والدتي وأمي حصّة، صار الخوف وحده يؤطر علاقتي بالله. كتبتُ قصة، ذات مساء، فور عودتي إلى غرفتي، متأثراً بما قرأته في المكتبة عن التوحيدي حين أجاب صحبه، لقاء وعظهم وتذكيرهم بمقام الخوف عند لقاء ربّه، أوان احتضاره: "كأني أقدمُ على جنديٍّ أو شرطيٍّ! إنما أقدمُ على ربٍّ غفور". ما كدتُ أنهي قصتي على الورق حتى انتابني رعشة تلاها استغفار أفضى إلى تمزيق أوراقِي قبل حرقها على رصيف بيتنا الذي لا حوش له ولا قوّة تجذبني إليه. كنتُ أتبع بنظري دخان أوراقِي يتصاعد إلى السماء. أرفع رأسي. أنظر إليها. أحسبُ دخان قصتي كفارةً عن ذنب كتابتها، لعل الله يغفر، ولعل السماء تبقى مكانها. أدريها لن تقع على نحو وصفته جارتنا العجوز قبل سنوات. ولكنني كنتُ مؤمناً أن شيئاً ما سوف يحدث. أطمئنُ إلى صوت أُمي حصّة داخل رأسي: "عَفِيهِ على وليدي". لم أشعر بندم إزاء حرق أوراقِي، وقد كان التوحيدي ذاته قد أحرق كتبه قبل موته، كنتُ أبرّرُ لنفسي كلما كتبتُ قصة وأحرقتها. كنتُ أكتب، زمن السُّرّة، لأنّ هناك من يتلقى كتابتي، يحرّرني منها، يفهم ما أقول له، أشهد تأثيرها على وجهه، يرافقني رقيقاً أثناء كتابتي إليه، يتقي معي كلماتٍ يفهمها. الكتابة التي اتخذتها في الروضة ملجأً صارت مقلقة. أثبتُ فيها كلُّ أسئلتِي متجاوزاً حدود والدتي وأُمي حصّة. أعاود قراءتها. أرتعد. أحيلها رمادا. صارت علاقتي بأبي حيّان بين مدٍّ وجزر. أفهمه ولا أفهمه وأنا أحمل إرثاً ثقيلاً يمنعني من التفكير. غريبٌ أن لا يفهمك إلا إنسانٌ رحل منذ ما يقارب الألف عام. أتمهّلُ في قراءة كلماته عن الغريب: الغريب الذي لا اسمَ له فيذكر، ولا رسمَ له فيشهر، ولا طيَّ له فينشر، ولا عُذرَ له

فُيَعذر، ولا ذنب له فُيُغفر، ولا عيب عنده فُيُستر.. وأُغربُ الغرباء من صار غريباً في وطنه، وأبعد البُعداء من كان بعيداً في محل قربه.

كان ضاوي، إذا ما شاهد سيارتي، مقابل مكتبة الفيحاء العامة القريبة لبيت خالي حسن، ينضمُّ إليّ. أشمُّ رائحة دهن العود قبل أن يهمس في أذني: "السلام عليكم". يفضي لي، هامساً، قلقاً نقلته إليه والدتي: "عمتي بالها مشغول عليك". يتفحص عناوين الكتب على الطاولة أمامي. سألني، ذات يوم، ماذا أقرأ. أمسك بكتاب مفتوح على صفحة سيرة موجزة لصاحب اسم الشارع حيث أسكن. نبّهني بحب: لا تقرأ أي شيء. ربّت على كفي يقول إنه يفهمني. "إنت ضايع"، قال لي. خشيتُ أن يشرع بعظات الجمعيات الدينية التي يحفظها. ولكنه نظر إليّ باسمًا متحاشياً استنكاراً بدا على وجهي: "ولهان عَـ السرة؟". اشتممتُ رائحة نبق طازج في داخلي. أجبتة: "آنا ما أقدر أروح". صحّح: "إنت ما تبي تروح!". هزرتُ رأسي مدعناً. أطبق الكتب على الطاولة أمامي يقول:

- "آنا مثلك.. من يوم اختفى أبوي كرهت المكان..".

تفرّس ملاحي كأنه يقرؤني من الداخل. أردف:

- "وانت، لأنك تحبّه، ما تقدر تزوره ضيف!".

استقام واقفاً. اتسعت ابتسامته يُنهني:

- "واللي يجيب لك السرة في الروضة؟!".

يحدث الآن 9:16 PM

محطة وقود الجابرية عن يميني. السيارة في حاجة إلى. يقاطعني
رب: "بعدين!". أشير إلى عدّاد الوقود: "ما في بانزين!". تُنبّهني
حصّة إلى وجود مُلثمين في المحطة عن يميننا. يصرخ أيوب يدفعني لأن
أسرع نحو انعطافة آخر الشارع المؤدي إلى الجسر. سيارة شرطة تبشر
بضلام بوميض يراوح بين الأحمر والأزرق وراءنا. أخفّف سرعتي
أحاذي الرصيف الأيمن. تتجاوزنا السيارة تعترضُ طريقنا عند
انعطف. يترجل شرطيّ شابّ تطل عيناه من وراء كُمّام. تنحني
حصّة أسفل المقعد الخلفي. كفّ الشرطي على مسدّس في حزامه
وانفذه الأخرى تحمل مصباحا. يتقدّم صوبنا يتفحص سيارتي المهترئة،
جهاز اللاسلكي يوشوش في حزامه. أترك سيارتي أسحب رجلي
عرجاء. أناوله بطاقتي الشخصية. ينقل مصباحه بين وجهي أمامه
ووجهي في البطاقة. ينحني أمام النافذة ينظر إلى أيوب: "هويتك".
يستجيب أيوب. يرجوه أن يسمح لنا بالعبور نحو الجسر من أجل...،
يماطعه الشرطي بأنه لو تساهل معنا إزاء خروجنا وقت حظر
التجوّل، فلن نسلم من رصاص الجيش، وإن سلمنا منه...، يترّ جملته
يشير بيده صوب الجسر:

- "يذبجونكم!".

التفتُ إلى حيث يشير. مُلثمان، أعلى الجسر، يمسكان بجثة
يلقيانها في نهر البين. يُطلق آخرون أعيرة نارية في الهواء. أومئ
للشرطي برأسي متفهما. أرجوه بأن يجد لنا طريقة للعبور. أشرح له
فحوى رسالة وردتنا من أهلنا في السُرَّة:

- "لو ما عبرنا.. يموتون!"

- "لو عبرتوا.. تموتون!"

لعلَّ وجهي يشرح ما لا أتمكن من قوله. أختنقُ بكلمات الرجاء.
يتعد مقرباً جهازه اللاسلكي إلى فمه. يسأل عن طريقٍ سالكة. يأتيه
الرَّدُ مُشوَّشا. الجابرية مطوَّقة بالنيران. ينصحه الصوت بأن يعود إلى
مركز الشرطة. يرفعُ الشرطي كفتيه يهزُّ رأسه. يأمرنا بالعودة إلى
حيث جئنا وإلا فالموت لنا بالمرصاد. يقول بصوت مخنوق إن البلاد
تشتعل. لا رجال إسعاف ولا دفاع مدني ولا متطوعون قادرون على
انتشال آلاف الجثث. وحدها تَبَاعة الجِيف تقوم بالدور. أتذكر الجثة
في سلام البناية. يترجل أيوب من السيارة يتوسل إلى الشرطي أن يفعل
شيئا. يجيبه الشرطي قاطعا: "ما يصير". يؤكد ملوِّحا ببطاقة أيوب، بأن
اسمه يكفل له عبور الحاجز الأول. ولكن قد ينتهي به الأمر طافيا في
نهر البين إذا ما مرَّ بالحاجز الثاني. يطلق أيوب زفرة طويلة يتلفَّت
حوله. يتحكم بصوته خشية انتباه رجال الجسر. يكرُّ على أسنانه.
يقول للشرطي بين رجاء وغضب بأن يفعل شيئا. يرفعُ الشرطي رأسه
يمشط أسطح البنايات بنظره. يذكره بالقناصة لو أطلنا البقاء. يرمي
أيوب هاتفه المحمول ومحفظته على مقعد السيارة. يدير لنا ظهره يهرول

نحو الجسر. أهُمُّ أتبعه. يمسك الشرطي بذراعي. يرتفع صوتي:
"أيوب!". يلتفت إليّ وقد أدرك الرصيف المقابل الممتد إلى الجسر.
يُقَرِّبُ سَبَابَتَهُ إلى شفتيه: "هشششش!". ينسلُّ بين شجيرات جافة.
ينحدر بين الأحرّاش يختفي. يدفعني الشرطي نحو سيارتي:

- "صاحبك مجنون..".

تُسندُ حِصَّةً كَفِّهَا إلى زجاج النافذة تصيح:

- "وين عمِّي أيوب!".

ينتبه الشرطي، مُكَمِّمُ الوجه، إلى وجودها في المقعد الخلفي.
يوجِّه مصباحه صوبَها. يرفع حاجبيه:

- "حِصَّة؟!".

تهزُّ رأسها من وراء الزجاج توافقه. يعتفها بصوت خفيض:

- "قلت لك لا تتركين البناية في الليل!".

تلامس أذناها الحمران كفتيها. يرقُّ صوته يسألها:

- "لقيتي أبوك؟".

يبدو الحزن على ملامحها. ينظر إليها عاقدا حاجبيه. ينحني على
زجاج النافذة يحدِّق في كفِّ الصبيّة المسند إلى الزجاج. يفتح الباب.
يمسك بيدها يوجِّه مصباحه إلى راحة كفِّها. ينظر إليّ جاحظاً يسألني
من نحن؟ أنظر إلى جهة اختفاء أيوب لا أحيّر جواباً. يهزُّ كفِّ حِصَّةً
يريني ما تحمل في راحتها. يعاود سؤاله نافد الصبر. يتأبني خرّس.

يشير بسبأته نحوي:

- "انتو؟!".

يناولني بطاقتينا، أنا وأيوب. يأمرني بأن أتبعه، على ألا أترك
مسافة كبيرة بين سيارتينا تلافيا لرصاصات القناصة. يرتفع نقيب
تباعة الجيف مهيبا مثل صافرات إنذار بعيدة. أمدُّ يدي ناحية الجسر
أرجوه ينتظر عودة صاحبي. تبدو الدهشة في عينيه يسأل:

- "صاحبك؟!".

يدفعني بذراعه صوبَ الرصيف المقابل حذرا. تقف بين
شجيرات الرصيف. أكمم وجهي بكفي. يشير بذراعه أسفل الجسر.
أعرف أيوبا أكثرنا اندفاعا. أعرفه أشدنا إيمانا بدورنا. ولكن فكرة
عبور النهر سباحة! عدا زئج الرائحة، ماذا لو شرب من مائه؟ أتبعه
بنظري مدركا منتصف النهر يسبح على مهل. عشرات من تباعة
الجيف تحطُّ على الضفة المقابلة. يكشف عنها ضوء البدر وبراميل
النار فوق الجسر. تقفُ مثل عجائز حدباوات. تتمايل بعاباءاتهما
السود الرثة. تغني نعييا يصدر من أغوارها، يضيفي على المكان خوفا
فوق خوف. تتقافز مقتربة أكثر نحو التقاء الماء باليابسة. كأنها تنتظر
سفينة تعود من بعيد. ولكن السفينة.. ولكن أيوب..

أين أيوب؟!

الفصل الثامن

اجتمعنا في ديوانية بيت الروضة، فهد وضاي وصادق الذي عرفنا إلى أيوب ابن عمه. شابٌ لطيف، كنت أراه، مرورا، في الأعياد يزور جدته زينب. سرعان ما انضم إلى الشيلة. كانت أعمارنا تراوح بين العشرين والثانية والعشرين. فعلها ابن خالي. بث روحا كانت قد غادرتني في البيت الكئيب لم أتصور عودتها في غير محلها. هو لم يُحضر السُرّة تماما. ولكنه فعل ما بوسعه. استغرقني الأمر سنوات لأدرك أن وقوفه معي، تلك الأيام، كان بسبب قلقه عليّ وبدافع صرفي عن كتبٍ أقرؤها. لم يكن قادرا على إقناعي بالكف عن تدخين يستهلك صحي، ولكنه تمكن من إبعادي عن كتب من شأنها أن تفسد عقلي. هذا ما قاله بعد سنوات. كان أبو حيان التوحيدي قد اختفى تماما إلا من اسمه في لافتة على رأس شارعنا. وكان ابن خالي قد اختفى تماما بعد دخول آلة العود إلى الديوانية يحملها فهد. يخفيها عن أبيه الذي أقسم بالله: "لو دخل العود بيّتي أكسره على راسك!". هو الرجل نفسه الذي كان يقرب مشط البروش إلى فمه يغني لعبدالحليم. لكن، على رأي أمه: "الحَيّ يقلب".

كنت أسأل فهدًا متجاوزًا تذمره على أبيه: "شلون فوزية؟". يكتفي بالرد: "عمتي زينة". لا يختم إجابته بما يرضيني: "تسأل عنك". فيما يدير صادق ظهره لنا، يواجه شاشة التلفزيون، يلعب الـ Playstation، أستلقي على ظهري أنفخ دخان سيجارتي تجاه فتحة التكييف المركزي في السقف. يزعجني هديرها. كان على أبي ألا يتخلى عن الكنديشة. كنت أفقد هديرها وانتفاضها ورائحة الغبار وقت تشغيلها.

قرفص فهد على الأرض الرخامية، يحتضن آلة العود يعالج مفاتيحها يُدَوِّن أوتارها. أدهشني كيف له، خلال شهور قليلة، أن يتعلم العزف بهذه المهارة. تمكّن من أن يصير عبدالكريم لمن يريد، في حين فشلتُ في أن أظل عبدالقدّوس لمن أردت. صار يقرأ الشعر وهو الذي، غير كتب المدرسة، لم يفتح كتابا. ترك في الديوانية، عند زاوية العود، دواوين شعر. يبحث عن كلمات رصينة، كما يصفها، تليق ألوانها ومذاقاتها وروائحها ومواسمها بصوت عبدالكريم إذا ما قابله ووافق أن يغني من ألحانه ذات يوم. انهمك في زاويته الأثيرة يبحث في دواوين الشعر. "أوووووه"، صاح ممتعضا يبحث الكتب أمامه. التفتنا إليه نستوضح. قال: "هذي نشرات أخبار مو دواوين شعر!". راح يُعدّد ما تدور حوله القصائد: هضبة الجولان السورية، مجزرة صبرا وشاتيلا، مقتل أطفال مدرسة بلاط الشهداء في العراق، حرب أهلية لبنانية، حرب عراقية إيرانية، اختطاف طائرة الجابرية، تفجير المقاهي الشعبية، غارة أميركية على ليبيا، أطفال فلسطين! أنهى مُفخّما صوته: "كان هذا الموجز وإليكم الأنباء بالتفصيل!". رحنا

نضحك إزاء شكله غاضبا. سأله أيوب: "وَحُب.. ما في حُب؟". هزَّ رأسه: "في حُب.. ولكن من له مزاج يقرأ الحُب وسط الحرب!". علق أيوب: "هذي كلها دواوين شعرائنا قبل سنة تسعين!". تناول فهد عوده راح يغني أغنية سمى لوها. لم أسأله يوما عن حوراء، مكتفيا بتتبع أحوالهما خلال عزفه وغنائه في الديوانية، مثل سُوير الليل لا يملُّ يغني، يتحرى من أنثاه استجابة. يُجيب جهاز الرَّد الآلي في هاتف غرفته: "تحمَّل بالصبر وأنا أتحمَّل.. فؤادي لأجل عينك كم تحمَّل.. وتصبرَّ علَّها في يوم تنحل". ما تمنيت شيئا، في تلك الأيام، كأمنيَّتي بأن يحقق الاثنان أمنيتهما. لعلها في يوم.. تنحل، ولكن، في يوم من عام 2000، في ساعة حسبها عمِّي صالح مباركة، وقت أخبره ابنه برغبته في الزواج، أجابه: "اتفو عليك!". لعن الساعة التي جاء فيها ابنه برغبته مقرونةً باسم بنت الجيران. عمِّي عبَّاس أجاب زوجته، التي جاءته ثمَّهْد لموضوع ابنتها، بأنه يزوّج ابنته كلبا على أن يزوجه لولد "صويلح". وأنا، وحدي أنا، كنت مفجوعًا بما يردُّني من كلام صالح وعبَّاس. لم أعد أحمِل احترامًا لأي من الرجلين. أوجعني اتفاق فهد وحوراء على عبارة كرَّراها: ليتهما ما عادا من الأسر! وأوجعني أكثر إجابة ردَّدتها في سرِّي: "يا لست"، غير مبالٍ إن أمضى الاثنان حياتهما يردَّدان: "وين راح أبوي؟ راح البصرة!". رغم موت البصرة في الأغنية منذ العام تسعين، وقت اتخذنا — جيرة بديلا عن البصرة في الأغنية. كان كبيرا عليَّ أن أنصت إلى ما يُنقل إليَّ من كلام أبويهما بتفاصيله رغم رصدي لعلاقة الجارين صغيرا. كلامٌ سوف يصبح مألُوفًا في سنواتٍ مقبلة، تبشُّه

الإذاعات والتلفزيونات ومواقع الإنترنت ويُكتبُ بأصباغ الرُّش على أسوار البيوت، يُحمّل أولاد فؤادة وأنصارهم ما فوق طاقتهم لإخفائه بعد استعصاء علاجه. أي كراهية تكشّفت لي أيامنا تلك. تمنيتهما طفلين، جهال، صالح وعبّاس، يقفان أمام والدتي، في زيّهما المدرسي، تصفع شفاههما تخرسهما إلى الأبد. أمنيّ تلك بدت مضحكة تافهة، لأنها تشمل كثيرين، يظهرون في سنوات قليلة مقبلة، لا مقدرة لأحد على إخراجهم. يموت واحد منهم في سبيل أن يُحرس الآخر. يُصادر مفتاح الجنة، رغم أن المفتاح عند الحدّاد، والحدّاد يبي فلوس، والفلوس عند العروس، والعروس تبي عيال، والعيال يّون حليب، والحليب عند البقر، والبقر يّون حشيش، والحشيش يّبي مطر، والمطر عند.. الله!

صادق الذي حسبته غافلا، منشغلا مع ألعاب الفيديو، لم يكن. صارحني بأنه كان يغض الطرف تفاؤلا بنهاية مأمولة، ولأنه يشق بشقيقته، ولأن: "فهد أخوي وأعرفه"، على حدّ قوله. بعد رفض أبيه لم يتوان يُقحمني وسيطا أنصح فهدًا بعدم مطاردة شقيقته، لأن هذا نصيبهما، والخيرة فيما اختاره الله. طالني ما طالني من تجريح إزاء رسالة نقلتها إلى فهد. غضب. غضبت حوراء. اتفقا ينهيان وسماطتي بأن لا خيرة فيما اختاره عبّاس وصالح. شدّدا: النصيب ما نختاره نحن! أعرف فهدًا نحيلًا مُد كنا. فرق بين نحول وضمور. كان يتأكل من الداخل. يبدو ذلك واضحا في وجهه الأصفر. في صوته. في عينيه وما حولهما. كان صاحبي يذبل. يمسك عوده. يغني بما يشبه استسلامًا، أغنية صفراء: "لو الشجر له نصيب في بارد ظلاله.. ما

حَرَّقَ القَبِيضَ جَفَنِي وَأَنْتَ فـ أَهْدَابِي". كَانَ صَادِقًا قَدْ اخْتَفَى
هُوَ الْآخِرُ مِنَ الدِّيَوَانِيَةِ. لَمْ يَحْتَمِلْ أَغْنِيَاتِ صَاحِبِهِ تَشِي بِاخْتِفَاءِ حَوْرَاءَ
مِنْ حَيَاتِهِ. صَرْنَا بِالْكَادِ نَجْتَمِعُ فَهْدَ وَأَيُّوبَ وَأَنَا. فَقَدْتُ الْأَمَلَ تَمَامًا فِي
نَهَايَةِ تَمَنِّيَتِهَا لِعِلَاقَةٍ شَهِدْتُ تَشَكُّلَهَا صَغِيرًا. هَاتَفْتُ صَادِقًا أَرْجُو عَوْدَتَهُ
بَعْدَمَا حَقَّقَ مَا أَرَادَهُ فِي مَنَعِ شَقِيقَتِهِ مِنْ وَصَلِ فَهْدٍ. اشْتَرَطَ: عَلَى أَنْ
يَكْفُ عَزْفَهُ وَغَنَاءَهُ السَّخِيفَ! أَهْمَلُ فَهْدَ عَوْدَهُ دَاخِلَ حَقِيبَةِ جَلْدِيَّةٍ فِي
الزَّائِيَةِ نَزُولًا عِنْدَ رَجَائِي. عَادَ صَادِقٌ إِلَى دِيَوَانِيَةِ الرُّوضَةِ. وَعَادَ
ضَاوِيٌ بَعْدَ انْتِفَاءِ سَبَبِ قَطِيعَتِهِ. اسْتَأْنَفَ جِهَازَ الْبَلَايَسْتِيشَنِ نَشَاطَهُ.
وَعَادَتْ رَائِحَةُ دَهْنِ الْعُودِ الَّتِي أَفْتَقَدْتُهَا مَرَّتَيْنِ، الْأُولَى بِرَحِيلِ أُمِّي
حِصَّةً، وَالثَّانِيَةِ بِابْتِعَادِ ضَاوِيٍّ عَنِ دِيَوَانِيَتِنَا. الدِّيَوَانِيَةُ الَّتِي أَحْبَبْتُهَا
صَارَتْ مَكَانًا مَقِيمًا وَمَصْدَرِ قَلْقٍ، بَيْنَ حَالِ فَهْدٍ وَحَوْرَاءَ، وَحَالَةِ
جَدِيدَةٍ ظَنَنْتَنِي تَرَكْتُهَا وَرَائِي فِي السُّرَّةِ. مَا إِنْ رَاحَتْ أَنْظَارُ الْعَالَمِ تَتَجَهَّ
صُوبَ نِيُويُورِكِ فِي تَفْجِيرَاتِ سِبْتَمْبَرِ 2001، حَتَّى صَارَ أَمْرُهَا شُغْلَنَا
الشَّاعِلَ فِي الدِّيَوَانِيَةِ. ضَاوِيٌّ يَدَافِعُ. يَبْرُرُ. يَسْتَمِيتُ يَبْرَهْنَ بِأَنَّ الْأَمْرَ
بَرْمَتُهُ لَعِبَةٌ لَتَشْوِيهِ الْإِسْلَامِ. يَعَارِضُهُ صَادِقٌ شَاتِمًا تَنْظِيمَ الْقَاعِدَةِ وَمَنْ
هُمْ فِي صَفِّهِمْ، فِي حِينِ يَسْخَرُ أَيُّوبُ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي ذُرْوَةِ انْفِعَالِهِمَا.
طَالَ جَدْلُهُمَا ذَاتَ لَيْلَةٍ، نَالَ مِنْ رَمُوزٍ دِينِيَّةٍ فِي كِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ. يُسْذَكَّرُ
وَاحِدُهُمَا الْآخَرُ بِمُحَادَثِ مَاضِيَةٍ يَنْسِبُهَا لَطَائِفَةٍ ضِدَّ. يُوْغْلَانِ فِي إِثْبَاتِ
حَقٍّ، يَسْتَشْهَدَانِ بِاللَّهِ، يَتَحَدَّى وَاحِدُهُمَا الْآخَرَ، عَوْدَةً بِالتَّارِيخِ إِلَى زَمَنِ
النَّبِوَّةِ وَمَا تَلَاهَ. لَمْ أَبْذِلْ أَيْ مُحَاوَلَةً لِاسْكَاكِهِمَا، مَاخُودًا بِسَرْدِهِمَا
لِلتَّارِيخِ كُلِّ وَفْقِ مَصَادِرِهِ وَرُؤْيَيْهِ وَإِرْثِ ثَقِيلِ انْتَقَلِ إِلَيْهِ مِنْ أَسْلَافِهِ.
أَقْفُ تَارَةً مَعَ هَذَا، أُخْرَى مَعَ ذَاكَ. هَمَسَ فَهْدُ لِأَيُّوبَ أَنَّ يَنْأُولَهُ الْعُودَ

من الزاوية حين بلغ ارتفاع الأصوات حدًا مزعجًا. أسند العسود إلى حجره يُغني مغمضا عينيه رافعا وجهه إلى السقف: "لو مشيت بالعناد والتحدّي.. الله معاي.. الله معاي!". انتفض الاثنان، ينظران إليّ، كأن صلحا قد نُقض. انصرف ضاوي يتبعه صادق. فتح فهد عينيه ينظر ناحية الباب: "الدرب إليّ يودّي ولا يجيب".

لم تكف زوجة خالي حسن، في ذلك الوقت، تهاتفني تسأل عن ضاوي. من هم أصدقاءه. أين يذهب. ولماذا انقطع عن الديوانية؟ لم أكن أعرف الكثير.

مضت شهور خمسة على حالنا تلك، قبل أن يستعيد وجه فهد لونه القلسم، ويلوّن الديوانية بالأزرق يوم غنى: "ساعة الفرحة". عاد صادق بعد قطيعة. فهمت أن شيئا يجري في السُرّة. كان موقف أمي زينب حاسما يوم أقسمت، بكل المقدّسات؛ الله بسمائه، والنبى محمد، والإمام علي، وحليب أمي حسيّة، وثديي الذي أضع، على ابنها الذي أصرّ بأن الزواج غير متكافئ، تُذكره بأمها حسيّة، وكيف أن لا شيء اعترض زواجها من أبيها كاظم: "تزوجوا وعاشوا سنين.. كل شيء ماكوا"، قالت تستسهل الأمر. نقل لي صادق ما أفضت به جدّته. لولا قَسَم والدتي تجاه السُرّة لما تأخّرتُ أطرق باب بيت أمي زينب أقبل جبينها. محقة حوراء حين قالت إن أمي حصّة، بوجود أمي زينب، لم تُمت. سوء معاملة جارها لم يشنها عن عزمها. ارتدت عباؤها، تحرّج خطواتها متكئة على عصاها، تكرر طرق باب صالح، رغم اعتلال صِحّتها. صدّها. مرّة. مرتين. كرّرت زيارتها ثالثة. بقيت في الحوش رافضة دخول منزل من لا يقيم لها

وزناً. هزّت رأسها: "عين حصّة ما غمّضت!". قالت له والدموع في عينيها. "عين حصّة تشوف". بهت أبو فهد. أخبرته بأنها تريد أن تموت مغمضة عينيها على أهل بيتها، على أن يكون ابن حفيدتها، من فهد، آخر ما تراه بينهم. استطردت قبل أن تمضي إلى بيتها: "إللي بيني وبين أمك أكبر من كلاواتك إنته وعبّاس!". مضت تمشي على ثلاث وهي تمدّ سيّابتها صوب الحديقة الصغيرة في الحوش: "أشهد سيرة حصّة عليك!". قالت كلمتها الأخيرة، تاركة عائشة وفضيلة تبدلان ما في وسعهما لإنهاء الموضوع. فيما بقيت أنا بعيداً أنصت إلى تطور الأحداث من فهد وصادق. لم يكن أمرهما سهلاً. يتعطل كلما سار بضع خطوات. اشترط أبو صادق، إن كان لا بد من الزواج، أن يُعقد وفق المذهب الجعفري في حين عارض أبو فهد محذراً ابنه إن تنازل في البدء: "باكر يلبسونك عمامة!". اتفقنا، صادق وفهد وهوراء وأنا، على تسوية الأمر بدعم من أمي زينب، حين أنهت كلامها لنا: "روحوا إنتو". تزوج الاثنان، في مارس 2002، على ألا يفصّحا إن كان زوجهما قد تم على مذهب — هُم أم على مذهب — نا. والتزمت وصادق بعد إمضائنا شاهدين، على عقد الزواج، ألا نفشي أمر المذهب لأحد. أتذكر كيف كنا، ضاوي وصادق وأيوب وأنا، نجهّز فهداً يوم زفافه وكأنه زفاف جماعي. قمنا بترتيب كل شيء، في حين سافر صالح إلى العمرة واعتكف عبّاس في بيته تلافياً لحضور الزفاف. انتظرت وصادق يُنهي حمامة المغربي في السالمية، في حين ذهب ضاوي وأيوب يُحضران الدشداشة والغترة والبشت من محلّ علامين البنجابي. لا نطيل البقاء في قاعة الانتظار

الصغيرة في الصالون. أتلصصُ وصادق علي فهد من وراء الباب الزجاجي الذي لا يتيحُ البخار رؤية ما وراءه. أسأله ضاحكا: "ها! شلون معرِسنّا؟". يردُّ: "شباب! نزل مني نقطا!". ضحكتي صارت ابتسامة. لو أن صاحبة القول ترى حفيدها اليوم!

عزمتنا على الانطلاق إلى صالة شيخان الفارسي للأفراح في السُّرَّة، مقر زفاف الرجال، بعد تجمعنا في ديوانية الروضة. لنستأنف احتفالنا بفهد، بعد عُرس الرجال، نَزْفُه إلى عروسه في القاعة الماسية في فندق شيراتون العاصمة، حيث حفل النساء. ما أسعد فهدًا مساؤنا ذاك. يوزَّع ابتساماته على كل شيء في الديوانية. بدا مختلفا، بذقنه الحليق وحرصه على إبقاء شاربيه طويلين منخفضين عند زاويتيِّ شفتيه، خلافا لإزالة الشارب تماما حسب موضة دارجة. يُميل عقاله مثل عبدالكريم تماما. يجلس ثابتا على الأريكة في الديوانية لِثَلَا تتجَعَّد دِشْداشته. يمنعنا من التدخين كيلا يُفسد الدخانُ رائحة البخور ودهن العود في ملابسه. لم يتزعزع من مكانه إلا لزاوية الديوانية عند المبخر والطور العربية التي وضعتها والدتي لهذه المناسبة. حتى وقت صلاة العشاء بقي ساكنا خوفا على دِشْداشتِه: "أصْلِيها بعدين". يهاتف أمه بمآزرهما إن كان بوفيه العشاء في الشيراتون يضم مطبَّق سَمَك. تستعجله تنهي المكالمة. ينهيها: "مياااو!"

ما إن فرغنا من صلاة العشاء يؤمنا ضاوي حتى استقام فهد
يحمل بِشْتَهُ أَمَام المَرَاة يتأكد من سلامة مظهره قبل خروجنا. لكز
أيوبا يشير إلى زاوية الديوانية: "هات العود". استغرب ضاوي عاقدا
حاجبيه. غمز له فهد: "أقصد دهن العود يا شيخ!". دس ابن خالي

يده في جيب دِشداشته يناول فهداً زجاجة صغيرة: "دهن عود من مكة.. ولا في عرس أمك تحصل مثله!". ضحك فهد وهو يمسح العود على ظاهر كفيه ورقبته. مدّ يده بالزجاجة إلى ضاوي. رفض الأخير استعادتها يقول إنها هدية يوم زفافه.

تركنا الديوانية. كنت مرتبكا أكثر من فهد الذي اشترط أن تجمعنا سيارة واحدة، هو وصادق وأنا: "أيكم معاي". لوحتُ له بكاميرتي أخبره بأني سوف أتبعهم من أجل تصوير مسيرة مُصَغَّرة سنقيمها في الشارع. أكدّ ألا حاجة للتصوير فأمه متأهة مع المصورات في قاعة الفندق تاليا. أشار إلى ضاوي: "أو هو يصوّر". نظر ضاوي إليّ لم يُجر جوابا. فتحتُ باب سيّارتي. كرّر فهد باهتا: "أيكم معاي!". أطبقتُ الباب أدير المحرك. أشرتُ إلى ساعة معصمي. أتفهم دافع ارتبأك وقتَ سفر أبيه للعمرة يوم زفافه. انطلق صادق بسيارته يصحبُ فهداً، تبعتهما سيارة ضاوي يصحبُ أيوباً، في حين لحقتُ أنا بالسيارتين مهملاً كامرتي على المقعد إلى جانبي. ضجّ شارع دمشق بنفير سيّاراتنا، ووميض إنارتها، نرّف فهداً. يستعرض ضاوي بسيارته يرسم دوائر على الإسفلت. سرعان ما انتقلت حالنا إلى السيارات في الشارع عند تقاطع الإشارة بين الروضة والعديلية. مضينا إلى مدخل السُّرَّة، شارع طارق بن زياد، أو شارع محظوظة ومبروكة. انعطفتُ سيارة صادق يمينا نحو صالة شيخان الفارسي للأفراح، لحقتُ بها سيارة ضاوي، تنزلق على الإسفلت، يظهر من نافذتها نصف أيوب ملثماً بغترته. مضيتُ أسلك شارع دمشق عائداً إلى الروضة.

* * *

يحدث الآن 9:27 PM

يركض الشرطي إلى سيارته. يشعلُ وميضها. ألحق به أستمهله
لحين أتأكد من وصول أيوب إلى ضفة السُرَّة. ينظر إلى الساعة في
معصمه. يرفض. بعد ثلاث دقائق تبدأ المروحيات بتمشيط المنطقة.
ولكن. لا استثناء. أرجوك. لا رجاء. أركض نحو سيارتي أتبعه. وصور
أيوب في النهر تحاصرني. أتاكل النار ضاويًا ويبلغ النهر أيوبًا؟! بعض
البيوت على الشارع تشتعل. تأكلها النيران ولا سيارات إطفاء في
الجوار. أنا ألفتُ شعور الخوف منذ زمن. ما يتابني الآن يجاوز
الخوف. ألفتُ إلى حصّة في المقعد ورائي. على شفتيها ابتسامة وفي
عينها قلق. أستمّد من طفولتها أبوةً تمنحني تماسكا. أرفعُ غطاء الدرج
أسفل مرفقي أتناول زجاجة العطر. تُقربُ حصّة وجهها بين المقعدين
الأمامين. يرتفع صوتها: "كلونيا أم بنت؟!". تمدُّ كفها مبسوطة.
تسحبها. تناولي كفها الأخرى الخالية من رسم الفأر. أصبُ قليلا من
السائل الذهبي في راحة كفها. لا أسألها كيف تعرّفت إلى العطر
القديم. تتشّقّ العطر في نفس عميق: "أبوي يحب كلونيا أم بنت!".
تقطع صمّي بصوت خفيض: "وأنا أحب أبوي". أصوات مروحيات
الاستطلاع تقترب من بعيد. أدنو بسيارتي من سيارة الشرطي أكثر.
أدير مؤشر المذيع. إذاعة الكويت تندم، على ما يبدو، لعدم موارقتها
حقيقةً قبل قليل. تبثُّ أغنية: عَمَار يا كويتنا.. عَمَار يا أُمّنا.

- "أعرفه.. عبدالكريم.. أبوي يحبه..".

أبتلع إجابتي: "وانتي تحبين أبوك". يبدو أنك ووالدك تحبان الكثير يا حصّة. أستعيد وجهها قديما يصاحب الصوت في المذياع ولا أجيها: "وفهد يحبه". أتلفت. ترصد عيناى الدمار. تسمع أذنناى الـ عمار. أدير مؤشر المذياع يأكلني خجل. هو الأمر ذاته مع أولاد فؤادة. في ذروة انحدار كل شيء تتغنى: "هذي بلاد تطلب المعالي". كذبنا. ولأن من الكذاب يمر صدق كثير، تمنينا لو أننا نصدق في هذه وحسب. تقطع سيارة الشرطي الدوّار. أتبعها. إذاعة أخرى تبث سورة قرآنية: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2)﴾. أذني مع الإذاعة. عيناى تجوبان الجوار. دوي انفجار عظيم يشق سكون الليل. يرتعش الشارع تحت عجلات السيارة. صوت الإذاعة يواصل: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (5)﴾ حصّة أسفل المقعد الخلفي تحاكي الانفجار صراخا. محطة الوقود وراءنا تصير نارا بعلو بناية. ﴿فَكَأَنَّ هَبَاءَ مُنَبِّئًا (6)﴾. تزداد المسافة بين سيارتي وسيارة الشرطي. أزيد سرعتي أتبعه. نقطع شوارع الجايرية باتجاه الخط السريع. عند منعطف أخير، بالقرب من متحف طارق رجب، يوقف الشرطي سيارته أمام أحراش تحاذي سوراً من الشبك المعدني يطل على الشارع الرئيس. يطفئ وميض سيارته. صوت يتخلل التشوشات في جهاز اللاسلكي في حزامه. لا أتبين من كلامه عدا اسمي قرطبة والعديلية. يوجّه الشرطي سبّابته صوب نفق مشاة مظلم يؤدي إلى الرميثة. أتمسك بالمقود: "وسيارتي؟". يحذرنى. لا يخلو الأمر من خطورة. الحافظ الله.

يفكر قبل أن يشير إلى ما وراء الأحراش. إلى جانب النفق. هناك شقٌّ
في الشبك المعدني يتسع لمرور سيارة يفضي إلى خارج الجابرية.
يستمهلني. يمضي نحو سيارته. يعود بمقصٍّ أسلاكٍ معدنية يناولني إياه.
لربما جبال الإطارات المشتعلة تسدُّ مداخل السُرَّة. أهدق في عينيه.
أسأله الخروج معنا. الجابرية تشتعل. يؤكد بما يشبه استسلاماً:
محطات الوقود في الجابرية وقرطبة والروضة والعديلية.. كل المناطق
أكلتها النيران.. "وين أروح؟!".

يشير بذقنه إلى الشارع. تبسم عيناه من وراء الكمام. يمدُّ كفه
يضافحني:

- احموا الناس من الطاعون..

* * *

الفصل التاسع

لم يعتب فهد على انصرافي عن حضور زفافه. تفهّم حجّة ما نطقتُ بها. غفر لي معانقا حين وجدني عند بوابة الشيراتون، قبل منتصف الليل، منتظرا إياه لأزفّه إلى عروسه. اكتفى ضاوي بصافح فهداً، عند مدخل الفندق، يهتته قبل انصرافه متحجّجا بالتزامه بموعد آخر. لم نلزمه بالبقاء متفهمين تحاشيه الفرقة الموسيقية في القاعة التي تنتظر دخولنا. لا أدري أي القلبين كان يُخفق أسرع، قلبي أم قلب المِعْرَس، ونحن نقطع الممر نحو القاعة، لنقطع ممرا آخر، في منتصفها، يفضي إلى منصّة العروسين. ترتفع أصوات الطبول عاليًا كلما اقتربنا. وصلنا إلى خالتي عائشة في آخر الممر ملوّثًا وجهها. تمسكُ بطرف حجابها أسفل ذقنها، تفوحُ خليطا من عطور، فيما بدا الحجاب مرتخيا بالكاد يغطي شعرها المنفوش. شرحت لنا سريعا كيف ندخل وبأي سرعة نمشي إلى المنصّة. انفجرت الزغاريد في وقت واحد فور دخولنا وراء فهد. يمشي في المقدّمة بخطى وثيدة على إيقاع قرع الطبول. كانت القاعة مظلمة إلا من دائرة ضوء تحيطنا، نقودها أو تقودنا على مهل نحو وجهتنا، ترانا النسوة ولا نراهنّ. فيما ارتفع

صوت فطومة ممسكة بالمايكروفون: "يا معيريس، عين الله تراك.. القمر والنجوم تمشي وراك". يرتفع رأسي، لا إراديا، أنظر إلى السقف أتخقق مما لا أدري. انعطف فهد، خارج بقعة الضوء، خلافا لكلام خالتي عائشة، بشكل أربكنا نحو مقاعد الحضور الجانبية المظلمة. أضيئت القاعة بالكامل. انحنى فهد على رأس بيبي زينب قبله. يقبل يدها. ارتفعت الزغاريد أكثر. تبعناه، صادق وأيوب وأنا، بالمثل نفعل. كانت تسند كفيها إلى عصاها لا تكتم بكاء فرحها. بدت في كامل زينتها رغم التعب البادي على وجهها. توصي فهدا على حفيدتها محذرة: "عين الله تراك!". قرَّب صادق وجهه إلى جدته: "قومي إرقصي يمه زينب!". ضحكت تشير له أن يقرب أذنه. أفصحت بفم نصفه مفتوح: "ماكو أغنية عراقية!". احمرَّت أذنا صادق يتلفت حوله يفتعل ابتسامة وقت خالط الحزن ضحكي.

تحلقت قريبات العروسين حولهما تلتقطن صورا أثناء انصرافنا. خالتي عائشة توجه المصورات مثل مخرجة محترفة. لم أشاهد من حوراء عدا ذيل ثوبها الأبيض. كانت قد غطيت برداء لؤلؤي اللون، يستر كنفها ورأسها. نسيت قلق الشهور السابقة فور ما طبع فهد قبلته على جبين زوجته. جلست كتمثال لم تبدِ تجاوبا مع هنتتنا: "مبروك". وكأني أرى الفرح في عينيها الكحيلتين ووجنتيها الحمراوين وراء ساتر وجهها.

كنت أمضي تاركا صادقا وأيوباً يهتشان خالتي فضيلة، وقت سكنت فطومة تُفسح وقتا للـ DJ يُحيي المِعْرَس بأغنية لعبدالكريم

اختارتها حوراء. لِحَتْ فوزية ثابتة في مقعدها. حَدَقَتَاها صوبـي مباشرة. أبعدتُ نظري إلى الباب مرتبكا. التفتُ لها ثانية. عيناها باردتان نحو الأرض. شتمْتُها في سرِّي كم تبدو فاتنة، بشوها الوردى وشعرها الأسود الداكن. هي الطفلة إياها التي كانت ترقص في الأوبريت القلم. فراشة وردية تحلّق في حدائق الأغنيات والبهجة. لا بهجة في وجهها رغم الأغنيات. هو الوجه ذاته. هو الأنف سَلَّة السيف. هو الشعر الذي يجاوز منتصف مؤخرتها يمحو ذكرى آلة الخلاقة القديمة، وهي البشرة السمراء التي أحب. هي هي. إلا جسدها لم تزده السنوات سوى ماذا؟ أشحتُ بنظري بعيدا عنها وعن خيالاتي. استفاق شيء في داخلي وقتَ هَمَدَ صوت عبدالكريم وأخْرِستَ الطبول في رأسي. صرتُ أنصتُ إلى أغنيتها القديمة في أعماقي: "بنقول لكم سألَفَ.. وللسامعين كافة.. أحلى السوالف". تركتُ القاعة وفوزية وبِبي زينب والعروسين وأحلى السوالف ورائي.

انتقلت حوراء إلى السكن، في جناح علوي، في بيت أهل زوجها بعد منافسة مجنونة بين النسييين على محل الإقامة. شرع كلاهما يقحم نفسه، في حياة الزوجين، نكاية بالآخر. كان الأمر مضحكا في البدء، وكان مادة للتندر في ديوانية الروضة، عندما كانت الخلافات سطحية، أو عندما كانت تبدو كذلك، وقت تأييث جناح العروسين. "أبوها يقول إسفنـج البغلي أحسن، وأبوي يقول إسفنـج الجريوي!". قاطعه أيوب: "يجيـا American Mattress!". فهد لا يضحك مقابل ضحكنا. يواصل: "أبوي يقول إلكترونيات

LG وأبوها يقول Panasonic". ولأنني لمحتُ الجديّة في وجهه، سألته: "ليش؟". أجابني، بقناعة الرجلين، مثلاً دارجاً: "دهتنا في مكبتنا!". أسترجعتُ أسماء الشركات والوكلاء التي ذكرها تواء، أردتُ واحداً إلى طائفة، مدركاً إلى أي حدّ وصل بهما الأمر. راح فهد يتحدث عن اختيار أبيه ونسيبه لأسماء بعينها في حال رزقا بولد أو بنت. ختم مهوّنًا: "إحمد ربك أبوك وأمك ما عندهم هالسوالف!". فرغ من تأنيث سكنه. ملأ مكبته دهنًا من هنا ودهنًا من هناك إرضاء لطرفين لن يرضيا أبداً، لعله يتحاشى مضايقاتهما.

بعد شهور سبعة من زواج فهد، هاتفتني زوجة خالي حسن في الديوانية. لم أفهم منها كلمة بين لهاثها وصراخها عبر الهاتف. ولم أستوعب حقيقة ما يجري وقت بث التلفزيون خبراً عاجلاً عن هجمات لشباب كويتيين ضد جنود مشاة في قاعدة أميركية في جزيرة فيلكا. قُتل اثنان من منفذيهما. أُلقي القبض على متهمين كثر لم يُفصح عن أسمائهم. أكدت زوجة خالي أن ضاوي أحدهم. حبسنا أنفاسنا في الديوانية نترقب مصيره. أفرجت النيابة العامة، بعد أسبوعين، عن اثني عشر متهماً من بينهم ضاوي الذي بقي صامتا. لم يفصح عما جرى له وقت احتجازه. لم يفصح عن شيء عدا حزنه على بقاءه معتقلاً، على ذمة التحقيق، وتخلّفه عن صفوفٍ مُشيّعين قدّروا بالآلاف رافقوا المجاهدين إلى مشاهما الأخير. كان يعرف أحدهما. يتحدث عنه بإجلال؛ رجلٌ وعد وأوفى. كنا نستمعُ إليه يُفضي بحرقه: رحمه الله، عاهد نفسه على الانتقام وقت عرض تلفزيون الكويت مشاهد للمجازر الإسرائيلية في خان يونس في غزة.

فعلها وانتقم. تدخل صادق: ومن قال إن خان يونس في فيلكا؟! نهض ضاوي بعينين حمراوين ووجه صارم. قابله صادق نافخا صدره. لا يفصل بين أنفيهما سوى مسافة صغيرة. "يهودي!"، قال ضاوي. ردّ صادق: "أشرف منكم!". تداركنا الموقف، فهد وأيوب وأنا، بعدما أوشك الاثنان على اشتباك بالأيدي.

عادت المنافسة بين النسييين اللدودين في الشهر الأخير لحمل حوراء، فبراير 2003، وبعد معرفتهما بجنس الجنين ذكرا، شرعا يؤكدان على أسماء اختاراهما لحفيد مقبل. يحذر كلاهما من اختيار أسماء بعينها، في وقت كانت فيه أمي زينب بعيدة في جناح وحدة جراحة القلب في مستشفى مبارك. تضيقُ عينيها أملا في قراءة شريط الأخبار أسفل شاشة التلفزيون الصغيرة، يأكلها قلقٌ إزاء أخبار استعداد القوات الأميركية لخوض حربٍ محتملة على العراق. توصي ابنها: "إذا فتحَ الحدود، أمانة، ترحون بيّه هناك.. عدلة چنت لسو ميتة". تنتفض فضيلة: "بعد عمر طويل إنشالله". تلتفت أمي زينب إلى حوراء. تشير لها أن تقترب. تمسح بطن حفيدتها بكفها: "وانتي! يمته تجيين؟". تبتسم حوراء. تُردف جدّتها: "لا تتأخرين".

يفضي لي فهد بكل ما يجري هناك، بعيدا عني. يصف لي خوف حوراء. وحينما طمأنته بأنه شعور طبيعي لأي امرأة تخوض تجربة ولادة أولى، هزّ رأسه: "حوراء خايفة على أمي زينب". ينهي حديثه: "وأنا بعد". أردّد داخلي: "وأنا بعد".

ابتسم فهد وهو يمدُّ لي يديه يحمل صغيره في ممرٍ مستشفى الولادة: "حسن.. على اسم خالك حسن". تذكرت وجه خالي في

ذاك النهار، يوم أُزيحَ عنه اللثام. نظرتُ إلى الصغير نائما بين يديّ. رددتُ إلى فهد ابتسامته. أذكره: "وعلى النظاراتي حسن". افتعل ارتباكاً: "هششش—!"، برّر: "كنا جهال!". كنت أنظر إلى وجهه تمرُّ في خيالي حياتنا في ثوان. قط المطابخ صار أبا لقطّ صغير يُشبهه. وعندما طال وقوفي في ممرّ المستشفى سألتَه عن حوراء. أجاب: "الأهل بخير". هزّزتُ رأسي متفهّما قبل أن أمضي إلى خارج المستشفى. نحن لم نعد أطفالاً كي يُسمح لي بالدخول أهنتها بمولودها الأول. "سلم عالاهل"، قلت له.

أتمّ الصغير يومه الثاني في مستشفى الولادة. حمله فهد تالياً إلى غرفة العناية المركّزة في مستشفى مبارك. لم تقوَ أمي زينب على حمله بين ذراعين مثقلتين بأنايب المغذيات، وأصابع موصولة بأسلاك قياس نبض القلب وضغط الدم. لم تقوَ كلاماً. بالكاد ابتسمتُ عيناها لمراى حسن الصغير، قبل أن تطبق جفניה ببطء. تُغمض عينيها بسلام.

قرأتُ إعلان نعيها في صحف اليوم التالي. أرملة الحاج عبدالنبي عبّاس محمد. لم يشفع لها لقب عائلة، كان عريقاً، بذكر اسمها صراحةً، لئلا تُكشف هويتها. ماتت من دون اسم. سقطت ورقتها الأخيرة وقت سقوط عراقها بأكمله.

يحدث الآن 9:42 PM

"عمي.. تقدر تشوف؟!".

تستعيد حصّة صوتها بعد استفاده صراخا صاحب تفجير محطة الجابرية. أقود سيارتي ببطء بلا أنوار. متمهلا كما لسو أن للسيارة ذراعين تتحسّسان الطريق. أجيب سؤال الصبيّة مؤكدا. نعم. رغم أنني لا. الظلام، هنا، أشدّ من سواه. كأني تركت البدر ورائي في الجابرية. شيء يشبه سُحُبًا، أو غُبارا عالقا في السماء يزيد الليل عتمة. أتذكر أُمي حصّة تحذّر فهذا: "أقدر أشوف في الظلمة". هي تقدر على أشياء كثيرة، وحدها تقدر. أخشى لو أشعلت أنوار السيارة أن تترك الرصاصات دربا يقودها إلينا. أنعطف يمينا مع ارتفاع الطريق نحو شارع دمشق. في سوادٍ يجنّب سالك الدرب بشاعة مألوفة؛ لال رمادية في حذاء الرصيف، وحجارة ومتاريس وأوساخ على جانبي الشارع. لا أرى شيئا هنا. وحدها الرائحة تنشط كما لو أننا قرب الجسر. أنصتُ إلى صوت عجلات سيارتي تخوض في ماء يُغرق شارع دمشق. شعور يعيدني إلى الطريق أسفل الجسر، وقتَ بدأ يطفح بمياه المجاري قبل بضع سنوات. أترانا إزاء نهر جديد يُمهّد لظهوره؟

ثمّس حصّة: "ممكّن أسأل؟". هي لا تكف عن السؤال منذ حرّرها أيوب من المصعد. آه يا أيوب. تتخذ الصبيّة من صمتي رخصة لسؤالها:

- "عمي.. يقدر الإنسان يتنفس تحت الماي؟".

دافع السؤال يلزمي صمتا عن إجابة تعرفها. تُفكر في أبيها. أفكر في أيوب. يخبو صوت الماء تحت العجلات. يختفي عند دخولنا شارع طارق بن زياد. اسم الشارع، في العادة، يجرّني إلى ذكريات نشأتني. هذه المرة لا أفكر في شيء لولا أن حصّة راحت تستعرض معلوماتها حول مسلسل عُرض لأول مرة قبل ولادتها بسنوات طوال. شارع محظوظة ومبروكة. مستشفى الطب النفسي. فؤادة والفئران الآتية. هي، بسبب إذاعتنا، تعرّفت إلى المسلسل. تابعت حلقاته على الـ يوتيوب، وأحبّته كما تقول، لولا نهاية لم تعجبها. تسألني لماذا هربت محظوظة ومبروكة، في الحلقة الأخيرة، إلى مستشفى المجانين؟ لماذا لم تواجهها الفئران؟ تروح الاثنان، في مشهد أخير موشوم بالذاكرة، تجريان هلعا داخل رأسي في هذا الشارع. لا أجيب الصبيّة بأن هربما جاء دافعا لأولاد فؤادة بعد سنوات ليغيروا المشهد. لا تنتظر حصّة أجابة لسؤالها. يقودها صمتي إلى غيره. "عمي.. البيت بعيد؟". أشير لها أمامي باتجاه ما لا أراه: "شارع علي بن أبي طالب". يدفعها الاسم تسأل:

- "رضي الله عنه أم عليه السلام؟".

على من تتذاكين يا صغيرتي؟! استهلكني زمنٌ طويلٌ لكي أكون في موضع أُمي حصّة، أمام سؤالٍ أزعجها حول موقع حديقة الحيوان بين العُمريّة والعُميريّة. في ظلامنا هذا لا أجد مهربا من سؤالها. لا حمامة تحطّ على سورٍ قريبٍ تصرف الصبيّة عن سؤالها. لا قفص عن

يميني ألفتُ إليه وأنبَّهها أشغلها: "شوفي شوفي!". أشير إلى دجاجاتٍ تنظر إلى السماء تناجي الله. ولا بائع صُرَّة يذل كل ما في حنجرته من قوة، ينادي خام خاااام، يسطُّ صُرَّته على الأرض، يجنِّبني مواجهة سؤال طفلة ترغب في معرفة من أكون، وأنا نفسي لا أعرف. أتجاوز دوائر السُرَّة. أمضي قُدُما. بين مدرسة حمود برغش السعدون وثنوية جابر المبارك. بعض البيوت مضاءة على الشارع. هدير مولدات الكهرباء، أسفل أسوارها العالية، ينثرُ حياةً في صمتٍ يشبه الموت. تسألني الصبيَّة عن البيت الذي نمضي إليه. لو كنتُ غيري لعنَّفتها على كثرة أسئلتها. أجيبها: "بيت أمي حصَّة". تشهق. تسألني إن كان هو بيت العجوز راوية الحكايات في سلسلة ابن الزرزور. أومئ لها موافقا. يرتفع صوتها: "قول والله". ولا أقول.

هنا القطعة 3 في السُرَّة. شارع علي بن أبي طالب. تبدو المنطقة أفضل حالا من الجابرية، لكن من يدري إلى متى؟ بعض بيوت الشارع، من بينها بيت آل بن يعقوب، تكشف نوافذه عن إنارة. أترك سيارتي محاذاة الرصيف. سيارات بيت آل بن يعقوب، ومعها سيارة حوراء، مثقوبة الإطارات. أترجل ممسكا بيد حصَّة أتقدَّم نحو الباب. تقلتُ يدها تمضي نحو النخلات الثلاث تتفحصها بملامح محبطة. أكبسُ زر الجرس. دقيقة صمت لا تفضي إلى رد. أفعي أسفل الباب الحديدي. تتقدَّم الصبية نحوي. همس في أذني: "هذا بيت أمي حصَّة؟!". أنظر إلى جفافِ طالٍ برحيَّة وسَعمرانة، وخُضرة خجولة في سعف إخلاصة، ولا أحيِر جوابا. أهمُّ أدسُ كفي في الفراغ أسفل الباب. المسافة لا تسمح. بالكاد أُمِرُّ أصابعي. ملمس المزلاج

الصدى لا يشبه ملمسا قديما أعرفه. أحاول عبثا إخراجه من ثقب
البلاط بلا جدوى. تجلس حصّة على ركبتيها. تدسّ كفّيها
الصغيرتين تعالج المزلاج. تنجح في رفعه. تستقيم واقفة. تدفع الباب
إلى الداخل تسبقني إلى الحوش.

* * *

الفصل العاشر

لآثار الحروب تجلياتها، ليست مخلفات السلاح أبشعها. أي هلع تلبس والدتي وقت انطلقت صافرات الإنذار، تحسباً لصاروخ يتسلل من الناحية الشمالية المقصوفة، تنعق فوق مباني المدارس. هيأت ركناً في البيت أحالته ملجأً وقت الخطر. لا تني تهاتف أبي وأخوتها تتوسل إليهم البقاء في أماكن آمنة. طار النوم من عينيّ والدي خشية تدهور سوق الأوراق المالية المنتعش بحال عدم الاستقرار الذي خيم على الكويت وقت قصف بغداد. تهاتفني أُمي كل ساعة تطمئنني إلى وجودي: "والله لو طلعت من الديوانية وقت صفارات الإنذار..". لو أنها تدرك خطورة ما يجري داخل الديوانية! ابتعدتُ أحمل هاتفي ألومها. هي بأسلوبها هذا تظهرني أمام أصحابي خوفاً. إجابتها جاهزة: "من خاف سلم!". كان التلفزيون يعرض مشاهد مباشرة لقصف بغداد. نيران وأدخنة وقذائف وأصوات طيران حربي. كنا نتابع في صمت. لا أدري ماذا يدور في رأس كل واحد منا في نوبة خرس. صوّبتُ عينيّ إلى الشاشة ولم أشاهدها. تذكرتُنا صغيرين، فهد وأنا، نتقمص جنديين عراقيين نحتف، نُهوّس، ونعدُّ الأمة بنصر من الله

قريب. تذكرُنا، صادق وفهد وأنا، نجمع حجارة صارت تلاً في حوش آل بن يعقوب، لعلنا نصير أطفال حجارة. تذكرُ فوزية و"بلاد تطلب المعالي". تذكرُ صالح وصورة الرئيس. تذكرُ عبّاسا وصورة روح الله. تذكرُ أمي حصّة تُبجّل فهد الأحمد، الشيخ الشهيد، الرجل، الذي حارب اليهود. تذكرُ حديثها الليلي عن زوجها مُنصِتاً إلى خُطب، الزعيم، جمال عبدالناصر، يطرب لحديثه. تذكرُ كلُّ شيء، وعيناى على الشاشة ثابتان. تذكرُ، وأدركتُ كم كنا فتران تجارب في معمل كبير يُديره من؟

دوى صوت انفجار في التلفزيون يُخلفُ جِماً تلون الشاشة. ضاوي أشدنا تأثراً. صارم الملامح لا تخفي عيناه الحمراوان ما يعملُ في داخله. هزّ رأسه يستشهد بحديث النبي؛ أخرجوا المشركين من جزيرة العرب. انفعل. أمسك أيوب بالريموت كونترول يكتم صوت التلفزيون. دخلنا في حرب تسميات، بين ضاوي وصادق، غزو العراق أو تحريره. لا أدري كيف يجرّنا كل نقاش إلينا في النهاية. القاعدة الأميركية في جزيرة فيلكا. الأساطيل الأجنبية في مياه الخليج، العربي تارة، والفارسي تارة أخرى. بدأت الملاحظة كمرحة يناكف بها واحدهما الآخر. اتخذتُ المزحة منحى خطيرا. اختلفا. ارتفع صوتاهما. كان اسمه. صار. قبل بعد. في خرائط قرون مضت. حقيقة. ادعاء. تزوير تاريخ. قاطعتهما مستخفاً بجديّة لا تناسب الموضوع. أدعو كلاهما لتسمية خليجه وفق قناعته وإنهاء الأمر. اتفقا برّدهما: "ما يصير!". دارت العجلة من جديد. خليج فارسي. خليج عربي. تدخل فهد: "تسكتون والا أجيب العود؟".

صاح ضاوي وقتما اتسعت رقعة النار في الشاشة الخرساء.
عجز حرف الرءاء يجد له مكانا في لسانه: "حرام!". سألته فهد أي
حرام في أن يُقتل قاتِلَ أبيه: "هذا وانت ولد شهيد!". امتقع وجه ابن
خالي ترتعش شفتاه. هو الذي يأمل عودةً لأبيه، أو ربما شهادة تليق
به. هو الذي أمضى سنواتٍ لا يعرف مصيرا لمفقود يراوح بين نعتين
لا يدرك أحدهما؛ أسير أو شهيد. يصفعه النعت المخاتل يفتح أبواب
الاحتمالات على مصاريعها. تدخّل صادق يحاول إقناع ضاوي
بضرورة ما يجري: يموت أحدهم لتعيش أنت! استعدتُ مشاهدَ لبرٍّ
مِشْرِفٍ، قبل تقسيمه، وقتَ دخول آليات الحفر؛ الجرايع المذعورة
والضُبَّان المشرّدة والكلبُ ضحية اللُغم. صرتُ أفكرُ في مصير طائر
الصُّرد الرمادي. انصرفتُ عن مشاهد قديمة. تذكرتني بعيدا، لا يعني
من أمر العراق شيء عدا أن يبيي زينب أطبقت عينيها قبل أن ترى
النيران وإرثها الرمادي، وقلق انتابني على حين غفلة لفكرة وجود
خالي حسن في معتقلاتٍ عرضة للقصف. والناس هناك؟ كنت
أسألني. وجدتني منجراً وراء عاطفتي تجاه من لا يربطني به عدا عجوز
ماتت قبل أيام. استعدتُ وجوه عبداللطيف المنير وجاسم المطوع
وخالي حسن وجنودا عاثوا في بلاد فسادا، حرائق آبار نبط
والغام، ولافتات ضخمة تحملُ شعار "كي لا ننسى"، أستمَدُ منها
مِرِّراتٍ فشلتُ تقنعي بعدالة ما يجري. تذكرتُ الصور الصامتة على
شاشة التلفزيون. وأصوات صافرات الإنذار لا يصدُّها زجاج نوافذ
الديوانية، تتماهى مع نشيج ضاوي الذي صار يكي مثل طفل أمام
الشاشة. شُلتُ ألسنتنا ينظر واحدنا إلى الآخر. جَمَعْنَا سؤال لضاوي

لم نجرؤ على لفظه: على مَنْ تبكي يا ابن الخال..: على ما يصير رمادا في الشاشة أمامك، أم على يقين مباغت لموت خالي حسن.. هناك؟ ومع شكوك حول مصير الخال، جاء اليقين بمصير ابن فهد وهوراء. مات حسن الصغير. رغم بقاءه حيا، تحفظه جدته عائشة من الفناء، في كاميرتها الديجيتال. ثمان وعشرون صورة بعدد أيام عمره قبل أن يأخذ الصغير الموت في حضن أمه. انحنى عليه تلقمه ثديها. مالت عليه. غفّت. غفى. استيقظت. وجدته بين ذراعيها أزرق الوجه. لم تستعطف صرخاتها ملك الموت الذي مضى بروح رضيعها بعيدا. نشط خلاف النسييين، رغم حزنهما، في ذروة الفاجعة. في أي من المقبرتين يُدفن الصغير. مقبرتنا. مقبرتهم — هم. وكأن إحدى المقبرتين تُفضي إلى نار وأخرى تُفضي إلى جنة. اختفى فهد يحمل صغيره. عاد بوجه جامد، يجيب من يسأل عن مكان دفنه: "في التراب".

أقيم لحسن الصغير عزاءان. أحدهما في حسينية والآخر في بيت آل بن يعقوب. يقف فهد، صباحا، يتقبل التعازي هنا، وعصرا يتقبلها هناك. غاب عن الديوانية. صار قليلا ما يزور. بقي إلى جانب حوراء ينقلها من عيادة نفسية إلى أخرى. كان ضعيفا، ولكن ضعف زوجته أجبره أن يتحلى ببعض قوّة. ساءت حالة أم حسن. لم تعد تسمح لزوجها اقترابا. يطمئنّها: "الله يعوضنا بغيره". تنفجر في وجهه باكية. تنشب أظفارها في ثديها الأيمن تُدميه. تصيح: "ما أييه!". اضطر فهد لإبقائها في مستشفى الطب النفسي، إذعانا لأوامر أطبائها، خوفا عليها من نفسها. يُخبرني صادق؛ لا تحسُن في حال

شقيقته. تقضي ساعات صحوها، في غرفة المستشفى، ساهمةً تنظر إلى النافذة. تصبح فجأة. تطبق كفها على ثديها تعصره. تكثرُ على أسنانها: "ما أيه!". يتحلّق حولها الأطباء والمرضون يحقنونها بأدوية مهدئة يُقيّدون رسغيها إلى طرفي السرير. أمضت سنة في المستشفى. في ذلك الوقت انتقل عبّاس وعائلته إلى بيت جديد في الرميثية. يقول صادق إن قرار انتقالهم جاء بسبب صعوبة البقاء في البيت بعد رحيل أمي زينب. ويعزو فهد السبب إلى ضيق نسيه بحيرة لم يعد يحتملها مع أبيه. لا يتردّد يُفضي: "بصراحة.. أحسن!".

في لقاءاتي القصيرة مع فهد، وحدنا في الديوانية، كان يحدثني عن زوجته بحسرة. تُهاتفه: "ولهانة عليك". يأخذه الفرح إلى المستشفى. تصرخ به: "إطلع برّه!". هالات سود تحيط عينيه. أوشك أن يئس من شفائها رغم تأكيد الأطباء: مسألة وقت. طال الوقت. هَجَرَ جناحهما الجديد منذ انتقال زوجته إلى المستشفى. صار المكان، من دونها، موحشا. انتقل للنوم في غرفته القديمة مقابل غرفة فوزية. أهاطفه ليلا، يجيبني عبدالكريم: "يا طول الليل من دونك، يا طول الليل.. يا طول الوقت من دونك، يا طوله حيل". يُلحِقُ الأغنية بصوته مُسجّلا: أنا غير موجود حاليا، الرجاء ترك رسالة. أدريه يسمعي: "فهد.. إرفع السماعة". لا يرفعها. أردفُ قبل أن أنهي مكالمتي المسجلة: "أدري تسمعي.. أنطرك في الديوانية". لا أمكثُ أكثر من ربع الساعة حتى أسمع صوت ارتطام باب سيارته. يدخل الديوانية بوجه شاحب. أصبُّ له الشاي في الاستكانة. أناوله إياها. "قول". يُمسك باستكانة الشاي يُقلّبُ سُكرها. يقول: "أبوي قال،

ما دام ما بينكم عيال، طلقها!". يقول إن فضيلة تتهم عائشة: "سحرت بنتي". فلتت مني ضحكة. "الأمر جدّي"، قال منفعلا. فضيلة مؤمنة تمامًا بما قالته لها امرأة تدّعي كشف الغيب. التعويذة مدفونة تحت سِدرة أمي حصّة. يتجدّد تأثيرها كلما مرّت بها أم حسن دخولا أو خروجًا من البيت. قال وهو يحملق في الأرض: "صار لي يومين أحفر تحت السُدرة.. ما لقيت شي". تدارك وهو يغتصب ابتسامة: "لقيت جوازك القلم!". من شأن مفاجأة العشور على جواز سفر، دفنناه قبل أربعة عشر عاما، أن تثير اهتمامي في ظرفٍ غير ظرفي ذاك. تراحت الكلمات على لساني، ولكن أيا منها لم تلفظه شفتاي. كان يشعر بأن لعنة تطارده بسبب أهله، وكأن أمي زينب، برحيلها، تركته وزوجته بلا بركة. أشار إلى زاوية الديوانية ما إن فرغ من شرب شايه. ناولته العود. اكتفى يعزف، من دون غناء، لحنا مألوفا. رحتُ أبحث عن كلماته بين أغنيات عبدالكريم: ما أصعبك.. كل يوم لك حالٍ جديد، مرّة قريب مرّة بعيد!

نظر إلى عينيّ، ذات ظهيرة، يسأل إن كان قرار زواجهما صائبا؟ هزرتُ كتفه: "فهد!". أشاح بنظره بعيدا: "أنا تعبان". بين فقد ولد، وزوجة توشك أن تفقد عقلها ترفض الإنجاب، وتدخّل الأهل في شؤونهم، لم يقوَ على شيء، بعد قوله: "ما تبيني"، عدا أن يحجب وجهه بكفيه. يهتزّ جسده. يكمّم صوته. طلبتُ منه أن يأخذني إلى المستشفى. أدريه ينزعج. ولكن: "يصير أزور إخوتي؟". مسح وجهه بكفه يجيب محرجا: "يصير".

قاد سيارته صامتا. أو لم يكن صامتا تماما ما دامت الأغنية تدور في مشغل الأقراص في السيارة. بلغنا السادسة والعشرين تلك السنة، 2004، وهو لا يزال كما أعرفه طفلا ومراهقا. أستعيد كلامه، صغيرا، عن مطربه الأثير: "يغني لي بروحي". أنظر إليه في المقعد جانبي صامتا منصتا، أسألني بعد مرور كل تلك السنوات: هو وعبدالكريم، أيهما مخلصٌ للآخر؟!

"علينا وضعنا مكتوب، نعيش البعد بالمحجوب، مشينا والزمان دروب، وليالي الحزن تطوينا".

أمدُّ يدي أخفض صوت الأغنية. أسأله: "شلون فوزية؟". يبعد يدي عن المذيع. يعاود رفع الصوت:

"تعبنا واحنا نتأمل، نبي أحلامنا تكمل، وضاع إللي نبيه أول، وضاعت كل أمانينا".

ضغطتُ زرَّ مشغل الأقراص أخرمه. التفتُّ إليه: "ما ضاعت.. صدقني!". اغتصب ابتسامة.

كانت أول مرَّة أزور فيها مستشفى الطب النفسي في منطقة الصباح الصحية. مكان خانق يشبه المستشفيات في الأفلام المصرية القديمة. بلاط عتيق مثل بلاط حوش أمي حصّة. جدران باهتة بيضاء مصفرة. تفحصتُ الممرات ووجوه المرضى. لا شيء يشبه المكان الذي أعرفه صغيرا في مسلسلٍ صوّر لنا المستشفى، رغم بؤس حكاياته، مكانا يضحُّ بالحب، بالضحك والمقالب. سبقني فهد إلى

غرفة زوجته، قبل أن يأتيني صوته: "تفضل". دفعتُ الباب. يجلس صادق إلى جانب أيوب الذي يزور ابنة عمه، في حين يُرتَّبُ فهد حجابها يُخفي خصلاتِ بَدَتِ ظاهرة من شعرها. يهمسُ في أذنها: "حببيتي.. شوفي منو جاي يسلم عليك". نظرتُ إليَّ في صمت. عيناها الكحيلتان استدعتا ذكريات طويلة في ثوان. عاودتُ النظر إلى النافذة. ترك صادق الغرفة يمسك هاتفه المحمول الذي شرع بالرنين: "هلا ييه"، أجاب قبل أن يختفي وراء الباب. أخذتُ أستدرج حوراء للحديث. شلونك؟ لم تجب بغير الصمت ووجه ثابت صوب النافذة. ذراعاها طليقتان رغم قيدين معدنين يحيطان رسغيها. تبدو في حال لا بأس بها. عاد صادق، يُمسكُ هاتفه المحمول، يخبر فهدًا: "أبوي يسأل عن أبوك إذا كان هني والا لا". صار كلاهما يسأل عن مواعيد زيارة الآخر تحاشيا للقاءه. يزور واحدهما المستشفى بما يشبه جدولا محدّد الساعات. قليلا ما يزور صالح. وإذا فعل فإنه يفعل من أجل فهد وحسب. يتدخل أيوب بأن الإثنين في حاجة للعلاج هنا، حتى لو استدعى الأمر جلسات علاج بالكهرباء ثمحي ذاكرتهما المريضتين. ضحك صادق: "مثل محظوظة ومبروكة". ضحك فهد رغم حزن وجهه. لفتني تنهيدة نمت عن حوراء. ارتسمت على وجهها نصف ابتسامة. شجعتُ أيوبًا يحيكُ نكاته. نظر إليها يدعوها تخمّن من رأى في ممرّ المستشفى قبل دخوله غرفتها. لم تبدِ تجاوبا. أردف: "الدكتور شرقان وأبو عقيل يركضون وتلحقهم فرّادة بمصيدة الفيران!". نصف الابتسامة، على وجهها، صار ابتسامة كاملة. الابتسامة الكاملة صارت ضحكة. الضحكة أعادت اللون إلى

وجه فهد الأصفر. اللون في وجه فهد بث في داخلي سلاما. السلام في داخلي حرّك شفتي: "الحمد لله". لم يمض وقت طويل حتى جاء عباس. "شلوها؟"، سأل قبل أن يجلس إلى جانب ابنته. كانت قد أخذت دواءها قبل دخولنا بنصف ساعة. أمسك أبوها بجريدة كانت على الطاولة الصغيرة. ثبتَ نظارته الطبية على طرف أنفه. هزّ رأسه عاقدا حاجبيه لخبر على الصفحة الأولى. كانت الأخبار تملأ الصحف عن مجازر تحدث في العراق، وتصفيات لطائفة ضدّ أخرى، بعد سقوط نظام كتم أنفاسها لعقود. وفي ردّ فعلٍ لما تتعرض له الطائفة هناك، حشد البعض، هنا، لتظاهرة تحمل شعار نصرة إخواننا في العراق، ضد طائفة معتدية توالي الجمهورية الإيرانية، في إشارة صريحة لاسمي الطائفتين. كان في مقدّمة المتظاهرين أعضاء برلمان يمثلون تيارا دينيا. "حمير"، قال أبو صادق واصفا المتظاهرين، قبل أن يفرد الصحيفة أمامي يشيرُ إلى الصورة في صدر الصفحة: "هذا الحمار ولد خالك ويّاهم!". تدخل صادق يلوم أباه: "ييه!", في حين إصبع أبيه لا تزال تشير إلى وجه ضاوي، في الصورة، بين الحشود الذين أصدرت الحكومة قرارا بفضّ تجمعهم. التفتَ إلى فهد يسأله: "صويلج أبوك ويّاهم؟". شرع يشتمُهم من دون تسمية. احمرّت أذنا صادق واكتفى فهد بصمته، في حين انفرجت شفتا حوراء وهي تنظر إلى النافذة ساهمة: الفئران آتية!

يحدث الآن 9:53 PM

مولّد كهرباء ضخّم وسط الحديقة الصغيرة. تمامًا في موضع
قفص الدجاجات القلم. يزعج هديرها ساكنات سِدرة أُمّي حِصّة.
تبدو الشجرة في صحة جيدة. فارعة الطول كثيفة الأوراق. أُطبق
كفّي على كف الصغيرة أمضي بعَرَجِي مسرعا نحو الداخل. أتَحاشى
النظر إلى ما صار عليه الحوش. يبدو صغيرا ليس كالذي ملأناه
ركضا قبل سنوات. هنا لعبنا عنبر. هناك وقفتُ أمام كاميرا الفيديو
القديمة أسجلُ رسالة إلى والدتي. وعند الباب الأسود هذا تشبّثنا
بعباءة أُمّي حِصّة نرجوها تأخذنا. هي لم تفعل، ولا استجاب الله إلى
دعائها يوم ضحكت: "الله ياخذكم!". تستمهلني الصبيّة تشدُّ يدي.
تنظر إلى الشجرة مذهولة كما لو أنها في متحف مهجور. هنا تسكن
الجنّيات؟ أجيبها بضيق صدر: "بعدين".

أمشي بحذر في الممر القلم. يبدو الوضع طبيعيا في بيت لا
أعرفه. السجاد الفارسي سماوي الزرقة صار رخاما باردًا. اختفت
الكنديشة من الجدار. تقوم بدورها فتحات التكييف المركزي في
سقفٍ بلا نقوش، ولا تتدلى منه الثريات الكريستالية. حلّت مكانها
إضاءة السبوت-لايت تنتشر مثل نجوم قرية. أنا لا أعرف هذا البيت
لولا صور يغص بها جدارٌ مقابل. فهد الرضيع. الطفل. المراهق.
المعرس. وصور أخرى لجميع مَنْ مرّوا من هنا.. أُمّي حِصّة وتينا

وصالح وفوزية وحوراء وحسن الصغير و.. الضباب السائل في عيني
لا يتيح لي رؤية المزيد. هاتف حوراء على منضدة في منتصف غرفة
الجلوس. ألتقطه. أدمسه في جيب دشداشتي.

- "ما في أحد في البيت عمي".

تضغط كفي. أمضي أطرق أبواب الغرف. أفتح واحدا تلو
الآخر. غريب في بيت غريب. لا أحد هنا فيما يبدو. أرتقي درجات
السلم أستعين بالدرابزين على آلام ركبتي. غرفة فوزية أولا. أطرق
بأها. لا رد. أدفع الباب. أدخل بقدمي اليمنى. كأن مسأ كهربائيا
يصيبني فور ما تطأ قدمي السجاد الوردي. كل شيء هنا كما تركته
آخر مرة. الميداليات على الجدران. الصور القديمة للأمير وولي العهد
وأعلام الكويت. الفستان الوردي المنفوش. أشرطة الفيديو وروايات
إحسان عبدالقدوس مهترئة مُصفرَّة الأوراق، وكُرسي القراءة في
مكائهما. أشيح ببصري إلى الزاوية ورائي. ينتصبُ تمثال أُمي حصَّة
بعاءتها الكالحة قرب السرير. وجود الصغيرة يُلزمُني أبقى كبيرا.
تناولني حصَّة منديلا من حقيبتها. انتبَهْتُ إلى دموع لم أشعر
بانهمارها غزيرة على وجهي.

- "عمي.. إنت تبكي؟".

أهزُّ رأسي. أعزو سبب دموعي إلى الرائحة في طور حموضة
تحرق العين. تستلُّ نفسا عميقا. تنفخُ صدرها. تلتفُّ في الجوار:

- "لكن.. ما في ريحة هني".

تتقدّم نحو الفستان الوردي المعلق إلى الجدار. ترفع رأسها تنظر إليه.. تقول بأنه يشبه فستان الفتاة في رسم الصفحة الأولى من قصص سلسلة ابن الزرور. أومئ برأسي من دون أن أقول إنها لو رأت صاحبة الفستان صغيرةً لأدركت أنها الفتاة إياها. يرّن هاتف حوراء في جيب دِشداشيّ يومض برسالة. لا أتردّد أقرؤها تحمل رقم صادق: "إذا رجع فهد.. أنا أرجع". أرمي بثقلي على سرير فوزية ورائي. أهاثفه على الفور. مرة. ثلاث. عشر. الجهاز مغلق. نصف الهم يسقط عن كتفي. نصفه يثقل كتفي الثانية. أعبت بالهاتف أبحث عن رسائل أخرى. لا شيء عدا رسالة قبل أيام ثلاثة من عبدالكريم.. أعني من فهد، يردُّ على رسالة لحوراء تدعوه فيها ليفكر في أمر الطلاق. كتبَ في ردّه: "بَوَدَّعَكَ يا ليل العذاب.. بَوَدَّعَكَ، وأرحل على متن السحاب.. وبتشوفني مثل الضباب.. مثل الوهم.. مثل السراب". تخرج العبارة من بين شفتي لقاء صورٍ يضجُّ بها رأسي:

- "قال الله ولا فالك"..

تسألني حصّة:

- "عمي.. فيك شي؟"

- "لا".

تنطفئ الكهرباء فجأة. تنتفض حصّة تلتصق بي. ترتعش مثل حمامة مبتلة: "ما أحب الظلمة!". أطمئنها. لا شك في أن مولد

الكهرباء قد خلا من الوقود. ننتبه إلى صوت في غرفة الجلوس في الأسفل. تعتصر ذراعي تشدّها إليها:

- "في أحد تحت!"

أمدُّ سبَّابتي أمام شفتي: "هشششش—". أحملُ ثلاثًا من ميداليات الجدار مستعينا بضوء الهاتف. ألفُ شرائط الميداليات حول قبضي أثبتُ المعدن إلى ظهر كفي. تتبعني حصّة. تهذي. تستعيد صوراً لاقتحام بيتها. يرتفع صوتها. المثلثون. عمّي عمّي.. المثلثون. جاؤوا إلى هنا. أمسك بكتفها أهرؤها: "لا تخافين!". خوفها يواجهني بما يعمل في داخلي، وهو ما لا أحتمله في لحظتي هذه. أسحب خطواتي أقترّب إلى السلم. أحدهم يقول: "باب الحوش مفتوح!". أطل برأسي على غرفة الجلوس في الأسفل. رجلٌ عجوزٌ بلحية طويلة يحمل مصباحاً يدوياً، وامرأةً منقبةً و..

* * *

الفصل الحادي عشر

مطلع 2005، كنا في ما يشبه عنق زجاجة، امتدّ بقاؤنا في قاعها طويلاً، لا ندري إلّا مَ تفضي فوّهتها. كان كل شيء غريباً من حولي. اللحظة، منذ سنتين، ولا يتبّه إليه الآخرون، أو ربما يفعلون ولكن! أسرّحُ، وقوفاً عند إشارات المرور، مع أغنيات عراقية ترتفع من السيارات حولي، بعد صمت دام ثلاث عشرة سنة منذ عام تسعين. كان أول شيء خرج من العراق، بسقوط نظامه، هو أغنياته، الرديئة منها والأصيلة. لا أدري هل صمّت الناسُ عن غنائهم سنوات الحصار، أم أن أغنياتهم لم تكن لتعبّر حدودنا الشمالية. أستدعي أمي زينب من الذاكرة. لو كُتبت لها حياة، أتعود بيبي زينب. يرتفعُ صوت ناظم الغزالي في حوش بيتها. لا تضطر إلى خفض صوتها مداراةً للهجةِ تُهمة. ترقص في زفاف صادق على أغنية عراقية، ثم تموت باسم عريق لعائلة عراقية شهيرة؟ تبتعد الأغنيات في الشارع. تصير نفير سيارات ورائي، ينبهني إلى الإشارة الخضراء.

كان الجوّ ملوثاً. نتشّق الهواء الفاسد دونما انتباه. صار لهواتفنا المحمولة دورٌ جديد. ابتدعناه بأنفسنا. يكفي واحدنا فتح البلوتوث في

هاتفه ليعي إلى أي حد نحن نعيش في مكان موبوء. صور ولقطات فيديو، يتبادلها الناس، لرجال دين وخطب دينية وفتاوى ومعجزات مفتعلة. اضحك مع المعممين. مناظرة بين الشيخ والسيد. مباهلة فلان وفلان. شاهد جهل النواصب. مؤامرات الروافض. كنا نتشقق كراهيتنا كما الهواء، لا مفر منها. صار كل شيء بين الـ هـم والـ نحن صراحة. حتى إذا ما تصفحت اليوتيوب بحثا عن أغنية أو مشهد من مسرحية كوميدية، لا بد وأن تأخذك التعليقات أسفل اللقطة إلى مكان بعيد. تصنيف المطرب أو الممثل. رافضي ناصبي. القبي الذي انتشر في الإنترنت تسلل إلى القنوات التلفزيونية. قنوات متخصصة. مناظرات يتابعها ألوف. بين السيد والشيخ، من يفهم من. وأنا، في كل مرة، أغلق التلفزيون، أطبق شاشة الكمبيوتر المحمول، أو الهاتف، لاعنا عبّاسا وصالحا وكأنهما يقفان وراء كل ذلك. لا أدري أن في كل بيت صورة عن أحدهما. أتخيل الغد، ولا غد يجمعنا في أرض مضطربة، مثل حوش أمي حصّة، يجمعنا تارة، يفرقنا أخرى.

صرتُ اكتب القصص في جريدة الراي، بدعمٍ من أيوب الذي التحق بالعمل فيها. أفسح لي زاوية أسبوعية أنشر فيها قصصي، أمررُ خلالها ما أريد قوله رمزا، وكأنني أغسلُ كفي من ذنبٍ جمعي نمارسه. في كل مرة أكتب فيها تكون فوزية هي قارئتي الضمنية، أستمّد منها محبة، تُشبه عينيها، للأرض والناس. كانت قصصي تدور في شارعنا القديم. قصص كتبت نفسها بلا تصرّفٍ من خيالي إلا في ما يخص الأسماء. اتخذتُ أسماء بديلة لنا وللشجرة. قصص أصدقاء ثلاثة، صاروا خمسة؛ تركي، مهدي، مشعل، جابر وعبدالله!

لم تكن والدتي راضية عما أكتب لولا أن زاويتي صارت مقروءة. تشيد صديقاتها بكتاباتي. والدي لا شأن له بي، عدا تكراره سؤالاً عن جدوى الكتابة. لم يكن متحمساً لما أكتب ما دامت الكتابة لا تدرُ دخلاً. كانت قد تضحّمت ثروته أكثر من أي وقت مضى، ينوي بناء بيت جديد. يأخذني بعيداً عن بيت أوشك يصيرُ بيتي، بعد ثماني سنوات، ساهمت الديوانية، رغم كل شيء، في جعله مكاناً محبباً. أقنعت والدتي بأن يكون بيتاً في الخارج، لأن البيت في الخارج ذخرٌ إذا ما حدث وأن! فقدت والدتي اطمئنانها زمن تفجيرات العام خمسة وثمانين، وفي التسعين فقدت ثقتها تماماً. ونزولا عند رغبتها واقتناعاً، كان البيتُ في لندن. في تلك الأثناء، حقق والدي ثروة طائلة، ضاعفت أرصدته في البنوك، مستفيداً من الوجود الأميركي في العراق. امتلك أسطول شاحنات يراوح بين ذهاب وإياب في طريق شمالية أغلقت حدودها سنوات. يورّد طعاماً ومعدات طبية وفق عقود أبرمها مع الجيش الأميركي. كنا في ذلك الوقت، معظمه، في الديوانية، نلعبُ ورقاً وصل إلى الكويت، من العراق، بكميات محدودة وثمان باهظ، اشتراه صادق من أحدهم. أوراق اشتهرت بعد سقوط النظام العراقي. تحمل كل ورقة صورة من صور المطلوبين في النظام. كان ابن خالي قد قاطع الديوانية بسبب والدي: "أبوك يشتغل معاهم!". لآمني على صمتي. صرخ في وجهي عندما أخبرته بأن والدي لا يعني: أموال أباك ملطخة بالدم. اختفى. بقي الدم ماثلاً في طعامي وشرابي وكل شيء في البيت؛ بلاطه وسقفه وجدرانه. وحين سألت والدي، قال إنني لا أفهم. لا

أفهم ماذا، استفهمته. أجاب: "من صاها عشي عياله". صاها والدي...و..

وردتني أخبار ضاوي، لاحقاً، من أمي. صار معظم وقته في ضيافة جهاز أمن الدولة، لزوم تحقيقات لا تنتهي حول حادثة اشتباك، في منطقة أم الهيمن، بين قوات الأمن وجماعة مسلحة تتبع تنظيم القاعدة، اتخذ لها الشارع مسميات عدة بين مجاهدين وإرهابيين. كانت الكويت في حال استنفار أممي مقيت. ولأن لضاي ملفاً في وزارة الداخلية، كانت أصابع الاتهام تطاله في كل جريمة أمن دولة. طالتنا التحقيقات بسبب ارتباط ضاوي بديوانيتنا التي حامت حولها شبهات. أجفلتُ أمام أسئلة المحقق حيال سبب تجمُّعنا في الديوانية، وعلاقتنا بمن لا نعرف، والأماكن التي يتردد عليها ضاوي. "سجاير وعود وبلايستيشن وورق لعب!"، هذه هي ديوانيتنا، قلت للضابط قبل أن يخلي سبيلي. قال إن قصصي التي أنشرها في الجريدة لا توحى بأن لي توجهها، مثل ابن خالي، عدوانيا. ما كنت أدري أنهم، في أمن الدولة، يقرأون القصص! ضاوي الذي أحضر السُرَّة في الروضة، والذي كان صاحب فكرة تجمُّعنا في الديوانية، صار سبياً في إقفالها وتشظي روادها. قاطعها صادق وأيوب في البدء، إثر نقاشات حول اقتتال الطائفتين في العراق: "يلعن أبو إلي دَخَل ضاوي الديوانية!"، قالوا. ديوانياتنا التي جمعنا حول البلايستيشن وورق اللعب، صارت تجمُّعنا في أحاديث يرويها كلُّنا على طريقته؛ خلاف تاريخي بين وبين.. لولا موقف فلان لما كان.. سقوط الخلافة العباسية في بغداد بسبب. وإذا ما تدخلتُ أنهي

الحديث صرتُ رجعياً أصادرُ حريرتهم في التعبير وصارت ديوانيتي مكاناً خانقاً. توصلت إليّ أمي ابتعاداً عن المشاكل: "بلا ديوانية بلا عوار راس!"، تقول إن أصحابي مثل خيشة الفحم، لا بدّ وأن تترك أثراً على دِشداشة حاملها. أردتُ إحراجها أذكرها بأن أحد أصدقائي هو ابن شقيقها. لم تكترث: "كلهم!".

بقي فهد، وحده، يتردد بين حين وآخر كلما جرّه حنينٌ إلى عوده الممنوع في بيته. كانت حوراء قد تجاوزت محتتها تماماً إلا من رغبتها في الإنجاب. كلما حاول فهد اقناعها ترجوه أن ينسى الأمر. استقرت أسابيع في بيت الرميثة لدى والديها، تحصّنها فضيلة بآيات فك السحر. تغسلها بماء السدر، قبل عودتها إلى بيت صالح. لم يكفّ صاحب البيت يضغط على ولده: "طلّقها". تفشّت ديوانيتنا إلى مقاهٍ عدة. نجتمع فيها بين حين وآخر، اجتماعات مشروطة من جانب صادق وأيوب؛ على ألا يكون ضاوي موجوداً. وإذا ما جاء ضاوي صارت اجتماعاتنا حكراً علينا، هو وفهد وأنا. خصّص أيوب شقةً كانت للهو، بديل ديوانية الروضة، في بناية يملكها أبوه في الجابرية. تجمّعنا، بعيداً عن ضاوي، فهد وصادق وأيوب وأنا.. أنا الذي أكره لعبة شدّ الحبل. صرتُ الحبل.

* * *

يحدث الآن 10:05 PM

ألقي بالميداليات عند قدمي. بين غرفة فوزية والسلم. أراقب الداخلين في الأسفل يحملون مصابيح يدوية. الصبيّة تحضنني من الخلف. خطوط الضوء، تمتد من المصابيح، تتداخل وتبتعد في الظلام. حوراء تبحث عن هاتفها المحمول فوق المنضدة وسط غرفة الجلوس: كان هنا.. أنا متأكدة! ولداها يمسكان بيدي امرأة. أهى فوزية؟ من سواها يرفع رأسه إلى السقف أبدا كمن يحصي نجوما تُلدُ أخرى؟ المرأة المنقبة والعجوز الملتحي يلزمانني ترددا قبل نزولي. منذ أحوالوا النقاب واللحية إلى مصدر رعب ونحن نحسبُ الخطوة بيننا وبين أصحابها. تقف المرأة إلى جوار الرجل العجوز. يمسك الأخير هاتفه يعث بأزراره. يُطمئن حوراء بأنها سوف تعثر على هاتفها. حوراء تبدي قلقا إزاء السيارة المهشمة عند الباب. يرّن الهاتف في جيب دِشداشي. ينظر الجميع، باستثناء فوزية، إلى أعلى السلم. أهبط تتبعني الصبيّة. خطوط الضوء تلتقي عند وجهي. الهاتف في يدي يومض باسم أبي سامي. أضافح الرجل الذي لا يشبه رجلا أرعبي بكلبه السلوقي طيلة سنوات طفولتي. لا يتعرّف إليّ لولا أن حيّتي حوراء. ولا أتعرف إليه لولا اسمه على شاشة هاتف حوراء في كفي. يركض الولدان نحوي يعانقاني: "عمي.. عمي!". يسألان:

- "وين راح أبوي؟".

أجلس على ركبتيّ أبادلهما عناقا. أنظر في عينيّ أمّهما تحمّلان
سؤالا سكّت عنه: "ووين راح أخوي؟". تشعل المنقبة شموعا فوق
المنضدة منتصف غرفة الجلوس. تلتفت إليّ هزّ رأسها بما يشبه تحية.
تشير حوراء نحوها تُعرّف:

- "أم سامي.. فلورنس".

أبادلها التحية. فوزية، في ضجّة الأسئلة، تنظر إلى السقف
صامتة. تبدو أخرى. مكتنزة بلا عافية. منطفئة بشعر أشيب وبشرة
أقرب إلى الرمادي من سُمر قديمة. ينتشر البهاق في جبينها ووجتيها
يرسم ما يشبه قارات عالم مجهول. تُضيّق عينيها الخاليتين من النور.
تستحيل أذنا كبيرة تنصتُ إلى صوتي. تتخذ شفتها شكل ابتسامة
يُعجزني فكّ رمزها. أتقدّم صوبها مادّا كفي:

- "فوزية شلونك؟".

تسع ابتسامتها. هزّ رأسها وروح الطفلة تغمر وجهها شاخ قبل
أوانه:

- "زينة" ..

حتى صوتها لا يشبه صوتها. تُنبّها حوراء إلى كفي الممدودة:

- "مدّي إيدك فوزية".

تردد. تمدُّ ذراعيها أمامها تحركُ أصابعها في الهواء. يياض عينيها
يختفي وراء حُمره لامة. أتردد. أقربُ وجهي بين كفيها المكتزتين.
تُمسك أذني. وجنتي. تُمرر إصبعًا مرتعشةً بين أنفي وشفتي. دموعها
تنالُ على وجنتيها:

- "كتكوت.. هذا إنت؟".

أومئ برأسي بين كفيها. تديرُ وجهها. تميل رأسها تقربُ أذنا
صوبي تتحرى إجابة. أتدارك: "هذا أنا". ولا أقول لها إن
الكتكوت صار ديكًا متوف الريش لا يجيدُ شيئًا عدا الصياح:
الفئران آتية. والفئران لا تخشى ديوكًا لا تجيدُ إلا الصياح بين بيض
مكسور. "تفضلوا"، تدعونا حوراء إلى الجلوس وهي تفرق أصابعها.
يستأذن أبو سامي وزوجته. يقول إنه لن يشغل المولد الكهربائي لئلا
يلفت الانتباه. ينصرف. تشرع حوراء تخبرني عن اتصال وردها قبل
أكثر من ساعتين: نصحني مجهولٌ بأخذ الحيلة بعد حرق المقر. الدور
على البقية. نية محتملة لاقتحام بيوت أولاد فزادة وتصفيتهم. لم يمر
وقت طويل على المكالمات. طرق أحدهم الباب. عجزتُ عن التصرف.
أرسلتُ إلى أيوب أخيره. خرجتُ بالولدين وفوزية من باب الكراج
الخلفي إلى بيت أبي سامي. كنت مرتبكة حتى أني نسيتُ هاتفي
هنا.

يرقُ صوتها. تسألني عن فهد وصادق بوجه ملؤه الأمل: لم يكن
أحدهما في المقر أثناء حرقه.. أليس كذلك؟ أجيها بصوت يشبه
صوتي: وحده ضاوي. تكلمُ فمها بكفيها: "ضاوي؟!". أهرُ رأسي

صاغرا: "ضاوي". تتفرّس وجهي. تسألني عن حاله. أعجزُ عن القول. يصفرُّ وجهها. تبكيه. أو ربما تبكي. أتذكر رسالة صادق في هاتفها. أقفزُ على فجيعتي. أخبرها بأمر الرسالة. تقرأها. اطمئنانها على شقيقها يضاعف قلقها على زوجها. "وفهد؟"، تسألني. أتذكر رسالته الأخيرة لها: "بَوَدَّعَكَ يا ليل العذاب.. بَوَدَّعَكَ، وارحل على متن السحاب". أجيب: "خير.. إنشالله خير". ضربات قوية على الباب لا تنبئ بخير. تشهق حوراء تضم ولديها. تلتصق بي حصة. تؤكد أنهم المثلثون. هكذا ضربوا باب البيت قبل اختطاف أبيها. سوف يقتحمون المكان: لن يمحثوا في الخارج طويلا. بكاؤها المكتوم يصير أنينا حادًا. سائلٌ دافئ أسفل فخذي تتشربه الأريكة. أتقدم نحو المنضدة أطفئ الشموع. أحمل الصبيّة بين ذراعيّ. أدعو الجميع إلى الاختباء في الأعلى. تسبقنا فوزية نحو السلم. تتبعها، هي البصرة الوحيدة في عمتنا.

* * *

الفصل الثاني عشر

كنت أظننا انسلخنا عن محيطنا، منذ صرنا المحيط. منذ أزلنا الصور عن الجدران. منذ قطعنا كل خيط يربطنا بالماضي. إلا أن حرب تموز 2006، بين قوَّات حزب الله في لبنان والجيش الإسرائيلي، أظهرت وجهها آخر، للكويت، كان غائبا سنوات طويلة. شيء شبيه جرى قبل ست سنوات وقتَ انسحبت القوات الإسرائيلية من الجنوب اللبناني. سرعان ما انتشرت صور أعلام الحزب الصفراء، تُلصق على زجاج السيارات، تفاعلا مع بيانات أمين عام الحزب الذي صارت صورته تحتل أركاناً في بعض الديوانيات. حتى أيوب الذي لا همَّ ديني يؤرقه أو موقف سياسي يشغله، رفع العلم الأصفر في شقة الجابرية لأيام. لم يقتصر الأمر على طائفة بعينها. لم يكن نصرا خاصا بـ — هُم. احتسبت كلتا الطائفتين نهاية الحرب انتصارا يسع الجميع. إلا قِلَّة، من بينها ضاوي الذي كان متحفظا يذكرنا بتورط الحزب باختطاف الطائرة الكويتية في أواخر الثمانينيات، ووالدي الذي لم يرَ في الأمر إلا خرابا للبنان وضرب السياحة فيه. كل على ليله يغني. كأي بامي حصّة لو بقيت على

قيد حياتها، تضمُّ اسم أمين عام الحزب إلى أسماء "الرجال" في قائمتها.. زوجها، والزعيم جمال عبدالناصر، والشيخ فهد الأحمد.. كنت أرصد ما يجري حولي لا رأي لي. يناكفني صادق: "ولد أمك". هو يدري أن لا رأي لوالدتي في شيء. لأن كل شيء يدعو إلى الخوف. ولأن: من خاف سلم! ربما هو محق. ظنُّ بأنني سوف أنتفض: "آنا ولد أبوي!". ولكنني لم. ليس حبا بوالدتي، لكن.

رنَّ هاتفي المحمول في وقتٍ متأخر من الليل، منتصف 2007، يومض باسم فهد. كنت أحاربُ نعاسي أُحرِّرُ قصَّة قبل إرسالها إلى الجريدة. اتصاله يحملُ مصيبة، قلتُ لنفسِي. "آنا من الظُّهر في المستشفى"، قال لي. أجبته، بين نوم وصحو، دوغما سؤال عن سبب: "أغبرُّ ثيابي وأجيك". لم أدرِ حتى في أي مستشفى كان. نزعْتُ البيجاما أرتدي دِشداشتي. ركبْتُ السيارة. ما كدتُ أشعل سيجارةً حتى وردتني رسالته النصيَّة: "مستشفى حسين مكِّي جمعة". سحقتُ سيجارتي في منفضة السيارة قبل أن أشعلها. ارتعش هاتفي المحمول بين يدي أعاد قراءة الرسالة. حسين.. مكِّي.. جمعة. المستشفى الذي يتشاعم الناس من لفظ اسمه. يشيرون له رمزا مثلما يشيرون إلى المرض الذي يفتكُ بالناس في أجنحته، خشية أن يسمع المرضُ اسمه على ألسنتهم، يحسبهم ينادونه، يستجيب. يستعيضون باسم آخر غير اسم مشؤوم؛ المرض الخبيث.. الشين.. المرض الذي عافانا الله، أو اسمٌ أكثر لطفا وفق اللغة الإنكليزية: كانسر. طماننا الطيب بأن السورم يُصيب النساء بعد الخمسين في الغالب. حوراء لم تتم ثلاثينها بعد. "الله كريم"، قال طيبها. هلعٌ على وجه فهد كأنه حامل المرض.

اطمئنان على وجه حوراء كأن الجزء المصاب في جسدها لا يخصُّها. فضيلة لا تنفك تقرأ آيات فك السحر على ابتتها. مرَّت أيام بطيئة حين ظهور نتيجة الفحص. كنا نُمني أنفسنا بأن الورم الذي استوطن ثديها الأيمن لا يعدو كونه ورما حميدا. ولكنه لم يكن. "أختي مجنونة!"، قال صادق، بعد أيام، في أحد ممرات مستشفى حسين مكِّي جمعة. كان طبييها لطيفا. مهَّد لها. لم يكن اكتشاف الورم الخبيث متأخرا جدا، ولم يكن مبكرا في الوقت ذاته. شرح لها وسائل علاج متاحة، آخرها، أسوأها، لا سمح الله؛ بتر الثدي. يقول صادق إن شقيقته قفزت على علاجاتٍ محتملة إلى علاج أخير. سألت طبييها عن احتمال البتر. أجابها الطبيب أسفا: "احتمال وارد". لم تمهله يثها تفاؤلا. قاطعته قبل أن يستطرد. تضمُّ كفيها أسفل ذقنها. تهزُّ رأسها تبتسم بفرح لا يشبه إجابته: "مشكور.. مشكور دكتور".

ليت استئصال الأورام، كلها، يتم بالسهولة التي استئصل فيها ورم حوراء بوتر ثديها بعد ثمانية شهور من اكتشاف المرض. وبين رغبة صالح بانفصال الزوجين، وإيمان فضيلة المطلق بسحر دبرته عائشة، دفنته في مكان ما، كان فهد في المنتصف. لم يغير شفاء حوراء الكثير. بعض الأورام لا يكفُّ نمواً إلا بموت الجسد، يقول فهد. ليتهم يموتون جميعاً، ندفن واحداهم، نكايه، في مقبرة الآخر، ونعيش نحن. لمته وأنا أتفهم ضغوطا يواجهها. أجابني: "يا أخي نبي نعيش!". غيرت الموضوع أسأله عن زوجته. حوراء سعيدة، قال. وقتَ تحسَّست صدرها بعد العملية الجراحية أخيرته، بصوت منهك، بأنها مستعدة، الآن، للإنجاب. ولكن الأمر لم يكن يسيرا

وقتذاك. ليس قبل خمس سنوات، أو ثلاث على أقل تقدير، كما أخبرها طبيبها. "خمس سنوات من دون إنجاب وامرأة ناقصة عقل ودين و.. ثدي!"، قال صالح لفهد، يحضه: "طلقها!".

جلستُ وفهد، وحدنا، بعد أيام في الديوانية وقتَ هاتفه أبوه يسأل: "عبّاسو ويّاهم؟!". ما كنت أعرف شيئاً لولا أخبرني فهد عن إقامة مجلس تأييني، في جامع الإمام الحسين، لأحد عناصر حزب الله. كانت الصحف قد أشارت إلى اسمه قبل عشرين عاماً ضمن المتورطين في قضية اختطاف طائرة الجابرية. كان، وفق ما يراه الطرفان، نفقَ أو استشهد، في سوريا قبل أيام. سألته بعدما أنهى مكالمته أيّه من دون أن يجيبه، إن كان عبّاس هناك بالفعل. أطلق زفرة يقول: "عمي عبّاس وصادق". أسندتُ جبيني إلى كفيّ ألعنُ مسرحية تافهة. جميعنا أبطالها. يديرها مخرج فاشل أو ربما ذكي إلى حدّ نجهله. احتقانا الطائفي وصل حدّاً لا رجعة بعده. في الوقت الذي كان فيه المؤمن في اللامكان، انشطرتنا نصفين، نشغل بمصيره: في الجنة، لا، في النار. ولم يكن في النار عدانا، وقتَ صار، ما أمضينا حياتنا نخفيه في نفوسنا، يتمثل في مقالات على صفحات الجرائد صراحة، أو سجلات علنية في البرلمان، ينصرف إليها الناس، في الوقت الذي كنت فيه ساذجا لا أزال أكتب قصصاً رمزية في حذر!

هاتفني أيوب، بعد التأين بأيام، من مكتبه في جريدة الراي، يخبرني عن عزم بعض الحركات السياسية على إقامة ندوة وحدة وطنية، وفقاً لتسمية صارت دارجة، تضم شخصيات سياسية ودينية بارزة من الطائفتين. "ضروري نتلاقى هناك". أيوب البارد في طبعه

كان جادًا كما لم أعرفه من قبل، وهذا أمرٌ يرضيني، يرضيني جدا، أنا الذي يأكلني القلق إزاء مصيرٍ مُحتمل، لا أحتمل أن أكون وحدي. كنا في حاجة مُلِحَّة إلى من يشير إلى الجرح صراحة، وإن استدعى الأمر فتقه وهدر دمه الفاسد. استبشرتُ خيرا بالندوة لعلها تفعل شيئا، أو على أقل الأمل تقول. هاتَفَ أيوب كُلاً من فهد وصادق وضاي: "الساعة سبع ونص، يوم الثلاثاء". هاتفني ضاي يستغرب اتصال أيوب واهتمامه: "إقامة الندوة حقٌ يراد به باطل!". توسلت إليه بأن يؤجل حُكمه وحِكمه إلى ما بعد مساء الثلاثاء.

في صفِّ المقاعد الأخير، جلسنا أربعتنا، في حين حَمَلَ خامسنا كاميرته وآلة التسجيل يُحضرُ لتغطية أحداث الندوة. غصَّ المكان المفتوح بالحضور. هبَّ المنظمون الشباب يتحققون من سلامة الإضاءة والصوت. كانت مسرحية مجانية ساخرة. تَهزأ بنا، نحن الحضور، بشكل فجٍّ. اصطفَّ ضيوف الندوة. وزراء سابقون ورجال دين وأعضاء برلمان، وراء المنصة كلُّ ينتظر دوره خلف مايكروفونه. يبدأ أحدهم خطبته بالصلاة على النبي محمد وعلى آله وصحبه. يبدأ آخر بالصلاة نفسها، ولكن، وقوفا عند آله من دون صَحبه. يتفاعل نصف الجمهور مع هذا، ونصفه الآخر مع ذاك. تحدثوا كثيرا وأنا أتملأ في جلستي. كنت أستمُدُّ صبري من الأمل في وجه أيوب وهو يغيّر زوايا التصوير. يحضرُ لخبر نظيف ينشره في غدٍ مُتَسَخ. لا أدري ما الذي سوف يكتبه في تغطيته للخبر. كنت ألتفت إلى فهد وصادق وضاي في استغراب إزاء استخفاف رجال المنصة، وقتَ صفق الجمهور بحرارة، وارتفعت الهتافات:

- وحدة وحدة وطنية!

كتم صادق ضحكته إزاء شعاراتٍ مجانية. نظر إليّ يتظاهر بأنه
يُمسِكُ قلمًا يرسمُ على باطن كفه دائرة صغيرة. ضغطها بسبَّابته
مرارًا. هزرتُ رأسي: "يا ليت!". وقف أحد الضيوف، المعروفين
بفسادهم المالي، يخطب. تظهر صورته وراءه على شاشة كبيرة. يحرِّكُ
ذراعيه بروح مسرحية وأداء تعبيري مبالغ. يصرخ والزبد يتجمّع في
شدقيه:

- رغم العاصفة.. تجمعنا عاطفة.. ولا تفرّقنا طائفة.. و..

انقلتُ لساني عند أذن فهد:

- "شوف ابن الكلب إيش قاعد يقول؟".

استغرب فهد الشتيمة على لساني. أنا نفسي استغربتها. ضَغَطَ
على ركبتي:

- "عادي عادي.. نشوف إيلي بعده".

انتقل المايكروفون من يدي إلى أخرى. الأصوات تختلف والكلام
واحد. اتفقت العمامة واللحية والبِشت، السياسة والدين، ليلتنا تلك،
على الكلام ذاته: "الأمور طيبة ونحن بخير". ختم عضوٌ في البرلمان بأن
ما يجمع الطائفتين أكبر، وأن لا صحة لما يشيعه المتربصون بأمن
الوطن حول صدع بين الطائفتين، وكلام صوّر لنا بلادنا جنّة، وأن
كل ما يجري لا يعدو كونه كذبا وافتراءً وخيالاً في نفوس مريضة.

وكما ينبغي، كان لا بد أن يستشهد بحديث النبي حول الفتنة ولعنة الله على من يوقظها. أصيبت بخيبة كبيرة. أنا الذي أقفّلت ديوانيتي وأوشكتُ على خسارة أصحابي جرّاء سُمِّ تجرعوه في بيوتهم صغاراً. أنا الذي عانقتُ خرمي منذ رفعت والدتي كفّها تُهدّد بأن تصفّعني على شفتيّ إن أنا تفوّهتُ بكلمة. تذكرتُ مشاجرتي الأولى في المدرسة. كأنها حدثت للتوّ. الدماء على قميص صادق. الذلُّ في وجه فهد، ييكّي، بين صبيين يمنعانه عن نجدة صاحبه. إغماءتي على الرصيف البارد وسقوط مِنّي. ارتعشتُ. جفّ ريقسي. صرتُ أنصتُ إلى قرع طبولٍ في صدري، كأن أحدهم هزّ سِدْرَةَ أُمّي حِصَّةً في داخلي مطلقاً جنّاتها. وقفتُ أرفع ذراعي ما إن بدأت مداخلات الجمهور. لم ألتفتُ إلى صادق وفهد ورجائهما لي بأن نرحل. يُسخّف صادق انفعالي: "تحب الدراما". انتبه فهد إلى حالي. سألني:

- "ليش معصّب؟".

كانت المداخلات كلها للحضور، من الشخصيات المهمة، في مقاعد الصّف الأول، بما يشبه اتفاقاً مسبقاً. رفعتُ صوتي أمدُّ ذراعي عالياً:

- "مايكروفون مايكروفون!"

لا أدري ما الذي بدر مني لينهض ضاوي من كرسيّه مرتبكاً يربّتُ على كتفي. تفحتني رائحة دهن العود في كفّه:

- "إِذْكَرَ اللّٰهَ!" -

أَجَبْتُهُ: "هَذِي مَسْخَرَةٌ!". أَتَذْكُرُ كَلِمَاتٍ سَقَطَ مَعْظَمُهَا مِنْ ذَاكَرَتِي. كُنْتُ أَرَدُّدُ: "أَحْنَا مَوْ بَهَامٍ يَضْحَكُونَ عَلَيْنَا هَذُولًا!".

أَحَدُنَا كَانَ فِي عَالَمٍ آخَرَ، ضَاوِي أَوْ أَنَا. كَانَ يُسْطُ الْأَمْرُ وَلَمْ أَكُنْ أَرَاهُ بَسِيطًا. يَدْفَعُنِي إِلَى الصَّرَاحِ كُلُّ مَا خَنَقْتُهُ دَاخِلِي، مِنْذُ طِفْلُولَتِي، إِزَاءَ كِرَاهِيَةٍ لَمْ تَزِدْهَا الْأَيَّامُ إِلَّا نَمَوًّا. أَدَارُ الْحُضُورَ رُؤُوسَهُمْ يَنْظُرُونَ نَحُونَا. بَدَأَ الْحَرْجُ عَلَى وَجْهِ ابْنِ خَالِي، فِي حِينٍ لَازِمٍ فَهَدَّ وَصَادَقَ مَقْعَدِيهِمَا كَأَنَّهُمَا لَا يَعْرِفَانِنَا. أَمْسَكَ ضَاوِي بِذِرَاعِي يَعْصِرُهَا. هَمْسَ:

- "هَذِي هَذِي.. يَجِيبُ اللّٰهُ مَطَرًا."

لَمْ أَقْصِدُ أَنْ أَعْيِّرَهُ بَعْلَةً فِي لِسَانِهِ. وَلَكِنِّي فَعَلْتُ. أَجَبْتُهُ أَصْرَخَ فِي فُورَةٍ غَضَبِي:

- "مَا أَبِي مَطَوُّ.. أَبِي الْمَايْكُوْفُون!".

أَفَلْتُ ضَاوِي قَبَضْتُهُ عَنْ ذِرَاعِي. جَلَسَ إِلَى جَانِبِ صَادَقٍ وَفَهَدَ. سَوَّالٌ وَاحِدٌ بِصَقْتِهِ فِي وَجْهِهِ أَرَا جُوزَاتِ الْمَنْصَةِ. مَا دَامَتْ الْفِتْنَةُ نَائِمَةً. وَمَادَامَ ذَلِكَ الشَّيْءُ الْمُبْهِلُ الْقَتْلُ بِنَا شَيْئًا آخَرَ غَيْرَهَا. وَمَا دُمْنَا مَلَائِكَةٌ إِلَى هَذَا الْحَدِّ، وَمَا دَامَتْ بِلَادُنَا جَنَّةً، وَأُمُورُنَا طَيِّبَةً وَلَا خَوْفٌ عَلَيْنَا فِي ظِلِّ حُكُومَتِنَا الرَّشِيدَةِ: مَا الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَى إِقَامَةِ مِثْلِ هَذِهِ النَّدْوَةِ؟!

سحبتُ غُترةَ أحدِ المنظمين بعدما سحبَ المايكروفون من يدي
غصباً قبل إتمامي. مثل أولاد المدارس. قابلني بصدرة. قابلته بصدري.
دفعني دفعته. شَتَمَ أمي شتمتُ أسلافه. ضربني ضربته. لا أتذكر عدا
أصوات تشتمنا. غُتِرَ على الأرض، أنعل تتطاير. فهد يضرب بعقاله.
صادق يدوس بطن أحدهم. أيوب يُنزل حامل الكاميرا على ظهر
شاب يمسك بخناق ضاوي. البعض يردُّد: "اذكروا الله يا جماعة!".
ذكرنا الله في مخفر الشرطة وقتَ إمضائنا على تعهدٍ بعدم تكرار
الفعل. كانت ليلةٌ وحيدةٌ وطنيةٌ بامتياز! من دونها، ما كان لديوانية
الروضة أن تفتح بابها من جديد. تجمّعنا، نحن الخمسة، من دون
تحفظ. تحلّقنا في اليوم التالي حول الجرائد نقرأ عناوينها: مندسّون
يفسدون ندوة الوحدة الوطنية! قهقهه أيوب لقاء الوصف. رفع قبضته
عالياً يُفخّم صوته: "فلتحيا جماعة المندسين!". رفعَ فهد قبضته،
وصادق وضاوي بالمثل يضحكون: "عاشت عاشت". التفتَ إليّ
أيوب يسأل: بماذا تفكر؟

يحدث الآن 10:28 PM

لا أفكر في شيء عدا كوني في صحبة امرأتين وثلاثة أطفال إزاء خطر قريب محتمل. نقطع درجات السلم صعودا في طابور أوله فوزية وآخره أنا. أحمل حصّة بين ذراعيّ بثوبها الرطب. يرتفع هدير مولّد الكهرباء في الحوش فجأة. إضاءة السبوت-لايت تصحو من نومها. يتكشف لنا الخوف عاريا في وجوهنا. حصّة بين ذراعيّ في شبه إغماءة. أحدنا يخاف العتمة، والآخر، في وضع اختباء، يخاف النور. يرن هاتف حوراء. المتصل أبو سامي. يقول إن سيارة سوداء تقف عند باب بيت آل بن يعقوب. ترجّل أحد ركابها. تسلّق سور البيت. قفز إلى الداخل. تخور قوى حوراء. تجلس على السلم. تحضن ولديها: "راح نموت!". أرجوها أن تُسرّع إلى الأعلى. رجلاها لا تساعدان. قهقهة بما يشبه هذيانا: "تبسي نعيش". صوت أحدهم يفتح باب الممر المؤدي إلى غرفة الجلوس في الأسفل. يرتطم الباب بالحائط بقوة. من شأن أي صرخة أن تبتّ ذعرا في نفوسنا، إلا صرخة أيوب:

- "حوراء.. يا حوراء.. وينكم؟!".

يركض الصغيران تتبعهما أمّهما إلى الأسفل. يسقط أيوب على ركبته مُنهكا عند مقدمة السلم. عاريا إلا من سروالٍ داخلي أبيض

مضمخ بالدم، وعلى جسده أشياء تشبه طحالب. يرفع رأسه ينظر إلى حصّة يغالب ابتسامة: "شفت السكراب عند الباب.. عرفت إنكم هني". أجلس على السلم ألتقط أنفاسي. أترك الصبيّة إلى جانبي. أهدق في عينيه ولا أجيب. يدريني غاضب من تصرفه عند الجسر. يستلقي على ظهره يضحك بوجه حزين، أو ييكسي بوجه فرح، إزاء موت مجاني أوشك يأخذه: "كنت راح أموت". أنظر إلى ساعة معصمي أحسب وقتاً أمضاه منذ اختفائه في النهر. يعتدل في جلسته يبرّر تأخيره: عدا رصاصات رجال الجسر.. تباعة الجيف صارت تهاجم الأحياء! لولا تلاقاه رجال دورية متطوعون في سيارتهم وأقلّوه إلى هنا، لما وصل وهو يحمل كلّ هذا. يقول ذلك وهو يشير إلى جروح أدمت جسده. كأنه يتبّه للتو إلى عريه. يطأطي: المَعْدرة. تصعد حوراء إلى الطابق العلوي. تعود بدشداشة من دَشاديش فهد. يرتديها أيوب بعد اغتساله.

تجلس حصّة على الأرض. ترسمُ فئراناً على كفوف الصغيرين المستسلمين لها تماماً. تفتح حوراء التلفزيون. تقلّب قنواته. الفضائية الكويتية قهيب بالأهالي الابتعاد عن مناطق الخطر، وتجنّب المرور بسبعة شوارع رئيسية، والتزام المساكن تجنبا للميليشيات. أسماء المناطق تظهر على الشاشة في حين يقرأ المذيع النشرة. شارع دمشق يطفح بمياه المجاري. تظاهرة سلمية في شارع القاهرة رغم حظر التجول. سَكَن حَوَلي يُخمدون النيران المشتعلة عند مدخل شارع تونس. الخالدية؛ اشتباكات في شارع طرابلس بين مسلحين وعناصر أمن. السالمية؛ شارع بغداد تحت سيطرة المتمردين، والأهالي يطالبون برفع حُضر

التجول لتسهيل خروجهم إلى أماكن آمنة. ضاحية عبدالله السالم؛ انفجار عبوة ناسفة بين مسجد فاطمة ومحطة الوقود في شارع صنعاء. إغلاق شارع المسجد الأقصى من دون ذكر أسباب. تنتقل النشرة، بعد بث أسماء الشوارع السبعة المحظورة، إلى كيفان؛ صور لرجال الدفاع المدني يتشعلون جثثا تحت أنقاض البيوت المطلة على شارع فهد براك الصبيح. أنظر إلى وجه فوزية واسم المنطقة على الشاشة. أمدُّ يدي إلى حوراء أنتزع منها الريموت كونترول. أخرس صوت التلفزيون خشية انتباه فوزية إلى ما يجري في كيفان، وقد دأب الجميع منذ زمن على إخفاء أي خبر سيء يمسُّ منطقتها الأثيرة. أتابع الصور على الشاشة وأفكر في فوزية. هي ليست في حاجة إلى كل تلك المواراة. لا شيء في أخبار الإذاعة والتلفزيون يشير إلى مكان تحبُّه. هي لا تدري بأن حديقة الأندلس صار اسمها حديقة واحة كيفان، وأن مسجد عبدالوهاب الفارس، الذي أُحرق قبل أسبوع، هو نفسه المسجد الذي درج الناس قديماً على تسميته بمسجد بن عبيدان نسبة إلى إمامٍ أحبَّت القرآن في صوته. هي تجهل أن مسرح المسعود صار مسرح التحرير، ومسرح التحرير صار معتقلاً بعدما غصَّت السجون بالمتمردين والمشتبه بهم. لو أنها لم تفقد البصر يوماً، وأمسكتُ بالصحف، قبل عشر سنوات، لقرأتُ قرار المجلس البلدي؛ تغيير اسم شارع إشبيلية إلى شارع فهد براك الصبيح. هي مطمئنة تماماً بأن ضرراً لم يمس أماكنها المحببة، وأن الجثث في نشرة الأخبار تُتشل في شارع بعيد عن شارعها.. لو أنها سمعت خبراً بثته الإذاعة قبل قليل. وقت كنتُ أبحثُ عن دربٍ آمن يُخرجني من الجابرية: كيفان منطقة منكوبة!

يقطع أيوب خيالاتي بانتزاعه الريموت كونترول من يدي. يطفئ التلفزيون. ينظر إليّ يسأل عما جرى لنا فجر اليوم.. صادق وفهد وأنا. أُمسح ببصري أنظر إلى حصّة وقد أوشكت تُنهي عملها على كفوف الصغيرين. ترسم علامات X تشطبُ الفئران. يصرُّ أيوب: "وينهم؟". تُردّد حوراء سؤاله مثل صدى: "وينهم؟". أنا أعرف تماماً ما جرى. ولكنني..

– "ما أدري وينهم..".

* * *

الفصل الثالث عشر

أمضيتُ شهورا أبذل كل ما في رأسي لإقناعهم. جماعة وطنية، حقيقية، أطيافها تضم أعضاء من كافة الأطياف. نحن. ندق ناقوس الخطر ونسمي الأشياء بأسمائها. نحن في حال مقرفة. "الأمر لا يستدعي"، قال صادق بعدما ضحك على ما يراه مبالغة من جانبي: "تسوِّي من الحبة قُبة". لم يمهلني أشرح بأن الحبة بالفعل صارت ورمًا خبيثًا: "جماعة بخمس أعضاء بس؟!"، قال مستنكرا. فيما أبدى ضاوي تحفظا، التزم فهد الحياذ: "إللي تتفقون عليه". وحده أيوب كان متحمسا مثلي، ربما أكثر. عرض أن يكون مقر الجماعة، إن اتفقنا، في شقته. بناية أبيه في الجابرية. عارضه ضاوي: "لما تنظفها من المنكر". تجاوز أيوب قوله. وعد بأن يفسح لي مساحة أكبر في الجريدة: "إنت تكتب.. والجريدة ما تمنع". مضت أيام نعمل، أيوب وأنا، كل ما في وسعنا لتحقيق الفكرة. قال فهد، بعد أيام، إنه اقتنع تماما بأهمية المشروع بعدما أبدت حوراء وفوزية اهتماما. قال بأتهما أول المنضمين إلى الجماعة: "صرنا سبعة!". رفع ضاوي ذراعيه بما يشبه استسلاما. وجّه كلامه إلى فهد:

- "الله يوفقكم، لكن أنا ضد الاختلاط، إما أنا أو زوجتك وعمتك!".

تحكم فهد بأعصابه:

- "صلّ عالنبى يا شيخ!".

صلّى ضاوي على النبي وآله وصحبه. أردف صادق يُحدّد:
"الأخيار المنتجين". عقد ضاوي حاجبيه:

- "كل أصحاب النبي أخيار..".

أجابه صادق بلا مبالاة:

- "أخيار عندك إنت!".

الخيبة التي أصابتني في الندوة المسرحية، أصابتني في الديوانية ليلتنا تلك. في كلّ منا عبّاس وصالح يظهران وقتَ نوشك على اتفاق. كنا قد أمضينا شهورا من دون أن نخطو خطوة تجاه تأسيس الجماعة. خشيتُ إن تفوّهتُ بكلمة أفسد كلّ شيء. أدريسي إن لم أحقّق مشروعى فسوف يكون الأمر بمثابة فكّ ارتباط مع من بذلت كل ما فيّ من أمل لإبقائهم أصدقاء. كان أملى الأخير بنا. نحن الخمسة، وقد صرنا سبعة، أن نفعل شيئا. كنت أنقل نظري بينهم، أنصبتُ إلى آرائهم، أبحثُ عن أي شيء يُثبتُ لي عكس قول والدي عن أصحابي: "خيشة فحم!". فحمٌ لا يقفُ ضرره على ترك آثاره السوداء على ثيابي. فحمٌ يتقد يوما ثم يصير رمادا، لعله الرماد،

الذي لا تورثُ النار غيره، كما حذرت أُمِّي حصّةً قبل سنوات طويلة. راح فهد يقنع ابن خالي بأن دور حوراء، في البيت، يقتصر على إنشاء مدونة وموقع إلكتروني للجماعة: "أيسن الاختلاط في ذلك؟". تدخّل صادق محبطاً من تبرير فهد. "آنا أخوها وفهد زوجها ما عندنا مانع". تجاوز ضاوي قول صادق. سأل فهداً:

- "وعمتك؟ الله يلطف بحالها، ضريرة.. شنو دورها؟".

أجابه:

- "عمتي، الله يسلمك، ذاكرتها مهمّة. عندها سواف ومخزون أغاني وطنية ولا أرشيف وزارة الإعلام.. واحنا محتاجين..".

قاطع ضاوي:

- "أغاني؟! الله يوفقكم، لكن آنا ضد الأغاني.. إما آنا أو عمتك!".

ارتفعت الأصوات في جدلٍ يقنع واحدهما الآخر، في حين لاذ صادق بصمته. سأله فهد عن رأيه. أجاب والدماء محتقنة في أذنيه:

- "الله يوفقكم.. لكن، إما آنا معاكم.. أو ضاوي!".

أيام مضت على حالنا تلك. توصلت إليهم أن ينصتوا إليّ. الأمر أبسط من كل تعقيداتهم. مدونة إلكترونية وصفحة على الفيسبوك وإذاعة إلكترونية ومساحتي الأسبوعية في الجريدة. هذا في البدء، ثم

نُتَّسَعُ بأنشطتنا، ولكلُّ منا أن يعبر عن رأيه فيما لا يخالف هدفنا. وجهُ أيوب دافعي الأول لمواصلة الحديث رغم مقاطعتهم. لم أنزعج، كانت نقاشاتهم، رغم اختلافاتهم، تطمئنني بأنهم مؤمنون بأهمية الفكرة. لم نتفق تماماً لولا نشرت الصحف، أيامنا تلك، صوراً لعبارات مسيئة لصحابة النبي على سور أحد المساجد، وخبراً آخر حول إطلاق نار على زجاج نوافذ حسينية. "وين رايجين؟!"، قال ضاوي كأنه يستشعر، للتو، خطورة الحال. أجابه أيوب بأننا، نحن، من يحدّد وجهتنا. تردّد ضاوي: "لكن..". قفز أيوب يقبلُ جبينه: "الله يخليك بدون لكن! لازم نشتغل بالموضوع". ابتسم ضاوي كما لم أره مبتسماً من قبل: "يجيب الله مطر". راح أيوب يجوب الديوانية يزفُّ مصفّقاً. يهزُّ كفيه بمشي بخطواتٍ مدروسة. يردّد أغنية شعبية قديمة: "طِقْ يا مطر طِقْ.. بيتنا جديد.. مرزأنا حديد". عدوى التصفيق انتقلت إليّ، إلى فهد وصادق، ندور نحن الأربعة حول ضاوي الذي افتعل ثُقْلاً لم يوارِ ابتسامته. تصفيقنا صار مجنوناً، وزفان أيوب بلغ حدّاً تخاله في حفل زار ينقصه الطار والبخور. كنت أنصتُ إلى ارتطام قطرات المطر على إسفلت الشارع. كنت أشمُّ رائحة التراب الرطبة. كانت السماء تُمطر سحابة داخل رأسي.

اتفقنا ألا تكون جماعتنا مدعومة من أي جهة أو حركة سياسية أو دينية أو حكومية، حتى لا نمثل إلا أنفسنا. بقي اسم الجماعة. صاروا ينتقون الأسماء اقترح أيوب: الناقوس في حين اختار ضاوي اسم: جماعة وأد الفتنة. لم يلتفت إليه صادق وفهد حيث اتفقا على اسم: مثل أول. كنت أهز رأسي رافضاً اقتراحهم. نحن في حاجة إلى

اسم مخيف. اسم يثُ الرعب في نفوس الناس من خطر مقبل إن بقينا على حالنا. التفتَ صادق صوبي:

- "طيب.. إنت إختار اسم..".

مررتُ نظري على وجوههم قبل أن أفضي:

- "جماعة أولاد فؤادة..".

حدقُ ضاوي في وجهي:

- "فؤادة منو؟!".

استلقى فهد على ظهره يقهقه ما إن قلتُ لضاوي إنها فؤادةُ مسلسل على الدنيا السلام، مُدرسة التاريخ المجنونة، فؤادةُ الفئران الآتية التي بحُ صوفا، تحمل مصيدة الفئران، تنادي: احموا الناس من الطاعون. بالكاد تحكّم فهد بضحكه. سألني مبحلقا:

- "فؤادة تخوِّف؟! فؤادة تخوِّفك إنت بروحك.. ما تخوِّف الناس!".

اعتدل في جلسته يفتعل جدية:

- "خلاص يكفي ضحك.. جد جد، إنت صاحب فكرة تأسيس الجماعة، وإنت تختار لها اسم".

تمسكتُ برأبي:

- "جماعة أولاد فؤادة. وشعارها: الفئران آتية.. احموا الناس من الطاعون!".

أجاب محبطا:

- "لكن الاسم مسخرة يا أخي!"

كانوا ينظرون إلى وجهي يتحرّون إجابة جادة. أنهيتُ:

- "الوضع كله مسخرة!"

* * *

كُلُّهُمْ سَفَلَةٌ
الْقَتِيلُ وَمَنْ قَتَلَهُ
يَدْعُونَ بِأَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ
الصَّلِيبَ إِلَى "الْجُلْجُلَةِ"
وَهُمْ يَحْرِقُونَ الْعُرُوقَ
إِذَا بَرَعَمَتْ سُنْبُلَةٌ

علي السُّبُتِي

الفأر الرابع

رَمَاد

يحدث الآن 11:05 PM

"ما أدري وينهم!".

ألوذ بالصمت. أكره اختناقي بعبراتي مثل طفل. أتذكرني،
معهما، فجر اليوم. أتصنع السعال أشد حبال صوتي. لا يزال أيوب
وحوراء يصبوبان نظرهما إلى وجهي يتحرّيان إجابة. فوزية
تُميل رأسها. توجّه إليّ أذنا تتحسّس صوتي. تكرر سؤالهما:
"وينهم؟".

"الذي أدريه كنا معا. نحن الثلاثة. نحتفي على طريقتنا وقت
أتمت الهدنة يومها الأول بعكس سابقاتها من الهدن. فرغنا من بث
آخر البرامج بعد منتصف الليل. اخترنا أغنية "بلاد تطلب المعالي"،
يا فوزية، غملاً بها صمت الإذاعة ساعات الليل إلى حين استئناف
البث مع نشرتك الصباحية يا أيوب. خرجنا من مقرّ أولاد فؤادة إلى
الروضة. "نروح ييوتنا؟"، سألتها وأنا لا أتخيلني في مناسبة كتلك
أنهي يومي مثل أي يوم عادي. "لا طبعاً"، أجابني صادق. كان
صاحب الاقتراح. حديقة جمال عبدالناصر: "نتعشى هناك".
ضحكت. من أين جاءتك الفكرة والحديقة ميتة منذ سنوات طويلة؟
قال إنه في حاجة إلى مكان بعيد عن الناس. قال إنه يشق إلى مكان
قلبي. في الحقيقة كنت مثله. أنا دائماً أشتاق إلى مكان قلبي. أوقفنا

سياراتنا في الساحة المقابلة للحديقة نحمل أكياس الطعام. لم يكن لفهد أن يوافق على الذهاب إلى أي مكان لولا كرهه العودة إلى البيت منذ خروجك يا حوراء تطلين الانفصال. كان يشاق للولدين. ولا داعي لأن أقول إنه كان يشاقك أيضا. لم تمر ساعة من دون أن يمسك بهاتفه يتحرى رسالة صوتية منك. أنا لسن أوصل حديثي إن واصلت البكاء. هاك. جففي دموعك. حسنا. أمضينا ساعات ثلاثا. ساعات موعلة في القدم. آه لو كنت معنا يا فوزية! الحديقة التي لم يتمكن مطعم ماكدونالدز من إحيائها منذ احتل أحد أجزائها، أحيتها ذكرياتنا. كانت علب وجبات الأطفال وألعابها البلاستيكية تتناثر على الأرض عند مدخل الحديقة مقابل المطعم المهجور. انحنى صادق يلتقط كرة مطاطية صغيرة، تحمل شعار المطعم الشهير. تلفت حوله كمن يخشى أن يراه أحد. أنت تعرف ابن عمك يا أيوب. مجنون. ولكنك لا تعرف إلى أين قاده جنونه قبيل فجر اليوم. نظر إلينا يُنقل الكرة بين يديه. يسأل: "تلعبون؟". تبادلنا النظر في ما بيننا، فهد وأنا، واحدنا ينتظر من الآخر تشجيعا. نزعنا أنعلنا. طوينا دُشاديشنا. لفقنا أطرافها حول خصورتنا. لم يفه واحدنا بكلمة. كانت عيوننا تضحك بما يشبه خجلا. راح صادق يبحث، أسفل سِدرَة عتيقة، عن حجارة مسطحة متفاوتة الحجم، والكرة المطاطية في يده. لم يتردد فهد يعاونه. لا أدري ما الذي أصابني وأنا أشعري أتضائل وأنكمش داخل دُشداشتي. صارت واسعة فضفاضة طويلة الكُمين. نظرتُ إلى وجهي فهد وصادق. لم يعد لكل منهما شارب كثٌ ولحية نابثة. فهد بوجه أسمر أملس وعينين واسعتين وشعر أسود داكن، فيما

اكتست وجه صادق حُمرَة قديمة وانتشرت البثور على وجنتيه.
شُمرتُ عن ساعديّ. رحت أجمع معهما حجارة تصلح للغرض.
ذرعنا الحديقة. لا شيء فيها يشبه الحديقة عدا بعض أشجار عملاقة
تحاذي السور تقاوم الجفاف، ومراجيح صدئة مهملة على أرضية
إسفنجية سوداء مغبرة. بنينا هرما صغيرا من سبعة أحجار وفق قانون
لعبة عنبر. رحنا نشكل فريقين. أحدهما ناقص. تبادلنا الأدوار بقذف
كرة ماكدونالدز على هرم الحجارة السبعة. تناثرت على الأرض مثل
بناء مقصوف. دفع واحدنا الآخر لالتقاط الكرة. تمرغنا بالتراب
والعشب الجاف مثل قطط الشوارع. يرمي واحدنا بالكرة يصبوها إلى
رأس الآخر في خروج مجنون على قوانين اللعبة. ركضَ فهد يضحك.
تبعه صادق يضحك. لحقتُ بالإثنين غارقا في العرق والضحك.
انتقلت الكرة من الأيدي إلى الأقدام. ركلها فهد بعيدا. أخذا يجريان
نحوها. تقمّصتُ خالد الحربان. صرتُ أُعلّق على أداء فهد بصوت
مرتفع: "مُؤَيّد الحدّاد معاه الكرة.. يعدّي.. يروح..". سدّدها بركلة
قوية. مرّرها بين رجليّ صادق. "قوووووووول! الله الله الله مُؤَيّد
الحدّاد.. يا سلااااام!". ألقينا بأجسادنا المتعبة على التراب نلتقط
أنفاسا غالبها الضحك والسعال. اعتدل فهد في جلسته يمسك أسفل
ظهره يتوجّع. أعاد لي صورة قديمة لأبيه مقرفصا على الأرض.
خرجت كلماتي من فورها أنصحه بالألا يستحمّ ليلا. مزحةُ أمي
حصّة لأبيه قبل سنوات طويلة لم تدفع حفيدها اليوم للضحك. امتقع
وجهه. قطّب صادق حاجبيه في حزن. دفع فهدا لأن يتحقّق من
صندوق الرسائل الصوتية في الهاتف. أمسك فهد بهاتفه. لم يكن

صوتك حاضرا في صندوق الرسائل يا حوراء. اغتصب زوجك
ابتسامة: الصندوق ماله مفتاح! خالط حزن ملامح فرح يرسم حيننا
على وجه أخيك. "ياااااه!"، قال صادق قبل أن يسأل فهد:

- "شنو اللي ذكرك بالأغنية؟!"

تلقت فهد حوله. قال:

- "هو نفسه اللي ذكرك بالحديقة.."

واصل صادق ترديد الأغنية. يفتح فمه على اتساعه مثل طفل لا
ينقصه حماس: "والمفتاح عند الحداد". شاركه فهد صارم الملامح مثل
عبدالكريم: "والحداد يسي فلوس". ما كادا ينهيان أغنيتهما: "والمطر
عند الله"، حتى فتح صادق أكياس الطعام. رحنا نأكل بشهية أطفال
جوعى. لم نجتمع نحن الثلاثة على هذا النحو، متحررين من كل
شيء، ديوانيتنا ومقرنا وبيوتنا، منذ تركت السرة عام 1997، قبل
ثلاثة وعشرين عامًا. صار واحدنا يتحقق من ذاكرة الآخر. هل
تذكر أبا سامح وأغنية عبي لي الجرة؟ طبعاً، وأنت.. هل تذكر
أمي زينب تدفع عربة السوق المركزي على الإسفلت؟ مشاجرتنا
الأولى. مدرسة النجاح. الأستاذ دسوقي ذو الشفتين الغليظتين.
الأستاذ مرفف. مجمع الأنبي ومكتبة البلور ومجلة الرياضي. قصص
أمي حصّة وجلوسنا في الحوش وقت انقطاع الكهرباء سبتمبر 90،
ونجم سهيل، في مثل هذا الوقت تماماً، قبل ثلاثين سنة. بطولية
الصداقة والسلام. بيت الزلمات. الحبال والقمبار وسوق الذهب في

البصرة. فوزية والشوكولاتة واعتكافها في غرفتها تقرأ روايات إحسان..".

- "آنا؟!"

تقاطعني فوزية تسأل وقد لفتها اسمها في حديثي. يلتفت إليها أيوب وهوراء. أجيبها: "أنت". تضيق عينيها الباهتين تقول إنها لا تتذكر عدا ما كنت أقرؤه لها. أذكرها. فوزية! روايات إحسان عبدالقدوس. كنت تقرأينها. يوم كنت مبصرة. تتسع عيناها. كأنها تحاول أن تتذكر. تشيح بوجهها بعيدا. تطأطي: لم أكن مبصرة في حياتي. أنظر إلى وجهها لا تسعني الكلمات أرد. تشير بسبابتها إلى أذنها: "كمل القصة". أسألهما باهتا: "أي قصة؟". تجيب: "قصة فهد وصادق". أكمل قصتهما ناظرا إلى وجهها:

"سألني فهد عن مسودة روايتي إرث النار وقت تحدثنا عنك وروايات إحسان. لم أجبه وأنا متكئ منذ بدأت في كتابتها. منذ قررت أن أكتبنا عراة كما نحن؛ فهد وصادق وأيوب وضاي وأنا. من دون أقنعة تركي ومهدي ومشعل وعبدالله وجابر التي دأبت على الاختباء وراءها. انتبه صادق إلى تحفظي. ابتسم وهو يمسك ساندويتشا، يقول: أتدريان ما أشتهي؟ لم ينتظرا نخمنا. أجاب: سندويتشات جابر المصري؛ معكرونة بالكاتشاب. ضحك فهد في حين أطبق الحنين شفتي. أجابه ساهما: وأنا أشتهي طبخ أمي حصّة مع أجارها الحاذق. رن هاتفه باتصال من خالتي عائشة. قلقة عليه وقد قاربت ساعة الفجر رابعتها. طمأنها، وهو ينهض من الأرض،

يزيل نتفَ الحشائش عن دِشداشْتِه، بأنه سوف يعود إلى البيت على الفور. قال قبل أن ينهي المكالمة: "يُمّه.. مشتهي مطبّق سمك". أنهى مكالمته ينظر إلينا: "غداً اليوم مطبّق سمك". خربش الهواء بكفّه: "مياااو!".

الفصل الأول

أكثر من ثلاث سنوات مضت منذ العملية الجراحية التي احتفت بها حوراء. أخبرها طبيبها باستعداد جسدها للحمل. ووفق خطة علاجية تحت إشرافه أنجبت في 2012 ولدين توأمين. صارا دافعا مضاعفا لفهد، أكثر من أي وقت سبق، كي يؤمن بأهمية جماعة أولاد فؤادة، وقد مضى على تأسيسها قرابة الأربعة أعوام. "عشان عيالي"، كان يقول. عمدنا في السنوات الأولى لنشاطنا، كل من خلال برنامج الإذاعي وصفحته على الإنترنت، الاقتراب من الناس باستشارة حنينهم. لم يكن الماضي مثاليا، لم نكن في حاجة للتذكير، ولكنه كان أفضل مما صرنا إليه. عملتُ على إعداد وتقديم برنامجي "حنين". أسمى صادق برنامجي "أنا التاريخ كله"، كان أشد البرامج إثارة للجدل بسبب قضايا يطرحها محاولا إعادة قراءة التاريخ، وهو ما يرفض الناس إعادة النظر فيه. "حديث اليوم" برنامج منوع يغلبُ عليه طابعُ فنيّ تصدّي له فهد متكئا على أرشيف عمته فوزية. وفيما عمل ضاوي على برنامج ديني جامع، تخصصَ أيوب في بثّ النشرات الإخبارية مستفيدا من عمله في الجريدة. الطابع

القلم لإذاعتنا، والاعتماد على ذاكرة الناس البعيدة، حقاً تفاعلاً
 كبيراً. صارت كبريات شركات الاتصالات والبنوك تتسابق للإعلان
 في إذاعتنا الإلكترونية وموقعنا على الإنترنت. انتشر أسلوبنا مثل
 عدوى. اتخذت الشركات الأسلوب ذاته، عبر إعلاناتها في التلفزيون
 والإذاعة والصحف، للوصول إلى العامة من خلال ذاكرتهم.
 تسوّق خدماتها عبر استشارة الناس إلى زمان أوّل أو زمان الطيبين
 على حدّ مصطلحات صارت متداولة لا تكشف عن شيء سوى
 عطب الذاكرة الذي أصاب الجميع. وفيما كنا نذكر المتلقين بما
 يحبون، كنا نمرّر ما نريد قوله إزاء ما يغضون عنه الطرف كرهاً.
 أصابت جماعتنا في البدء قدراً لا بأس به من الانتشار. تلقاها الكثير
 من الناس باحتفاء كبير، فيما تحفظ البعض لقاء تحفظنا على الكشف
 عن أسمائنا ومقرّ تجمعنا ورفضنا الخروج في لقاءات صحفية. انشغل
 البعض يبحث لنا عن انتماء. الموالون للحكومة أسمونا معارضين.
 المعارضون أتهمونا بالموالاة. الجماعات الدينية لم ترّ فينا عدا جماعة
 خارجة. الجماعات المعادية للدين صنّفتنا حركة دينية. كنت قد
 توقفت عن نشر قصصي في جريدة الراي. أقنع أيوب إدارة التحرير
 بتخصيص زاوية أسبوعية لي لا تمتّ للقديمة بصلة. صرت أنشر فيها
 المقال تحت اسم ولد فؤادة. طالني، في البدء، هجوم شرس أخرج
 الجريدة، رغم أنني لا أكتب عدا ما يدور حولي. لا أفهم كيف
 يتعاطى القارئ مع الكاتب. يصير رقيقاً أشدّ فتكا من أجهزة رقابة.
 هم يرتكبون خطأً، أنا أكتب عن الخطأ، آخرون يلوموني
 على الكتابة!

كان عزائي بأيوب. وبأناس صاروا يؤيدوننا. لا أدري كيف صرنا تاليا، نحن السبعة، سبعة عشر.. سبعين.. أناس متحمسون تتزايد أعدادهم. طلبة جامعات وجمعيات تطوعية وناشطون، يقيمون ندوات وأنشطة فنية في الأسواق والأماكن العامة. يحملون شعار احموا الناس من الطاعون. ونحن، من بين المتفرجين، لا أحد يتعرفنا. مكوثنا، نحن الخمسة، معظم الوقت في المقر نعمل، قربنا إلينا أكثر من أي وقت. كنت أراقب ابن خالي. كثير الصمت. تغير كثيرا. يناكفه فهد يذكره: "والجهد يا شيخ؟". يجيبه، أولا، بأنه ليس شيخا. ثم يشير نحو جهاز الإرسال والميكروفون. يقول ثانيا: "هذا جهد". وحده أيوب يشعر بما أشعر. يتقدم إلى ضاوي يقبل رأسه. كلانا يدرك إلى أي مدى كان ضاوي حائرا بين إرث ثقيل حمله منذ كان مراهقا، وبين عقل متشكك يعيد النظر في كل شيء. لم يكن ضاوي في جهد إلا مع ذاته. وبقدر ما حققت جماعتنا تقدما، كانت المشاكل بين الطائفتين تتعاضد، وتصير حِمما. ثورات دول الجوار توجج النفوس في الداخل.

جلسنا أمام تلفزيون الديوانية، ذات ظهيرة، كمن يحضر مجلس عزاء. نصت إلى بيان صدرته السلطة. حملت فيه الشعب كامل المسؤولية تجاه سوء تعامله مع حريات ممنوحة. ما جلبت عليه البلاد منذ حرية التعبير حق أصيل لكن. الناس، بذريعة الحرية، أساءت التعامل مع. أحلتموها فتنة طائفية في الصحف والندوات العامة وداخل قبة البرلمان. صارت الطائفة مرجعا عوضا عن الدولة. ختم البيان: "إننا، وبخزن شديد، إزاء ما يجري اليوم من أحداث تعصف بالبلاد،

نضطر آسفين إلى فرض نظام جديد، يتوافق مع المرحلة، عوضاً عن دستور 1962، لأن أمن الكويت فوق كل اعتبار.. سائلين المولى عز وجل أن يسبغ على وطننا الغالي نعمة الأمن والأمان.. والسلام عليكم ورحمة..". شهدنا تظاهرات لا قبل لنا بها قط. أمام المساجد والحسينيات، في الديوانيات والشوارع. ولأن المصيبة، على دأبها، تنجل أن تُقبل وحيدة، جاءت تجمُّر أصحابها. تدهور أسعار النفط. شدَّ الحزام وفرض ضرائب على. زيادة أسعار الوقود. وقف دعم المواد التموينية. تخفيض رواتب موظفي الدولة إلى ما دون النصف حين. سعر الدينار الكويتي لأول مرة إلى ما دون.

وفيما كنا ننتظر رد فعل حكومي إزاء فوضى عارمة عصفت بالبلاد، خيم الإحباط على الجميع، وقد علّق مجلس التعاون الخليجي جلّ اتفاقياته. وقت اضطرار دولتين، من الدول الأعضاء، لفرض التأشيرة على المواطنين الكويتيين لقاء توافدهم في ما يشبه اللجوء، بحثاً عن مكان آمن لا يبعد عن الكويت كثيراً. وفيما انسحبت دولتان إثر خلافات على إنتاج حصص النفط، لا يزال الإعلام، إذاعة وتلفزيوناً، يث أغنية قديمة: خليجنا واحد.. وشعبنا واحد! وعندما سخر فهد، في حديث اليوم، من أغنية لا تشبه الحال، تم استدعاؤه من قبل وزارة الإعلام: "إنذار أخير.. أو يُحجب موقعكم الإلكتروني ويُعلّق نشاطكم!". جاء الإنذار أخيراً قبل أن يسبقه إنذار أول أو ثان. كانت ضربة موجعة لأولاد فؤادة وأنصارهم. كنا نختنق ببطء منذ فرضت الحكومة رقابة مسبقة على الصحف بعد حل البرلمان حلاً نهائياً، بصورة أسوأ مما كنا عليه في منتصف ثمانينيات القرن الماضي.

مضت الأيام سريعة والتوأم، أو حفيدا فؤادة، كما يسميهما فهد وهوراء، يكبران بسرعة. لا يتخلفان عن معظم جلساتنا في الديوانية. يُنصتان إلى أحاديثنا عن الحوش القلم بلهفة. لا يكفّان الأسئلة عن جدّتي أبويهما، حصّة وزينب.. من أجلهما وحسب كتبت سلسلة ابن الزرزور. ومن أجلهما رَسَم صادق لوحات القصص كما وصفتها العجوز قبل سنوات. ومن أجلهما صار فهد يقرأ عليهما القصص كلّ ليلة قبل نومهما. يُبدل ببعض الكلمات العربية كلمات إنكليزية يفهمها الولدان.

صرتُ آخذ الصغيرين إلى البحر كل أسبوع، وقت بلغا خامستهما، مشرطا عليهما ألا يحدثاني بالإنكليزية. أبدا أبويهما تخوفا من تعلّقهما بالأجهزة الإلكترونية، ولم يقلقهما أن الولدين يتحدثان عربية تشبه الرموز. كنت أجد متعة خالصة في صحبتهما. لا أدري لها سببا. علاقتي بالصغيرين دفعت فهذا يسألني مرة أولى أخيرة:

- "متى نشوف عيالك؟".

هو السؤال الذي ما انفكت أُمي تردّده. وهي إجابتي التي لم أفضّ بها يوما وأنا أقفُ على شفا دولة:

- "لما أتطمّن على باكر..".

سرح فهد بعيدا ولسان صمته يقول: "ما راح نشوف عيالك".

ذات ظهيرة، أمضيتُ مع الصغيرين وقتاً على أحد شواطئ سلوى. بين البحر والمراجيح لعلّي أبعدهما عن أجهزة إلكترونية أدمناها. أهرب من جوّ خائق يُخيم على البلاد بصحبتيهما. أحب أسألتهما على كثرتها. أحاول فكّ رموزها إن طعّماها كلمات إنكليزية أجهلها. وأحب أني لا أدري أيّهما من؟ يُشبه واحدهما الآخر مثل ولدٍ وانعكاس صورته على المرآة. توأمان تَخْلَقا في مشيمة واحدة. رضعا من ثدي واحد. لهما الوجه ذاته، والصوت والحركة والأسئلة. لا تنقصهما شقاوة. كلّما سألتُ أحدهما من يكون، أجاب باسم أخيه. يُمهلاّني أفرغ من حديثي موجهها كلامي إلى واحد وأنا أعني الآخر. ينفجران معا في ضحك مجنون: أنا لستُ هو.. أنا أنا!

- "عمي.. إحنا شنو؟"

ألقي أحدهما سؤاله وهو يجري نحوي ينفض التراب عن سروال السباحة. استفهمته. تردّد أخوه قبل أن يوضح:

- "إحنا مثل أمي والا مثل أبوي؟"

لو أن أمي حصّة هنا. بماذا سوف تجيب؟ نظرتُ إلى السماء:

- "حبيبي! إنت مسلم وخلاص.. والرسول يقول.."

تدخل أخوه مقاطعا. يتوسل إجابة لآخر سؤال:

- "الرسول.. مثل أبوي والا مثل أمي؟"

لذتُ بساعة معصمي. فُضتُ:

- "نروح البيت..".

أمسك أخوه بذراعي وعلى وجهه رجاء لسماع إجابتي وهو
يقسم بأنه آخر آخر سؤال. مدَّ سيَّابته الصغيرة إلى الأعلى:

- "الله سبحانه وتعالى.. شيعي والا سني؟".

تقلَّصت أمعائي. خِلْتُ السماء تهتز. رأيتُ كفَّ والدتي ترتفع
مهددة. أشفقتُ عليَّ وعليها في موقفٍ مضى قبل زمن طويل:

- "استغفر الله.. حبيبي إنت تقول الله سبحانه وتعالى..

يعني الله أعلى من الاثنين وأعلى من كل شي".

- "أستغفر الله".

- "عَفِيه على وليدي".

ألقيتُ منشفتين على جسديهما أَدفعهما أمامي إلى السيارة.

في طريق عودتي إلى الروضة. سلوى عن يميني والبحر عن شمالي.
الصغيران في المقعد الخلفي. صوتٌ وقور في الإذاعة يتحدث عن فِرَق
وطوائف الجن. هذه الطائفة أكثر صلاحاً. الطائفة الأخرى أشدُّ
فساداً. أسكتُ المذياع وأنا لا أعرف من الجنِّ عدا ساكنات السُّدرة
المخلصات. مدَّ أحد الصغيرين ذراعه بين المقعدين الأماميين. يشيرُ
نحو لافتة تصوَّبُ سهماً إلى شارع المسجد الأقصى يمينا. يدريني
منزعج. وعدني بأنه آخر آخر سؤال:

- "عمي.. المسجد الأقصى في سلوى؟!".

- "لأ يا حبيبي.. في القدس".

أطلّ أخوه برأسه بين المقعدين. قَرَّبَ وجهه إلى وجهي رافعا
حاجبيه مبحلقا بعينه الواسعتين مثل عيني أبيه صغيرا. سألتني آخر
آخر آخر آخر سؤال:

- "القدس؟!.. وين هذي؟!".

* * *

يحدث الآن 11:30 PM

"أنت متأكد أنه قال لخالتي عايشة إنه يشتري مطبق سمك؟!!"
تسأل حوراء مبحلةً وكأن في الأمر مصيبة. أهز رأسي. أواصل
ما توقفتُ عنده:
"تمهله صادق. ما زلنا في أول السهرة! اعتذر فهد متعللاً بقلق
خالتي عائشة. ولكي تنام أمه: "لازم أرجع البيت"، قال وهو
ينصرف. ما كدنا نقطع الشارع حتى انتبهنا إلى مجموعتين من
الشباب، في الساحة الترابية، حيث تركنا سيارتنا. سبعة. ثمانية. أو
ربما عشرة. لا أتذكر. ظننتُ، وأنا أحمل سنواتي العشر خارجاً من
الحديقة، بأنهم يحضرون لاحتفال ألعاب نارية بمناسبة إتمام الهدنة
يومها الأول. جلّهم مراهقون وبعضهم في منتصف العشرينيات.
أكبر، ربما، بقليل. تبيّنتُ وجوههم. أسلحةٌ في أيديهم لا تنبئ بشيء
سوى قرب وقوع مشاجرة. راح صادق وفهد صوب سيارتيهما في
حين وقفتُ أتابع ما يجري في الجوار. احتدم النقاش بين اثنين من
الشباب. يا كافر. يا ملعون. يا رافضي. يا ناصبي. أنتم. نحن.
سريعاً صار الحوار بالهراوات والخنجر والزجاجات الفارغة. التفّتُ
إلى فهد وصادق أدعوها لفعل شيء. أي شيء. هل كنت مخطئاً
يا أيوب؟ فهد في سيارته. وقتَ أدار محرّكها، أنزل زجاج النافذة:
"خبول!". فتح صادق باب سيارته يهيم بالركوب. صحتُ به:

"صادق!". أدار رأسه ينظر إليّ من وراء كتفه: "يعني نموت عشان شوية فيران؟!". لعنّتهما في سرّي. ركضتُ نحو الجمع. غصتُ في الغبار. صحتُ أذكرهم بالهدنة. الهدنة يا شباب الهدنة! أنت تفهم دافعي يا أيوب. وحدك تفهم. قل إنني كنتُ على صواب. ارتفعت نداءات صادق وفهد ورائي: تعال يا مجنون! توغلتُ في الجنون أكثر. دفعتُ واحداً أبعدَه عن آخر. حلتُ بين هذا وذاك. مسحتُ وجهي بظهر كفيّ أزيل بصقة. يا ناصبي. لستُ ناصبياً. يا رافضي. لست رافضياً. تعالت الصيحات. عُمَر. عُمَر عُمَر عُمَر. هيهات منا الذلّة. هيهات منا الذلّة. أتذكر صرخاتهم كأنني أسمعها الآن. لا تنظروا إلى رعشات كفيّ. لو كنتما معي لفهمتما. فطيع ما جرى فجر اليوم. فطيع. كنتُ خائفاً. كنت خائفاً على.. على.. لا أدري ولكنني لم أكن خائفاً عليّ. أنت تصدقني أيوب. حوراء أنا.. أنا لم أقصد أن أتسبّب لك بخسارتين. لم أفكر بأن الأمور سوف.. سوف.. أنزل أحدهم هراًوته على ركبتي. سقطتُ أرضاً. لكمي فوق حاجبي الأيسر. وجدّتي بين صادق وفهد يسحباني على التراب بعيداً. أسندا ظهري إلى سيارتي. راحا يركضان إلى الجمع. صرختُ بهما مستوعبا خطورة الحال: "تعالوا يا مجانين!". جاءني صبيّ صغير يجري حاملاً مفكّ صواميل والدماء تسيل من رقبته. يبدو مذعوراً. أشفقتُ عليه. أسندتُ كفيّ إلى الأرض أدفع جسدي للنهوض. لا تقلق. أرنى الجرح. رفع يده بالمفكّ عالياً. حاولت تحاشي الضربة ولكنه سدّها بالمفكّ قوية على شفتيّ. مادّت بي الأرض. أتذكرني أبصقُ دماً. أسعل بقوة كأنني أغص بحجر. ركب الصبيّ سيارة. تمايل بقيادتها.

اصطدم بسيارتي قبل أن يفرَّ هارباً. بالكاد وقفتُ أغالب دواراً خلَّفته
ضربة المفكِّ. أبحث عن صاحبي. أرهف سمعي أتتبع صوتيهما في حلبة
الغبار. ولا صوت عدا: يا أبناء الحرام، يا خوارج، يا وهايية،
يا فرس، يا خنازير! كان الأمر مفاجعاً. رجال دين، نالوا ما يشبه
قداسة، يُشتمون بأقذع الألفاظ. لا علاقة للشجار بشعور الفجيعة
الذي شلني. الصراخ والاتهامات بصوتي فهد وصادق كانت وراء
فجيعتي. واحدهما يصرخ في وجه الآخر. أسندتُ جسدي إلى
سيارتي. صرتُ أصفعني هكذا. هكذا. لا لا. أشدُّ من هذا. هكذا.
لعلني أستفيق من دوارٍ ألم بي. لعلَّ ما سمعته بغير صوتيهما ليس
إلا. بقي جسدي ثقيلاً ورأسي يدور. انسلَّ كلُّ منهما بعيداً عن
الجمع يواصلان شجارهما. اشتبكا بالأيدي. أبوك عبَّاس. أمك
عائشة. يا خرا. يا خنزير. تحاملتُ على ألم ركبتِ أجرَّ خطواتي
العرجاء صوبهما. صرختي مخنوقة تمزَّق حنجرتي بسِنِّي العالقة.
يا كلب انت وياه. يا عيال الكلب. يلعن أبوكم. بس. بس خلاص.
فهد! صادق! سمعتُ صوتي مكتوماً في أذنيَّ يصاحبُ صفيراً يُعد
أصوات الساحة الترايية. تلفتُ فهد إلى الأرض حوله. يبحث عن.
عن حجر. انحنى على الأرض يحمل واحداً بهذا الحجم. لا لا. بهذا
الحجم. أكبر بقليل. هوى صادق بقبضته على ظهر فهد. ركضتُ
صوبهما أصرخ لا. لا لا. رفع فهد يديه عالياً. كنت. كنت أركض
قفزاً على رجلٍ واحدة. طارت نعلي بعيداً. سقطت على الأرض
مقلوبة. أيوب. حوراء. لا تنظران إليَّ هكذا. أنتِ تفهميني فوزية.
أنا. أنا حمار أعترف. رحت نحو النعل أعدّها. لا أدري بأي دافع

فعلتُ. وفاءً لأمي حصّةً أو خشيةً وقوع السماء. لا أدري. تابعت
الركض إليهما ولكن. ولكن. كان فهذا قد أنزل الحجر على رأس
صادق. ربما كتفه لست متأكدا. سقط أرضا ودمأؤه ترسم خطاً في
الرمال. لو أنني لم أركض نحو نعلي المقلوبة لربما! أتذكر فهذا يرفع
ذراعيه عالياً. ثم. ثم أسند كفيه إلى رأسه. انحنى على صادق يهزّه.
يصرخ به: "يا حمار لا تموت.. صادق صادق!". كنت على ركبتيّ
أبكي مثل طفل بلا حيلة. أبكي كما أنا الآن. ركض فهد نحو
الشارع يشتم نفسه. صرخ أحدهم ورائي. يا ابن الزانية. ضربي
بشيء على مؤخرة رأسي. لا أدري ماذا. أتذكر الأصوات تحبو على
صوت احتكاك عجلات سيارةٍ بالإسفلت مقابل الحديقة. والصورة
في عيني تنطفئ على صادق يحبو فوق التراب نحو سيارته. ورجل
بدشداشةٍ في منتصف الشارع يطير في الهواء. لست متأكدا. ربما هو
شخصٌ آخر غير فهد".

- "خالتي عايشة كانت في مستشفى مبارك مع عمّي
صالح..".

تقول حوراء ودموعها ملء وجهها. أنقل نظري بينها وبين
أيوب أستفهمهما. تستطرد حوراء وسط نשיجها:

- "حادث سيارة في الروضة..".

يُكمل أيوب:

- "أقرب مستشفى للروضة.. مستشفى مبارك.. الجابرية..".

تنهض حوراء تذكرني. عودة خالتي عائشة من المستشفى حيث
عمي صالح. خروجها ثانية بقدر مطبق السمك. تصرخ بعلو صوتها
تفزع الصغيرين.

- "كل هذا وما فهمت؟!".

يلتصق التوأمان بأُمهما:

- "ماما.. وين راح أبوي؟ وين راح أبوي؟".

صاحت بنا حوراء:

- "شنو تنظرون؟! فهد في مستشفى مبارك!".

* * *

الفصل الأخير

في الروضة كنا. في ديوانيتي المظلة على شارع شهاب أحمد البحر، وقد أُزيلت لافتة أبي حيان التوحيدي منذ سنوات، وصار الشارع شارعًا جديدًا، مثل شوارع كثيرة، بلا ذاكرة تحتويها. أتذكرني يوم أُزيلت اللافتة أستعيد كلماتٍ لأبي حيان حفظتها في مراهقتي: الغريب الذي لا اسمَ له فيذكر!

فيما يلهو الصغيران على الرصيف أمام البيت، كنا نحضّر لاعتصامنا السلمي الثاني "آتية 2"، ضمن سلسلة اعتصاماتٍ حضرنا لإقامتها في الساحة المقابلة لمبنى البرلمان المقفل. كنا لا نزال نعيش نشوة الاعتصام الأول "آتية 1"، قبل يوم من وقتنا ذاك. اعتصام تناقلته وكالات الأنباء صار حديث الناس لأيام. خرج المعتصمون أوفاء، رغم برودة الطقس في مساء شتوي، يندّدون بتصرّيات أدلى بها نشطاء دينيون متشدّدون في شبكات التواصل على الإنترنت، أدّت إلى اشتباكات في مناطق عدة، راح ضحاياها شباب متحمسون أعماهم التطرف. احتشد الناس في الساحة بعد مغيب الشمس. يتزاحمون مثل حجاج. ترتفع همهماتهم وتخبو مثل هدير بحر. نساء

ورجال. شيوخ وعجائز وأطفال. يتقدمهم، في الصفوف الأولى،
شيوخ دين وشعراء ونجوم تمثيل وغناء ورياضة أحبينهم صغارا.
بعضهم من شدة حماسه تخاله صغيرا لا يزال. بعضهم معتزل فاجأ
الناس بمشاركته بعد انزوائه بعيدا عن الأضواء. البعض الآخر أصرَّ
على الحضور رغم اعتلال صحته. دفعهم سوء حالنا إلى الخروج.
الشاعر خليفة الوقيان يقفُ بـ بِشته الشتوي عاقدا ذراعيه أمام
صدره غارقا في الصمت، ربما لم يتعرفه الناس، إلا أنهم يردّدون أبياتا
من قصائده كنا نتكئ عليها في إذاعتنا. عبدالكريم عبدالقادر لا يقف
بعيدا عنه. يستندُ إلى ذراع ابنه وعلى وجهه غضبٌ لا يُشبهه، يتحلّق
الناس حوله يردّدون أغنيته وطن النهار. وفيما أضحكنا عبدالحسين
عبدالرضا طيلة حياته، أبكنا يوما ذاك. بدا مُتعبا. بشاربٍ أبيض لم
نألفه. ملقيا غترته على رأسه بإهمال. اكتست ملامحه جديةٌ وحزنا.
استند إلى جذع نخلة ينادي بحرقه وقد تغير صوته كثيرا: "بسي
نعيش!". يقترب منه شابٌ. يقبلُ رأسه. يرجوه ألا ينفعل، وقد
بدا منفعلا متقمصا نفسه في دور تراجيدي حقيقي لم نشاهده به
قبلا على خشبة مسرح أو شاشة تلفزيون. مُؤيد الحداد يجلسُ
على رصيف قريب، يجاوره خالد الحريان، يضمُّ كفيه أسفل ذقنه
يراقب الجموع ساهما. لا يوارى فزغا يطلُّ من عينيه على غدٍ
مجهول. وقبل انتهاء اعتصامنا بوقت قصير، ظهرت محظوظة
ومبروكة، حياة الفهد وسعاد عبدالله بثياب سوداء، تُمسكُ واحدتهما
بيد الأخرى. تردّدان نداءات زميلتهن نزيلة مستشفى الطب النفسي:
الفئران آتية.. احموا الناس من الطاعون! أتذكرنا وسط الحشود ينظر

واحدنا إلى الآخر والدموع تفرُّ من عينيه. فهد وصادق وأيوب وضاي، وهوراء تحمل هاتفها، تتصل بفوزية، تُسمِعُها هتافات الناس.

كنا نسترجع مشاهد اعتصامنا الأول، في الديوانية، وقت انشغال أيوب بنشر إعلان الاعتصام الثاني، عبر شبكات التواصل في الإنترنت. اقتحم التوأمان الديوانية بوجهين باهتين يسابق واحداهما الآخر. يسألان والدهما عن طير أسود يحطُّ على سور البيت. طير أسود الريش والمنقار والساقين. أجاهما فهد ضاحكا بأنه غراب. قطبا حاجبيهما. وضَّح لهما بالإنكليزية Crow. هزَّأ رأسيهما ينفيان. قالا بأن للطير عينين دائريتين في منتصف وجهه، ورأس كبير يعلوه ما يشبه أُذنين مثل أُذني القط. لم يتمالك صادق نفسه يضحك إزاء وصف القط وهو ينظر إلى فهد يرقصُ حاجبيه. قال: أولاد المدارس الأجنبية! في مثل سنِّهم كنا نعرف كل أنواع الطيور، المقيمة والمهاجرة. ابتسم وهو يقول للصغيرين بأن ما شاهدها هو طائر اليوم. أردف يكوّر شفثيه ينطقها بإنكليزية مفخّمة: Owl. هزَّأ رأسيهما يمدّان ذراعيهما أمامهما مشدودتين، مثل تحية هتلر، يقولان: هذا ارتفاعه! وجدتي أضحك: إذن هو العقاب! ولسوء حظكما لا أعرف اسمه بالإنكليزية. رنَّ هاتف أيوب باتصال من الجريدة فيما كنا نختلف على ماهية الطائر الأسود. أوما برأسه جاحظ العينين من دون أن يفوه بكلمة عدا: "إنت متأكّد؟!". ملامحه تقول إن الأخبار التي ينقلها المتصل أكيدة. أنهى مكالمته يمرّر نظره على وجوهنا وقد اصفرَّ وجهه: "مجمّع الآفنيوز.. راح!". لم يُتمَّ حديثه حول تفجيرات

ضخمة، دكَّت المجمع التجاري العملاق وقتَ ذروته. قاطع نفسه:
بدأت!

صرخ به فهد غاضباً:

"إشاعات.. إشاعات!"

نمت

نوفمبر 2017

يحدث الآن 12:00 AM

تتمتع حوراء بآيات قرآنية محتضنة ولديها في المقاعد الخلفية. فوزية صامته. حصّة تراقب من النافذة خوفَ ظهور ملثمين يعترضون طريقنا. إشارة الوقود، خلف المقود، تومض تنبّهني إلى فراغ الخزان. أتجاهله صاغرا وصور النيران تشتعل في محطات الوقود تبرق داخل رأسي. وفيما أمسكُ بمقص الأسلاك أخفف سرعة سيارتي محاذة سور الشباك المعدنية، يذكرني أيوب: "مدخل شارع تونس". دخان الجبال النارية لا يزال، ولكن من دون نيران تشتعل. نساء ورجال عند المدخل، يحمل بعضهم مصابيح. يُضيء البعض الآخر الطريق بإضاءة السيارات، في حين يزيح البعض الإطارات المكتدّسة يفسح دربا لمرور السيارات إلى الجاهرية رغم حظر التجوّل.

مستشفى مبارك بإضاءة باهتة، تكشف عن أعداد لا قبل لنا بها من تباعة الجيَف. الساحات حول المستشفى تغص بالسيارات. نترجل إلا حوراء لا تحملها ساقاها: "خايفة". يُسندها أيوب. فيما يقود التوأمان فوزية، أمسكُ بكف حصّة نمضي نحو البوابة. شباب يعترضون دخول الطيور السوداء. يحملون رماحا كالتّي حملناها في القُمبار. لا نكاد نتجاوز بوابة المستشفى، بحماية الشباب، حتى تُفلت الصغيرة يدها من يدي. تركض في الفوضى. أناديها: "حصّة!". تتجاوز جرحى يفترون الأرض. أتبعها بعيني. تختفي. قاعة الانتظار

حول ركن الاستقبال صارت غرفة عمليات طارئة. أبحث عن الصبية. أجدّها تعانق شاباً متورم الوجه. بجيرة تلف ساقه. يُسندّه رجلان. تصيح: "يّه.. يّه!". الشاب بوجه متهلل. ينحني يعانق الصبية. يرفع نظارته الطبية يمسح دموعاً تفرّ سخية من عينيه. يمسك كفّيهما. يتفحصهما. يعاود عناقها يسألها عن أختيها. تطمئنّه: "بخير.. عند الجيران". تنظر حوراء إلى طفلها تنخرط في نوبة بكاء. يهدّوها أيوب يتمنى لهما لقاءً بأبيهما. أتقدّم نحو رجل بلباس الهلال الأحمر في ركن الاستقبال. أسأله عن النزول صالح آل بن يعقوب. ترفع حوراء صوتها ورائي: "فهد.. فهد صالح آل بن يعقوب". ينقل الرجل نظره بيننا. يسأل: صالح أم فهد؟ أجيبه: "الاثنين". يعالج أضرار الكمبيوتر. يجيب: "صالح في السرداب، وحدة الملاحظة، غرفة 4 عمومي". تُسند حوراء يديها إلى دكة الاستقبال تُرهف سمعها. يواصل رجل الهلال الأحمر بحثه في الجهاز: "فهد.. الدور السادس، غرفة 12 خصوصي". تنحني حوراء تُمسك ركبتيها. لا تفوه بكلمة. يميل جسدها. يتقدّم نحوها أيوب يُسندّها. يصيح بالمرضات يطلب كرسيًا متحركًا أو نقالة. "فهد في الدور السادس"، أقول له. يهزّ رأسه: "روح إنت". أركضُ أرتقي السلام متجاوزاً ألم ركبتي. الطابق الأول. الثالث. الرابع. ركضي يعود عرجاً ثقيلاً في ممرّ الطابق السادس. رائحة مطبخ قدم تخالط روائح معقمات. أقفُ أمام باب الغرفة 12 أحضّر نفسي لوجع مؤكد. أملاً صدري نفّساً كأنه أخير. أدفعُ باب الغرفة ببطء. خالتي عائشة، بعباءتها، تقتعدُ كرسيًا مقابل السرير. تمسكُ بهاتفها المحمول بيدٍ ثابتة توجّهه إلى فهد. جامدةٌ مثل تمثال. وهو ممدّدٌ على

السريـر لا يشبه فهداً أعرفه. بقعة زرقاء داكنة تحيط عينه. شفاه متورمة وفم خال من الأسنان. أجزاء من رأسه حلقة تتخللها غُرز خيوط الجراحة. صدره مكشوف تملؤه المجسّات الطبية. أنبوب أصفر يخرج من جسده يجمع سائله في كيس معلق أسفل السرير. أنبوب أحمر يدخل في وريده يعوّضه ما سال على إسفلت الروضة. ولأنني هياتُ نفسي لما هو أسوأ، تقبّلتُ صورة فهد بطيب خاطر. خالتي عائشة صلدة صامئة. تراقب شاشة هاتفها صارمة الملامح. "السلام عليكم"، أقول هامساً. لا يتحرك فيها عدا شفيتها: "هشششش——". تُردف: "فهد نائم". أتقدّم إلى السرير. أطمئنُ إلى ارتفاع صدره وانخفاضه في تنفسٍ بطيء. إصبعه موصولة بسلك جهاز منتصب إلى جواره، يصدر نغمة متقطعة لا لون لها. تُظهر شاشته خطوطاً متموجة أجهل فك رموزها، ولكنها مطمئنة على أي حال. يتمتم فهد، بصوت واهن، مغمض العينين: "أحبتي المستمعين.. أحبيكم في حلقة جديدة من برنامج حديث اليوم.. تيرا رaaa تيرااا..". يدندن لحنا لإحدى أغنيات عبدالكريم، موسيقى حضراء يلجأ إليها عادة في فواصل برنامجه. يدخل بعدها في صمت يصحبه شخير ناعم. الصفير المتقطع للجهاز يصيرُ نغمة متواصلة. يُفزعني صوتها الأحمر. يُحيل الخطوط المتموجة في شاشة الجهاز إلى خطٍّ أفقيٍّ وحيد. أهرُ جسده. تنهرني أمُّه: "الولد نائم!". تشيرُ بعينيها إلى السلك وقد فكّه عن إصبعه. تزيح هاتفها جانبا. تُمسكُ بإصبع ابنها تُثبتُ إليها السلك ثانية. تصمت النغمة الحمراء. يعاود الجهاز صفيره المتقطع، وتعود الخطوط الأفقية للظهور على الشاشة تقيسُ نبضات القلب

وأشياء لا أفقها. تستأنف خالتي عائشة التصوير هاتفها. أسألها ماذا قال الطبيب. تجيب من دون أن تبعد نظرها عن شاشة الهاتف: "هششش.. الولد نائم". أتلفت حولي. قدر طعام مُغلف بورق قصدير فوق الثلاجة الصغيرة في ركن الغرفة. أقف وراء خالتي عائشة أطلُّ على هاتفها. يظهر فهد في شاشته. أنقل نظري بين فهد على السرير وفهد في شاشة الهاتف يومض زرُّها الأحمر. يُفزعني فعلها. أنبِّهها: "خالتي عايشة..". تقاطعني: "هششششش—!". يفتح صاحبي عينيه ببطء. تتسع حدقتاه ينظر إلى أمِّه يسألها ماذا تفعل. تجيبه والهاتف أمام وجهها: "حتى إذا قمت بالسلامة.. تشوف نفسك، وتعرف طريقك وين ودَّاك!". يطلق تنهيدة يدفع بها ابتسامة. تفرُّ دمعة من عينه: "تكذِّبين يُمِّه؟". ينظر إليَّ. شفتاه على حالهما بابتسامة كسولة. يتحكم بنبرة صوته ولا يكبح شهقات تُقطع جملته: "خلاص؟ راح صادق؟". أومئ برأسي: "صادق بخير". تتسع حدقتاه: "وينه؟ ما أشوفه معاك". أربُّتُ على كتفه: "موجود.. يسأل عنك". ابتسامته بلا أسنان تحيله عجوزا. يُردف: "وحوراء.. وينها؟ ما أشوفها معاك". أشير بيدي نحو الباب: "على وصول". يقطُّبُ حاجبيه: "إحلف". أمدُّ سبَّابتي إلى السماء: "والله.. إللي رفع السما". يُغمضُ عينيه وهو يقول: "صدِّقتك". أمُّه لا تزال غائبة مع هاتفها كمن يتابع فيلما. يتمتم فهد بصوت خفيض: "أبي ماي". أسكبُ له ماءً في كوب بلاستيكي. أقرُّبه إلى شفتيه ويدي الأخرى وراء رأسه. شربة أولى بالكاد يتلعها. شربة ثانية يختلج معها ويريد في رقبته. يفتح عينيه بجفنين راخين نحو الباب. النغمة المتقطعة للجهاز

صارت نعمة متواصلة. شربة ثالثة لا تتم. يسيل خيط الماء من فمه
المبتسم على كفي. تنتبه خالتي عائشة. تترك هاتفها على السرير.
تُمسكُ بإصبع فهد تتحقق من سلامة السلك. الجهاز يواصل صفيره.
الشاشة بخط أفقي ثابت. الأرقام تصيرُ أصفارا. تفصل السلك وتعيد
تثبيته وهي تراقب الشاشة. الصغير والخط كما هما لا يتغيران. تفصل
السلك ثانية تلقيه أرضا. تمسك رسغ ابنها. تضربُ ظهر كفه كمن
يعاقب طفلا. تقبلُ باطن كفه قبل أن تسندها إلى صدره. "نام
يا حبيبي نام"، تقول ثم تدير ظهرها إليه. تخرج من الغرفة ثابتة
الخطى بغير عجلة. عيناها على الشاشة، على إصبعه، على المجسّات
في صدره، على عينيهِ الشاخصتين صوبَ الباب. تعود خالتي عائشة
بصحبة ممرضة. لا تمكث الأخيرة طويلا. تركض فور رؤيتها شاشة
الجهاز والصغير المتواصل. تعود يسبقها الطبيب. تناوله حقنة. يغرسها
في الوريد. تناوله صاعقا كهربائيا. يزيل المجسّات عن صدر فهد.
يثبت الصاعق إلى صدره. ابتسامته على حالها. وعيناها صوبَ باب
الغرفة رغم الصدمات الكهربائية. "البقاء لله"، قال الطبيب. غابت أم
فهد في خيالاتها قبل أن تهزّ رأسها: "إنت ما تفهم!". يبدو الأمر
مألوفًا للطبيب. لا يفوه بكلمة. تكررُ أم فهد على أسنانها. تحملق فيه:
"إنت طبيب؟ أنا ما أسرحك بعنم!". تشيرُ نحو الباب: "إطلع برّه!".
يلتفت إليّ: "شدّ حيلك"، يقول قبل أن يدير ظهره تتبعه الممرضة.
تمضي أم فهد ببرود نحو الباب توصلده. تزيج عباؤها. تكورها. تلقيها
يأهمل على الكرسي. تشمرُّ عن ساعديها. تحمل قدر الطعام من فوق
الثلاجة. تسنده إلى صدر فهد. تزيل ورق القصدير بعناية. تناولني

غطاء القدر: "إمسك". أمسكه ورائحة مطبخ تينا القلم تنتشر في
الغرفة. تقرّب خالتي عائشة شفّتها إلى أذن ولدها همس: "فهد..
حبيبي اصحى.. مطبّق السمك جاهز". تلّس كفّها في الرزّ داخل
القدر. تقطع جزءا من السمكة تنتقيه بحرص. تضحك. تردّد لازمته:
"مياو!". تقرّب كفّها إلى شفّته: "ياالله.. بسم الله". لا يُيدي حراكا.
تخرج كلماتي مخالفة ليقيني:

"خالتي.. فهد نام..".

تومئ برأسها:

- "أدري.. بس لازم يصحى.. الأكل صار بارد.. وهو
يحبّه حار..".

تهزّ رأسها وعيناها بلون الدم. تستطرد بيّحة يشوبها صوت:

- "حار.. مثل قلبي..".

ابتعدُ عنهما. أسند ظهري إلى باب الغرفة. عينا فهد موصبتان
إلى الباب. إليّ. تلّس أمّه أصابعها في فمه. يرتفع صوتهما: "إكل!".
يرتفع صوتهما أكثر:

- "إنت قلت لي مشتهي مطبّق سمك!".

تصرخ به وأصابعها بين شفّته:

- "إكل! إكل! إكل!".

ترفع كفها عاليًا يبقايا الرز والزيت. تُنزلها على وجهه صفعًا:

- "تحسب إنه على مزاجك تموت؟! أذبحك، والله أذبحك إذا متّ وخليتني!".

تُدخل كفها في قدر الرز. تحشو فمه. تصفعه. تمرّر أصابعها بين خصلات شعره تشدّه. عيناه صوب الباب ثابتتان. تدفع القدر عن جسده تسقطه أرضا. تمسكُ بخناقه تهزّه. تضرب صدره بقبضتيها. تسند رأسها إليه. تطلق أنه أخاها لا تنتهي. أنه طويلة تشيعني إلى آخر الممر: آلاه.. وا حرّ قلبي حرّاه!

أهبط السلام مسرعا. أسقط متعثرا بعرجي. أشتّم ساقِي. أدرك الطابق الأرضي. تمسك حصّة بيدي. تجرّني إلى أبيها. أنقاد إليها بلا إدراك. يمدّ كفّه يُعرّفني إليه: "اسمي إبراهيم منصور". يسألني متهلّلاً الوجه: "انتو عيال فؤادة؟". أتجاوزهُ أمضي إلى ما لا أدري: "إحنا عيال كلب"، أقولها بصوت مسموع، يشدّني اسمه إلى اسم لم ينجح خالي في جعله ساتراً بينه وبين مصيره قبل سنوات طوال. يجري الصغيران إليّ يتعلّقان بدشداشتي. يسألني واحدهما. يكرّر الثاني سؤال الأول: "عمي عمي! وين راح أبوي؟ وين راح أبوي؟". يصيح بسي أيوب منادياً عند مدخل غرفة الطوارئ. يجلس جوار فوزية. لا ألفتُ إليه. يتبعني: "شلون فهد؟". أجيبه متجاوزاً بوابة المستشفى: "ياكل مطبّق سمك.."، أشير بسبّابتي إلى الأعلى: ".. فوق". يرفع رأسه إلى الأعلى. يسألني متشككا: "والله؟". أجيبه ماضيا في السير: "والله". يرّن هاتفني منبها إلى رسالة: "والله إللي رفع السماء، إذا ما

تركت الكويت.. لا انت ولدي ولا أنا أعرفك!". أهم أقذف بالهاتف بعيدا لولا أتذكر صوتا أشتاقه تركت صاحبه ورائي. أصابعي تعمل من تلقاء ذاتها في أزرار الهاتف. أقربه إلى أذني: "أنا غير موجود حاليا، الرجاء ترك رسالة..". يشيعني صوت عبدالكريم في الساحة الترابية إلى سيارتي: "إرحل مع النسيان.. وبرحل مع سهيل". ألقى الهاتف على الأرض. يلتقطه أيوب. يتبعني. أطبق باب سيارتي عليّ. يدخل أيوب رأسه في النافذة يسأل: "وين؟". أدير محرك السيارة زامًا شفتي. يستدير مهرولا يفتح الباب. يجلس إلى جانبي. أكبس مداس الوقود بقدمي أتخيل رؤوسا أمقتها. أقود مسرعا بلا إنارة. أيوب يعلم. أيوب يفهم. يسأل وكأنه يجيب: "الجسر؟".

لا أحد عند حاجز الأعلام الخضراء في مقدمة الجسر في الجابرية. أتابع قيادتي بسرعة أقل. تباعة الجيف تحوم مئات في سماننا المظلمة. نعيها الجماعي يدفعني أطفئ شهوتها. أأخذ جوعها. أفتح الدرج تحت مرفقي. أناول أيوبًا زجاجة كلونيا أم بنت. يصب على إصبعه. يمررها بين أنفه وشفته يستل نفسا عميقا. أمد له كفي يصب فيها السائل الذهبي. أمرغ به وجهي. أسلحة متناثرة على الأرض مثل أطلال ساحة حرب. صرخات ترتفع في الجوار. أواصل قيادتي متمهلا. أتبين، قبل منتصف الجسر، ما تكشف عنه نيران البراميل المشتعلة. أضىء إنارة السيارة. اشتباك بينهم وهم. بالسيف وزجاجات المولوتوف والحجارة. أواصل قيادتي مسرعا. يحرضني أيوب. يصرخ: "أسرع.. أسرع!". أصدم المسوخ أفرق التحامها. تتناثر أجساد على جانبي الجسر. آخرون يرفعون سيوفهم

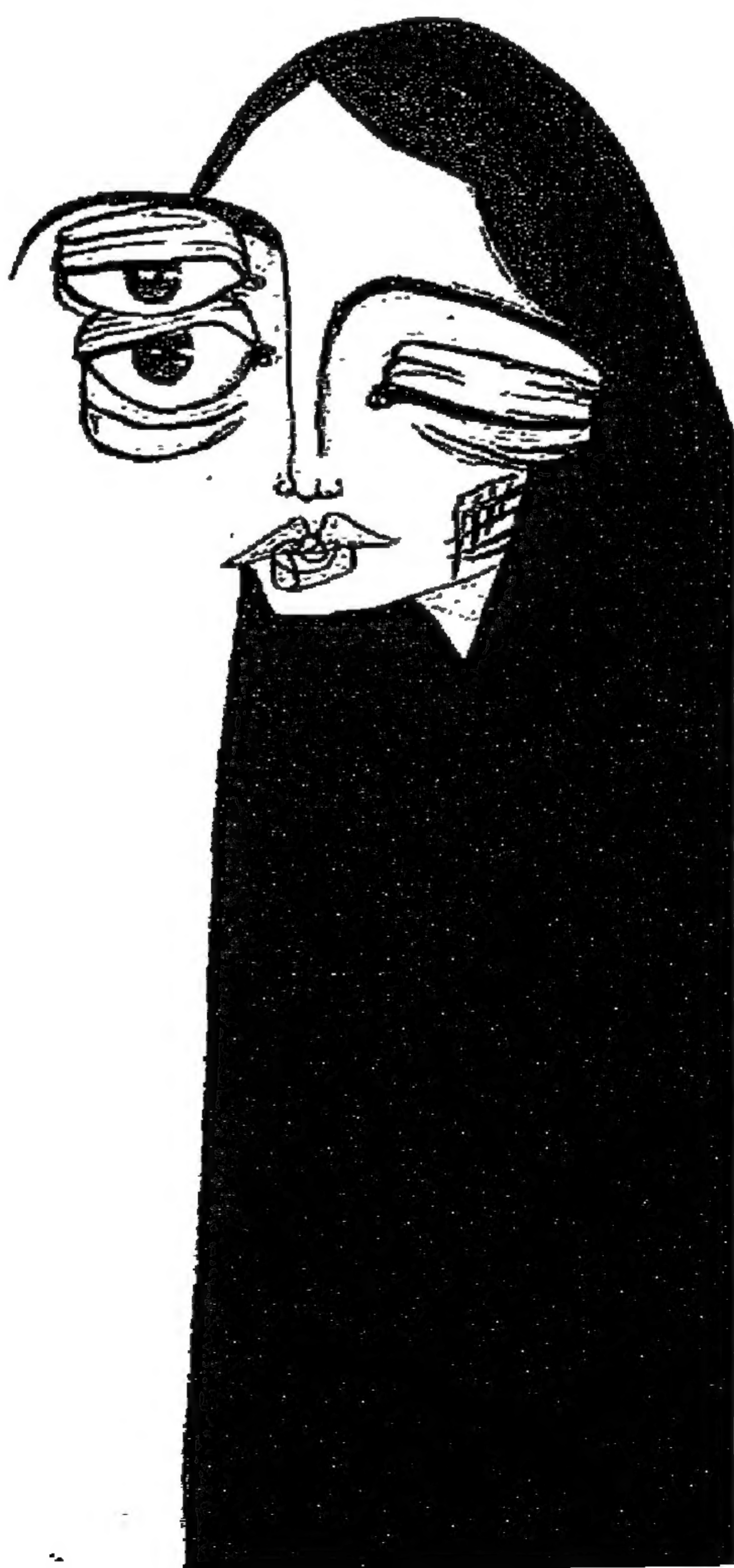
وحجارتهم يركضون وراءنا. يلتفتُ أيوب إلى الخلف. يصيح:
"بسرعة.. بسرعة". قبل نهاية الجسر، عند متاريس الأعلام السوداء في
السُرَّة، يخبو هدير محرك السيارة. يحمّد. خزان الوقود فارغ إلا من
الهواء. يفتح أيوب الباب. يلتفت إلى كائنات الجسر بوجه مذعور:
"إنزل.. إركض!". أترجل أدوس عَرَجي في مقدّمة شارع طارق بن
زياد. أتخلّص من نعليّ. لا ألتفتُ إليهما. أركض. يسبقني أيوب.
يركضون وراءنا تحرسهم الطيور السوداء تُنشد نعيها. يُبطئ أيوب.
يمسكُ بيدي. نركض سوّيا. يصيح واحدنا بالآخر: اركض..
اركض.. اركض..

يركضُ، أركضُ، تحت سماء أتمنى سقوطها. قطرات على وجهي
تدفعني أرفع رأسي عاليا. أرى بين غيوم متفرقة نجم سهيل يزرع في
البعيد، وشهابا يقطع الأفق.

تمت

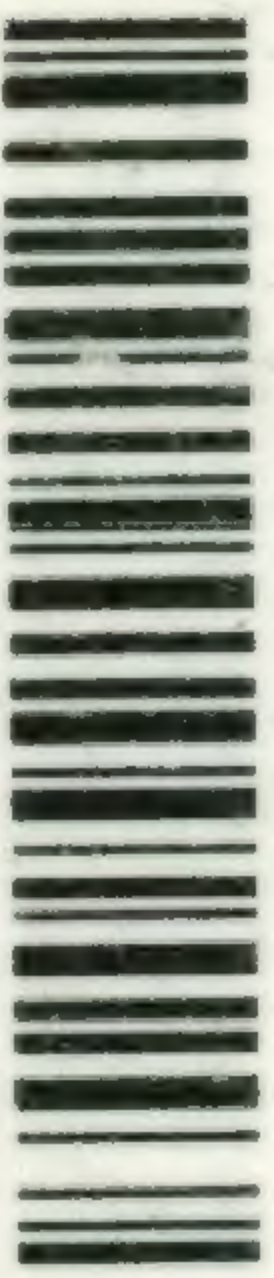
سبتمبر 2020

سهيل وصاحبه دخلت بينهما الفئران..



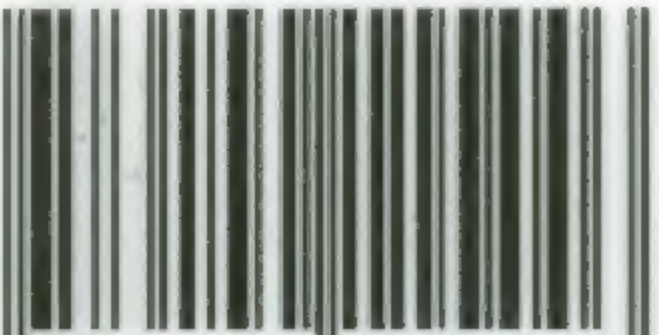
ما عادت الفئران تحومُ حول قفص الدجاجاتِ أسفل
السِّدرة وحسب. تسلّلت إلى البيوت. كتُّ أشمُّ رائحةً
ترابية حامضة، لا أعرف مصدرها، إذا ما استلقيتُ
على أرائك غرفة الجلوس. ورغم أني لم أشاهد فأراً
داخل البيت قط، فإن أُمي حصّة تؤكّد، كلما أزاحت
مساند الأرائك تكشف عن فضلاتٍ بنيةٍ داكنةٍ تقارب
حبّات الرُّز حجماً، تقول إنها الفئران.. ليس ضرورياً
أن تراها لكي تعرف أنها بيننا! أتذكر وعدّها. أذكرها:
«متى تقولين لي قصة الفيران الأربعة؟». تفتعل انشغالا
بتنظيف المكان. تجيب: «في الليل». يأتي الليل،
مثل كلّ ليل. تنزع طقم أسنانها. تتحدث في ظلام
غرفتها. تمهّد للقصة: «زور ابن الزرزور، إلي عمه
ما كذب ولا حلف زور..».

Bibliotheca Alexandrina



1240283

ISBN 978-614-01-1544-6



9 786140 115446

نيلا وفرات كوم

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات. كوم
www.nwf.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com